المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث

سمك القرش والنورس البحري

تأليف : دومينيك دو فيلبان



ترجمة

د.هاشم صالح - د.محمد مخلوف

الدوحة - ٢٠٠٥م

Dominiqe

de Villepin



LE REQUIN ET LA MOUETTE



Plon

ALBIN MICHEL

PARIS

Doha - 2005



سمك القرش والنورس البحري

تأليف

دومينيك دوفيلبان

ترجمة

د. هاشم صالح

د. محمد مخلوف

الدوحة - ٢٠٠٥م

Dominiqe
de Villepin

LE REQUIN ET LA MOUETTE

Plon
ALBIN MICHEL
PARIS

Doha - 2005

سمك القرش
والنورس البحري

سمك القرش
والنورس البحري

تأليف

دومينيك دوفيلبان

ترجمة

د. هاشم صالح   د. محمد مخلوف

إشراف ومراجعة

د. حسام الخطيب

تقــديم

منذ أقدم العصور كانت الترجمة المركبة الذهبية لتلاحم الأفكار بين ثقافات العالم ، وتبادل الخبرات بين لغاته المتعددة . وفي هذا المجال سجلت الحضارة العربية صفحات رائعات من الانفتاح الفكري على ثمرات العقل الإنساني . إذ فتحت أبوابها المعرفية للترجمة من اليونانية وغيرها من لغات العالم في العصور القديمة ، ولا يمكن أن ينسى تاريخ تشكّل الثقافة الإنسانية أن دار الحكمة زمن الخليفة المأمون كانت موئلاً رحباً لتفاعل اللغات والفلسفات والعلوم على أرفع مستوى . إن مترجمي اليوم يتمثلون دائما بحماسة المأمون للترجمة ويتحسرون على تلك الأيام السعيدة التي كان فيها المترجم يستضاف في دار الحكمةويمنح وزن كتابه ذهباً وكانت الكتب ثقيلة الوزن في تلك الأيام، وأين من تلك الواقعة المشرفة ما يحدث في أيامنا هذه من غمط لحقوق المترجمين وشبه استخفاف برسالة الترجمة .

مما يسجل للمجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث أنه أولى الترجمة منذ البدء قسطاً جلياً من الاهتمام ، وكان من بين لجانه الرئيسية «لجنة البحوث والدراسات والترجمة» التي ضمت صفوة

خبرات دولة قطر في هذا المجال . وقد قدمت اللجنة مشروعات ودراسات مختلفة للنهوض بالترجمة ، لم تُتح لها ظروف المجلس أن تتبلور في صيغة فاعلة . إلا أن المجلس تابع المراهنة على الترجمة من خلال ترجمة ونشر عدة نماذج من الإنتاج الأدبي والمعرفي القطري إلى اللغتين الإنكليزية والفرنسية إسهاماً منه في تقديم صورة قطر الحضارية على المستوى العالمي ، وفي مرحلته الحالية بادر المجلس الوطني إلى الاهتمام بالترجمة من اللغات الحية إلى اللغة العربية ، ووضع برنامجاً لمشروع متكامل بهذا الاتجاه على أن تتضمن المرحلة الثانية خطة للترجمة من العربية إلى اللغات الأخرى ، وكان لتوجيهات سمو الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني ، أمير البلاد المفدى بهذا الصدد واهتمامه الشخصي أثر حاسم في الانتقال بهذا المشروع إلى حيز العمل والتنفيذ ، وذلك نابع من رؤية واضحة وسياسة منفتحة .

ولا يخفى على اللبيب أن الاهتمام بالترجمة في المرحلة الحالية من تطور الإنسانية ينسجم كل الانسجام مع تطلعات دولة قطر إلى الإسهام في دعم مسيرة ثقافتنا العربية ، والتفاعل مع ركب الحضارة العالمية ، وتقديم صورة مشرفة أمام العالم للمجتمع القطري والمجتمع العربي بوجه عام .

وفي هذا الاتجاه عملت الجهة المعنية بالترجمة في المجلس ، وبتوجيه مباشر من سعادة رئيس المجلس ، الاستاذ الدكتور محمد

عبدالرحيم كافود ، على اختيار بضعة كتب من اللغتين الإنجليزية والفرنسيّة وترجمتها إلى العربية ، لتمثل مرحلة أولى في إطلاق برنامج واسع ومتكامل للترجمة من العربية وإليها . وروعي عند اختيار هذه الكتب ، أن تكون حديثة ، تمثل روح الحاضر والمستقبل وأن تستجيب للاهتمامات الثقافية والاجتماعية للمجتمع العربي بوجه خاص والإنساني بوجه عام ، وأن تحمل منظوراً معرفياً مُعافىً ورؤية مستقبلية .

والمأمول أن يكون اختيار الكتاب الحالي للوزير الشاعر الفرنسي **دومينيك دوفيلبان** الذي يحمل عنوان «سمك القرش والنورس البحري» استهلالاً مناسباً لتطلعات برنامج الترجمة ، لما يتضمنه هذا الكتاب من عمق في النظرة وانفتاح على الأفق الإنساني ورؤية صافية للمستقبل المنشود لخير البشرية ، وكذلك لما تتمتع به طريقة العرض من أسلوب شفاف ولغة مكتنزة بالطاقات الإيحائية وعرض جريءٍ لمشكلات الإنسانية في العالم المعاصر .

وختاماً يؤكد المجلس حرصه على دقة الترجمة وجمالها وسلاستها اللغوية ، مثلما يؤكد انفتاحه على مختلف الأفكار والاجتهادات ، مستلهماً في ذلك الروح العامة التي بثتها توجيهات سمو أمير البلاد المفدى باتجاه التقدم والتسامح والإصلاح والديمقراطية وحرية الفكر.

ويجب ألا يعني ذلك موافقة المجلس على ما يرد من أفكار أو أحكام في ثنايا الكتب المترجمة ، بل إن مسؤولية كل ما يرد في هذه الكتب تقع على عاتق مؤلفيها وحسبنا أن ننقل ثمرات الفكر الإنساني لقارئنا العربي الشغوف من أجل توسيع مروحة اختياراته الحرة، وكلنا ثقة بأنه سيختار ما يناسبه إذ لا يوجد مستقبل للإنسان بغير حرية .

والله الموفق .

المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث

الدوحة - قطر

أبريل ٢٠٠٥ م

مقدمة الطبعة العربية

دومينيك دوفيلبان

استجدت، منذ نشر هذا الكتاب في سبتمبر ٢٠٠٤، ثلاثة أحداث كبرى غيّرت المعطى الدولي وبالتالي تستحق التوقف عندها بضع لحظات.

الحدث الأول هو إعادة انتخاب جورج بوش رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية. هذا يدل على إرادة الأمريكيين في دعم سياسة جعلت من محاربة الطغيان طليعة أولوياتها. وهذا ما ذكّر به دون أي لبس أو غموض الخطاب الأخير حول حالة الاتحاد من خلال التأكيد بأن "نشر شعلة الحرية" في العالم هو المهمة الأساسية للولايات المتحدة، وحتى لو كان ينبغي عمل ذلك بالاشتراك مع دول حليفة. المطلوب، في منأى عن أية بلاغة لفظية، هو إدراك عمق المنعطف الذي يمثله انتخاب المرشح الجمهوري لفترة رئاسية ثانية. فللمرّة الأولى منذ عقود يولي الناخبون الأمريكيون أهمية أقل للاعتبارات الاقتصادية أو السياسية مما هو للاعتبارات الأخلاقية. ولقد أبدوا حساسية خاصة حيال مواضيع مثل الصف الوطني والدفاع عن الوطن واحترام الحياة،

أي كل المواضيع التي لا تحتل عادة مكانة مركزية في النقاش السياسي. وبمفارقة ليست سوى ظاهرية يلتقي الاهتمام الكبير الذي أولاه جورج بوش للدفاع عن القيم التقليدية لأمريكا مع تحليلنا حول عودة الهويات في العلاقات الدولية المعاصرة. إن أمريكا التي تريد تأكيد الحرية داخل حدودها وخارجها، إنما هي أمريكا معتزة بهويتها وحريصة على الدفاع عنها في لحظة قد تكون من أكثر اللحظات إثارة للجدل حولها.

الحدث الثاني هوالانتخابات في العراق. القول بأنها قد شكلت نجاحا بحد ذاتها أمر لا يعترض عليه أحد والجميع يجدون فيه ما يسرهم. هذه الانتخابات الحرّة التي تفتح الطريق أمام عراق سيادي، ألم تكن فرنسا في طليعة البلدان التي طالبت بها؟ ومنذ نهاية الحرب في هذه البلاد، ألم نقل دائما بأن المخرج الوحيد الممكن هو نهاية الاحتلال العسكري وإعطاء السيادة كاملة للشعب العراقي وحده؟ مع ذلك، لم يزل التوصل إلى حل جميع المشاكل بعيدا، ولم يتم استبعاد كامل لفرضية اقتسام العراق بين السنة والشيعة والأكراد. ومنظور تشكيل حكومة ذات أغلبية شيعية يثيرخشية البعض من قيام سلطة تيوقراطية حسب النموذج الإيراني. إن الجماعة الدولية كلها مدعوة للعمل بشكل تتحول فيه غدا الشجاعة التي أبداها الناخبون العراقيون إلى ضمان للديمقراطية الحقيقية.

الحدث الثالث هو استئناف مسيرة السلام في الشرق الأوسط. هنا أيضا من الخطأ أن نخفي ارتياحنا بينما لن نتوقف في الصفحات التالية عن التأكيد أن السلام في العالم يتعلق إلى حد كبير بنموذج السلام الذي سيتوصل إليه الإسرائيليون والفلسطينيون. لهذا يثير واقع إجراء الانتخابات في العراق واللقاء الأول بين أرييل شارون ومحمود عباس هذا القدر من الأمل. ويبدو أخيرا أن مسلسل العنف والعنف المقابل قد توقف؛ وأن المحنة التي عاشها سكان الشرق الأوسط قد ابتعدت، لكن لا يزال كل شيء هشاً إذ يكفي أن يأخذ المتطرفون من المعسكرين السلاح مجدداً من أجل نسف جميع الجهود المبذولة. إن شرارة صغيرة يمكن أن تشعل سنوات من الحقد. ومع ذلك استؤنفت مسيرة الحوار البطيئة؛ ولا ينبغي لأي إنسان واع أن يعيقها. هذا الانقشاع في الوضع العالمي يفتح آفاقا جديدة وفرصا ينبغي اقتناصها. كما ينبغي على الجميع أن يؤكدوا إرادتهم في الانفتاح والعمل المشترك. وسوف تكون الشهور القادمة حاسمة. فإما ان نحقق تقدما نحو المصالحة والسلام، وإما أن نقع فريسة دورة من العنف بسبب عودة كل أشكال التزمت والإيديولوجيات.

الأوروبيون والأمريكيون عليهم هنا بالتحديد أن يلعبوا دورهم التاريخي. لا شك بأن القارتين لم تعودا تمتلكان نفس الرؤية

الإستراتيجية المتطابقة تماما. إن تباينات قد ظهرت حول التعامل مع الملف النووي الإيراني الذي يثير أسئلة إستراتيجية كبرى، وأيضا حول العلاقة مع الصين؛ ولا يبدو أنه سيتم امتصاص هذه التباينات في مدى أشهر. هذا فضلا عن خلافاتنا التجارية أو العلاقة الخاصة للأوروبيين مع الثقافة. لكن يمكن للعلاقة عبر الأطلسي أن تعيش مع هذا النقاش بل ويمكنها أن تتغذى منه. ويكفي لكل منا، من أجل أن نتقدم، أن يقبل الاستقلال الكامل للآخر.

إن الأوروبيين والأمريكيين يشتركون بمطلب الحرية. هذا هو جذرهم المشترك والمبدأ الذي تستلهم منه كل أعمالهم، ومع ذلك أثبت التاريخ القريب أنهم قد يختلفون حول تطبيقه. فبينما تبدي فيه الولايات المتحدة استعدادها للتضحية بقواعد القانون وتجاوز رأي الجماعة الدولية من أجل الدفاع عن مفهوم ما للحرية، نرى أوروبا لا تكف عن التذكير بأنه لن يكون ممكنا بناء أي نظام قابل للحياة إذا لم يستجب لمطالب العدالة والإنصاف. الحرية تشكل عندنا هدفا ينبغي بلوغه وليست امتيازا بغير حق يمكنه أن يبرر أية مبادرة. إنها مثل أعلى نحمله في عمق أعماقنا ولكننا نرفض أن نفرضه وحدنا وبقوة السلاح، وذلك على خلفية قناعتنا بأن ذهنية الحوار هي التي ستسمح بالاستماع إلى صوت كل أمة وتحديد موقعها في النظام الدولي

الجديد. ما نعرفه جميعا هو أن كوكبنا قد انكمش كثيرا خلال عدة عقود. كل شيء أصبح قريبا فيه. وكل شيء فيه قابل للاستماع وللإدراك. لكن لا ينبغي لهذا المعطى الجديد أن يجعلنا نتخلّى عن الدفاع عن قيمنا، إنما يفرض علينا قواعد سلوك مختلفة والانتباه أكثر للجميع والاهتمام بالوصول إلى الاتفاق بدلا من اتخاذ القرارات عنوة. ولكل من أمريكا وأوروبا ذهنية تعمل على إحيائها ورؤية متفردة ستكون قوية بمقدار ما تكون ملموسة. فإذا امتلكنا شجاعة المضي قُدماً في هذا الاتجاه، فإنني على يقينٍ بأننا سوف نتوصل إلى تعزيز التوازن الهش للعالم.

إن رسالة هذا الكتاب لم تتغير. إنها رسالة أمل ورسالة إخاء ورسالة كونية تتطابق مع الذهنية الفرنسية، إذ نحمل في صميم هويتنا، وفي أعماقنا، القناعة الراسخة التي لا يمكن اقتلاعها، بأن كل إنسان إنما هوصورة للإنسانية كلها. وكل إنسان يحمل في أعماقه نفس الحقوق ونفس الواجبات مما يجعل منه مواطنا كامل المواطنة في كوكبنا. إن كل ما نقوم به في الميدان الدولي يحمل البصمة المتمثلة في الدفاع عن الثقافات وحماية اللغات المهددة والحماية الواجبة لكل شعب والانتباه المخلص للأديان وللعادات. وهذا كله يتأتى من النزعة الكونية التي ترفض الحقد كما ترفض النسيان.

من أجل هذا أعلق أهمية كبيرة على ترجمة الكتاب إلى اللغة العربية ويسرني كثيرا أن يتم إنجازه بهذه السرعة. إن العالم العربي الإسلامي يحتل اليوم مكانة حاسمة من أجل استقرار كوكبنا. إنه يختصر وحده الكثير من رهانات عصرنا بدءاً من تعايش ثقافات مختلفة وتحديد دور الدين في المجتمع إلى ضرورة إعطاء ضمانات لأمن الجميع والتأكيد السلمي للهويات. وإنني على قناعة بأن الشعوب من موريتانيا إلى أندونيسيا ستعرف، بمساعدة ذاكرتها العريقة، كيف تواجه هذا التشابك الكبير للمشاكل المعقدة.

وإنها سوف تفعل ذلك بشكل أفضل لاسيما من خلال فتح أفق الحوار الكثيف والمتبادل مع بلدان الغرب، على النقيض من تلك الحواجز التي يجهد دعاة العنف لإقامتها في كل مكان بالعالم.

إن مخاطر عدم الفهم واللامبالاة والانكفاء على الذات حقيقية، مادامت الضغوط التي تتعرض لها ضفتا المتوسط هي اليوم أقوى من أي يوم مضى. وما يجري في الشرق الأوسط أمر حاسمٌ وسوف يحدد إلى درجة كبيرة الاستقرار أو الفوضى في مستقبلنا. وإنني على قناعة بأن الحوار المستمر وحده سوف يسمح لنا بالتغلب على جميع هذه الصعوبات.

وإذا استطاع هذا الكتاب أن يكون صوتاً من أصوات الحوار، فسيكون هذا عندي مصدر اعتزاز وابتهاج.

نبذة عن مؤلف الكتاب

من هو دومينيك دو فيلبان؟

تمهيد للترجمة

لكي نفهم المنطلقات الأساسية لهذا الكتاب ينبغي أن نعود في الزمن قليلاً إلى الوراء، ونقدم فكرة عامة عن مؤلفه والتجارب التي خاضها وشكلت شخصيته. ينبغي العلم بأن دومينيك دو فيلبان ولد عام ١٩٥٣ في الرباط عاصمة المغرب حيث كان والده السيد كزافييه دو فيلبان يعمل ممثلاً لفرنسا في الخارج قبل أن يصبح لاحقاً عضواً في مجلس الشيوخ. وسوف تتنقل الأسرة بعدئذ في عدة بلدان على هوى الوظائف الدبلوماسية التي يشغلها الوالد في هذه العاصمة أو تلك. وهكذا نجد الابن في الولايات المتحدة عندما كان يافعاً وفي أماكن أخرى من أمريكا اللاتينية كفنزويلا مثلاً. وهذا التنقل من بلد إلى آخر ومن ثقافة إلى أخرى أتاح للمؤلف منذ البداية أن يحتك بما يدعوه في هذا الكتاب بالآخر : أي الآخر المختلف عنا لغةً ووجهاً وثقافة. وسوف يكون لذلك انعكاسات على فكره لاحقاً. فالخروج من الدائرة الضيقة للذات، أي لفرنسا ولغتها وثقافتها، أتاح للمؤلف

توسيع آفاقه وتشكيل رؤيةٍ منفتحة ومتسامحة عن العالم. نقول ذلك ونحن نعلم أن ثقافة فرنسا ليست ضيقة بل كانت مختبراً تمتزج فيه ثقافات العالم.

ثم إن انخراطه في السلك الدبلوماسي سار في هذا الاتجاه وأسهم في تعميق معرفته بالآخر عندما أصبح مسؤولاً عن الشؤون الإفريقية في وزارة الخارجية الفرنسية بين عامي ١٩٨٠-١٩٨٤. فقد أتاح له ذلك أن يسافر إلى إفريقيا عدة مرات ويتعرف عليها وعلى شعوبها عن كثب ويقع في حبها بالمعنى الحرفي للكلمة. وقد عبَّر عن هذا الحب بصفحات شعرية رائعة في هذا الكتاب.

ثم أصبح السكرتير الأول لسفارة فرنسا في واشنطن بين عاميّ ١٩٨٤-١٩٨٩. وهذا ما أتاح له تعميق معرفته بالولايات المتحدة الأمريكية وثقافتها المشكلة من انصهار معظم ثقافات العالم ولغاته في بوتقة واحدة. وسوف يكون لذلك أيضاً تأثيره على مواقفه اللاحقة عندما سيذكّر الأمريكان بضرورة التسامح في معالجة الأزمة العراقية عام ٢٠٠٣. وكان ذلك في خطاب مشهور تصدى به للوزير كوين باول في تلك الجلسة التاريخية لمجلس الأمن الدولي.

وعمل دومينيك دو فيلبان مستشاراً أول لسفارة بلاده في نيودلهي، عاصمة الهند، بين عامي ١٩٨٩-١٩٩٢. وهذه التجربة الدبلوماسية

أتاحت له أيضاً توسيع آفاقه أكثر والتعرف على آسيا وحضارة الهند العريقة الضاربة بجذورها في أعماق التاريخ. هنا أيضاً سوف يتاح للمؤلف أن يوسع آفاقه الفكرية أكثر بعد أن احتك بالآخر المطلق : أي الآخر الآسيوي في الشرق الأقصى، الآخر الذي ينتمي إلى تراث ديني لا علاقة له بالديانات التوحيدية، ولا بالمسيحية، ولا بالتراث اليوناني-الروماني. وفي هذا الكتاب يروي دومينيك دو فيلبان قصة التقائه بزعيم الهند راجيف غاندي قبل ساعات من مصرع الأخير على يد أحد المتعصبين السيخ. ومنذ ذلك الوقت أدرك المؤلف مدى خطورة التعصب الديني إذا ما زاد عن حده وتحول إلى سلاح سياسي فتاك. ومن هنا تحذيره على مدار الكتاب من التأويل الخاطئ للإسلام على يد الجماعات المتطرفة ودعوته إلى العقلانية والاعتدال.

وبعدئذ عاد دومينيك دو فيلبان إلى الوطن الأم فرنسا بعد طول تنقل وترحال في بلاد الله الواسعة. عاد لكي يشغل منصباً مرموقاً في ظل معلّمه في السياسة آنذاك : آلان جوبيه. وهذا الأخير هو الذي عرّفه يوماً ما على جاك شيراك. فأعجب به الرئيس إلى درجة أنه "أخذه" من جوبيه غصباً عنه. فقد طلب فرزه من الخارجية إلى قصر الإليزيه لكي يشغل منصب الأمين العام لرئاسة الجمهورية الفرنسية. وهو المنصب الذي ظل يحتله طوال ولاية شيراك الأولى : أي من عام

١٩٩٥ إلى عـام ٢٠٠٢. وبعـدئذ تم تعـيـينه وزيـراً للخـارجـيـة فـي بداية الولاية الثـانيـة للرئيس الديغولي، قبل أن يحتل منصب وزارة الداخليـة مؤخراً.

هذا هو باختـصـار شـديد المسـار العـام لدومينيك دو فـيلبـان. والآن لنـدخل في التـفـاصـيل الجـوهرية أكـثـر ولنطرح هذا السـؤال : عم يتحـدث هذا الكتـاب؟ مـا هـي أطروحـاته أو مـحـاوره الأسـاسـيـة؟ قبل الإجابة عن هـذا السـؤال ينبـغي العلم بأن المؤلف كـان قـد أصـدر ثلاثة كـتب قبله هي : **صـرخـة المزراب**، و **ثـنـاء على سـارقـيّ الـنـار**، و**المائـة يوم لنابليون بونابرت**.

يلاحظ القارئ مدى شاعرية العنوان الأول وجماله، وكذلك شـاعرية العنوان الثـاني أيضـاً. والواقـع أن هـذا الـرجل الذي يحـتل أعلى المناصب في الدولة الفرنسية والذي يعتبر من أقـرب المقربين إلى جاك شيراك إن لم يكن أقـربهم، هو أيضـاً شـاعـر. وحبـه للشـعـر لا حـدود له. وهو يسـتطيع أن يسـتشـهـد بكبـار شـعـراء العـالم مـن رينيـه مـاريّا ريلكه إلى أدونيس ومحمود درويش وبدر شـاكر السياب، إلى رامبو وبودلير ورينيه شـار دون أي تفريق بين هؤلاء وأولئك. فـالشـعـر هو الشـعـر، الشـعـر هو الأثيـر، وعلى أرضيـتـه السـمـاوية، إذا جـاز التـعـبـيـر، يتـوحـد العـالم أو يلتقي.

وهناك مقاطع من هذا الكتاب أقرب إلى الشعر، ومن هنا تأتي صعوبة ترجمتها. وفيها يحلق المؤلف عالياً بلغة مجازية مجنَّحة قبل أن يهبط إلى أرض الواقع. وهنا تكمن الميزة الثانية وربما الأولى لهذا الكتاب. فهو كتاب شعري-فلسفي-سياسي. كل هذه الأبعاد الثلاثة موجودة فيه بشكل متزامن أو على التناوب. بل إن العنوان نفسه مأخوذ من كبير شعراء فرنسا في القرن العشرين : رينيه شار. فعلى عكس ما يتوهم معظم المثقفين العرب فإن الشاعر الأساسي في ذلك القرن ليس أراغون، ولا حتى سان جون بيرس، على الرغم من أهميتهما، وإنما رينيه شار. فهو بالنسبة للقرن العشرين كرامبو بالنسبة للقرن التاسع عشر : أي الشاعر الحاسم، الشاعر الأعمق والأكثر غموضاً، شاعر الضربة القاضية التي تأخذك أخذاً وتسيطر على مجامع نفسك.

قلنا إذن إن عنوان الكتاب : **سمك القرش وطائر النورس** أو بالأحرى **سمك القرش والنورس البحري**، وربما هذه الترجمة الأفضل. هذا العنوان الذي وضعه دومينيك دو فيلبان على رأس كتابه مستمد من قصيدة لرينيه شار تحمل العنوان نفسه وتبتدئ بهذا البيت الشهير : كيف العيش بلا مجهول أمامك؟ ! بمعنى كيف يمكن أن تعيش إذا كنت تعرف مصيرك سلفاً، إذا كنت تعرف كل ما سيحصل لك في

المستقبل؟ ما لذة العيش بعدئذ؟ وهذه القصيدة مستمدة من ديوان كان رينيه شار قد أصدره عام ١٩٤٧ تحت عنوان : القصيدة المتشظّية، أو المتمزقة، أو المتفتّتة... (Le poème pulvérisé. Gallimard. 1947).

ومعلوم أن رينيه شار شاعر كان ينظر إلى الوجود من خلال التضاد بين الفوق/والتحت، الهواء/والماء، طائر النورس وسمك القرش. وهو صراع أبدي بين المتضادات. ولكن الحوار ممكن أيضاً كما يقول دومينيك دو فيلبان. فهو يبني كتابه على الأطروحة التالية : صحيح أن جدلية المتناقضات تملأ الكون، بل ربما كانت القوة الديناميّة التي تحرك كل شيء. ولكن المصالحة بين المتضادات ممكنة، وليس من الضرورة أن تدخل في صراع مكشوف وقاتل بعضها مع بعض. وأكبر دليل على ذلك هو أن الكون يتسع لطائر النورس وسمك القرش، أي للطائر الذي يحلق في الأجواء العالية، والسمكة التي تغوص في الأعماق اللانهائية للبحر. وجميع المتضادات تتعايش في هذا الكون الرحب الشاسع الواسع.

وبما أن هذا الكتاب دُبِّج على إثر الأزمة العراقية الحادة التي لا تزال تتوالى فصولاً مأساوية حتى الآن، فإن المؤلف حرص على القول بأن الصراع الدموي ليس هو القدر الوحيد للعلاقات بين الشرق/والغرب، أو بين العالم العربي الإسلامي/والعالم الأوروبي

الأمريكي. هنا تكمن الأطروحة الأساسية للكتاب كله، وهنا يكمن جوهره ومحتواه الأعمق. فالثناء على المتضادات مشترك لدى رينيه شار وتلميذه المعجب به دومينيك دو فيلبان. ولكن التناقض الأكبر في عصرنا الراهن يتخذ صيغة العلاقة الصراعية أو الحوارية بين الأنا والآخر.

ولذلك فإن الكتاب ابتدأ بالثناء على المتضادات وانتهى به. إنه ثناء على اللقاء بين الأنا والآخر من خلال الأخوّة الكونية للبشر. فنحن جميعاً ننتمي إلى الجنس البشري على الرغم من اختلاف لغاتنا وعاداتنا وتقاليدنا أو تراثاتنا الدينية وقومياتنا. كلنا أخوة في البشرية. وبالتالي فلماذا الصراعات والحروب وسفك الدماء؟

وبدلاً من صدام الحضارات الذي نظّر له صموئيل هنتنغتون نجد الوزير الفرنسي الشاب يدعو إلى حوار الحضارات والثقافات وبالأخص بين الحضارة العربية الإسلامية من جهة والحضارة الغربية العلمانية أو المسيحية من جهة أخرى. هناك صفحات مطولة في هذا الكتاب تدور حول إشكالية الذات والآخر، حول الكونية والخصوصية، حول المحلية والعالمية. ولن نطيل الحديث عنها لأننا سوف نترك للقارئ متعة اكتشافها بنفسه وتشكيل فكرة شخصية عن الموضوع.

هناك صفحات عديدة أيضاً عن مدى تأثير الثقافة العربية الإسلامية في أوروبا من خلال ابن رشد وابن سينا وحضارة الأندلس

الرائعة التي امتزجت فيها ثقافة العرب بثقافة المسيحيين بثقافة اليهود في ظل التسامح والاعتراف بالآخر.

وهناك صفحات عديدة عن "الفخ العراقي" الذي وقعنا فيه جميعاً أو لم نستطع تحاشيه كما يقول الوزير دو فيلبان. وسبب الوقوع فيه هو أن الولايات المتحدة فقدت صوابها بعد ضرية ١١ سبتمبر المجرمة. ولم يعد بالإمكان إيقافها عند حدها إلا بعد أن تنتقم وتشبع انتقاماً. ولذلك أخفقت جهود فرنسا، وجهود دو فيلبان شخصياً (لأنه كان يقود المعركة الدبلوماسية في نيويورك بتوجيه من جاك شيراك) في إقناع الأمريكان بالحل الدبلوماسي للأزمة العراقية المتفاقمة. هنا توجد صفحات مطولة عن الموضوع ولا داعي لتلخيصها كلها لأن القارئ يجدها معروضة بكل وضوح في هذا الكتاب. لكن الشيء المهم قبل أن نختم الحديث حول هذه النقطة هو تركيز المؤلف على الفلسفة السياسية التي فرقت بين أوروبا وأمريكا آنذاك. فالواقع أنه حصل قلب للأدوار مؤخراً. فأمريكا بعد ١١ سبتمبر أصبحت من أتباع الفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز فيما يخص الفلسفة السياسية، هذا في حين أن أوروبا أصبحت من أتباع كانط. ماذا يعني ذلك؟ إنه يعني أن سياسة القوة التي نادى بها هوبز لفرض النظام هي التي أصبحت شعار الإدارة الأمريكية. وأما فلسفة كانط القائمة على

تحاشي الحروب بقدر الإمكان واللجوء إلى المفاوضات الدبلوماسية لحل النزاعات الناشبة فقد أصبحت عقيدة الاتحاد الأوروبي. ولكن أوروبا في زمن الاستعمار كانت من أتباع هوبز ولغة القوة والبطش، وأما أمريكا فكانت آنذاك، أي في عهد الرئيس ويلسون صاحب المبادئ الأربعة عشرة وحق الشعوب في تقرير مصيرها، فكانت من أنصار الفلسفة الكانطية للسياسة: أي الفلسفة القائمة على العلاقات السلمية بين الأمم. ثم جاءت ضربة ١١ سبتمبر لكي تقلب كل الموازين والمقاييس. وأصبحت أمريكا في عهد المحافظين الجدد لا تؤمن إلا بلغة القوة لفرض هيبتها واحترامها على الآخرين لكيلا يعتدوا عليها بعد اليوم. على هذا النحو انقلبت المواقف وانعكست بين أوروبا وأمريكا. ولكن الآن بعد أن حصل ما حصل وبعد أن أصبحت الحرب وراء ظهرنا ينبغي أن نتعاون جميعاً لإيجاد حل لصالح القوى العقلانية والتنويرية في العراق.

هنا أيضاً نجد تحليلات مضيئة ونافذة، تحليلات مرنة جداً للوزير دو فيلبان. وهي تحليلات لا يقدر عليها إلا من جمع في شخصه بين اتساع الفكر النظري، والانخراط في التجربة الواقعية المحسوسة. فالشخص الذي يتحدث هنا ليس مثقفاً جالساً في برجه العاجي، وإنما رجل سياسة من الطراز الأول، رجل منخرط في معمعة الصراع. وهكذا جمع المجد من جميع أطرافه : مجد الفكر، ومجد السياسة.

ولا نجد تحليلاً لدور الأمم المتحدة بصفتها مسؤولة عن البشرية كلها، ولدور القوة الأعظم في العالم، أي أمريكا، وللتناقض أو التكامل الكائن بين الدورين أعمق من تحليل هذا الكتاب. والشيء الذي يأسف له الوزير الفرنسي هو أن المحافظين الجدد سيطروا على القرار السياسي في واشنطن وغلّبوا قانون القوة على قوة القانون في حل الصراعات البشرية.

بقيت نقطة أخيرة ينبغي التوقف عندها قليلاً. هذا الكتاب فكري-سياسي بالدرجة الأولى. فهو يستعرض تاريخ الفكر منذ أقدم العصور وحتى اليوم ويربط بينه وبين أحداث الحاضر. إنه يعود إلى الوراء لكي يستخلص دروس الماضي وعظاته من أجل فهم الحاضر بشكل أفضل أو تشخيص إشكالياته المتفجرة حالياً.

بمعنى آخر إنه يستخدم منهجيّة الكرّ والفرّ : أي يدرس الحاضر في ضوء الماضي والعكس صحيح. فسلوك البشر في الحاضر لا يمكن فهمه جيداً إلا في ضوء الماضي وأحداثه. ولذلك فإن السيد دو فيلبان يستعرض كل تاريخ الفكر الغربي من عصر النهضة إلى عصر التنوير لكي يفهم دوافع السياسة الأوروبية والأمريكية الحالية. وهنا يدهشنا المؤلف بسعة اطلاعه على تاريخ الفكر والفلسفة الحديثة. صحيح أنه أدهشنا سابقاً عندما أصدر كتاباً ضخماً عن دار غاليمار للنشر

بعنوان "**ثناء على سارقي النار**" : أي ثناء على الشعراء. ولكننا كنا نعلم أنه شاعر يعشّش الشعر في دمه وخلاياه. ولكن ما كنا نعرف أنه مفكر مطلع على فلسفة الحداثة وما بعد الحداثة ! هنا يدهشنا دو فيلبان باطلاعه العميق على أكبر مناقشة فلسفية جرت في الغرب الأوروبي-الأمريكي طوال الثلاثين سنة الماضية : ألا وهي نقد الحداثة أو بالأحرى نقد انحرافاتها والأخطاء التي ارتكبتها في الداخل والخارج ثم ضرورة تصحيح أو توسيع فلسفة التنوير التي ظهرت في القرن الثامن عشر والتي أسست كل الحضارة الغربية الحديثة.

ولكنه يرفض الوقوع في فخ العدمية أو النسبوية الذي وقع فيه بعض الفلاسفة من أمثال فوكو، وديلوز، وليوتار، ودريدا. ويفضل اتباع الفيلسوف الألماني هابرماز الذي ينقذ المكتسبات الأساسية للحداثة والتنوير (ككونية حقوق الإنسان، ودولة الحق والقانون، والديمقراطية الليبرالية) من براثن النيتشويين والتفكيكيين. ذلك أن فلسفة حقوق الإنسان كونية وتنطبق على جميع شعوب الأرض أو ينبغي أن تنطبق. ولا يمكن التراجع عنها بحجة أن الغرب خانها في عصر الاستعمار وما تلاه. وحق الاختلاف مشروع، أقصد اختلاف الثقافات الأخرى عن ثقافة الغرب. ولكنه لا يسوّغ إطلاقاً احتقار الكرامة الإنسانية كما تفعل بعض الجماعات المتشددة التي تلجأ إلى سلاح التكفير لتبرير

أعمالها الإجرامية. والارتباط بالهوية شيء جيد وضروري ولكن لا ينبغي أن يبلغ حد التعصب الأعمى وكره الآخر ورفض وجوده أو محاولة إلغائه. وإذا كان المؤلف يرفض العولمة التنميطية : أي العولمة الأمريكية التي تؤدي إلى تحويل العالم كله إلى نمط واحد والقضاء على التعددية والتنوع، فإنه يرفض أيضاً التعلق الهوسيّ بالهوية والخصوصية، الشيء الذي يؤدي إلى الانغلاق على الذات ورفض التفاعل الحضاري. فتعددية الثقافات والحضارات البشرية في نظره هي سرّ غنى العالم وجماله. وبالتالي هناك طريقة إيجابية للارتباط بالهوية التراثية والجذور، وهناك طريقة سلبية عقيمة. وينبغي أن نعرف كيف نختار بينهما.

ملاحظة: نشير إلى أن جميع الهوامش الموجودة في أسفل صفحات الكتاب هي من عمل المترجمَيْن.

سمك القرش وطائر النورس

أخيراً أرى البحر في تناسقه المثلث،

البحر الذي يبتر من هلاله سلالة

الآلام العبثية، المطيرة[1] الكبيرة المتوحشة،

البحر الساذج كشجر اللبلاب.

رينيه شار[2]، ديوان : سمك القرش وطائر النورس، عام ١٩٤٦ .

مقـــدمـة

الآن، تقع الكارثة؟ ماأكثر العلامات التي ترهص بذلك ! نقول ذلك على الرغم من أنه منذ العصور اليونانية-الرومانية القديمة لا شيء كان يبدو قادراً على منع الإنسان من الانطلاق والتحليق عالياً. فمن النهضة إلى التنوير كان دائماً يقترب من الشمس المشرقة ! كيف يمكن للإنسان أن يهبط إلى أسفل بعد كل هذه الإنجازات الرائعة ! ومع ذلك فهذا ما نلاحظه حالياً للأسف الشديد. فالانقسامات أو الصراعات أصبحت عديدة بين الشمال والجنوب، بين الشرق والغرب. والبشر المختلفون في ألوان وجوههم وثقافاتهم وعقائدهم نجدهم يتشبثون بخرافاتهم وطواطمهم ويتقوقعون على أنفسهم، ويكرهون بعضهم بعضاً. وهكذا يبتعدون عن ذلك الإنسان العظيم الذي يمشي بخطوات عملاقة، هناك على خط الذرى، الإنسان الذي يبني مراحل الفكر الواحدة بعد الأخرى، الإنسان المنفتح على كل الرياح والتيارات الفكرية.

ينبغي أن أعترف منذ البداية بأن هذا الكتاب ناتج عن إرادة الحفاظ على الدروب المتقاطعة والمتعددة. إنه متولد عن الرغبة في

استقبال التاريخ والفلسفة والأدب في طراوة أصولها ومنابعها. ولم ينصع كاتبه للموضة العارضة ولا للخوف. وإنما كان دائماً يمشي على جرف الشواطئ الصخرية العالية، ويحاذي الحياة على حافة الهاوية، هناك حيث يواصل سمك القرش وطائر النورس حوارهما الغاضب بعد هبوب الإعصار، هناك حيث يحتفلان بأعراسهما الجائعة إلى قوس قزح.

لقد اغتنى هذا الكتاب من القناعة التالية : وهي أن فرنسا لم تكن أكثر إخلاصاً لذاتها في أي يوم من الأيام إلا عندما كانت تتعلق بالقيم الكونية، إلا عندما كانت تمتلك الجرأة لمعانقة الآخر والمختلف. ينبغي العلم بأن بلادنا محمَّلة برسائل أمل إلى البشرية. وهي قادرة على التخفيف من مشاعر الخوف والحقد عن طريق فتح آفاق العدالة. فهل صحيح كما يقولون أن فرنسا قوة وسطى، أو بلد عادي كبقية البلدان؟ لا. وإنما هي قوة تضع نفسها في خدمة الشعوب. إنها مُنتظَرة، تُعلَّق عليها الآمال، ومسموعٌ صوتها. إنها دولة مفعمة بقيم التسامح، والديمقراطية، والسلام. إنها قوة تضع نفسها في خدمة القيم الكونية التي حملت رايتها ودافعت عنها على مدار القرون عن طريق السلاح وعن طريق القانون في آن معاً. وهي لا يمكن أن تعيش اليوم إلا بواسطة الاحترام المتبادل والحوار مع الآخرين.

أعود إلى الماضي البعيد وتسرح بي الذكرى. كيف يمكن أن أنسى تأثُّر والدي٣ وهو يستمع، في الخارج، إلى همسات فرنسا على أمواج الراديو القصيرة؟ هذا التأثر عشته لاحقاً في أبدجان وبيروت والجزائر وأثينا إلى جانب رئيس الجمهورية جاك شيراك. كما عشته بعد حلول المساء في مكتبه عندما كنا نختلي معاً ويشرح لي لمجرد ذكر اسم مدينة أو بلد أو عرق ما معلومات شاملة عن شعب ما أو زمن غابر أو زمن سيجيء. وعندئذ كنت أجد الروح الفرنسية ناشطة حيَّة كما كانت على الدوام.

بالطبع فإن زمن الفتوحات العسكرية قد ولّى إلى غير رجعة. ولكن حل محله زمن الجرأة والشهامة والحماسة. وعندئذ، مُفعمةً بما هو مألوف وعاشقةً للبعيد البعيد، يمكن لهذه الروح أن تترك المنحدر وتقلع وتطير في الأعالي من جديد. وعلى الألواح السوداء، وفي عتمات الكهوف وقبو السلالم، وعلى الجدران عندما ييأس القلب، يمكنك أن تكتب الأمل من جديد.

لقد تبدى لي هذا الواجب مرة أخرى يوم أحد بعد أن استلمت منصبي وزيراً للداخلية في ساحة "بوفو" بباريس. آنذاك كنت أزور المباني الضخمة للوزارة. وقد انتابني الانفعال والذهول عندما رأيت ثلاث حجرات صغيرة بقيت كما هي عليه منذ الحرب العالمية الثانية.

الحجرتان الأوليان تقعان في الطابق الرابع من شارع "سوسيز" (Saussaies)، وأما الثالثة فتقع في الطابق الثاني من شارع "كامباسيريس" (Cambacérès). إنها تقع في مباني الأمن القومي التابعة لتلك الفترة بعد أن استولى عليها الجيستابو (أي المخابرات الألمانية لقوات الاحتلال). هنا، في هذه الحجرات الضيقة، مرت مئات الفرنسيات والفرنسيين، مقاومين من كل الأعمار والأجيال، ومعرَّضين للاستجواب القاسي والتعذيب. وعلى الجدران كتبوا آخر رسائلهم بالوسائل البدائية المتاحة لهم. لقد كتبوها بالدبابيس، أو بحبكات الشعر النسائية، أو برؤوس القطع الخشبية المدببة، أو بما بقي من أقلام الرصاص، أو حتى بأظافرهم ! كل شيء استخدموه لكي يكتبوا بضع كلمات قبل أن يرحلوا عن هذا العالم. وكم كانت دهشتي كبيرة عندما اكتشفت أن معظم هذه النقوش الجدارية كانت عبارة عن رسائل تشجيع وأمل. سوف أقرأ عليكم بعضها : "فكِّر برفاقك الذين لا يزالون في المقاومة ويناضلون من أجل تحريرك"، "لا تعترفْ أبداً أمام الجلادين ولا تعط أسماء رفاقك"، كورنيليوس يقول لكل المسافرين : "شجاعة طيبة. نصيحة واحدة : "لا تعترفوا أبداً"، "جرأة، صلابة"، "الثقة بالذات تعطينا القوة على المقاومة على الرغم من المغطس وسواه - غثيان". "إلى جميع الـ... اصمدوا جيداً. سوف ننتصر عليهم قريباً. من طرف شاب من منطقة اللورين محكوم عليه

بالإعدام بسبب الفرار من الجيش". أحياناً يكون الزمن قد محا بعض الكلمات، ولكن الرسالة تظل حية ومفهومة : "نضال..."، "...مقاومة"، "... لا تتفوهوا بأي شيء..."، ".... على الدوام..."، "...شجاعة....". من خلال هذه الكلمات يخفق قلب أب، أو أخت، أو صديق. وراء الأسماء والأسماء المستعارة المكتوبة على وجه السرعة نجد مثلاً : ميفري، مارسيل ب، "لو" الصغيرة، غالان، ألزاس دوبون، ريمون، مونيك، ـ. بي، ـ. ب، ر. ـ....

بعد أن تقرأ هذه الكلمات تشعر بأنه شرف كبير لك أن تكون فرنسياً في هذا البلد الواقع على مفترق طرق العصور والعوالم. إنه لشرف عظيم أن تكون محمولاً على أجنحة الحماسة التي تجرحنا، تذهلنا، وفي ذات الوقت تعيدنا إلى أنفسنا. أقصد تجعلنا مخلصين لذاكرة معينة، أو لمبادئ سامية تمكّننا من أن نعطي ضميراً، أو روحاً لكوكبنا الأرضي. إن الحرب التي ينبغي أن نخوضها ليست حرب الخير والشر (كما يقول بوش)، ليست حرب بعض البشر ضد بعضهم الآخر، وإنما هي حرب يخوضها كل واحد منا داخل نفسه. إنها حرب بين نزعة التسلّط والهيمنة ونزعات المحبة الموجودة داخل كل شخص منا، بين الميل للقساوة والوحشية من جهة، والميل للإخاء والمودة من جهة أخرى. إنها حرب بين نزعتين متضادتين تسكنان داخل كل شخص بشري : نزعة الخير ونزعة الشر، نزعة الكرم ونزعة الأنانية.

أخيراً سوف أقول إن هذا الكتاب تشكل ونضج من خلال تجربة أود أن يشاطرني إياها الآخرون، أو أن أشاطرهم إياها بالأحرى. ينبغي العلم أن كل ما يحصل خارج حدودنا أصبح له منذ الآن فصاعداً انعكاسات على حياتنا اليومية. فنحن نعيش في عصر العولمة الكونية، ولم يعد هناك من داخل أو من خارج، لم يعد هناك فصل كامل بينهما. وعندما انتقلت من وزارة الخارجية إلى وزارة الداخلية استطعت أن أفهم أنه لا توجد بينهما قطيعة وإنما تواصلية واستمرارية. فالشؤون الخارجية والشؤون الداخلية متداخلة. وهذا ما ينطبق على كل المجالات سواء أكان الأمر يتعلق بالدفاع عن مثلنا العليا ومبادئنا، أم كان يتعلق بالنضال ضد شياطين الحقد، والعنصرية، ومعاداة السامية. وبالتالي فلا توجد الشؤون الخارجية أو الدولية من جهة، والشؤون الداخلية الفرنسية من جهة أخرى. وإنما يوجد قدر واحد مشترك نحن جميعاً مسؤولون عنه.

فمن مرسيليا إلى كيوتو باليابان، ومن مدينة ليموج الفرنسية إلى مدينة مكسيكو أخذ يتشكل فضاء النظرة الواحدة. وكل التحديات الكبرى من اقتصادية واجتماعية وثقافية وأمنية أصبحت الآن بحجم العالم ولم تعد محصورة بحدود هذا البلد أو ذاك، بهذا النطاق الضيق أو ذاك. ولا ينبغي أن نرى في هذه العولمة شيئاً سلبياً أو تهديداً لنا ولخصوصيتنا وإنما دعوة لنا من أجل المزيد من الحيوية

والتأقلم مع الظروف المستجدة. ينبغي أن نرى فيها حظاً أو فرصة سانحة يضاعف من أهميتها جمال كوكبنا الأرضي وهباته التي لا تنتهي. إن عولمة العالم هذه تجعلنا أكثر قوة وتسامحاً من ذي قبل. إنها تجعلنا أفضل مما كنا عليه وتنسينا الصراعات الأنانية الضيقة والمنافسات لصغيرة التي كانت تشغلنا في الماضي. إنها تجعلنا أكثر وفاء لروح هذه البلاد، فرنسا، التي كانت دائماً مهداً للقيم الكونية والعالمية. كما تحرر طاقاتنا وطموحاتنا لكي نستطيع أن نعبر عن إمكانياتنا، ولكي تتفتح مواهبنا، ولكي تنتشر معرفتنا، وإبداعيتنا نحن الفرنسيين على سطح جميع القارات. كما تدفعنا لأن نهتم أكثر بازدهار مبادئنا على أرضنا بالذات : أقصد مبادئ الحرية، والتضامن، والمساواة في الفرص، وذلك لكيلا يُستبعَد أحد أو لكيلا يظل مهمَّشاً منبوذاً على قارعة الطريق. نعم إني أومن بهذه الفكرة الجنونية، فكرة الخلود الفرنسي التي تصالح بين الأضداد والمتناقضات. نعم إني أومن بخلود المثل العليا والإنسان الجديد الذي ولد عشية الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩.

ولكي نضمن لمواطنينا الأمن والتقدم الاقتصادي والحيوية التي يطمحون إليها، فإنه ينبغي علينا أن نستدير نحو البحار الواسعة ونسلك سبيل الخارج ونتعرف بشكل أفضل على العالم المحيط بنا. ولقد رأيت على حدودنا كم هو مفيد أن نتعاون مع جيراننا من أجل

مواجهة الكوارث الطبيعية، والمد البحري الأسود والناتج عن غرق سفن النفط، والفيضانات، وحرائق الغابات. كما نقوم معاً بمحاربة تجارة المخدرات دون هوادة، وكذلك محاربة الإرهاب. كل ذلك نفعله بالتعاون الوثيق مع أصدقائنا وجيراننا الأوروبيين. عندئذ أدركت مدى أهمية هذا التعاون وفائدته للجميع.

ولا يمكن مواجهة ظواهر الهجرة غير الشرعية والشبكات الإجرامية الدولية بفعالية إلا إذا أقمنا علاقة تضامن وثيقة مع البلدان المصابة بالأوبئة نفسها. وعندئذ فهمت مدى أهمية التعاون معها. وبالتالي ففي زمن التبادلات والانفتاح على العالم سوف يكون من الخطأ الجسيم أن نتقوقع على أنفسنا. وعندما نكون مسلّحين بمثلنا العليا ومبادئنا فإننا نصبح أقوياء ونستطيع مواجهة نظرات الخارج بل ويمكن أن نستمد منها قوة جديدة. وعلى كاهلنا تقع مهمة الدفاع عن القيم التي تتيح لنا أن نتحاور بكل ثقة وإيمان مع الآخر. ولكن ينبغي أن ندافع عنها بكل روح الإخاء والتسامح. وبالتالي فتقع على كاهلنا مسؤولية شق الطريق وتحديد الخيار الذي ينبغي أن يتبعه العالم.

هكذا نلاحظ أننا نعيش اليوم أيضاً زمن ثورة جديدة، أو طفرة نوعية جديدة، دون أن يفهم أحد أسباب هذه الانقلابات الطارئة ولا

غاياتها أو نهاياتها. وعلى هذا النحو تنهار يقينيات الأمس أمام أعيننا في لحظات معدودات. وتحل محلها قواعد جديدة للعبة، وتتشكل أطر جديدة للحياة. وحتى أساس القوة أصبح على محك الشك. وبالتالي فنحن نعيش زمن القطيعة والمتغيرات الكبرى. وزمن القطيعة هذا يستدعي منا يقظة الوعي. فوحدها هي القادرة على ترجيح كفة الميزان إلى جانب العدالة. وحدها هي التي تتيح لنا أن نتوصل إلى طريق السلام ونهتدي إلى السبيل الصحيح.

وذلك لأن الشعوب تقف مترددة. ولا تعرف على أي سلطة أو عقيدة ترتكز. وفي زمن الاضطراب والشك نلاحظ أن الخطابات الأكثر تبسيطية وتطرفاً والمطالب الأكثر عنفاً تجد لها مظهراً من مظاهر الشرعية. ودعوات الحقد التي كانت محتقرة بالأمس ولا تجد أي أذن صاغية أصبحت الآن تجد بعض الصدى والاهتمام. والعقائد المتطرفة الآتية من تخوم الكون كلها أصبحت تؤدي إلى ارتكاب أعمال وحشية، بل وتخلع عليها المشروعية. وبالتالي فإذا كنا عاجزين عن إيجاد مخرج أو توجهٍ منقذ للبشرية، فإن الآخرين سوف يفعلون ذلك بدلاً عنا. وينبغي العلم بأن أكثرنا جرأة، واقتناعاً، وشجاعة، هم الذين سيحددون للعالم وجهته ومستقبله. فالحياة للمقدامين الجسورين.

لا شيء أكثر ضرورة لعالم اليوم من تشكل الوعي الإنساني والضمير المرهف. ولا شيء أكثر لزوماً للبلدان التي تتعرض للزوابع

والمخاضات من هذا الوعي، وإلا فإنها سوف تستسلم لمن يدفع أكثر، أو للأكثر ضجيجاً وعجيجاً إن لم يكن للأكثر راديكالية وتطرفاً. ولا شيء أكثر ضرورة لأوروبا التي تبحث عن قدرها ومصيرها من وجود هذا الوعي الإنساني. يكفي أن نلقي نظرة سارحة على العالم، ويكفي أن تكون روحنا طيبة، لكي نقبل بتعددية الثقافات والأقوام البشرية. فلنتعلم إذن كيف نستمد طاقتنا من الدهشة أمام العالم الجديد. إن مصير هذا العالم يتأرجح طبقاً لموازين القوى وداخل الوعي المغلق لكل فرد، وهو يواجه الخيار التالي : إما الانقسام وإما المصالحة. هذا هو المسرح الجديد للعالم أيها السادة. هذا هو المسرح الثوري الحقيقي. فإما أن نتصادم وإما أن نتحاور.

والشيء الذي سوف يتقرر أولاً هو تصالح الإنسان مع نفسه. وذلك لأن الحوار الحقيقي مع الآخر لا يمكن أن ينجح إلا إذا كان كل واحد منا قادراً على العودة إلى جذوره الثقافية والمحافظة على ذاكرته الجماعية بشكل حي. وبالتالي فالتصالح مع الذات شرط ضروري للتصالح مع الآخر المختلف عنا ثقافةً وذاكرة وتاريخاً. فالهويات البشرية متعددة وليست واحدة. وهذه التعددية هي التي تشكل خصوبة قاراتنا وغناها. ولكن هذه الهويات لن تجد امتلاءها وازدهارها إلا إذا تم الاعتراف بكل واحدة منها وخصصت لها مكانة محترمة تحت الشمس إلى جانب الهويات الأخرى.

والشيء الذي يتقرر ثانياً هو تصالح الإنسان مع الآخر. لنعد إلى الماضي قليلاً. في عصر النهضة، ثم في عصر التنوير كان الآخر يشكل موضوعاً للاكتشاف والدهشة. وعصر العبودية والاستعمار لا يمكنه أن ينسينا روح التسامح والدعوة إلى الحوار ومشاطرة الأرزاق والأموال وإلقاء النظرة النقدية على الذات وهي روح سادت في تلك الفترة. ووضع الذات على محك المجهول كان يتيح لأسلافنا أن يعرفوا أنفسهم بشكل أفضل. وأما اليوم فقد أصبح الآخر مدعاة للاشتباه والخوف غالباً. وكل واحد منا أصبح يتقوقع على ذاته خوفاً من أن ينال الآخرون من حقوقه أو هويته، أو خوفاً من أن يعتدوا عليه أو تحاشياً لسوء التفاهم الذي قد يؤدي إلى الصدام. والواقع أن التنافس الأناني والجهل هما المرتع الخصب لصدام الثقافات والأديان. نقول ذلك على الرغم من أن هذا الصدام يمكن تحاشيه وليس محتوماً أبداً كما يتوهم البعض. ولكننا لا نستطيع أن نتجاهل مخاطره إذا ما أردنا مواجهته والقضاء عليه.

وأخيراً فإن ما يتقرر مصيره الآن أمام أعيننا هو تصالح الإنسان مع محيطه وبيئته. ينبغي العلم بأننا نمتلك من الأسلحة والوسائل ما يكفي لتدمير كوكبنا الأرضي وإزالته من الوجود. وإذا لم ننتبه للأمر فإننا قد نخرّب عالمنا إلى غير رجعة، هذا العالم الذي يؤمّن لنا رزقنا

وبقاءنا على قيد الحياة. وباسم هذه القوة الجديدة الموروثة عن تقدم التكنولوجيا، فإنه تقع على عاتقنا مسؤولية جسيمة ألا وهي : أن نضمن للأجيال القادمة ولأطفالنا العيش في بيئة مصونة من التدهورات الأكثر خطورة. وهذه البيئة لن تكون بعد الآن مرتعاً للاستغلال بقدر ما ستكون ثروة ينبغي الحفاظ عليها ومراعاتها. كفانا استغلالاً لأرضنا وبيئتنا على مدار القرنين الصناعيين الماضيين.

وبالتالي فإن اليقظة أو صحوة الضمير سوف تأتي من جهة الإرادات الطيبة السائرة نحو الأمام. وهذه الإرادات الطليعية هي التي ستنقذ العالم وتشكل قدره ومصيره في وقت يشعر فيه بالضياع ويتساءل عن أي مستقبل سيكون له. هذه الإرادات هي القادرة على تغذية المتناقضات وتدشين الآفاق الجديدة والتذكير بمخاوف الماضي الذي اندثر وقلقه. يا له من زمن متغير ومتلون : ففي الصباح يفاجئنا بإشراقة الشمس الرائعة، وفي المساء تخيم علينا غيوم ثقيلة سوداء. ولهذا السبب أرخيت العنان لبحثي واستكشافاتي وحاولت في هذا الكتاب أن أفك ألغاز هذا الوضع المرتبك المتشابك المليء بالثغرات والهيجانات الهلوسية أو الأصولية التي تشكل لحمة أخبارنا اليومية على مدار الساعة. حاولت أن أفعل ذلك لكي أفهم آلة التوجه والمآسي الناتجة عن تداعيات العنف، ثم لكي أستكشف نقاط المرسى التي

يمكن أن نركن إليها أو نثبت فيها حبال سفينتنا. وعلى هذا النحو تكون مسيرة العالم بكل قسمته من المآسي والخرافات.

وفي الماضي القريب تخيلنا، أو تخيل بعضنا، أننا وصلنا إلى نهاية التاريخ٤ : إي إلى هيمنة النموذج الديمقراطي الليبرالي على العالم كله دون منافس أو منازع. وهو النموذج القادر على ضمان حقوق كل فرد وحرياته. والكثيرون اعتقدوا، بعد خروجنا من عصر المجازر الكبرى والرعب النووي، أن طوباوية العقائد العلمانية للحداثة قد تحققت أو أوشكت أن تتحقق. وكان هذا الحلم الطوباوي يقول ما معناه : بعد إيديولوجية المجزرة، بعد الصفاء العرقي والتصفيات الجسدية، بعد التقنيات التي أخرست الوعي، ألن يحل نظام عالمي جديد من الوئام والسلام أخيراً؟ ألن نصل إلى برّ الأمان وتنتهي المشاكل والحروب؟ في الواقع إن هذه الفرضية لم تكن عبثية. فنحن شهدنا في بداية التسعينات من القرن الماضي انقلابات هائلة ما كان أحد بقادر على تصور حصولها قبل بضع سنوات فقط من ذلك التاريخ. ولكن ضربة ١١ سبتمبر/أيلول جاءت لكي تكبح تفاؤلنا وتقلّل من فرحتنا وآمالنا. فقد أعادتنا بطريقة فجة وبشعة إلى جروحات الذاكرة وقالت لنا إن التاريخ عنيف. يحصل ذلك كما لو أن هذا العنف قد كتب من جديد على نفس الطرس الأبدي (أي الرّق الممسوح ثم

المكتوب عليه ثانية). يحصل ذلك كما لو أن عنف التاريخ لا ينتهي إلا لكي يبدأ من جديد.

إن خط التنمية الذي اخترناه يجد صعوبة في شق طريقه أو تثبيت أقدامه أمام تصاعد المخاطر من كل الجهات. ونقصد بها تلوث البيئة والمناخ، وانتشار الأسلحة الذرية، وظهور الأوبئة الجديدة التي لم تكن تعرفها البشرية سابقاً كمرض الإيدز أو فقدان المناعة. وبالتالي فالمخاطر تتعولم هي الأخرى أيضاً وبشكل متزامن، فوري. وهذا المصير الكوني للكارثة يغلق أفقنا أو يسدّ الرؤيا أمامنا. في كل مكان ترن أصداء التسبيحات المكرورة القائلة بوجود عالم بلا روح وبلا نهضة وثابة، عالم مسحوق تحت ضغط ليبرالية اقتصادية أو رأسمالية لا كابح لها ولا أخلاق، عالم مسحوق أيضاً تحت ضغط تكنولوجيا فاتحة، جبارة، لا إنسانية. في كل مكان ينتشر جو غريب من الخوف والتحذير في مواجهة الأخطار التي يتعرض لها مجتمع الحداثة (أو المجتمع المربوط بعربة الحداثة). ومن كل الجهات نسمع الناعقين بالخراب وهم يتحدثون عن انحطاط فرنسا المحتوم أو حتى انحطاط أوروبا الحديثة كلها. ويقولون لنا إن ذلك حاصل لا محالة.

وهكذا عاد الشك أخيراً إلى موطنه الأصلي : أي الحضارة الأوروبية٥. فالشك مسجل في أعماق ثقافتنا وهو يشكل أفضل وأسوأ

ما فينا. إنه جيد عندما يدفعنا إلى إقامة مسافة نقدية لأنفسنا، أو إلى التفحص النقدي لتراثنا وتجاوز انغلاقيته الجامدة. ولكنه سيء وهدام عندما يدفع إلى اهتزاز الشخصية والتردد والجبن وعدم القدرة على اتخاذ القرار في الوقت المناسب.

ولكن هناك ميزة أو مَلَكَة لا يمكن لأي قوة في العالم أن تسحبها منا أو تنكرها علينا : ونقصد بها ملكة الابتداء أو التدشين الحضاري، وهي العلامة التي لا تخطئ على الحرية البشرية. نحن نمتلك هذه الميزة أو هذه القدرة : أي القدرة على استكشاف المجاهيل وبناء الحضارات. ولكي نستمتع بها علينا أن نتغلب على الخوف الذي يسكننا. وذلك لأننا نقف اليوم على مفترق طرق. نحن في مواجهة حسم الخيار أو حسم القرار بخصوص موضوع خطير يخص وجودنا. فأمام الفوضى، أمام العقدة المتشعبة للأزمات والمخاطر التي تتهددنا قد نستسلم لخط الانحطاط وتثبيط الهمم والتواكل والانهزام أمام التحديات. أو قد نفعل العكس : قد نجمّع كل قوانا لكي ننطلق انطلاقة جديدة بعزم جديد وإرادة لا تلين.

وفي قلب المعمعة والإعصار تُلْقَى علينا، وعلينا وحدنا، مسؤولية توفير الإرادة الصلبة للخروج من المأزق. وهنا تكمن مشكلة عصرنا : فنحن نشتغل بمادة منصهرة أو متفجرة لا تحتمل الانتظار. ومع ذلك فلا يوجد خيار أسوأ من خيار التراجع والانهزام. ففي كل المجالات،

من العلم إلى الاقتصاد، ومن العلاقات الدولية إلى الفن، نلاحظ ضرورة تشكيل أخلاقية عالية جديدة مبنية على النزعة الإنسانية، على الثقة بالإنسان وقدراته، إذا ما أردنا مواصلة التقدم وخلع المعنى المحسوس عليه. إن هذا المطلب أصبح ملحاً الآن أو عاجلاً أكثر من أي وقت مضى.

فلنعرف إذن كيف نستمد من الماضي المجيد ليس الحنين الارتجالي إلى الوراء، أي إلى عصر ذهبي مضى وانقضى، وإنما الطاقة الخلاقة لتوليد إرادة جديدة. وحدها اليقينيات الإيجابية والقوية تتيح لنا التغلب على النحس والشؤم والعقلية الانهزامية التي تسيطر على البعض حالياً. فالشعوب والدول تمتلك الإمكانيات والوسائل القادرة على تغيير العالم. وبالتالي فالكارثة التي يتنبأ بها غربان الشؤم ليست مؤكدة الحصول ولا محتومة سلفاً. والصدامات بين الثقافات والأديان ليست قدراً محتوماً. بمعنى آخر فإن صدام الحضارات ليس إجبارياً. وهناك خيار آخر ممكن سواه أمامنا. هناك وعي جماعي مصمّم على تحاشي هذه المطبّات والتقوقعات المشؤومة. كما أنه مصمم على ابتكار الشروط الملائمة للتعايش والحياة المشتركة الطيبة بين مختلف الأديان والشعوب. ونحن نمتلك بين أيدينا الوسائل القادرة على زحزحة الجبال وكسر جدران الأحكام السلبية التي تفصل بين الشعوب أو

تجعلها تكره بعضها بعضاً. ها نحن نقف أمام هذا المفترق الحاسم حيث تتراءى لأول مرة إمكانية المصالحة بين إرادة القوة وإرادة المعنى، بين حب التسلط والأنانية من جهة، وحب الآخرين والرغبة في خدمتهم من جهة أخرى. لأول مرة تتراءى أمامنا إمكانية المصالحة بين السماء والبحر، بين طائر النورس وسمك القرش. وهكذا تتحقق المصالحة الكاملة بين الأضداد، هذه المصالحة التي طالما حلم بها الفلاسفة والشعراء أو تغنّوا بها. نعم، هناك إمكانية لإخاء جديد بين البشر. هناك معنى ممكن، والبشرية ليست محكومة بالعبثية أو بالعدمية والتبعثر والضياع. وهناك قيم ومثل عليا موجودة، وهي تستحق أن ندافع عنها. وكل هذا الكتاب مكرس للتحدث عن مسارنا البشري المشترك من أجل أن نتقدم بخطى أكثر ثباتاً على طريق الغد. وإلا فلا معنى له ولا أهمية.

الفصل الأول

خيبة الأمل

الفصل الأول

خيبة الأمل

إنه يدور، نعم يدور هذا العالم المشكَّل من كرة أرضية صغيرة لامعة نكاد نتوهم أننا قادرون على القبض عليها بباطن اليد ! إنه يدور. ولكن عالمنا مليء بالآلام وينزف من ألف جرح وجرح. إنه يشبه رقعة الشطرنج المذكورة في الحكايات العربية والتي تخوض البيادق الحية معارك حقيقية على سطحها. إنه عالم في حالة انصهار، عالم مجروف من قبل إعصار من الأهواء الهائجة، ولكنه عالم سائر إلى حتفه دون بوصلة تهديه ودون تماسك. إنه عالم هائج، سكران، عالم مهووس بالسرعة، ولكنه ينضج بالحمى. إنه عالم محروم من الفكر الجديد، من المثل العليا التي تشحن البشر وتدفع بهم إلى اجتراح المعجزات.

إن حالتنا اليوم تشبه حالة الناس في عصر النهضة الأوروبية. ففي ذلك الوقت أخذ الأفق يتسع بفضل الاكتشافات الجغرافية وأخذت الأرض تضيق. فالرواد الطليعيون وصلوا إلى الشواطئ الجديدة هذا في حين أن العالم القديم كان منعماً بالنوستالجيا، إي بالحنين المبهم

الغامض وذلك خوفاً من الانحطاط. كان التطلّع نحو المزيد من النزعة الإنسانية يكبر في حين أن شبح التعصب الديني وحروب الأديان كان يخيم بظله الثقيل على الأفق. وشعر إنسان عصر النهضة بالضياع تجاه هذا المشهد، وراح الضمير يتساءل : ما الذي يوجد فيما وراء هذهِ التحولات الجارية؟ هل يوجد فجر جديد أم ظلمات الانحطاط؟ وهكذا راح إيراسم[٦] قبل خمسة قرون يؤلف كتابه "**ثناء على الجنون**" لكي يرد على كتاب "**قارب المجانين**" للكاتب سيباستيان براندت[٧]. وهنا نجد أنفسنا أمام وجهين لعصر النهضة : وجه مبتسم، متفائل، مثالي، ووجه عابس، وقح، متقزّز ومتشائم من الحياة. وحتى يومنا هذا نلاحظ أن الجنون لا يزال موجوداً، وهو يتأرجح أو يتردد. فهناك الجنون الحلو، المرح، أو الفرح بهذا العالم المليء بكل الإمكانيات والمفتوح على كل الآفاق والاحتمالات الممنوحة لخيالنا، والتي تخطر على بالنا. إنه عالم مليء بالصور التي تمر أمامنا كشريط متواصل، ومليء بالمعارف العديدة التي تمنح نفسها لمن يريد أن يتعرف عليها ويفهمها. ولكن هناك جنون آخر مظلم، مقلق، جنون الحروب الأهلية التي لا نهاية لها، الجنون الهائج للإرهاب الأعمى، للمجازر الجماعية والتطهير العرقي. وبالتالي فكل أنواع الجنون موجودة على قارب البشرية. ولكن السؤال المطروح هو التالي : هل سيبتعد قارب المجانين عن أرض النعيم، أم أنه سيرسو على شواطئها كما يعدنا بذلك أنبياء التكنولوجيات الجديدة.

إن عصرنا خاضع للعقلانية التقنية الزائدة عن الحد. وهو منخرط في تصعيد تكنولوجي جهنمي لا يبدو أن شيئاً قادر على إيقافه. كم انعكست الأمور بالنسبة لنا وأصبحت مختلفة ومضطربة، نحن أبناء التقدم العلمي الذين شربنا من ينبوع المعرفة حتى وجدنا ماءه مراً في النهاية[٨] ! نحن أمام مهرجانات، رقصات مسعورة أو جنائزية، ألعاب صاخبة ورقصات القديس "غي"[٩] : هذه هي الباليه التي ينبغي علينا منذ الآن فصاعداً أن نستسلم لها إذا ما أردنا أن نرافق إيقاع العالم. ينبغي أن نسأل الأشرار والسحرة المشعوذين، أن نكتشف تصدعات التاريخ، أن نصغي للنذير الهاجس والكاهن الإغريقي الذي يتنبأ بالغيب. باختصار لقد آن الأوان لأن نعترف بفقدان المعالم والصوى التي كانت ترشدنا أو تدلنا على الطريق. آن الأوان لكي نبذل كل ما في وسعنا من أجل استكشاف الطريق مرة أخرى، من أجل استعادة التجارب الأولى الطازجة، من أجل أن نمتلك مرة أخرى إمكانية الدهشة أمام ظواهر العالم. فهي وحدها التي تجعلنا قادرين على أن نستبصر حقيقة الواقع اليوم.

الفرص الضائعة

الآن تعود إلينا ذكرى الفرص الضائعة، ذكرى تلك اللحظات الرائعة حيث توافر لنا حظ لم نعرف كيف نستغله أو نستفيد منه. لنعد إلى

الوراء قليلاً. في عصر النهضة اخترع غوتنبرغ[10] المطبعة ذات الحروف المتحركة. وهكذا أصبح الكتاب المطبوع ممكناً وحل محل النسخة المخطوطة باليد والتي كانت تستغرق عدة شهور أو سنوات لإنجازها. وعندئذ تم طبع كنوز الأدب والفكر والمعرفة ونشرها بين الناس بسهولة. هذا في حين أنها كانت قبل ذلك محفوظة بكل حرص في المكتبات الخاصة للأمراء والأديرة على هيئة مخطوطات لا يطلع عليها إلا القليلون المحظوظون. وعندئذ تمكن الناس لأول مرة من اكتشاف الفكر الإغريقي-اللاتيني بكل دهشة وإعجاب. لقد اكتشفوا نماذجه في الحكمة وشعروا بالتأثر البالغ أمام الأشكال الصافية لآدابه وفنونه. لقد انبثقت تلك الروائع أمامهم وخرجت من قمقم القرون وكأنها منبعثة، متجددة، حيّة. وعندئذ أخذ الرسامون يحققون التناسق بين التراث المسيحي في الفن والتراث الإغريقي والروماني الكلاسيّ. أخذوا يموضعون المشاهد الدينية داخل الإطار الوثني للأروقة المقنطرة والأعمدة اليونانية. وما عادوا يترددون في إقامة مسافة نقدية حيال عقائدهم المسيحية، وهي مسافة تصل أحياناً إلى حد الخروج عليها أو عدم احترامها، ففي لوحة "البشارة" المدهشة التي رسمها لورنزو لوتو[11] مثلاً نجد أن مريم العذراء تدير ظهرها للرب وكتاب صلواته، هذا في حين أن ظهور الملاك بوجهه المهلوس الهاذي يجعل القطة المرعوبة تهرب بسرعة. ويمكن أن نضرب أمثلة

أخرى على جرأة الفنانين والمفكرين في عصر النهضة. لنفكر هنا، ولو للحظة، بأعمال إراسم، ومونتيني[١٢]، ورابليه[١٣]، وليوناردو دو فانشي[١٤]، ودورير[١٥]، التي جسدت عن طريق المعرفة بالفنون والعلوم هذا المبدأ الشهير الذي نص عليه بيك الميراندولي[١٦] : "لا يمكن أن نرى كائناً أجمل ولا أروع من الإنسان". ولنفكر أيضاً بأعمال كريستوف كولومبوس[١٧]، وأميريغو فيسبوتشي[١٨]، وفاسكو دو غاما[١٩]، الذين كشفوا لأول مرة عالماً جديداً مليئاً بالوعود والحظوظ والفرص المؤاتية للإنسان. وهو عالم جعل الغربيين أو الأوروبيين لأول مرة في مواجهة الحضارات الأخرى البعيدة وفي احتكاك مباشر معها.

هكذا راح كل شيء يأخذ مكانه الطبيعي لكي تتحقق معجزة الوعي الجديد، لكي يولد وعي جديد في عصر النهضة الأوروبية. وهكذا تلقى الإنسانيون (أو المفكرون ذوو النزعة الإنسانية) إرث الخيميائيين، أي المشتغلين بالكيمياء القديمة والذين كانوا يعتقدون بوجود تشابهات سرية تنسج علاقات معقدة بين الإنسان والكون : أي بين الكون الصغير والكون الكبير[٢٠]. فالبشرية التي كانت قد أنجزت للتو اكتشاف العالم جغرافياً راحت تستشعر بشكل غامض أنها واحدة. والأكثر استنارة بين الفلاسفة راحوا يعتبرون أنفسهم "مواطنين للعالم"، أي كوسموبوليتيين. وراحت كلمة :كوسموبوليتي" تنتشر في أوساط المفكرين ذوي النزعة الإنسانية (هيومانيزم Humanisme).

راحت هذه الكلمة توسع الدائرة الإغريقية للإنتماء لكي تصبح بحجم العالم. ونقصد بالدائرة الإغريقية هنا المدينة أو المجتمع الإغريقي الذي كان يفصل بين الداخل والخارج، أو بين المواطنين الحقيقيين والأجانب الدخلاء. أما في عهد الفلاسفة النهضويين أو الإنسانيين فلم يعد هناك من دخيل أو أجنبي. الجميع أصبحوا مواطنين كوسموبوليتيين الجميع أصبحوا متساوين في الإنسانية. وهكذا ولأول مرة منذ ظهور المسيح رحنا نأمل بمجيء عهد جديد يتصالح فيه الجنس البشري مع نفسه ولا يعود منقسماً على ذاته.

ولكن ما إن استشعر الإنسان هذه الإمكانية الرائعة لأول مرة حتى راح هذا الحدس الجميل يخرَّب ويُدمَّر. وراحت أوروبا تتمزق وتستسلم لشيطان القوة العمياء وتحارب بعضها بعضاً بالحديد والنار. ففتح العالم الجديد (أي أمريكا) تحول إلى النهب والسلب والمجازر ضد السكان المحليين. هذا في حين أن نيران محاكم التفتيش راحت تشتعل. وراح الرهبان المتعصبون بشكل أعمى يحاولون تدمير كل مظاهر الحضارة الأمريكية السابقة لكريستوف كولومبوس. بل راحوا يدمرون حتى ذكراها لكيلا يبقى منها أثر على وجه الأرض ولا في التاريخ بحجة أنها كافرة، وثنية، غير مسيحية. وراحت المجازر والخيانات والاغتيالات ترافق فتح أمريكا. وخدع "بيزارو"[٢١] ثقة "أنكا أتاهوالبا" من أجل أن يأسره ويصفّيه جسدياً، وأما كورتيس[٢٢] فقد

قبض عن طريق المفاجأة والحيلة على الإمبراطور الأزتيكي موكتيزوما الذي وثق به وكان يعتقد أنه سيرى فيه ذلك القديس الأبيض والملتحي الذي كانت أساطير الهنود الحمر ترهص بمجيئه. وحده "لاس كاساس"[٢٣] تجرأ على معارضة جرائم المرتزقة الإسبانيين باسم الدفاع عن وحدة الجنس البشري الذي تم الاعتداء عليه كله من خلال الاعتداء على الهنود الحمر. وراح الشاعر بابلو نيرودا يكتب بعد ذلك بزمن طويل هذه العبارة : "لست من أولئك الذين يجيئون من عصر الأنوار" إشارة إلى ما فعله الفاتحون الأوروبيون المجرمون بأسلافه القدماء وكيف حاولوا استئصالهم والحلول محلهم.

وفي الوقت الذي كان فيه الجشع والتعصب الديني يكتسحان العالم الجديد، كانت الفتنة المذهبية تنتشر في العالم القديم (أي أوروبا) وتستفحل بين الكاثوليك والبروتستانت. ينبغي العلم بأن الإصلاح الديني الذي بشّر به لوثر[٢٤] وكالفن[٢٥] كان يشعل النفوس والأرواح في كل أنحاء أوروبا. وقد ابتدأ في منطقة "الفلاندر" حيث تغلغلت الأفكار الإصلاحية الجديدة بسرعة ، مجلوبةً إليها من خلال تيارات التبادل التجاري. وراحت هذه الأفكار تؤجج التمرد ضد الهيمنة الأسبانية للملك فيليب الثاني[٢٦] المغرور بشخصه والمتديّن أكثر من اللزوم. وبعد ذلك بفترة قصيرة راحت الحروب الدينية، أو بالأحرى المذهبية بين الكاثوليك والبروتستانت، تمزق فرنسا. وراح المساء يخيم على باريس

عشية مجزرة سانت بارتيليمي[٢٧] الكبرى التي اجتاحت العاصمة ووصفها الشاعر أغريبا دوبينيي[٢٨] قائلاً : "كان دخان الدم والأرواح يصعد إلى السماء". وعندما شعر المذهب الكاثوليكي بأنه مهدد راح يتشدد أكثر ويتصلّب في مواقفه من خلال تبنيه للإصلاح المضاد. وهكذا راحت محاكم التفتيش الموضوعة تحت سيطرة المكتب المقدس في الفاتيكان تنبعث من جديد. وأعيدت قائمة الكتب المحرمة إلى سابق عهدها من أجل منع انتشار الكتب العلمية والفلسفية في أوساط الشعب المسيحي. وراحت رهبانية اليسوعيين المدعومة من قبل البابا بولس الثالث[٢٩] تزيد من ضغطها على العقيدة التي بلورها المجمع الكنسي المنعقد في مدينة "ترانت" الإيطالية. وفي عام ١٦١٨ تعرض بعض القادة الكاثوليك في براغ إلى الرمي من النوافذ عن طريق المتشددين البروتستانت. وكانت تلك هي الشرارة التي أشعلت حرب الثلاثين عاماً بين الطرفين والتي اجتاحت ألمانيا وأوروبا الوسطى والشرقية. وأدت هذه الحرب الأهلية والطائفية إلى إبادة عدد كبير من سكان أوروبا وإلى تدمير الإمبراطورية المسيحية الجرمانية المقدسة. ثم انتهت عام ١٦٤٨ عندما وقع الطرفان معاهدة ويستفاليا للسلام. وهي المعاهدة التي حققت التوازن بين الطائفتين الكبيرتين على أرض القارة الأوروبية. ولكنها لم تحفظ السلام لزمن طويل فاندلعت الحرب مرة أخرى بسبب المنافسة القديمة بين سلالة

البوربون وسلالة الهابسبورغ ثم بسبب تعطش لويس الرابع عشر[٣٠] للمجد والهيمنة. وكان الفشل. ولكن بعد نصف قرن من ذلك التاريخ راحت الروح الإنسانية والنهضوية تبزغ من جديد وبصيغة أخرى. وحصلت عندئذ "أزمة الوعي الأوروبي"[٣١] في بدايات ١٦٨٠. وعندئذ راح الأوروبيون ينتقدون عقائدهم الدينية ويضعونها على محك التساؤل والشك. وراح الشك العقلاني الذي أرهص به مونتيني وأكد عليه ديكارت بكل وضوح حوالي عام ١٦٣٠ يفكك الحقائق السائدة والراسخة آنذاك. وراح المفكر "فونتينيل"[٣٢] قبل فولتير يكشف جذور التعصب الديني والعقلية الغيبية الخرافية. وهكذا راح المحدثون يعارضون القدماء رافضين تقليد العهود اليونانية الرومانية القديمة وداعين إلى استخدام اللغات العامية القديمة بدلاً عن اللغات الفصحى اللاتينية. وراح إسحاق نيوتن[٣٣] يحدث ثورة في علم الفيزياء عن طريق وضع حد نهائي للفصل الموروث عن أرسطو بين العالم الأرضي والعالم السماوي، وقال بأن قانون الجاذبية ينطبق عليهما معاً، أي على الكون كله. وكذلك دعوه بقانون الجاذبية "الكوني". وقال بأن القوة التي تسقط التفاحة إلى أسفل هي نفس القوة التي تمسك القمر في مداره فلا يتزحزح عنه قيد شعرة. ووصف كل ذلك بشكل دقيق وعبَّر عنه بواسطة المعادلات الرياضية أو القوانين الرياضية. وفيما وراء الثورة الكوسمولوجية، أي الكونية، فإن فكرة المساواة راحت

تدخل إلى الفكر السياسي الحديث. وعما قريب سوف يبتدئ فلاسفة التنوير بتطبيق النقد العقلاني على المؤسسات البشرية وفي طليعتها الدين المسيحي. وراح مونتسكيو[٣٤] ثم روسو[٣٥] من بعده يخترعان الفكر السياسي الجديد وراح فولتير[٣٦] يستعين بالعقل من أجل الدفاع عن فكرة التسامح. وراح ديدرو[٣٧] ودالامبير[٣٨] يدمران أسس التعصب الديني من خلال الموسوعة الشهيرة (الأنسيكلوبيديا). وعلى هذا النحو أخذت رياح جديدة تهب على الغرب، أقصد رياح الفكر النقدي الذي يتخذ مسافة ما عن العقائد الموروثة المقدسة، الفكر الساخر بالعادات والتقاليد الامتثالية. وهذا الفكر كان مختلطاً بالفضول المعرفي وحب معرفة الحقيقة، ورفض الأحكام المسبقة أو الآراء المنحازة والمتعصبة طائفياً. وهي أحكام مسبقة راسخة في العقلية الجماعية لمختلف الطوائف والمذاهب منذ زمن طويل. ولذلك حاربها فلاسفة التنوير بقوة وحاولوا اقتلاعها من جذورها والقضاء عليها. وأصبح الناس يرغبون منذ الآن فصاعداً في أن يفكروا بأنفسهم لا أن يتلقوا الأفكار الجاهزة عن آبائهم وأجدادهم. أصبحوا يعتقدون بأنهم يتشاطرون العقل فيما بينهم وأنه الإرث المشترك للبشرية "وأن الطبيعة هي ذاتها في كل مكان بفضله" كما يقول فولتير في كتابه : "**مقالة عن العادات والتقاليد**"[٣٩]. وفيما وراء البحار فإن العقل راح يربط بين البشرية كصلة وصل مشتركة. وأكبر تجسيد عملي على

ذلك الثورتان التوأمتان اللتان حصلتا على كلتا جهتي المحيط الأطلسي : وأقصد بهما الثورة الأمريكية والثورة الفرنسية[٤٠].

ولكن هذه الآلة، أي آلة العقل، سرعان ما تضخمت واحتدمت. فالعقل الذي كان سلاحاً فعالاً ضد التعصب الديني والطائفي تحول بدوره إلى أداة مستعملة لخدمة تعصب جديد. وهكذا راحت الفلسفة تتصلَّب وتتشنَّج. راحت تنبذ أو تكفّر كل أولئك الذين يقاومونها أو لا يخضعون لها. وعلى هذا النحو انقلبت الثورة الفرنسية وتحولت إلى عنف وإرهاب. وكان موت الملك تحت المقصلة علامة لا تخطئ على الانتصار النهائي للأفكار الجديدة وعلى فشل التنوير في آن معاً. ثم راحت أوروبا الملكية تنهض في وجه فرنسا الثورية. والواقع أن سقوط الباستيل في باريس أشعل الحرائق في كل أنحاء أوروبا. وهي حرائق ظلت مشتعلة طيلة القرن التالي كله، أي القرن التاسع عشر. فمن ميسولونغي[٤١] إلى الثورة الوطنية البلجيكية مروراً بـ "ريزورجيمنتو"[٤٢]، إلى تراقص الأنظمة والمشروعيات والانقلابات في فرنسا ذاتها، نلاحظ أن الأمور لم تهدأ في أوروبا على مدار قرن بأكمله بعد الثورة الفرنسية. وهنا أيضاً فشل آخر.

ثم كانت النهضة الصناعية وازدهار التقنيات والآلات (من الآلة البخارية إلى الكهرباء، ومن صناعة الألمنيوم إلى صناعة الفولاذ

والحديد الخاصة). وكل ذلك أدى إلى تهدئة الهيجانات السياسية بمعونة التوسع الاقتصادي والازدهار المادي. ولكن النار كانت لا تزال كامنة تحت الرماد. وهكذا انفجرت الأمور في فرنسا عام ١٨٣٠ و١٨٤٨. ثم حصل إذلالنا على يد الألمان في معركة "سيدان"[٤٣]. ثم استمر التمزق الفرنسي الذي يشبه الحرب الأهلية من خلال الصراعات الدينية أو قضية درايفوس[٤٤]. وعندئذ راح الفنانون والشعراء الرمزيون[٤٥] يرفضون النزعة المادية والعلموية المتطرفة. راحوا يحلمون بعالم خيالي أثيري يقع فيما وراء الماديات. وراحت الأهواء الليبرالية والقومية تنتشر في الإمبراطوريات الواسعة المتشكلة إثر مؤتمر فيينا وتثير فيها الاضطرابات. ثم اندلعت بعدئذ الحرب العالمية الأولى واجتاحت أوروبا ودمرتها. ولكي تحصل تلك المجزرة الهائلة والبشعة كان ينبغي على المتحاربين أن يجيشوا كل طاقاتهم وكل الإمكانيات الضخمة للتكنولوجيا الأكثر حداثة ولأجهزتها الصناعية الكبرى. فلأول مرة استخدمت الطائرات والأسلحة الكيماوية في الحرب.

ولم تستطع الإمبراطوريات المنخورة أن تصمد أمام كل هذه الهزات والخضات. ونقصد بها الإمبراطورية النمساوية-الهنغارية، والرايخ الألماني الحديث. كما نقصد الإمبراطوريات العتيقة الاستبدادية بشكل مطلق كالإمبراطورية الروسية، أو الإمبراطورية العثمانية. وأصبح

الهاجس الأكبر بالنسبة لجيل سياسي بأكمله هو تحاشي وقوع حرب جديدة. ولكن أوروبا راحت تتيه وتضل الطريق من جديد. راحت التوتاليتارية تترسخ في القارة الأوروبية كمرض الغنغرينا. والروح السخية التي كانت وراء تأسيس عصبة الأمم ومعاهدة بريان-كيلّوغ[٤٦] أخذت تستنفذ طاقتها. يحصل ذلك كما لو أن قارتنا محكومة بقدر تراجيدي. وهكذا سارت نحو الهاوية وكأن ذلك قدر محتوم بالنسبة لها، قدر لا فكاك منه. فأوروبا التي حنت قامتها أمام هتلر شهدت بعد معركة فيردان[٤٧] استلام مونتوار[٤٨]. وهكذا راحت الحرب تمزق العالم من جديد.

وخرج الإنسان منها مخبولاً. وقد استخدمت القنابل الذرية لأول مرة لكي تضع حداً للحرب العالمية الثانية، ولكن بأي ثمن ! ومرة أخرى راح البشر يكررون القسم نفسه :"أبداً لن يحصل ذلك مرة أخرى" ! أبداً لن نرتكب هذه الحماقة بعد الآن ! ولذا تم تأسيس الأمم المتحدة على أنقاض عصبة الأمم بعد أن جُدِّدت بناها وهياكلها، وذلك من أجل وضع حد للحرب على وجه الأرض. ثم جاء تشكيل الوحدة الأوروبية من أجل تصحيح نواقص معاهدة فرساي. وراحت الصداقة الفرنسية-الألمانية تنهي قرناً ونصف من الصراع الدامي بين الأمتين. وراحوا في كل مكان من القارة الأوروبية يحاولون ترسيخ اقتصاد أكثر عدالة، وأكثر تضامناً، وذلك لكي تصبح الشعوب أكثر تقارباً، ولكي تصبح موحَّدة في السلام عن طريق الديموقراطية.

ثم صدر الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي أكّد بشكل مهيب وحدة الجنس البشري. وكان هذا الإعلان بمثابة انتفاضة لوعي البشرية التي خرجت محطّمة بعد الحرب العالمية الثانية. وكان ينبغي عليها أن تسترجع أنفاسها ثانية وتستخلص الدروس والعبر من تلك الكارثة المرة. ولكن بعد مؤتمر يالطا سقط الستار الحديدي على القارة الأوروبية كما قال ونستون تشرشل، وقسمها إلى قسمين. وراحت الحرب الباردة تقسم العالم إلى كتلتين متخاصمتين، كتلتين منخرطتين في منافسة جهنمية من أجل تجميع أكبر قدر من الترسانة النووية. وراح كبار الاستراتيجيين العالميين يخترعون مصطلح "توازن الرعب" للدلالة على الوضع. وراح العالم يعيش في ظل الخوف من حرب جديدة يمكن لأي شرارة أن تشعلها.

ولكن سقوط جدار برلين عام ١٩٨٩، ثم انهيار الاتحاد السوفييتي بعد ذلك بقليل، كسرا جدار القلق والرعب. وبدا وكأنه لم يعد هناك من شيء قادر على عرقلة توحد العالم وسلامه واستقراره. وراحت التبادلات التجارية تكثر وتتسارع بين مختلف مناطق العالم. وأخذ سريان المعلومات يصبح أكثر سيولة وسرعة. وأصبح كل واحد قادراً على سماع ضجيج العالم. أصبح الكوكب الأرضي كله في متناول يديه. وزالت الحواجز والحدود بين البلدان. وأشعرتنا المخاطر الكونية التي

أخذت ترتسم على الأفق بأنه ينبغي علينا منذ الآن فصاعداً أن نشكل هويات متضامنة لا متناحرة.

ولكن على الرغم من كل هذا التوجه نحو الوحدة والسلام والنظام العالمي فإن الانقسامات الجديدة أخذت تظهر لكي تحل محل الانقسامات القديمة. وراحت تهدد بحصول اضطرابات وفرقعات خطيرة. وهكذا راحت تظهر الانقسامات الثقافية واللغوية والدينية والعرقية والقبلية بين الشعوب. ولم يعد العنف والحرب يعرفان هدنة أو توقفاً وذلك بدءاً من الإرهاب العالمي وحتى الصراعات المحلية التي تتأبد وتترسخ دون أن تجد لها حلاً. وراح السؤال التالي يطرح نفسه : هل سنترك الفرصة مرة أخرى تفوتنا، أقصد الفرصة التاريخية، أو التي يدلنا عليها التاريخ؟ في مثل هذه اللحظة الحرجة يوشك العالم أن ينقلب إلى الجهة الأخرى التي لا مرجوع عنها، جهة التطاحن والدمار بين الشعوب والثقافات والأديان. ولكن يمكن له أيضاً أن يختار الحل الثاني، أن يبصر إمكانية البناء والعمران والتضامن. يمكن له أن يستملك الإرادة والطاقة والموهبة وقوة الاقتناع التي ينبغي أن توظَّف في خدمة القضية الوحيدة التي لها معنى : أقصد قضية الإنسان المتضامن مع أخيه الإنسان ومع البشرية بأسرها.

ولكن الإحباط، كما لو عن طريق مكرٍ تراجيدي للتاريخ، يمكن أن يصيبنا في اللحظة التي نبصر فيها هذا المخطط الجماعي الجديد

للبشرية. ففي اللحظة التي أصبحت فيها الممارسة العملية ممكنة، لم يكن أبداً التساؤل المتشكك حول جدواها أكثر إلحاحاً ومتانة. فالسؤال المطروح هو التالي : كيف يمكننا أن نتصرف، وطبقاً لأية معايير، إذا كان ينبغي علينا أن نأخذ بعين الاعتبار المدى القصير والمتوسط والطويل؟ كيف يمكن أن نتصرف، وفي أي اتجاه، إذا كانت مغانم اليوم سوف تسبق مباشرة كوارث الغد؟ كيف يمكن أن نفسر سبب استمرارية العنف والإرهاب بعد نهاية الصدامات الإيديولوجية وانهيار العقائد السياسية التبشيرية التي أوهمتنا بالخلاص دون أن يتحقق؟ وهكذا عادت تلك الفكرة القديمة إلى الظهور من جديد : أقصد فكرة وجود شر راديكالي مدفون في أعماق الإنسان أو في أعماق الروح البشرية. وشبح الكاميكاز القاتل هو الذي يجسد هذا الشكل الجديد من الرعب الفظيع اللامقبول على المسرح الدولي. فمع تعددية التفجيرات الانتحارية راحت تنتشر فكرة تقول بأن الأسوأ قد يحصل في أي لحظة وان كل السيناريوهات ممكنة. وهكذا أدت عودة القلق إلى فقدان الثقة الشمولية بين البشر. وذلك لأنه يوجد في أعماق الكائن الإنساني جزء معتم، جنائزي، ميّال إلى العنف والدمار. وتحت الوجه المشرق والناعم لأبولون[٤٩]، الوجه الذي يمثل إشراقة الحضارة، يوجد دائماً ذلك الوجه المتوحش والمظلم لديونيسوس[٥٠]. وعصرنا ينحو باتجاه عبادة هذا الوجه المظلم عندما يحاول جاهداً رفض هذه

الطبيعة المزدوجة للإنسان، وبالتالي للعصر نفسه. وهكذا يظل جانب الألم والموت مغروساً في أعماق أعماقنا ومتأبداً فينا.

ومع ذلك، فوراء الكوارث والنكبات، وراء كل الجراحات والآلام، يظل الأمل مشتعلاً والطموح في تجاوز السلبيات موجوداً. يظل الأمل في النهضة حاضراً لكي نكتشف "في الرماد" "فجرا نقياً" كما يدعونا إلى ذلك أدونيس في كتابه : "**ذاكرة الريح**".

اللعنة أو الحظ العاثر:

لماذا نبدو عاجزين عن استخلاص الدروس والعبر من الماضي؟ لماذا نرتكب دائماً نفس الأخطاء ونقع في نفس المطبات؟ في الواقع إن الإنسان يعتقد بأنه قادر على كل شيء لأنه مسلَّح بالتكنولوجيا. أليس هو بروميثيوس[٥١] الذي سرق النار من الآلهة؟ وفجأة نكتشف الخبر الصاعق كالبرق، أو كالرعد عام ١٩٤٥ : فجأة نكتشف تلك المحرقة المرعبة لليهود. وبعدها مباشرة يصيبنا الذهول أمام قصف هيروشيما وناغازاكي بالقنابل الذرية. وهكذا حلّ "العار البروميثي" محل الطموح أو المجد البروميثي طبقاً لعبارة غونتير انديرز. لقد لمح الإنسان يوم القيامة والفناء الشامل للأرض ومن عليها، لقد لمحه ولو للحظة ورآه بأم عينيه آنذاك ومع ذلك فقد استمر في مسيرته الصاعدة نحو المجد، نحو السيطرة على العالم والطبيعة. وهكذا نلاحظ أنه يرتكب

دائماً الخطيئة نفسها، ويتعرض دائماً للعقاب نفسه. لا، لم يتعلم الإنسان شيئاً من دروس الماضي.

فالرديء يختبئ خلف مظهر الجيد، والعبثي يتزوج حدود المنطقي، والانحطاط يتخذ هيئة التقدم. والكل يقولون إنهم لا يريدون الحرب، ومع ذلك فالحرب تقع أو تندلع. لا أحد يقبل بالعذاب وآلام المرض ومع ذلك فمرض الإيدز (أي فقدان المناعة) يجتاح بصمت وهدوء آسيا وإفريقيا ويبيد سكانهما. ولا احد يريد أن يسيء إلى البيئة والمناخ، ومع ذلك فإن حالة كوكبنا الأرضي تتدهور أكثر فأكثر كل يوم. وبالتالي ففي الوثبة نفسها والانطلاقة نلاحظ أن المتضادات تتقدم : أقصد بذلك أن الحضارة والبربرية تتقدمان جنباً إلى جنب وفي الوقت نفسه، وكذلك المعرفة والجهل، والتواصل المتسامح وكذلك التعصب أو انقطاع الحوار.

إن البشرية المبهورة باختراعاتها لا تتمكن من السيطرة على هذه الاختراعات. والحداثة التي تشبه "قفصاً من حديد" حسب تعبير ماكس فيبر[٥٢] والذي اعتقدنا أنه انكسر، راح ينغلق على نفسه.

وهكذا أصبح الإنسان يجد نفسه سجين حاضر أبدي. وأصبحت ديكتاتورية السرعة، واللحظة المباشرة، أو اللحظة المتزامنة تهيمن على الجميع. وأصبحت ديكتاتورية الأسواق الرأسمالية والشركات الكبرى

تفرض قوانينها على الدول والحكومات أياً تكن. وأصبحت ديكتاتورية الافتراضية الإعلامية إن لم نقل الوهمية الإعلامية تحول القضايا العامة إلى مشاهد مسرحية واسعة تسيطر فيها الصورة على الواقع. ثم تجيء أخيراً ديكتاتورية التقنية والتكنولوجيا التي تشمل وتهيمن على كل الديكتاتوريات السابقة لكي تفرض إيقاعها على الإنسان وتضيِّق باستمرار من فضاء الخيار الحر، وبالتالي من الفضاء الأخلاقي. وهكذا يجد الإنسان نفسه وكأنه سارق نار ضلَّ طريقه وتاه. وبالإضافة إلى الأضرار الناتجة عن الإفراط في التقنية والتكنولوجيا، فإننا لا نجد الجواب إلا في المزيد من الحداثة. وهكذا نجد أنفسنا وقد عدنا إلى الحقيقة العميقة التي كشف عنها الفيلسوفان أدورنو[٥٣] وهوركهايمر[٥٤] عندما قالا : "الرعب والحضارة شيئان متلازمان".

ينبغي العلم بأن تاريخ البشرية يرتكز على الازدواجية الثنائية الكائنة بين الإنسان والطبيعة. فملاحم هوميروس، كما المآسي الإغريقية، ما انفكت تستكشف هذه القضية الأساسية : أقصد قضية اللحمة الكائنة بين الإنسان ومحيطه الطبيعي. وقد شغلت هذه القضية عقل البشرية طوال قرون عديدة. كما شغلت البحوث الفلسفية على مدار القرون، وكذلك القصائد والأناشيد والأشعار. ولكن ها نحن ندخل عصراً نشهد فيه لأول مرة الخسارة الطبيعية أو

حتى اختفاءها من على سطح الأرض. فعلى خريطة العالم ما انفكت الغابات تتحسر والمساحات الخضراء تتراجع. ولكن في كل مكان خصصوا "حيزاً محفوظاً" للطبيعة حيث تبدو وكأنها تشبه قطعة من متحف. وثمار أعمالنا ما انفكت تنتشر في كون اصطناعي أو معادة فبركته. وأخذت تتراءى لنا المرحلة النهائية لهذا التطور الجهنمي حيث ستصبح الحياة، بل الإنسان نفسه، عبارة عن مادة تصوغها التكنولوجيا على هواها وتتلاعب بها. لقد دخلنا في عصر الاستنساخ البشري أو صناعة الجنين في المختبر ولا زائد لمستزيد. وكما قال هيدغر[٥٥] في عبارة مرعبة فإننا سنصبح عبارة عن "مادة بشرية مقرونة بالهدف المحدَّد لها سلفاً". بمعنى آخر فإننا سنصبح شيئاً بين الأشياء، أو سلعة بين السلع لا أكثر ولا أقل. هذا هو المصير الذي يصوغه لنا عالم التقنيات والتكنولوجيا الذي لا يعرف كيف يتوقف عند حده في تقدمه المتسارع.

وبما أنها أصبحت مفصولة عن الطبيعة التي تستطيع تدميرها، فإن البشرية قد تجد نفسها عما قريب غريبة عن نفسها أو أجنبية عن ذاتها. وذلك لأن التكنولوجيا تهدد الفن والشعر، كما يقول أيضاً هيدغر في نقده للعالم الحديث. قال ذلك وهو يتحدث عن اختفاء جبل سانت-فيكتوار العزيز جداً على قلب الرسام سيزان[٥٦] والذي لا يمكن أبداً أن نراه بعد الآن كما كان يراه. نعم إن الطبيعة الخضراء

تموت في عصر التكنولوجيا، هذه الطبيعة التي طالما تغنّى بها الفنانون والشعراء والرسامون. لقد تخلت البشرية عن صيغ أخرى من الحياة والوجود، وعن صيغ أخرى من العلاقة مع الذات والعالم بعد أن كانت قد عاشت عليها زمناً طويلاً. لقد تخلت عنها دون تفكير تقريباً، لقد تركتها تتقرض وتُدمَّر أمام أعينها. وليس فقط الدروب القديمة تنغلق أمامنا، وإنما أيضاً آثار ذكراها تمَّحي دون أن يكون أحد قد اختار ذلك عمداً أو تحمل مسؤوليته. فالواقع أن الهوس بالتقدم العلمي والتكنولوجي قضى على تعددية العالم أو تعددية أصواته وحوله إلى نمط واحد. وقد خسرت بشريتنا كنوزاً عديدة : نذكر من بينها معرفة الطبيعة ومقدرة الإنسان على الانتصار عليها، وكذلك أنظمة الفكر السحري والسيطرة على الجسد. وعلى الرغم من ثقة القرن التاسع عشر بالعلم والتقدم ومستقبل الإنسان إلا أنه لمح منذ البداية الأضرار التي يمكن أن تنتج عن هذا التقدم بالذات. وقد وعى الروائي الإنجليزي تشارلز ديكنز[٥٧] ذلك. ولذا فهو يبدو متشائماً ومتقززاً من مسيرة البشرية في أكثر كتبه يأساً ومرارة :"صديقنا المشترك". وقد كتبه قبل أربع سنوات من موته عام ١٨٧٠. وقال ما معناه : الأزمنة الحديثة تتطابق مع الغبار أو الدخان. والمقصود بذلك الدخان الأسود الذي أصبح يغطي مباني لندن في عصر التصنيع والتكنولوجيا وحيث أصبحت المعامل تنتشر في كل مكان كالفطر.

ونحن الآن نواجه خطر حصول اختلال عميق، بل حتى خطر حصول تدمير للنظام الطبيعي والاقتصادي للبشرية. فالاستغلال الزائد عن الحد للمصادر الطبيعية يزيد من خطورة المشاكل وبخاصة مشكلة زوال الغابات الخضراء عن سطح الأرض أو انحسارها الكبير والمتزايد. ينبغي العلم بأن تدمير الغابات الأمازونية في البرازيل مثلاً يؤدي إلى اختلال النظام البيئوي والمناخي للكرة الأرضية بأسرها وليس فقط للبرازيل أو لأمريكا اللاتينية. وذلك لأن هذه الغابات تشكل رئة الكرة الأرضية بمعنى من المعاني. ونضيف إلى ذلك عقم التربة وتآكلها وبخاصة في أفريقيا والشرق الأوسط. وقد أدى ذلك إلى تحويل برار خضراء واسعة إلى صحارى. وهكذا أصبح كوكبنا الأرضي قاحلاً أكثر فأكثر. بل حتى التغذية التي نتناولها أصبحت في قفص الاتهام. فهناك مخاطر حقيقية تؤدي دورياً إلى إثارة الذعر والرعب في أوساط السكان والمستهلكين. نضرب على ذلك مثلاً مرض جنون البقر. وبالطبع ليست الحداثة كلها سلبية. فهناك تقدم حقيقي يحصل وأكبر دليل على ذلك زيادة متوسط العمر في المجتمعات الصناعية. ولكن كيف انعكست الأمور إلى مثل هذا الحد حتى أصبحت التغذية تسبب خطر الموت أحياناً في المجتمعات الأكثر تقدماً وتطوراً ! كيف انقلب التقدم إلى نقيضه؟

وهكذا نصل إلى الحقيقة التالية : وهي أن الإنسان ما عاد يخشى خطر الطبيعة بقدر ما يخشى تطرفات العلم وتطرفاته هو بالذات.

والواقع أن السيناريوهات المفزعة لقصص الخيال العلمي أصبحت حقيقة واقعة. وهكذا أكدت صحة حدس ماري شيلي[٥٨] التي ألفت عام ١٨١٧ كتاباً بعنوان : "**فرانكشتاين أو بروميثيوس الحديث**" . وفيه تقول ما معناه : لقد انتهك فيكتور فرانكشتاين القوانين الإلهية. وعرَّض نفسه بالتالي للعقوبة التي يفرضها الله على من يفعل ذلك. فالمخلوق الذي خلقه بيديه انقلب عليه مرهصاً بذلك بالمخاطر التي ينطوي عليها العلم. ولكن ينبغي أن نعترف لفرانكشتاين بالفضيلة التالية : وهي أنه عندما خلق وحشه انطلاقاً من الأعضاء التي وجدها في ركام الجثث وعندما حوَّل الموت إلى حياة كان واعياً تماماً بأنه اجتاز عتبة ضخمة وانتهك المحرمات : أي تجاوز حدوده. ولكن العلم اليوم يميل أحياناً إلى تجاهل حدوده، وبخاصة عندما يبدو أنه يقدم للإنسان الوسيلة التي يحقق بواسطتها خلوده. لقد فقد العلم صوابه وأصبح يعتقد أنه قادر على تحقيق المستحيل. وسوف ندفع ثمن ذلك باهظاً.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو التالي : ما الذي سيحصل للإنسان في هذا العالم عندما يستولي العلم على آليّات الحياة أو يتمكن من التلاعب بالحياة؟ نقول ذلك ونحن نعلم أنه تجري الآن في الغرب مناقشات حامية بين المدافعين عن الحق في تغيير البنية الوراثية للكائنات الحية النباتية وبين المعارضين لهذا العمل بشكل

قاطع. وهذه المناقشات توضح لنا الخوف الذي يرافق كل مرحلة جديدة يتخطاها العلم أو كل قفزة جديدة يقفزها. والاستنساخ هو مثال آخر على هذه المناقشة الكبرى. ولكنه هنا يبدو أشد خطورة لأنه يخص الحيوان والإنسان أيضاً وليس فقط النبات. وهو يبدو مفيداً إذا ما حصرناه بالاستخدام الطبي أو العلاجي. فهو قد يسهم في معالجة الاضطرابات التي تصيب الدماغ وبخاصة مرض الباركنسون (أي الشلل الاهتزازي) أو مرض آلزايمر (أي خرف الشيخوخة). ولكن الانتقادات العنيفة التي وجهت للاستنساخ كانت تستهدف نقطة واحدة : تجاوز العلم لحدوده، أي التلاعب بمادة تشكل قدس الأقداس، مادة تتجاوز النبات والحيوان، أي الإنسان نفسه. وإمكانية الاستنساخ المتعدد الذي ينتهك المحظورات الأخلاقية مرة أخرى يهيِّج الهلوسات الأكثر غموضاً والتباساً لدى الإنسان. نذكر من بينها الرغبة في إعادة خلق شخص ما بعد موته كما كان بالضبط، أو إنجاب أطفال لا يشكون من أي علة جسدية أو نفسية ويتمتعون بكل الصفات الإيجابية المتفوقة أي السوبرمان في نهاية المطاف. في الواقع إن الاستنساخ البشري يذكِّرنا بكل قوة بالأساطير الكبرى للمزدوج أو المثيل، كما يذكرنا بالتوأمة. والأول وارد في رواية "**المزدوج**" لدوستويفسكي[٥٩]، وأما الثانية فواردة في رواية "**السيد في المرآة**" للكاتب ناثانييل هاوثورن[٦٠]. ولكن هاتين الروايتين الوهميتين أو الخارقتين للواقع

تعبِّران عن القلق من الازدواجية والخوف من انحلال الأنا. هذا في حين أن الاستنساخ يبدو وكأنه يفتح أمام الإنسان حقلاً لانهائياً من الممكنات. فالإنسان إذ يصنع إنساناً على شاكلته تماماً يصبح معادلاً لله عز وجل ! وهكذا يسيطر الإنسان على مقاليد الحياة والكون بمقدرته على صنع الأجساد إلى ما لانهاية وكذلك علاج النفوس والأرواح. ولكن هنا أيضاً نلاحظ أن الجانب السلبي لطموحاته البروميثية سرعان ما يظهر. وذلك لأن الاستنساخ البشري يذكرنا، وبشكل مقلق، بحلم هتلر والرايخ الثالث في تعميم الإنسان الآري المتفوق على جميع الآخرين. ومعلوم أن هتلر في زحمة هذيانه عن النسل الأرقى أو العرق الأصفى كان قد ابتدأ بتطبيق هذا الحلم عملياً بعد استلامه السلطة من أجل توليد نسل ألماني جديد خال من المرضى والضعفاء ويتمتع بكافة صفات التفوق والقوة الجسدية أو العضلية.

في عالمنا الخائب، لا يبدو أن للضمير خياراً آخر غير التعلق بالعقل التكنولوجي وتجاهل نبوءة أدورنو وهوركهايمر التي كانت تقول بأن العقل يحمل في طياته الطغيان والتحرير في آن معاً. إن التكنولوجيات -أو قل العقلية التكنولوجية- تفرض نفسها وكأنها قدرنا الجديد الذي لا مفر منه. وهو قدر يلخصه قانون "غابور"[٦١] الذي يقول ما معناه : كل ما تتيح التكنولوجيا فعله سوف ينفَّذ أو يُفعَل في نهاية المطاف

شئنا أم أبينا، وأياً تكن اعتراضات الأخلاق على ذلك. وهذا الإحساس بالعجز أمام تقدم التكنولوجيا الزاحف توضحه لنا رسالة ألبرت انشتاين[٦٢] إلى هيرمان بروش[٦٣]. ومعلوم أنه كتب له رسالة يشكره فيها على إرساله له روايته الكبيرة : **موت فيرجيل** عام ١٩٤٥. وقد رد عليه انشتاين قائلاً : "هذا الكتاب يبين لي بكل وضوح ما هربت منه عندما بعت نفسي جسداً وروحاً للعلم. لقد هربت من "الأنا" و"النحن" لصالح "الهو" في عبارة "يوجد شيء ما". بمعنى آخر هربت من الذاتية إلى الموضوعية، أو من النزعة الإنسانية إلى النزعة التكنولوجية والمنفعية المحضة.

ينبغي العلم بأن التكنولوجيا ليست حيادية من الناحية السياسية ولا الأخلاقية. ما الذي نستطيع فعله عندما يقلب العلم رأساً على عقب وبعمق مكانة الإنسان؟ أقصد ما الذي نستطيع أن نفعله عندما تحدد نظريات داروين[٦٤] قانون الطبيعة باعتباره قانون الأقوى؟ وما على الضعيف إلا الفناء.

وفي هذه الحالة هل سيكون لمبدأ المساواة من معنى؟ نقول ذلك ونحن نعرف أنه المبدأ المؤسِّس حقوق الإنسان. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو التالي : هل يمكن لدائرة العلم ودائرة السياسة أن تظلا منفصلتين الواحدة عن الأخرى؟ من المعروف أن العلم حُرِف عن

مساره في القرن العشرين من قبل الأنظمة التوتاليتارية وأدى ذلك إلى أضرار كبيرة وإساءة لسمعة العلم نفسه. أقول ذلك وأنا أفكر بما فعله ليسنكو[٦٥] الذي اخترع نظرية ماركسية لعلم الوراثة ! ودعم أطروحاته بتجارب مشبوهة. وأفكر أيضاً بعلماء البيولوجيا النازيين الذين أعادوا خلق عرق "صاف" من الثور البري المنقرض. وهو حيوان يزعمون بأنه مقدس في الأساطير الهندية-الأوروبية المشكوك فيها أيضاً. وهذه الانحرافات الخطيرة ينبغي أن تكون بمثابة إنذار واضح بالنسبة لنا. فالعلم قد يُستخدم في طريق الخطأ والشر أيضاً وليس فقط في طريق المنفعة والخير. وكنا نعتقد سابقاً أنه كله خير ولا يمكن أن يكون إلا خيراً. ثم فوجئنا بهذه الحقيقة الخطيرة مؤخراً.

كان الفيلسوف تيودور أدورنو قد طرح السؤال التالي : هل يمكن أن نكتب قصيدة شعرية بعد المحرقة[٦٦]؟ وهذا السؤال ما انفك يلاحقنا حتى الآن. وما نزال نتساءل حائرين : كيف تجرأت البشرية على ارتكاب الجريمة المطلقة؟ وهذه الفظاعة المرعبة تمزق ضميرنا ووعينا كبشر. إنها تمنعنا من التوصل إلى الطمأنينة والرزانة لأنها تكشف لنا عن المهاوي السحيقة للرعب والجنون، هذه المهاوي التي قد يسقط فيها العقل البشري ويضلّ ضلالاً مبيناً. والحضارة، بل حتى فكرة الحضارة ذاتها، تنهار عندما نتذكر الجرائم التي ارتكبت باسمها. وعلى الرغم من كل ما حصل فما نزال نتساءل : هل فهمنا حقاً ما حصل؟

هل استوعبنا الدرس جيداً؟ لماذا نطرح هذا السؤال؟ لأن التراجيديا المرعبة التي حصلت في رواندا والكوسوفو تدل على أننا نسينا درس عام ١٩٤٥ وارتكبنا بعد جريمته جرائم أخرى. وبالتالي فلم يتعلم الإنسان الدرس على الرغم من كل ما حصل. وفي عصر العولمة الشمولية ينبغي العلم بأن استشعار الضمير هو مسألة تخص الجميع حتى ولو كان ينبغي علينا أن نأخذ بعين الاعتبار حيثيات الزمان والمكان واختلاف وعي البشر من عصر إلى عصر، ومن مجتمع إلى مجتمع. وهل يمكننا بعد اليوم أن نؤمن بالتقدم؟ هل يمكن أن نؤمن به أو نثق به ونحن لا نزال حتى الآن متخلفين أخلاقياً بعد أن عشنا بضعة آلاف من السنين على مدار التاريخ وشهدنا نهايتها التراجيدية الفاجعة؟

وبالإضافة إلى النظام التكنولوجي يوجد النظام الرأسمالي للسوق الذي يعتمد عليه ويتجاوزه ويشمله. فتوسع اقتصاد السوق وانتشاره على مستوى الكرة الأرضية بأسرها، هو جزء من صيرورة طبيعية، كانت الاكتشافات الكبرى لعصر النهضة قد دشّنتها وسرَّعت فيها. وعندئذ أصبح الغنى هو معيار النجاح حتى على الصعيد الروحي. وبعد أن تحرر الرأسمال من الوصاية السياسية والدينية ومن القيم الأخلاقية التقليدية راحت هيمنته التي ابتدأت في شمال إيطاليا تتطور وتتوسع حتى شملت كل أوروبا. وبفضل تراكم الرساميل، بفضل

تجميعها في مراكز مالية مهمة كمدينة جنوة، راح التجار يؤسسون شبكات تجارية معينة تعيد صياغة المجتمع طبقاً للتدفق الاقتصادي والمنطق الجديد للأشياء. وهكذا خرجت أوروبا من رؤيا العصور الوسطى ودخلت في رؤيا العصور الحديثة.

ثم حصل منعطف كبير مع الثورة الصناعية. فقد انطلقت من انجلترا في البداية وأدت لاحقاً إلى قلب بنية المجتمعات الأوروبية في العمق. فمن زراعية فلاحية أصبحت عمالية وصناعية. من المعلوم أن الفكر السياسي لعصر التنوير كان يعتقد بإمكانية تحقيق السعادة للإنسان والمجتمع عن طريق التقدم العلمي والتكنولوجي. ولكن المنطق الذي ساد بحلول الثورة الصناعية كان يميل إلى فرض رؤية اقتصادية بحتة للأمور. وراح ينسى العامل الإنساني لكي يهتم فقط بمنطق الربح والفائدة وتراكم الثروة والرساميل. وهكذا حلت النزعة المنفعية محل النزعة الإنسانية وهبطت بقيمة العمل الإنساني إلى مجرد سلعة وتجاهلت الحتميّات الاجتماعية الأخرى. بمعنى أن الإنسان أصبح يوظَّف ويُطرد من عمله طبقاً لحاجيات الإنتاج، ليس إلا، دون مراعاة لأي قيمة أخلاقية. وهكذا راح المنطق المادي أو الاقتصادي يتغلّب على كل الاعتبارات الإنسانية وعلى كل أشكال الروابط الاجتماعية. من المعلوم أن ماركس تحدث عن كل ذلك بالتفصيل واستخدم مصطلح الاستلاب للدلالة عليه. والمقصود به هنا انتصار طبقة على طبقة

أخرى. ولكن نلاحظ في نهاية المطاف أن الاستلاب يعني بالدرجة الأولى انتصار شيء تجريدي (هو السوق) على التقاليد، والدين، بل حتى العقل الذي كان يعمل من أجل التحالف بين البشر لكي يتحاشوا الحروب.

وفي عصر الفحم الحجري وسكك الحديد والمصنع والمنجم راحت حقيقة العبيد الجدد للحداثة تتكشف وتتجلى للعيان. ونقصد بهم تلك البروليتاريا البائسة من "معذبي الأرض" و"جوعى الأشغال الشاقة". ومن خلال ربيع الشعوب انفجرت ثورة عام ١٨٤٨ في فرنسا لكي تصبح نقطة الانطلاق للاشتراكية بصفتها قوة سياسية يحسب لها الحساب لأول مرة. ووقفت في وجه البرجوازية الصناعية. وعندئذ ابتدأ قرن كامل من النضال لتحقيق المكاسب الاجتماعية للطبقات الشعبية والبروليتاريا البائسة. وفي أثناء ذلك راحت الدولة تنصِّب نفسها شيئاً فشيئاً، أو بشكل غير منتظم، حامية أو ضامنة للكرامة الإنسانية. نذكر من بين هذه الإنجازات التي حصل عليها العمال بعد نضال مرير : تقليص ساعات العمل الشرعي، العطلة المدفوعة، إقامة الضمان الصحي، حق التقاعد، راتب الحد الأدنى، تخصيص إعانات عائلية من أجل التخفيف من إحساس الناس بانعدام الأمن الاجتماعي أو بهشاشة الوضع المادي وخوفهم من عوارض الحياة ومفاجآتها ونكباتها.

وفي القرن العشرين بلغت هذه الطفرة العميقة للمجتمع البشري عتبة أخرى : ونقصد بها عتبة العولمة. وقد تحققت بفضل الثورة التي حصلت في مجال وسائل الإعلام والتواصل الحديثة كالفاكس والإنترنيت والبريد الإلكتروني والهاتف النقال، الخ... فهذه الثورة المعلوماتية قلَّصت الزمن والمسافات وهدمت كل الحواجز والجدران التي كانت تفصل بين الشعوب. لقد فتحت كل البلدان المنغلقة على ذاتها، وتغلغلت إلى كل الأماكن المحصورة والحريصة على عزلتها وحماية نفسها من الآخرين. وهكذا انفتح عصر جديد أمام البشرية، عصر يعد بالرفاهية اللامحدودة للجميع، عصر يعتمد على "الاقتصاد الجديد" لشبكات التواصلات الإلكترونية. فالثروة لن تعود بعد الآن خاضعة لندرة المصادر الطبيعية، وإنما أصبحت تابعة للإمكانيات اللامحدودة للذكاء البشري وللتلاعب بالشيفرات والرموز.

ثم رافق انتصار السوق انتشار الديموقراطية وفشل الأنظمة التوتاليتارية الاستبدادية. نقول ذلك ونحن نعلم أن الشيوعية والفاشية التقتا في حقدهما الأعمى على السوق الحرة، وفي نفس الوقت عبادة الخطط الخمسية الفاشلة والاقتصاد الموجه. والآن نلاحظ أنه حتى الصين أخذت تنفتح وبشكل واسع وسريع على التجارة والسوق الرأسمالية. وحيث ما تزال الشيوعية تقاوم حركة التاريخ في كوبا، أو

كوريا الشمالية، نلاحظ أنها تغرق من كل الجهات وتحكم على السكان بالعيش في الفقر المدقع. ثم تحاول يائسةً إقامة نظام الاكتفاء الذاتي اقتصادياً ولكنها لا تحصد إلا الخيبة وانتشار السوق السوداء والتجارة غير المشروعة من كل الأنواع.

وهكذا أصبحت السيولة الاقتصادية والشبكة الاتصالية هما الكلمتان الأساسيتان لحضارة اللحظة الفورية التي ألغت المسافات وجعلت الاقتصادات القومية لاقومية عن طريق دمجها في اقتصاد العولمة الشمولية. وفي عصر الاقتصاد المتسع بحجم العالم نلاحظ أن النموّ الاقتصادي، والأزمات، والسقطات تتوالى بعضها وراء بعض بإيقاع جهنمي وتصيب عدداً متزايداً أكثر فأكثر من الناس. وإذا كان الانهيار المالي الذي حصل عام ١٩٢٩ قد استغرق عدة سنوات لكي يصل إلى الاقتصاد الفرنسي ويؤثر عليه فإن سنة واحدة بعد الصدمة البترولية التي حصلت عام ١٩٧٣ كانت كافية لكي تشعر أوروبا كلها بآثارها السلبية. وأما تباطؤات البورصة التي حصلت مؤخراً فقد أثرت بشكل فوري على الاقتصاد العالمي. إن اقتصاد السوق الذي يحمل في طياته وعوداً لانهائية من التنمية والتطور يخلق الظروف التي تولّد الأزمات العنيفة المفاجئة والشمولية احتمالاً. فالحدث الذي يبدو ظاهرياً محلياً ولا قيمة له قد يؤثر على كل التجارة العالمية ويجعلها هشة، ضعيفة.

وهذا الاقتصاد يبدو هشاً. وتزداد هشاشته إذا ما علمنا أن السوق تزعم أنها تمارس دورها بشكل ذاتي أو آلي، أي دون مساعدة أحد. وتزعم أنها مسيّرة من قبل تلك "اليد اللامرئية" التي كان آدم سميث[٦٧] قد تحدث عنها سابقاً، فالسوق الرأسمالية تفرض قانونها وتدين السياسة المغامرة وتحدّ من تدخل الدولة في الشؤون الاقتصادية. لا ريب في أن منظّري الليبرالية الاقتصادية يحبون عدم تدخل رجال السياسة في الاقتصاد. وذلك لأن النظام العفوي في مجال الاقتصاد يتفوق دائماً في نظرهم على النظام المفروض اصطناعياً من قبل الدولة. ولكن ينبغي العلم بأن قانون السوق الرأسمالية يرتكز على فراغ من القيم : بمعنى أن لا علاقة له بالقيم الإنسانية. وأحياناً نتساءل ونقول إن الليبرالية الاقتصادية إذ استخدمت الليبرالية السياسية أداةً لتحقيق مصالحها فرّغتها من جوهرها ومحتواها. فوراء المثل العليا القائلة بالمساواة بين المواطنين أمام القانون، وحقهم جميعاً في التوصل إلى العمل ووظائف الدولة، والارتقاء الاجتماعي، ووراء القيم الأخوية والإنسانية للثورة الفرنسية، وراء كل ذلك تقف قيم أخرى مضادة وسلبية : كالنزعة المادية الصرفة، والتنافس الوحشي الذي لا يرحم على المناصب والأرزاق، والنزعة الفردانية أو العدوانية المطلقة العنان. وتحت المظهر الملائكي للحداثة تختبئ النزعة الأنانية الضيقة. ثم جاءت العولمة وعمّمت مشاعر الإحباط

والقهر والشعور بالغبن في شتى أنحاء الأرض. فبما أن العولمة الحالية لا كابح لها ولا وازع، ولا قاعدة ولا أصول، فإن اقتصاد السوق يولّد الغنى الفاحش للأقلية والفقر المدقع للأكثرية. وهكذا تتزايد الثروات وتتراكم في الوقت الذي يتزايد فيه الظلم والتفاوت الاجتماعي بين البشر. وهذا ما يؤدي إلى زيادة المرارة والنقمة لدى ضحايا العولمة. وبالتالي فأين هو الوجه الإنساني للعولمة؟

التمزق : لقد فضلت البشرية أن تغرق في الحياة الاستهلاكية العابرة لكي تنسى خطورة الأشياء المحيطة بها والكثافة التي تنطوي عليها. وفعلت كالنعامة التي دفنت رأسها في الرمال متجاهلة كل الأخطار. لا ريب في أن الاغتراب عن الوطن يقدم آفاقاً جديدة للحرية، ولكنه يكشف أيضاً عن الانسدادات والمآزق التي يقود إليها الفراغ. وهكذا وجدنا أنفسنا أمام الوضع الحالي : المستقبل يخيفنا، والماضي يثير فينا الحنين الاسترجاعي إلى الذكريات والأشياء المبهمة الغامضة، والحاضر مشغول بالأنانية والنزعة الضيقة. إن القلق الذي نشعر به في بداية الألفية الثالثة دليل على التيه والضياع أكثر مما هو دليل على نهاية التاريخ كما توهم بعضهم.

إنه دليل على عطل طرأ على صيرورة الحداثة أكثر مما هو دليل على اكتمالها ووصولها إلى نهايتها.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو التالي : كيف وصلنا إلى هنا؟ فموت الإيمان الديني المسيحي في الغرب والذي أعلن عنه نيتشه في تصريح مهيب وعبارة شهيرة أغلق صفحة الماضي الذي انقضى. وكل المرحلة التاريخية التي دشَّنها العهد القديم أُغلقت وانصرمت. في بداية سفر التكوين طرد الله الإنسان من جنته، وفي نهاية القرن التاسع عشر راح الإنسان يطرد الله من جنته ولم يعد بحاجة إليه (على الأقل في الغرب الأوروبي الصناعي الوضعي المتقدم). لقد أصبح الإنسان واثقاً من نفسه بل مغروراً إلى حد الاعتقاد بأنه معادل للخالق أو قادر على الاستغناء عنه ! كان عصر النهضة الأوروبية قد كرس مشاعر الاندهاش والإعجاب أمام ظواهر العالم. ومجَّد فرحة الاكتشاف والمعرفة، وكذلك مجّد الإنسان واعتبره قادراً على تحقيق المعجزات. ولكن هذا التمجيد الأخير كان صراعياً لأنه أدى إلى التشكيك بعظمة الخالق أو التقليل منها أو عدم المبالاة بها. ففي العصور الوسطى المسيحية كان الإنسان خاضعاً كلياً لله، ولكنه أصبح مزهواً بنفسه ومعتداً بها بدءاً من عصر النهضة. وازداد هذا الزهو والغرور في العصور اللاحقة. وهكذا أصبح الإنسان الحديث متصارعاً مع الله مثلما تصارع بروميثيوس مع الإله اليوناني القديم "زيوس"[٦٨]. نقول ذلك ونحن نعلم أن مفكري عصر النهضة دفعوا حياتهم أحياناً ثمناً للنار التي أرادوا الحصول عليها (المقصود نار

المعرفة أو نور الحرية). وأكبر دليل على ذلك جيوردانو برينو الذي قتلته الكنيسة وقطعت لسانه، بل حتى غاليليو كاد أن يدفع الثمن باهظاً لو لم يتراجع عن أفكاره في آخر لحظة. نقول ذلك على الرغم من أن مفكري عصر النهضة لم يشاؤوا القضاء على الإله المسيحي القديم ولم يقولوا بأن الله مات كما فعل نيتشه لاحقاً. وذلك لأنهم كانوا يعترفون بوجوده وقوته بسبب هذه النار المتأججة التي يمتلكها والتي يريدون سرقتها منه. ونقصد بنار المعرفة هنا : اكتشاف قوانين الكون ومفاتيحه، وفهم العالم بسمائه وأرضه، وفهم النظام الذي يرتكز عليه كل شيء. والواقع أن فن عصر النهضة كان مفعماً بالتديّن المنبعث والإيمان المتجدد. ففن الرسم الإيطالي، أقصد فن شخص كرافائيل[٦٩] أو ليوناردو دوفنشي، يعبر عن العاطفة الدينية في أعلى ذراها، وبشكل مليء ومكتمل. والله، إذا لم يكن موجوداً بعد في القلوب، كان موجوداً على الأقل في رزانة النظرة، نظرة الفنانين الكبار.

ولكن سرعان ما اندلعت معركة الإنسان من أجل الحقيقة، هذه الحقيقة التي كان الدين يخبِّئها عنه. نقول ذلك ونحن نفكر بفيلسوف مثل بسكال[٧٠] الذي لم تستطع المعرفة لديه، وقد كانت كبيرة وعبقرية، أن تخفّف من عذاب الشك والألم الميتافيزيقي. ينبغي العلم أنه في أغوار الروح وأعماق أعماقها يتعايش الدين والعقل. وقد ظل هذا المحل

الرائع من الروح حياً في التأملات المنتشية بالألوهية لديكارت. نقول ذلك على الرغم من أنه متهم بالعقلانية الصرفة والابتعاد عن الله على عكس باسكال. فبها اختتم الفقرة الثالثة من تأويلاته الميتافيزيقية التي بلغت ستة تأملات كما هو معروف[٧١]. ولكن عصر التنوير قضى على هذا المحل بشكل مباغت وفج. أقصد قضى على المحل العالي الذي يحصل فيه التوتر الروحي بين الدين والعقل وحذف أحد طرفي المعادلة : أي الدين. وقالت لنا فلسفة التنوير بأن الارتعاشة الأولية، أو الاندهاش والإعجاب، لا يكفي. وإنما ينبغي علينا أن نذهب إلى نهاية المطاف، أن نجعل العقل راديكالياً حتى النهاية، وأن نستخدمه كعامل تفكيكي بل تدميري للعقائد القديمة التي أصبحوا يدعونها منذ الآن فصاعداً بالآراء المسبَّقة أو بالرواسب المتعصبة.

وهكذا راحت تتشكل فلسفة جديدة منافسة للمسيحية. وأصبح العلم بالنسبة لفلاسفة التنوير الماديين عبارة عن آلة حرب ضد الدين وضد النظام الملكي المطلق والمستبد في آن معاً. عندما قال نيوتن بأنه لا يبلور فرضيات فإنه استأصل من ساحة المعرفة كل ما لا ينتمي إلى عالم الظواهر، بما فيها السؤال التالي : لماذا توجد الظواهر؟ لماذا يوجد هذا العالم بدلاً من العدم أو اللاشيء؟ كل هذه التساؤلات ألغاها نيوتن واكتفى بتفسير القوانين التي تتحكم بالظواهر الطبيعية

وتمسك الكون. وقال إن العلم لا يستطيع أن يذهب إلى أبعد من ذلك ولا يستطيع أن يجيب على الأسئلة الميتافيزيقية أو الماورائية. وهو إذ ألغاها حرر الفكر البشري من هيمنة اللاهوت الديني ووصايته نهائياً.

وهكذا مرّ العقل على الإنسان الغربي كإعصار عنيف وسريع الزوال. صحيح أنه حرَّره من العقائد الدوغمائية المتحجرة التي كانت تعرقل حركته وتخنقه، ولكنه لم يستطع أن يولّد نظاماً عادلاً ومتناغماً. في الماضي، كانت كلمات من نوع "الشرف"، و"النبالة"، و"الوفاء" قادرة على أن تتحكم بحياة شخص ما وتوجهه من المهد إلى اللحد. كان ذلك في زمن "القيم التي تستمد عقلانيتها من ذاتها" بحسب تعبير ماكس فيبر. أقصد زمن الفروسية والرجال الشجعان المقدامين، زمن "حضارة القلب". هذا الزمن مضى وانقضى. أما عالم اليوم فتهيمن عليه نوعية أخرى من الرجال : نقصد أبناء التجار الحاذقين من منطقة "الفلاندر" بشمال أوروبا. وهم الذين انتصروا مع الإصلاح الديني. وهكذا تراجعت "القيم التي تستمد عقلانيتها من ذاتها" وانهزمت أمام "عقلانية الغايات" : أي العقلانية التي تكتفي باستخدام الوسائل المناسبة للتوصل إلى الغايات والأهداف المرجوة. وهي عقلانية براغماتية يهمها التوصل إلى الهدف وتحقيقه قبل كل شيء. ولا تهمها كثيراً نوعية الوسيلة المستخدمة أخلاقية كانت أم لاأخلاقية.

وإذ سئم من مكتسباته وخاب فيه الأمل أخذ الغرب ينظر إلى نوابض مغامراته الجماعية الكبرى وهي تذبل تموت. ولم يعد يعرف كيف يفكر أو يتصرف. فبعد أن ضعف الدين في الغرب وانفرط عقد الميثاق التوراتي الإنجيلي الذي كان يربط بين الله والإنسان، راح سفر الخروج أو النزوح يتخذ صيغة أخرى. راح يتخذ شكل الهرب إلى الأمام، أو القفز في الفراغ لشعب وحيد مع نفسه، فخور باستقلاليته ولكن مفرغ من معنى ما يفعله. إن الأمر يتعلق بهرب إلى الأمام لبشرية مقطوعة عن جذورها، بشرية تبحث ضائعة عن موقع لها على خارطة العالم، ولكن الموقع ما ينفك يهرب منها أو يتوارى عليها. إنه هروب لعالم يركض في كل الاتجاهات كدوامة الزوابع. ثم يتطاير كما تتطاير قطع الجوخ في عيد الصعود الباروكي[٧٢].

بعد موت الإله المسيحي في الغرب (أي انحسار الدين وحلول العلم محله) وبعد أن عرف الغرب تطرفات العقل وانحرافاته، يبدو لنا أن السؤال المطروح هو التالي : هل سيستسلم الإنسان مرة أخرى لإغراءات الجنون أو العوامل اللاعقلانية؟ إن عودة التيارات المتطرفة أو اللاعقلانية إلى الساحة لا يعبر عن الحاجة إلى اختراع "حكايات كبرى"[٧٣] أو إيديولوجيات كبرى جديدة لتفسير العالم بقدر ما يعبر عن

الحاجة إلى الإفلات من قبضة عقلانية قمعية صارمة لا ترحم والحفاظ على جزء من الظل والسر في الوجود البشري. لا ريب في أن بعض الأديان التقليدية أو الجديدة تقدم إلى جماهيرها المتزايدة أنظمة كاملة للتفسير ورؤية نهائية للعالم. ولكن صعود الحركات اللاعقلانية الهائجة على مسرح التاريخ المعاصر يشكل ظاهرة جماهيرية تتجاوز الممارسة الدينية بالمعنى الحرفي للكلمة. أي ممارسة الطقوس والشعائر. فمن الطوائف الشاذة الموجودة في الغرب إلى ظاهرة الأصولية الدينية نلاحظ أن ما يعبِّر عن ذاته هو نفس حاجة الفرد لانصهاره في الجماعة، ونفس الخضوع المتفاقم إلى الله، ونفس الرغبة في التواكل وفقدان الإرادة والاستسلام للمقدور. وبالتالي فالإنسان لا يجد في هذه الأشياء ذلك المعنى المفقود الذي يبحث عنه. فالدين إذا ما دفعنا به نحو تطرفاته القصوى يصل إلى حد العبث أي الخرافة واللامعقول. وباسمه استطاع المتعصبون المهووسون أن يهجموا بالطائرات على برجَي نيويورك التوأمين. وهذا يعني أن الإيمان إذا ما زاد عن حده ووصل إلى حد الهيجان الكامل أو التعصب الأعمى قد يؤدي بالبحث عن المعنى إلى حد سفك الدماء وصدام الحضارات والشعوب فيما بينها. فهل هذا ما نريده يا ترى؟ هل هذا هو جوهر الدين ومعناه الأسمى؟

ولكي نعيد الثقة الضائعة للإنسان بنفسه والعالم إلى الساحة لا أحد يقدم لنا ميثاقاً جديداً لكي يحل محل الميثاق القديم الوارد في العهدين القديم والجديد والذي عاشت عليه البشرية الأوروبية طيلة قرون وقرون : أي حتى انتصار فلسفة التنوير والعقلانية العلمية الحديثة. فالمعلومات في عصر الإنترنت تنثال علينا من كل حدب وصوب، ثم تتصادم وتتقاطع فيما بينها، والصور الفضائية أو التلفزيونية تغمرنا، ولكن الأفكار الحقيقية تهرب منا، أو هكذا يبدو لنا. لقد أفلست الشيوعية بعد أن هزتها أو زعزعتها عملية الكشف عن جرائم ستالين، وذلك قبل أن تنهار تحت وطأة تناقضاتها الخاصة. وسقوطها كان إيذاناً بسقوط الطوباويات التي حاولت الحداثة بلورتها واختراعها منذ عهد توماس مور[٧٤].

فعلى مدخل المعابد الرخامية للمدن المثالية أو الطوباوية راحت ذكرى الأنظمة التوتاليتارية للقرن العشرين تشعرنا، استرجاعاً، بقشعريرة مليئة بالقلق والرعب. لقد تخلى الإنسان عن كونه المهندس المعماري لعالمه، تخلى عن الحلم بقدره ومصيره وتقلصت طموحاته إلى حد كبير. واكتفى خائفاً بسدّ الثغرات التي ما انفكت تتسع.

نحن نعلم، منذ بداية القرن العشرين، أنه ينبغي علينا أن نعلن الحداد على الحلم بالوحدة المثالية، هذا الحلم الذي دفع بالبشرية إلى

الأمام. نقصد وحدة الإنسان مع ذاته أو عدم انقسامه على ذاته. وكذلك وحدة البشرية ذاتها. ففي ڤيينا، في سنوات ١٩٠٠ عندما كانت تتفكك الإمبراطورية النمساوية-الهنغارية، راحت تتكسر أيضاً وتتفكك وحدة الحقيقة بعد أن وضعها علماء الفيزياء من أمثال اينشتاين وبلانك[٧٥] على محك التساؤل والشك. وأما وحدة الأنا فقد انقلبت رأساً على عقب أو قل تعرضت لضربات قوية على يد تطرفات الفن الجديد والحركة الدادائية[٧٦] التي أرهصت بالسوريالية. وعندئذ لاحظ الإنسان لأول مرة أنه مضطر للعيش دون أساطير مثالية أو مرجعيات، أو حقيقة نهائية، أو حتى معنى متماسك وصلب ونهائي. وعندئذ قال الكاتب الكبير روبيرت موزيل[٧٧] ما يلي : "لم يعد يوجد الآن إنسان كلي في مواجهة عالم كلي. وإنما يوجد شيء من الإنسان الذي يطفو على سطح فقاعات من الثقافة العامة".

ها نحن نجد أنفسنا متعبين ينوء كاهلنا تحت وطأة المعارف الغريزية المتشعبة التي ستشعر الوعي الإنساني بأنه صغير. لقد تزايدت العلوم في عصرنا الراهن وأصبحت تخصصية إلى درجة تخيفنا وتشعرنا بالعجز عن الإلمام بها كلها. فحتى القرن التاسع عشر كان يمكن لهيغل مثلاً أن يستحوذ على معرفة عصره كلها، أما الآن فقد أصبح ذلك شيئاً مستحيلاً لا يفكر فيه أي عاقل. وهذا التفتيت

الذري للمعرفة وللعالم، آن الأوان لكي نتجرأ على مواجهته وجهاً لوجه في كل حقيقته القاسية والمرعبة، وفي كل تعدديته وتناقضاته، وحريته وعجزه. وهذا دليل على حجم الطاقة التي ينبغي أن نمتلكها لكي نستطيع أن نشق طرقاً جديدة للفكر والممارسة، لكي نعثر على همّة انطلاقية جديدة، لكي نبلور إيماناً جديداً يجعل التركيبة السحرية ممكنة. ولكننا تخلينا عن البحث عن الحجر الفلسفي للسياسة الحديثة أو قل عن سرها وجوهرها.

والسؤال المطروح هنا هو التالي : كيف يمكننا المحافظة على تماسك مجتمع مشكَّل من أفراد أحرار متساوين في الحقوق في الوقت الذي قطعنا فيه العلائق مع كل تقاليدنا الموروثة وروابطنا؟

إن استشعار كل هذه الأشياء حصل أيضاً لأول مرة في فيينا. وكان ذلك قبل بضع سنوات من الحرب العالمية الأولى التي أدت إلى انهيار الإمبراطورية النمساوية-الهنغارية. والكاتب هيرمان بروش هو الذي اكتشف المركز الهندسي للإمبراطورية المذكورة. فأين يقع يا ترى؟ إنه عبارة عن الحجرة الفردية الفخمة المخصصة للإمبراطور في كل مسارح فيينا والتي لم يكن يحتلها أبداً. وهذه الصورة المجازية التي اخترعها الكاتب النمساوي تنطبق أيضاً على حالتنا الراهنة في الغرب أو في أوروبا الغربية على الأقل. فمجتمعاتنا الحديثة يبدو أنها تتشكل

حول مركز ضائع أو غير موجود وذلك لأن القيم المشتركة والصلبة هجرته. والقيم المشتركة الراسخة هي مركز كل مجتمع كما هو معروف. وهنا تكمن أزمتنا ومأساتنا، أقصد أزمة مجتمعات الحداثة أو حتى ما بعد الحداثة. ولهذا السبب نلاحظ انهيار السياسة ذاتها أو قل هلعها وترددها وتخبطها لدينا. أقصد السياسة بالمعنى العميق للكلمة. أقصد السياسة بوصفها مسرحاً للمثل العليا كما كان قد حددها مكيافيلي[٧٨]. فقد قال في تعريفها بأنها فن تحقيق إجماع الشعب حول مجموعة من المثل العليا والمنظومة الأخلاقية المشتركة. وهذا ما ينقصنا بشكل موجع الآن. فقد حصل فراغ في قلب الديمقراطية أو قل تسلَّل إليها خلسة، تماماً كما يحصل في لوحات "ماغريت"[٧٩] حيث نجد أن الشخصيات المرسومة مليئة بالسماء.

إن عملية التفكك أو التفتُّت هذه تتكرر اليوم ولكن على مستوى الكون كله. فالعالم يجد صعوبة كبرى في تنظيم نفسه حول مبادئ مشتركة لأن العولمة لا تحمل أي معنى خاص في نهاية المطاف. وهكذا نجد أن نظام العالم قائم على الفراغ أو ينتهي إلى فراغ. وحتى الذاكرة تتبخّر وتمّحي. وقد كانت في السابق هي التي تنسج العلائق الأكثر صلابة التي يتجمع حولها كل شعب من الشعوب. وكانت تقيم الجسور الواصلة بين القارات المختلفة أيضاً. وأما الآن فلم تعد هناك

من ذاكرة جماعية في عصر الحداثة ولا من يحزنون. وبالتالي فحذار من الضياع والتفكك والانحلال. ولنحاول الحفاظ على الذاكرة الجماعية، الذاكرة الإنسانية لكيلا نصبح أناساً بلا جذور وإذا ما أردنا ألا نكرر نفس أخطاء الماضي ونشعل نفس الحروب أو ننخرط في نفس المغامرات الدموية للتاريخ. والخوف ينبثق أمام التكرار المحتوم لنفس الضلالات. يحصل ذلك كما لو أن قدرنا البشري لا يمكن أن يكون إلا تعتعة أو تلعثماً متواصلاً لنفس الشخص الأبله. وهو عبارة عن نسخة جديدة، بعد نسخة فولكنر[٨٠]، عن العبارة التأنيبية العنيفة المليئة بالسأم من البشر والبشرية لشكسبير : "الحياة عبارة عن قصة مليئة بالضجيج والهيجان، قصة مروية من قبل شخص أبله ولا تعني أي شيء!!".

ولكن الحضارة اليونانية تذكّرنا منذ قرون وقرون أن القدر المحتوم ليس إجبارياً كله، وأنه يخصص للحرية مكانة معينة يمارس فيها الإنسان كرامته وقدرته على الاختيار بين الخير والشر، أو بين الحق والباطل. وبالتالي فليس كل شيء مكتوباً أو محسوماً سلفاً على عكس ما توهمنا به عبارة شكسبير الرائعة من الناحية الأدبية. وهناك فرق بين الجنس البشري والجنس الحيواني. فالإنسان، على عكس الحيوان، ليس خاضعاً كلياً للحتميات الإكراهية أو القدر المحتوم.

وإنما استطاع الإنسان منذ اليونان أن يحصل على نوع من الإرادة والحرية على الرغم من إدراكه لمحدوديته كشخص فان. وهذه الحرية المحصورة بالجنس البشري والتي تشكل مجده وعظمة إنجازاته هي التي ينبغي أن نحافظ عليها ونتذكرها الآن. فالإنسان قادر على تغيير أوضاع العالم نحو الأحسن. وقد برهن على ذلك في الماضي، فلماذا لا يبرهن عليه في الحاضر أو في المستقبل؟ وهو يستطيع أن يفعل ذلك أولاً عن طريق الاهتمام بآلام الآخرين وليس عن طريق ازدرائها أو اللامبالاة فيها. وثانياً يستطيع أن يفعل ذلك عن طريق مواجهة المشاكل وجهاً لوجه. فلا شيء أسوأ من الاستسلام والتشاؤم والقول بأننا لا نستطيع أن نفعل شيئاً أمام الأزمة النفسية والمعنوية والأخلاقية التي تعاني منها الحضارة الحديثة حالياً. ولا شيء أسوأ من الاعتراف بأن الأزمة سوف تظل مستمرة لأنها كانت دائماً موجودة وأنها معقدة إلى درجة أنه من العبث أن نضيع الوقت في البحث عن حلها أو حتى فهمها. هذا موقف استسلامي يائس لا يليق بالإنسان وإمكانياته ولا ينبغي أن تثبط همتنا. وليس هذا أوان التراجع عن الانخراط في التاريخ والممارسة والكفاح، هذه الأشياء التي اخترعها الإنسان الراغب في وضع حد للفوضى والضياع.

الفصل الثاني

التصـعيد

الفصل الثاني

التصعيد

عندما يخيم المساء وتنهض المدن المدرَّعة باليقينيّات متلألئة بأنوارها، فإن المسافر يكتشف قانون العالم الجديد، العالم المفتَّت، المتبعثر. إنه يشبه المتاهات المظلمة التي يتخبط فيها الناس الضائعون الذين يتلمسون في العتمات طريقهم وهم خائفون من تلك الوحوش الضارية التي تتحدث عنها الأساطير وحكايات الأطفال. إنها متاهات تفوق الخيال، متاهات مطروقة اليوم أكثر من الدروب التجارية للإمبراطوريات الغابرة. إنها عبارة عن تقاطع الأزمنة التي تتراتب هرمياً في مخيلتنا الجماعية. وقد صاغتها شبكة الصور والتصورات التي تنتشر في كل أنحاء المعمورة وتتردد أصداؤها.

هذه هي الصورة التي تتشكل أمامنا : الكون يفقد وحدته، والشعوب هويتها. وعلى الدوام كل شيء يتفكك ويعاد بناؤه من جديد. والحركة تحرر طاقتها الخاصة دون أن يتمكن شيء من إيقافها. فالمخيلة تدور، والصور تنتشر، وتتبادل فيما بينها وتتحول على هوى المدّ الإلكتروني والإعلامي الذي يغمر كل واحد منا. نحن في عصر

الفضائيات التلفازية التي تبث على مدار الساعة. وبعد الكارثة فإننا نشعر جميعاً بنفس الرعشة، بنفس التضامن الأخوي. لقد شعرنا بهذا التضامن مع الأمريكان بعد ضربة ١١ سبتمبر، ومع الجزائريين بعد زلزال سبتمبر ٢٠٠٢، ومع الإيرانيين بعد الزلزال الذي دمر مدينة "بام"، ومع الإسبان بعد ضربة ١١ مارس ٢٠٠٤. وكنا إلى جانب هؤلاء جميعاً في كل مرة. وفجأة ننسى خلافاتنا ونكتشف قراباتنا، وتشابهاتنا، وكذلك اختلافاتنا مع الشعوب الأخرى. وفي كل يوم يتغيّر تصورنا لخريطة العالم على هوى الأحداث الجارية والانقلابات الدولية المتسارعة أكثر فأكثر والمباغتة أيضاً.

ينبغي العلم بأن الأزمات كائنات حيّة كالشخص البشري. وهي تخفق على هوى إيقاع الجسد والروح سواء أكان الأمر يتعلق بأزمة مدغشقر، أم ساحل العاج، أم العراق، أم هايتي. والدليل على ذلك أنه بعد الاندلاع البطيء للعلامات المرهصة بمجيء الأزمة، فإن الأشياء تنفجر فجأة وبعد تعرجات وانعطافات عديدة. وأحياناً تهدأ النفوس فجأة وتنطفئ النيران، وأحياناً تشتعل وتنتشر في كل مكان. وهناك طريقة معينة لحل الأزمة. وهي تتمثل في معالجة جذورها، أي جذور نيرانها وأسبابها، بكل رباطة جأش وبعد أن تجمع حولك أكبر عدد ممكن من الدعم والناس. وهذا ما يؤمن لك أكبر قدر ممكن من المشروعية من أجل عكس التيار والتغلّب على الأزمة أو احتوائها. هذه

هي القواعد الهشة لحل الأزمات. قلت هشة لأنها مهددة بالانهيار في كل لحظة، ثم إنه ليس من السهل أن تجتمع كلها دفعة واحدة. أقول ذلك وأنا أتذكر عدة أحداث تاريخية أو أزمات عشتها شخصياً سابقاً. أقول ذلك وأنا أتذكر الصمت الرهيب الذي يخيم على الكون قبل اندلاع الأزمة وانفجار الدموع. فقد كنت في كاراكاس عاصمة فنزويلا عندما حصلت الهزة الأرضية التي زعزعت المدينة ودمرت قسماً كبيراً منها. كان عمري آنذاك ثلاثة عشر عاماً، وكان والدي سفيراً لفرنسا هناك. كيف حصل الزلزال؟ فجأة شعرنا بأن الصمت المخيف قد لفَّ المكان وخيَّم على الجو وأن كل شيء أصبح معلقاً في الفراغ بانتظار اندلاع الأزمة أو انفجار الإعصار. ثم صرخت الحيوانات وركضت في كل مكان قبل أن تتفجر الأرض بالبركان ونسمع أنينها وتأوهاتها الطويلة. بعد ذلك بسنوات عديدة شهدت أزمة أخرى من نوع مختلف. فقد كنت في نيودلهي وأتيح لي أن ألتقي براجيف غاندي قبل بضعة أيام من مقتله. وقد فوجئت، بل سحرت، بنعومته ونضجه الإنساني والسياسي. ولكنه في تلك اللحظة بالذات ما كان يعرف أنه أصبح على مقربة من الموت. ففي أثناء الحملة الانتخابية التي كانت ستكرس حتماً عودته إلى السلطة سقط ضحية عملية اغتيال. وكان ذلك أثناء تلقيه لإكليل من الزهور فور وصوله إلى قرية قريبة من مدينة مدراس. وكانت المفاجأة كاملة له وللجميع. وعندما التحقت بالسفارة الفرنسية

عشية ذلك اليوم شاهدت الحرائق تشتعل في المدينة القديمة. وتساءلت بنوع من القلق والخوف : هل سنشهد اندلاع الصراعات الدموية بين السيخ والهندوس، هذه الصراعات التي اندلعت بعد اغتيال أمه أنديرا غاندي قبل بضع سنوات فقط؟

لكي نفهم هذه الحداثة التي نعيش فيها، لكي نفهم المخاطر وأعمال العنف والتعقيدات التي تنطوي عليها، فإننا لا نستطيع أن نكتفي بقراءة أحداث الماضي، بقراءة الأبجدية التي أورثنا إياها تاريخنا، بالتعرف على المعالم والصوى التي تتيح لنا تحديد الوجهة والطريق. فنحن نرى الفخ أو الشرك وقد انغلق علينا وأحاط بقدرنا ومصيرنا، وذلك في الوقت الذي يتصاعد فيه الخوف على الأفق. وهذا الخوف المرعب يجمّد الفكر ويشلّنا عن الحركة. إنه خوفنا من أن تتكرر مرة أخرى تلك الثورة الرهيبة لهذا الدولاب الجهنمي. أقصد الدولاب الذي يقذف بالبشرية في مهاوي الهلع والذعر بعد أن كان قد لوّح لها بإمكانية التوصل إلى عصر ذهبي جديد. إنه الخوف من الذاكرة التي تعلّمنا منها أن الإنسان قادر على كل شيء، أقصد على ارتكاب الجرائم الأكثر بشاعة ودموية بمثل ما هو قادر على صنع المعجزات. إنه الخوف من الشيء التالي : وهو أن كل الاحتياطات التي قد نتخذها غير قادرة على منع الشر الأعظم من الحصول. ولكن الخوف الأهم والأخطر هو أن تتفتّت القيم التأسيسية وأن تفشل في جمع

البشر وتوحيدهم داخل نفس المشروع ونفس البحث عن تحقيق المعنى والمثل العليا.

ولكن الخوف ليس كله سلبياً. الخوف يشحذ الوعي أيضاً. والمهمة الأكثر إلحاحاً بالنسبة لنا الآن تتمثل في أن نعيد سيطرتنا على عالم يتغير بسرعة شديدة، عالم يكاد يفلت من قبضتنا في عصر الفضائيات والإنترنت وتكنولوجيا المعلوماتية والتواصل والعولمة وتسارع الأحداث بشكل لا يتوقف.

المتاهة

طيلة كل الفترة السابقة اعتقدنا أن نظام الكتلتين الأعظم لا يمكن أن يتغير أو يتبدل. وفجأة حصلت الصدمة الكبيرة : سقوط جدار برلين بتاريخ ٩ نوفمبر ١٩٨٩. وبعدئذ انهار نظام يالطا ثنائي القطبين في أقل من عامين. لقد انهار أمام أعين الشعوب والدول والحكومات مع انهيار الاتحاد السوفييتي والنظام الشيوعي برمته. وأصبح اللامعقول حقيقة واقعة. واضطر المفكرون والسياسيون بين عشية وضحاها إلى تغيير مقالاتهم ومناهج تحليلهم ورؤيتهم للأمور. اضطروا إلى تغيير أطر تفكيرهم التي تعودوا عليها وعلى تفسير قضايا العالم من خلالها على مدار عدة عقود من السنين. اضطروا إلى مراجعة عقائدهم الإستراتيجية ونسيان كل ما تعلموه من قبل من

أجل رسم مشهد جيوبوليتيكي، أي جغرافي-سياسي جديد. وعاش العالم عدة سنوات من الارتياح والهدوء : أي طيلة فترة التسعينات من القرن الماضي وحتى أوائل هذا القرن.

وفجأة حصلت تفجيرات مانهاتن وواشنطن وأغلقت هذا الفاصل السعيد الذي عشناه وكشفت عن الجانب المظلم من العولمة واكتشفنا أن العولمة تعني أيضاً عولمة الإرهاب وليس فقط تعميم السلع والأفكار على شتى أنحاء العالم. واستيقظنا عندئذ من سباتنا، وبنوع من الهلع والذهول فهمنا أن عالمنا المفتوح على كافة الإمكانيات والوعود هو أيضاً عالم مهدد بكل المخاطر ومحاط بكل الأحقاد. نقول ذلك وبخاصة أن خط التقسيم ما عاد يفصل بين بلدين أو قارتين وإنما يمر أحياناً في قلب ذات البلد. وبالتالي فنحن جميعاً معنيّون بهذا الحقد الأعمى سواء أكنا بلداناً فقيرة أم غنية، أكنا نعيش في الشمال أم في الجنوب. ويمكن أن نكون كلنا ضحايا للمتطرفين، لزعزعة استقرار العالم، للعنف الأعمى. وسواء أكنا غربيين أم لا، فإننا نجد أنفسنا متمزقين بين أنانيتنا الراغبة في إشباع حاجياتنا المادية، وبين الوعي بتشكل قدر مشترك للبشرية في عصر العولمة. وهذا القدر المشترك أخذ يترسخ شيئاً فشيئاً ولكنه هو الآخر متمزق بين الفرح بتجدد العالم أو استهلال عهد العولمة من جهة، والخوف من صعود المخاطر التي يبدو أنها محتومة، من جهة أخرى.

ولهذا السبب ينبغي علينا أن ننخرط في متاهة العالم لكي نفهم خفاياه ومنعطفاته ولكي نكتشف مساره وقدره. ولا ينبغي على أحد أن يخشى من هذه الرحلة في متاهات العالم، ولا أن يتردد في كسر المغاليق والأقفال لكي يفهم السِّر والسبب. ينبغي العلم بأن التطور الكوني لاقتصاد السوق ولَّد نتائج ملتبسة أو مزدوجة الوجه. فهو يعني الازدهار المتصاعد بالنسبة للنادي المغلق جداً والمشكل من البلدان الغنية وكذلك بالنسبة للبلدان الجديدة التي تنفتح على العالم وتتطور وتحقق تنميتها الذاتية. ولكنه يعني شيئاً آخر بالنسبة للبلدان الفقيرة التي فشلت في تنمية نفسها. فالعولمة والتقدم العلمي والتقني يعمِّقان التفاوت في الثروة بين كلا النوعين من البلدان ويزيدان من انتشار الرشوة والفساد. وإذا كان التوصل إلى المعرفة والسيطرة عليها يصبحان سهلين أكثر فأكثر بسبب المعلومات في عصر الإنترنت إلا أن قلّة قليلة من النخبة هي وحدها التي تتوصل في الواقع إلى ذلك. والتقدم العلمي الذي يحقق انتصارات مذهلة لا يؤدي إلى توصل جميع الناس إلى المشافي المجهزة والعلاج. فالفقراء يظلون على قارعة الطريق في معظم الأحوال. ونقصد بالفقراء هنا الأفراد والبلدان فهناك بلدان غنية وبلدان فقيرة. وبالتالي فالمرض قد يصبح سبباً جديداً من أسباب نقمة البلدان الفقيرة على البلدان الغنية. والدليل على ذلك أن الملايين يموتون من مرض الإيدز (فقدان المناعة) في

إفريقيا السوداء بسبب نقص الأدوية المتوافرة بغزارة في أوروبا وأمريكا الشمالية. فكيف يمكن إذن للفقراء ألا يحقدوا على الأغنياء. وهكذا تظل شعوب بأسرها على هامش التاريخ لأنها لم تستطع أن تلاحق التطور. هكذا تظل عرضة للفقر والبؤس هذا في حين أن البلدان المترفة تنغلق على نفسها في نوع من الأنانية واللامبالاة بآلام الآخرين. بل أصبحت تمنع المهاجرين من الدخول إليها لكيلا يشاركوها نعمة الحداثة ومتعة الحياة الاستهلاكية. وهذا دائماً هو موقف الغني من الفقير.

هذا هو وضع العالم الآن في عصر العولمة الزاحفة. بل هناك جوانب أخرى مقلقة من العولمة. فالمنظمات الإجرامية هي في حالة تزايد وحركة مستمرة، والعنف ينتشر ويتنامى أيضاً. وهو في ذات الوقت أكثر خفاءً وسريةً واستعصاءً على الضبط. وهذه المنظمات تحل محل الدولة في بعض البلدان المتفككة التي انهارت فيها سلطة الدولة المركزية. وهكذا تأخذ المنظمات الإجرامية مكانة السلطات العامة والاقتصاد المدمَّر وتصبح مقاليد الأمور في يدها كما حدث في الصومال سابقاً أو في أماكن أخرى من إفريقيا وآسيا. وهذه المنظمات الإجرامية أصبحت بحجم العالم أيضاً في عصر العولمة. فهي تستفيد من تزايد تبادلات السلع والخدمات المصرفية لكي تنتشر أكثر فأكثر كالسرطان في شتى أنحاء الكون. كما أنها تستفيد من

التسهيلات التي تقدمها العولمة لتنقُّل الأشخاص من مكان إلى مكان وذلك لإرسال المجرمين إلى أقاصي الأرض. وبالتالي فالعولمة ليست خيراً كلها، وهي تعني عولمة الشر والجريمة بقدر ما تعني عولمة الخير والاقتصاد والتواصل الحر بين البشر. وذلك لأن العولمة ظاهرة جديدة ولم تنظَّم بعد أو تُضبط من قبل قواعد محددة تماماً. ولهذا السبب فإن الفوضى العالمية الحالية أو الانعدام المؤقت للتنظيم والضبط الفعال يفسحان المجال أمام ظهور أشكال جديدة من العنف.

والواقع أن المافيا تغذي الفساد الذي ينخر كمرض الغنغرينة في جسد بعض البلدان أو الدول. وهذه الظاهرة تشهد اليوم اتساعاً ضخماً بسبب التسهيلات التي تقدمها العولمة : كتسريع نقل الأموال من مكان إلى آخر وفي ظل ظروف غامضة أو مشبوهة. وكثافة السيلان المصرفي تسهل عملية انتقال الأموال القذرة من قارة إلى قارة. وقد أصبحت عملية "تبييضها" أو غسلها عبارة عن صناعة كاملة بأسرها. فهناك جهات مشبوهة مختصة بهذا الموضوع. والجريمة المنظمة التي نتحدث عنها ليست أجنبية على الإرهاب. وإنما هي على علاقة وثيقة به أحياناً. وقد رأينا البرهان على ذلك في أفغانستان حيث استفادت "القاعدة" إلى حد كبير من الأموال الناتجة عن تجارة المخدرات.

ينبغي العلم بأن المتاجرة بالأسلحة والمخدرات أصبحت هي الفعالية الأكثر مردوداً وإرباحاً بالنسبة للمافيا. وبالتالي فقد أصبح مستحيلاً منذ الآن فصاعداً أن نعدد أسباب الفوضى العالمية أو أن نرتبها بحسب الأولوية والأهمية. وأصبح واضحاً لنا أن مكافحة الإرهاب ينبغي أن تتم جنباً إلى جنب مع تفكيك شبكات الجريمة المنظمة والمتاجرة بالأشياء غير الشرعية. فكلاهما مترابطان والأشياء متداخلة بعضها ببعض. فالشبكات الأخطبوطية العديدة التي تحيط بالكرة الأرضية كلها هي التي تشيع جو الفوضى والاضطراب في العالم. وينبغي أن نضيف إلى كل ذلك الصراعات الإقليمية التي تنعكس سلباً على كل شعوب المعمورة وليس فقط على أماكن اندلاعها. فمنذ الآن فصاعداً أصبحت رهاناتها عالمية، وأصبحت الحدود عاجزة عن حجزها أو منعها من الوصول إلى البلدان البعيدة وزعزعة استقرارها. وأكبر دليل على ذلك الصراع العربي-الإسرائيلي الذي وصلت شظاياه إلى فرنسا. وهذه الأزمات الحادة أو الصراعات الدموية تخيف السكان والرأي العام في بلداننا وقد تؤدي إلى حقد الجاليات المختلفة بعضها على بعض وانغلاقها على ذاتها. وهذا ما يؤدي إلى تهديد السلام الاجتماعي والاستقرار الداخلي حتى داخل بلدان أوروبا القوية. وهكذا تتضافر عدة عوامل لإشعال الأحقاد بين الطوائف المختلفة. من بين هذه العوامل نذكر الإحساس بالظلم والقهر

من جهة، ثم التعلّق الشديد بالهوية الدينية من جهة أخرى. وتداخل العاملين كليهما يؤدي إلى احتدام المشاعر فالانفجار.

وراء الأزمات المتزايدة يلوح شبح السيناريو الكارثي المتمثل بالتفتّت، والانقسام، والصدامات الدموية هنا وهناك على سطح المعمورة. وهذا هو الوجه الآخر، الوجه المظلم، الوجه التراجيدي للطوباويات المثالية للعولمة أو "للقرية الكونية" التي تحدث عنها علماء الأنثروبولوجيا والمشغوفون بالعولمة. وينبغي علينا أن نجد علاجاً لتهدئة الأزمات وحلّها. كما ينبغي أن نجد طريقة لمعالجة الأخطار التي تحيط بنا ولمنع الفوضى من الانتشار. فإذا ما انتشرت عن طريق العدوى أو "لعبة الدومينو" فإنها سوف تشعل الكرة الأرضية بأسرها. إن وضعنا الآن أمام هذه المخاطر يشبه وضع الإطفائيين أمام اندلاع الحريق في الغابات. ففي البداية يكون الحريق محدوداً، ولكن إذا ما أهملناه وهبَّت عليه الريح المؤاتية فإنه قد ينتشر في كل مكان ولا نستطيع إذ ذاك السيطرة عليه. وبالتالي فإذا ما كان التصميم ينقصنا وإذا ما وهنت عزيمتنا فإن قوى الشر سوف تنتصر وتتغلَّب علينا بعد أن يؤاتيها الحظ والصدفة.

وهكذا، شيئاً فشيئاً، نلاحظ أن الوعي الإنساني مجبر على التخلي عن النظام القديم للفكر والسلوك. بل حتى من قلب المعرفة العقلانية

صدرت إشارات أو علامات ترهص بحلول عهد جديد سمته الأساسية : التعقيد. وذلك لأنه بعد أن تقدم العلم أكثر فأكثر وأصبح متقناً ومتكاملاً، اكتشفنا أعماقاً غير متوقعة تحت المعادلات البسيطة والأنيقة لعلماء القرن التاسع عشر. فقد كانوا تبسيطيين في نظرتهم للأمور. وهذا ما يفرق بيننا وبينهم. واليوم نلاحظ أن الفروع الأكثر تقدماً لعلم الفيزياء تبلور نظرية موحَّدة للقوى التي تتحكم بلامتناهي الصِغر : أي ما هو داخل الذرة، ولامتناهي الكِبر : أي الكون بأسره، وذلك من خلال تصورات ومعادلات معقدة تتجاوز أفهامنا. نعم لقد أصبح العلم معقداً جداً في عصرنا الراهن.

ومجتمعاتنا تشهد نفس التطور والتعقيد. نحن نعلم أن القرن التاسع عشر كان يطمح إلى تشكيل قوانين شبه رياضية للمجتمع أو "للفيزياء الاجتماعية" كما كانوا يقولون آنذاك. كانوا يهدفون إلى استخلاص القوانين التي تتحكم بالمجتمع من أجل معالجة مشاكله بطريقة علمية أو من أجل تأسيس السياسة على العقل والعلم والمعرفة الدقيقة ببنية المجتمع. وأما اليوم فنشهد حركة معاكسة. ويعود جزء من الخيبة بالسياسة والسياسيين إلى الحقيقة التالية ، وهي أننا ما عدنا قادرين على الفهم أو السيطرة على الوضع. وذلك يعود إلى حصول طلاق متزايد بين شعب مزاجيّ وسلطة حائرة مبلبلة لم تعد تفهم ردود الفعل غير المتوقعة لشعبها. فالشعب قد يصوت ضد

الحكومة حتى ولو كانت تشتغل لصالحه ثم يسقطها ويأتي بالمعارضة حتى ولو لم تكن أفضل من السلطة. وفي ذات الوقت نلاحظ أن الإيديولوجيات تضعف أو تفقد بريقها وتنهار. وذلك لأن التفاوتات الاجتماعية أصبحت أقل وضوحاً وعمقاً وفي ذات الوقت أكثر عدداً وتنوعاً. والتقسيمات القديمة للمجتمع على أساس الفئات المتميزة أو الطبقات المنفصلة بعضها عن بعض فقدت صلاحيتها. وأما العصبيات أو التضامنات التقليدية فقد تفككت وانحلّت في الوقت الذي راح فيه الناس يبتكرون علاقات انتماء وتضامن جديدة. لا ريب في أن سلوك الأفراد أصبح متجانساً أو منسجماً أكثر من السابق، ولكن الهويات الثقافية أخذت تؤكد خصوصياتها واختلافها بقوة أكبر. فالجاليات المغتربة أصبحت تتعلق بتراثها أكثر وتتمايز عن بقية الفرنسيين. وطموحات البشر وردود أفعالهم ما انفكت تدهشنا أو حتى تصدمنا. ولم تعد مسارات الأفراد أو حياتهم تشبه الخط المستقيم كما كان عليه الحال في السابق، أو قل إنها تشبهه بشكل أقل من السابق. أصبحت مساراتهم أكثر تعرجاً والتواء وفوضوية من ذي قبل. والتناقضات أصبحت عديدة، والعبث أخذ يظهر ويستقر في حياتنا. وهكذا رحنا نكتشف قوانين العلاقة والتداخلات أو الترابطات. ومنذ الآن فصاعداً أصبح ينبغي علينا أن نتعود على العيش في مناخ أصبحت السببيات المنطقية فيه أقل مباشرة، وفي الغالب أقل يقينيَّة من ذي قبل. لقد دخلنا في عصر اللايقينيات واللاحتميات.

وما ينطبق على داخل كل دولة ينطبق على المسرح العالمي ككل. فكلما اضمحلت الحدود بين الدول أصبح التمييز بين الداخل والخارج قليل الأهمية. ونلاحظ أن النظام العالمي يتخذ كل سمات الأنظمة القوية المحلية وأولها سمة التعقيد والتغير المفاجئ. ينبغي العلم بأن المجتمع الدولي يعيش داخل تشابكات تشبه تشابكات الغابة العذراء. فإذا كانت الدول القومية لا تزال هي الفاعل الأساسي إلا أنها لم تعد تحتكر وحدها العلاقات الدولية. وإنما ينبغي عليها منذ الآن فصاعداً أن تحسب الحساب لشركاء آخرين يمثلون قوى جديدة وموجودة على الساحة. ونقصد بهم : الكتل الإقليمية المختلفة، والمؤسسات متعددة الجوانب، والمنظمات غير الحكومية، والشركات متعددة الجنسيات، والدياسبورات أو الجاليات المهاجرة، وشبكات المافيا. إن قوة الشركات العملاقة التي تشتغل على الصعيد العالمي يمكنها أن تعادل قوة دول عديدة. فشركة أمريكية كبرى تساوي ثروتها ثروة دولة بأكملها أو ربما أكثر. يضاف إلى ذلك أن المعايير الدولية والقانونية تتطور وتنتشر وتحدّ من سيادة الدول أو صلاحياتها. ونلاحظ ظاهرة جديدة الآن : ألا وهي انبثاق مجتمع مدني عالمي بالتدريج أي مجتمع مدني يضم كل سكان العالم. وقد بدأ صوته يسمع بخصوص معظم الرهانات الشمولية الكبرى وذلك بمناسبة الاجتماعات الهامة لقادة العالم كاجتماع منظمة التجارة العالمية، أو الدول الصناعية الثماني الكبرى

التي انعقدت في أماكن مختلفة من سياتل إلى جنوة إلى إيفان بفرنسا، الخ... وهذا ما يدعى بالرأي العام العالمي.

ونلاحظ أن تدفق الهجرات من دول العالم الثالث التي نشأت بعد الاستقلال إلى بلدان القوى الاستعمارية السابقة في أوروبا قد ربط مصير كلا الطرفين بعضهما ببعض. فالاستقلال لم يؤد إلى الفصل بين الطرفين ولا إلى محو الماضي كلياً وإنما استمرت العلاقات بعده. وهكذا راح التواصل المستمر بين الطرفين وكذلك التبادلات المتعددة من تجارية وسواها يجعلان الثقافات المختلفة متداخلة بعضها ببعض. نضرب على ذلك مثلاً علاقة فرنسا بدول إفريقيا الشمالية : أي المغرب الكبير. فتواجد جالية مغاربية كبيرة في بلادنا والروابط والجراحات التاريخية هي التي تخلع طابعاً خاصاً على علاقتنا بهذه البلدان التي كانت من مستعمراتنا سابقاً. وبالتالي فعلاقتنا معها لا تزال قوية حتى بعد أن أصبحت دولاً مستقلة ذات سيادة.

في مثل هذا الجو الجديد لم تعد النظرة المانوية أو الثنائية تشكل الحل المناسب كما كان عليه الحال في زمن الحرب الباردة. فتعقيد العالم يتطلب منا اتخاذ قرارات براغماتية أو عملية، قرارات تجريبية وجماعية. وأصبحت التكنولوجيا الحديثة للمعلوماتية تصل بين قارات متباعدة كانت تعتقد أنها يمكن أن يتجاهل بعضها بعضاً دون أي مشكلة بسبب المسافات الشاسعة التي تفصل بينها. ولكن العولمة

قلّصت الزمن والمسافات، بل ألغتها. والشيء الذي أصبح مهماً اليوم هو إمكانية إقامة العلاقات بين البشر، والأمكنة، والمنظمات بفضل وسائل الاتصال والمعلوماتية الحديثة. وما عاد أحد بقادر أن ينعزل عن الآخرين ويغلق عليه أبواب بيته ويقول : أنا لست بحاجة لأحد وسوف أعيش وحدي ولا أريد لأحد أن يتدخل في شؤوني.

بالأمس كانت مشكلة الحدود تشكل الهمّ الأكبر عند الدول. وكانت هذه الدول تحمي نفسها وراء الحدود الطبيعية التي تفصلها بعضها عن بعض. وكانت كل حضارة كبيرة تحاول جاهدة أن تحافظ على حدودها. كانت تفعل ذلك كما لو أنه طريق الغريزة الموروثة منذ مئات السنين عن الآباء والأجداد. كان المصريون مثلاً يغلقون نهر النيل بدءاً من الشلال الثاني قبل أن يصل إليهم ويحولون شواطئه الصخرية العالية إلى نوع من الحصن الذي يحميهم ويشكل حدودهم التي تفصلهم عن غيرهم. ومعلوم أن الحاجة إلى حماية حدود الذات أو الرغبة في انتهاك حدود الآخرين كانت تتكرر على مدار تاريخ الشعوب والإمبراطوريات. وهي التي كانت تؤدي إلى اندلاع الحروب. والأمم كانت تشعر أنها في أمان وراء التحصينات سواء أكانت على الطريقة الرومانية، أم على طريقة خط "ماجينو" الفرنسي أم على هيئة سور الصين الكبير. كلها كانت تهدف إلى حماية البلاد من الغزوات الخارجية. وكان الخبراء الإستراتيجيون وعلماء الاقتصاد

ينصحون دولهم باتباع سياسة الحماية والاكتفاء الذاتي. كانت الدولة تريد أن تكون سيدة أمرها في عقر دارها، أو داخل نطاق حدودها.

ولكن كل هذه الإجراءات المطمئنة لم يعد لها معنى في وقتنا الحاضر. فالحدود لم تعد كتيمة هذا إن لم تكن قد اختفت كلياً. وأصبحت مصائرنا مرتبطة بآلاف المصائر الأخرى في هذا العالم. وراحت عقدة متشابكة من الأسباب والنتائج تحيط بنا حتى لكأنها تحاصرنا من كل الجهات. فمن جهة نحن أكثر حرية وأكثر قدرة على اقتناص الفرص التي تسنح لنا، ووجودنا أصبح أكثر انفتاحاً على المفاجآت غير المتوقعة ولم يعد كالخط المستقيم من البداية إلى النهاية. ومن جهة أخرى فإن المصادفة المتقلبة والتعقيد يدخلاننا في شبكة لانهاية لها من التبعية للآخرين والتفاعل معهم ويجعلان الممارسة الفردية صعبة وغير مضمونة. كان ماكس فيبر قد قال إن الحداثة تسجن الإنسان داخلها كقفص من حديد. ولكن ربما لم تكن الصورة دقيقة تماماً. ربما كان من الأفضل أن نتحدث عن قفص من زجاج، عن متاهة من انعكاسات المرايا ولكن دون مهندس عبقري لأنها من نتاج أعمالنا. فهل التحدي المطروح علينا هو أن نبحث عن "مينوتور"[81] جديد لكي نقتله، "مينوتور" مغذّى من قبل عملنا، من قبل المال، والمتاجرات اللاشرعية، وتدفق الهجرات؟ وهل ينبغي أن نرى وراء وجوه المحتجين الأكثر راديكالية الهيئات الجديدة لـ"تيزي"[82]؟. أم

أنه ينبغي علينا بالأحرى أن ندجن المتاهة لكي نفتح النوافذ التي تتيح لنا أن يرى بعضنا بعضاً، أن نقوم بالتبادلات فيما بيننا، أن نقفز ونثب؟

بعض الناس يعتقدون أنه يكفي أن نقطع الجسور مع الآخرين، أن نبني قلاعاً محصَّنة، أن نقوي من دعائم جدراننا وحدودنا لكي نصبح بمنأى عن التهديدات الخارجية. ولكن الأمن اليوم، أقصد أمن أي بلد، لا يعرف الحدود أو التخوم. ولا تستطيع أي حدود في الأرض مهما كانت مدعمة ومحصنة أن تحميك. والتفوق التكنولوجي لبلدان الشمال المتقدمة التي تعتمد عليه من أجل حماية نفسها هو سلاح مزدوج. فالجماعات الإرهابية تعرف، هي الأخرى أيضاً، كيف تستخدم أحدث أنواع المخترعات التكنولوجية. وتستطيع أن تزود نفسها بالوسائل اللوجستيية والتدميرية الأكثر قدرة على القتل والتفجير وإحداث الأضرار. فارتباط العالم بعضه ببعض أو تبعيته بعضه لبعض في عصرنا الحالي يخلق بالضرورة مخاطر جديدة وليس فقط منافع. نذكر من بينها انتشار أسلحة الدمار الشامل من كيميائية أو بيولوجية أو حتى ذرية. ومن الوهم أن نعتقد أننا قادرون على الاحتفاظ بمخترعاتنا التكنولوجية في مخابرنا أو داخل حدودنا. فعاجلاً أو آجلاً سوف تصل إلى أيدي الآخرين وسوف يحاولون استخدامها ضدنا.

وحتى تصورنا للزمن تغير أيضاً في الآونة الأخيرة. فطيلة القرون السابقة كان البشر يتصورون الزمن على هيئة العود الأبدي. فالدورة المألوفة والمطمئنة للفترات الكونية الواسعة كانت تربط قدرهم أو مصائرهم بالتحركات التي تحصل في السماء العليا، أقصد تحركات الكواكب والأجرام السماوية. وكان الفكر الأسطوري يفسر قوانين الطبيعة طبقاً لمخطط التكرار، والانتظام، والتغير. كانت تلك الأزمنة أقرب إلى لحظة خلق العالم من فترتنا الحالية، كانت أزمنة الآلهة والسحر، ولذا فإن البشر كانوا يعتقدون بالقدر المكتوب للإنسان سلفاً. ثم راحوا بعدئذ يعتقدون بالنعمة الإلهية التي هي من حظ بعض الناجين القلائل. وراحوا يعتقدون بالجبر وأن مصير الإنسان محسوم قبل لادته. وأصبح الكهنة والعرّافون والمتنبئون بالغيب هم المسؤولين عن كشف العلامات التي ترهص مثلاً بحصول حريق يهدد الجماعة أو بلمح بصيص الأمل والتجديد حتى قبل أن يحصل. كان ذلك عصر الكهنة الذين يتوسطون بين الآلهة والبشر. عصر يستطيع فيه البشر أن يتحدثوا مع الله مباشرة، عصر توجد فيه أبواب سحرية تفتح لنا أسرار الغيب والزمن، عصر يحصل فيه التواصل بين السماء والأرض، الدنيا والآخرة.

وقد كان التحدي الكبير الذي واجه الحداثة هو التالي : إقناع الناس برفض هذه الرؤية الدائرية أو الدورية للزمن وعصور البشرية

وإحلال الرؤيا الخطية المستقيمة وغير المتقطعة محلها. ولأول مرة أخذ الناس يؤكدون ثقتهم بالمستقبل. وهكذا نهضت الحضارة الغربية على أنقاض الرؤيا القديمة للعالم ونصَّبت نفسها كإلهة موعودة بالخلود. وعندما اكتشف الناس بعد عصر النهضة والتنوير إمكانيات العقل البشري شعروا بغبطة كبيرة وحماسة هائلة. واعتقدوا أنه لا توجد أي حدود للمعرفة العلمية، وأنها قادرة على كل شيء. وبما أنهم مقتنعون بإمكانية معرفة كل شيء، فإنهم اعتقدوا بإمكانية التكهن بكل شيء قبل قوعه.

والسؤال المطروح الآن هو : هل نحن قادرون على استيعاب الحقيقة التالية : وهي أنه لا شيء مؤكد أو مضمون سلفاً؟ ينبغي أن نعترف ونحن في عصر الحداثة اللاهبة أن كل شيء متحرك، متغير، غير مضمون أو غير يقينيّ. هل تريدون أمثلة على ذلك؟ لنتأمل في حالة النمور الآسيوية، أي الدول التي خرجت من البؤس المدقع خلال بضع سنوات فقط بفضل سياسة التصنيع والتي اعتقدنا أنها سائرة إلى الأمام إلى ما لا نهاية. ولكن الشيء الذي حصل مؤخراً هو أنها أصبحت مهددة بالركود الاقتصادي أو بالكساد. لنفكر أيضاً ولو للحظة بالمثال الياباني. فالجميع كانوا يحسدونه ويمجدونه في الثمانينات. ولكنه أخذ يعاني في التسعينات من مشاكل كبيرة وأصبح النموذج المضاد للتطور الاقتصادي، أي النموذج الذي ينبغي تحاشيه.

ولكنه أخذ مؤخراً يستعيد عافيته ويجد طريقه إلى النمو وتحقيق النتائج. وبالتالي فلا شيء مضمون سلفاً، لا شيء مؤكد في عصر الحداثة أو ما بعد الحداثة. فكل مشكلة جديدة تجيء لكي تطرد المشكلة القديمة خالقة الشعور لدينا بأننا متأخرون دائماً عن الحدث، بأننا نلهث وراء الإيقاع المتسارع لحضارة الصورة. فالزمن الذي تلتهمه الآلات لا يستطيع الإنسان أن يواكبه. نحن نركض لاهثين وراء استنفار دائم يفرض نفسه علينا حتى في الفعاليات البشرية التي كانت منظّمة سابقاً من قبل عوامل أساسية : كالسيطرة على الوقت وإيقاع التاريخ. وهذا الاستعجال أو الاستنفار السريع يجدد العمل السياسي في العمق بعد أن أصبح نضال اللحظة : أقصد نضالاً مستمراً واقعاً تحت وطأة الضرورات العاجلة للحاضر. والسياسة تربح بذلك احتكاكاً أكثر قرباً بالواقع اليومي. ولكنها تخسر في ذات الوقت نَفَسها الكبير وعلوّ نظرتها والتفكير بالمشاكل على المدى الطويل. وتجد نفسها عندئذ مضطرة للانتقال من أزمة إلى أخرى بسرعة البرق. وكل ذلك يتم من خلال الإعلام والتدفق الغامر للصور التلفازيّة التي لا تنقطع.

ينبغي العلم بأن الغرب عرف الكثير من الفترات المضطربة والفوضوية في تاريخه الغابر. فالرومان شعروا بالقلق والهلع عندما رأوا إمبراطوريتهم تنهار تحت ضربات الموجات البربرية الغازية. وراحوا ينظرون مذهولين إلى سقوط المدينة الخالدة (أي روما) التي

احتلها "ألاريك"[٨٣] عام ٤١٠ للميلاد. وبعدئذ عرف الغرب القلق الشديد في العصور الوسطى إذ عانى الناس من الحروب، والغزوات، والأوبئة، وشعروا بالتمزق بين النظام الإقطاعي والنظام الملكي، بين الإخلاص للإمبراطور المسيحي أو الإخلاص للسلالة الملكية الحاكمة محلياً. ثم حصلت بعدئذ أحداث هائلة عندما اندلعت الثورة الفرنسية وزعزعت الأنظمة الملكية الأوروبية. وتلا ذلك مباشرة غزو نابليون لأوروبا وهيمنته عليها ولو لفترة. وبعدئذ دخلنا في القرن التاسع عشر وشهدنا "السأم" أو الكآبة السوداء[٨٤] التي طالما تحدث عنها بودلير. والمقصود كآبة الروح في عصر الحداثة والصناعة والتكنولوجيا والمدن الكبرى. عندئذ راح الشعراء والفلاسفة ينددون بالانحطاط الروحي الناتج عن التصنيع والقضاء على براءة الطبيعة. وبعدئذ حصلت أزمة الثلاثينات من القرن العشرين التي أدت إلى الفاشية والنازية، ثم شهدنا أخيراً التوعك الحضاري في السبعينات.

كل هذه الأزمات شهدها الغرب وعاشها على مدار تاريخه الطويل. وفي كل فترة من هذه الفترات سيطر الخوف على قلوب البشر وأولها الخوف من الموت بالطبع، هذا الموت الذي قد يطرق بابك في أي لحظة ودون إنذار مسبق في عالم معرض لكل أنواع الجنون والانهيارات. ولكن نقصد أيضاً الخوف من الأمراض الجديدة التي قد تأتي فجأة من مكان لا نعرفه وبشكل غير متوقع على الإطلاق.

ونقصد أيضاً الأمراض المنسيّة ولكن المنبثقة فجأة والتي تستعصي على المعالجات الطبية التي كانت قادرة على ذلك بالأمس. ونقصد أيضاً الخوف من أن يفقد الإنسان هويته في زمن يشعر فيه كل إنسان بأنه مهدد من قبل الإعصار والزوابع التي قد تقتلعه من جذوره. ونقصد أخيراً الخوف من المستقبل المجهول، وهو الذي يغذّي خشيتنا من الانحطاط والزوال بعد أن وصلنا إلى القمة. وهذا الخوف يسيطر بشكل خاص على أوروبا ذات "الدرابزينات القديمة" التي أراد رامبو[٨٥] بكل قوة أن يغادرها ويدير ظهره لها إلى غير رجعة.

نداء الفراغ

بما أننا مدينون من قبل القدر، فهل ينبغي علينا أن نتخلّى مرة أخرى عن مثلنا العليا ونصبح من جديد أولئك المحاربين الأبديين؟ هناك نداءات ترتفع هنا وهناك في شتى أنحاء العالم، نداءات تحمل في طياتها مطلب العدالة والتضامن بين البشر. وأخذ يتشكل ضمير عالمي وينتشر عبر الشعوب رافضاً الاستسلام للمنطق العدمي السائد في الغرب والقائل بأن العلاقات الاجتماعية هي عبارة عن لعبة مصالح وموازين قوى وأن الحديث عن المبادئ والمثل ليس إلا ثرثرات فارغة. ولكن لحسن الحظ فإن احترام حقوق الإنسان ورفض كل شكل من أشكال الإمبريالية أصبحا المبدأ الأساسي للمجتمعات المدنية في

شتى أنحاء العالم. وبالتالي فالعولمة ليست شراً كلها وإنما هي أيضاً عولمة للخير والقيم الإنسانية. فبفضلها وبفضل الفضائيات ووسائل المعلوماتية الحديثة أصبحت الصور التي تصلنا عن بعض الشعوب المقهورة المضطهدة، وعن الفقر المدقع المنتشر في بعض البلدان، معروفة لدى سكان العالم أجمع. وهذا ما يدفع بالمجتمعات المدنية للتحرك وفعل شيء ما للتضامن مع المنكوبين. وانطلاقاً من ذلك أخذ بعضهم يحلم بتسوية كل المشاكل على سطح الأرض دفعة واحدة : كإسقاط الطغاة الثابتين مدى الحياة، وكتسوية الصراعات التي تبدو وكأنها مسدودة ولا حل لها (كالصراع العربي-الإسرائيلي)، وكوضع حد للأوبئة التي تكتسح البلدان الأكثر فقراً وتفني شعوبها (كمرض الإيدز). وأمام التحرك البطيء للجماعة الدولية والأمم المتحدة فإن البعض اعتقد بإمكانية انتهاك القانون الدولي وحل كل ذلك بمفرده. وعلى أية حال فإن إغراء التصرف الفردي أصبح كبيراً. وهذا ما فعلته أمريكا في العراق مؤخراً.

ولكن ينبغي العلم بأن الطريق الأقصر لحل المشاكل قد يكون هو الطريق الأكثر طولاً وصعوبة. فالتعاليم القديمة للتاريخ وكذلك حكمة العصور كلها تقول لنا ما يلي : صحيح أن القوة يمكن أن تقطع رأس الأفعوان، ولكنها بدلاً من أن تقتل الوحش المذكور فإنها تخلق الشروط المناسبة لكي تنبت له سبعة رؤوس جديدة وقد أصبحت أكثر انتعاشاً

وقدرة على القتل من ذي قبل، وحتى هرقل[٨٦] اضطر إلى استخدام الحيلة مع القوة من أجل قتل الأفعوان.

بعد الحرب العالمية الثانية وطيلة خمسين سنة تقريباً كان الردع النووي هو الذي تكفل بمسؤولية تأمين تماسك نظام العالم والحفاظ عليه. فكلتا القوتين الأعظم كانتا تملكان هذا السلاح وبالتالي فإن استخدامه مستحيل لأنه يعني تدميرهما معاً. ومعلوم أن تجريب القنبلة الذرية في هيروشيما وناغازاكي برهن على مدى قدرة السلاح الذري على التدمير الواسع الرهيب. وفهم الجميع عندئذ مدى الأهمية الإستراتيجية لامتلاك هذا السلاح الذي لم يسبق له مثيل في التاريخ. وقد فهمت الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن اخترعت القنبلة الذرية أنها تمتلك مفتاح أمن العالم. وفهم منافسها السوفييتي أنه من الحيوي له أن يمتلكها أيضاً لكي يعادل الأمريكان في القوة. واستطاع تحقيق حلمه بعد أربع سنوات فقط من امتلاك أمريكا للقنبلة. وعندما توصلت الصين عام ١٩٦٤ إلى صنع القنبلة الذرية أصبح الأعضاء الخمسة الدائمون في مجلس الأمن يمتلكون السلاح النووي (أي الولايات المتحدة، الاتحاد السوفييتي، فرنسا، إنجلترا، الصين). وعندئذ انتقل التنافس بينهم، وبخاصة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، من المركز إلى الهوامش. وأصبحا يتعاركان عن طريق ثالث: أي بلدان العالم الثالث. كما أخذا يتنافسان عن طريق تجميع

أكبر قدر ممكن من الرؤوس النووية. فكلما صنع أحدهما رؤوساً زائدة عن الآخر أو صواريخ تحمل شحنات نووية إضافية حاول الآخر اللحاق به. وهكذا دواليك... وهي صواريخ منتشرة على الأرض، أو تحت مياه البحر، أو في الجو. وكلها مستعدة لتدمير الخصم بأسرع وقت ممكن وبأكبر حظ من النجاح.

ولكن الغرب، كما العالم الشيوعي، كان يعرف أن استخدام السلاح النووي سوف يؤدي إلى تدمير الطرفين معاً وليس تدمير طرف واحد. ولهذا السبب فلم يستخدمه وإنما لوَّح باستخدامه من أجل ردع الخصم وتخويفه. فالحرب لو حصلت كانت تعني فشل الردع وحصول يوم القيامة : أي دمار الأرض ومن عليها. وهكذا خرجت مسألة الحرب والسلام من دائرة القانون والمبادئ الأخلاقية لكي تدخل في دائرة العقل التقني الذي يحوِّم فوقه خطر الدمار الذري.

وهكذا أصبح السلام يعتمد على امتلاك القوة، ولكن القوة راحت تتقلب على نفسها لكيلا يضطر المرء إلى استخدامها فعلياً. وبما أن الترسانة النووية تتفوق على الأسلحة التقليدية فإنها تتيح لنا أن نقيسها كمياً بدقة وأن نقارن بين حجم الأسلحة المتوافرة في كلتا الجهتين. وهذا يعني أن أمن العالم أصبح يعتمد الاحترام شبه الرياضي لموازين القوى.

ولكن بعد انهيار الكتلة الشيوعية في نهاية الحرب الباردة تغيرت الأمور كلياً، واستعادت القوة دورها من جديد. أقصد بأن استخدامها أصبح ممكناً دون الخوف من اندلاع حرب نووية شاملة وذلك لأنه لم تعد توجد إلا قوة عظمى واحدة. فقد اندلعت مجموعة من الأزمات أو الصراعات الإقليمية هنا وهناك في العالم. ولم يعد استخدام القوة لحلّها من المحرمات. على العكس لقد أصبح أمراً عادياً. وانضافت إلى الحروب الكلاسيّة بين الدول حاجة متزايدة للقيام بعمليات البوليس الدولي المعتمدة على وسائل عسكرية تقليدية. هذا ما حصل في البوسنة والكوسوفو وأماكن أخرى. وعندئذ تجلت إدارة الدول الديمقراطية في الدفاع عن قيمها خارج حدودها أو في مواجهة الكوارث الكبرى. ولذلك فلم تعد تتردد في إرسال قواتها إلى أماكن الخطر والصراع بل أخذت تتدخل هناك أكثر فأكثر. وفيما يخص الكوارث الإنسانية الكبرى لا أزال أتذكر تصميم آلان جوبي وزير الخارجية الفرنسية آنذاك عندما أقنع حكومته المترددة بالتدخل الإنساني في رواندا لمنع استمرارية الكارثة. نعم كنا نشعر دائماً بضرورة التقيد بمطلبين مزدوجين في آن معاً لكي نواجه مشاكل عالم في حركة وتغير كبير. فأولاً كان ينبغي علينا أن نظل مخلصين للمبادئ، وثانياً كان ينبغي أن نكون جاهزين لتنفيذها أو تطبيقها بالسرعة القصوى عندما تستدعي الحاجة ذلك. وهذا ما فعله جاك

شيراك عندما تدخل في البوسنة وطلب من القوات الفرنسية احتلال جسر "فيريانيا" هناك بالقوة لأن الحاجة اقتضت ذلك. وقال ما معناه : من غير المعقول أن تتعرض قواتنا التي تعمل هناك بإمرة من الأمم المتحدة لنيران معادية دون أن تستطيع الرد على ذلك. صحيح أننا موجودون هناك لتأدية مهمة إنسانية وفي ظل القوات الدولية ولكن ذلك ليس حجة كافية لكي نقف مكتوفي الأيدي أمام العدوان. وهكذا نلاحظ أن توسع مفهوم الديموقراطية وحقوق الإنسان أدى إلى بلورة مفاهيم من نوع "حق التدخل الإنساني" في شؤون الدول الأخرى إذا ما اقتضت الحاجة إلى ذلك : أي إذا ما أصبحت حقوق الإنسان أو الشعوب أو الأقليات في خطر شديد داخل تلك الدول. وبالتالي فاستخدام القوة أصبح مشروعاً ضمن ظروف معينة في حين أنه كان ممنوعاً في السابق بحجة عدم جواز انتهاك سيادة الدول. ولكن إذا كانت الدولة مارقة وتقمع شعبها أو جزءاً منه أو إذا كانت تهدد جيرانها والسلام العالمي هل يحق أن تكون لها سيادة؟

وهكذا راحت المناقشة الخاصة بالقوة والقانون والتي تقع في قلب الميثاق المؤسس لكل مجتمع بشري تطرح نفسها على مستوى العالم كله. بمعنى هل يحق لنا استخدام القوة خارج حدودنا أم أنه ينبغي علينا أن نحتكم دائماً إلى القانون الدولي حتى لو كانت الأمم المتحدة

عاجزة عن تنفيذ قراراتها عملياً وإنقاذ الشعوب أو الفئات المهددة؟ والواقع أن الاستخدام القانوني للقوة يحيلنا إلى مسألة مشروعيتها، والحالة التي تسمح بها، أو السلطة التي تمارسها. ينبغي أن ندخل هنا في التفاصيل ونقول : إن السيادة تعني الممارسة الشرعية للسلطة. وهي تعني أيضاً إمكانية إصدار الأوامر وإجبار الناس على طاعتها أو التقيد بها. وهذا ما ندعوه بسلطة القانون الذي يفرض هيبته على الجميع. ولكن هناك مصدر آخر للإكراه أو إجبار الناس على احترام القانون هو : القوة. ولا يمكن لأي نظام سياسي أن يتخلى عنها أو عن التهديد باستخدامها على الأقل. وذلك لأنها تشكل قاعدة السلطة ذاتها. بل يمكن القول بأنها تمثل جوهر السلطة. ولكن هذه السلطة - أو القوة- تخضع في المجتمعات الديموقراطية الحديثة لقواعد معقدة جداً ودقيقة. ولا يمكن للحاكم أن يتصرف بالسلطة على هواه هناك كما يحصل في الأنظمة الديكتاتورية المغلقة. وبالتالي ينبغي أن نحدد الشروط التي تجعل استخدام القوة مشروعاً، ثم الحالات التي لا يمكن استخدام القوة فيها بأي شكل من الأشكال لأن ذلك يعتبر خروجاً على الشرعية. وهو خروج تنبغي محاربته. ينتج عن ذلك أن توازن المجتمع يعتمد على تحقيق المعادلة المتوازنة بين القوة والقانون : أي متى ينبغي اللجوء إلى القانون لحل المشاكل الناشبة، ومتى يحق لنا

استخدام القوة لحلها إذا لم يكف القانون لذلك. وهذه المعادلة التي تطبق على الدول الديمقراطية ينبغي أن تنطبق على المجتمع الدولي ككل.

منذ عام ١٩٤٥ اعترف المجتمع الدولي بهذه المعالجة التي تحدد العلاقة الصحيحة بين القوة والقانون عندما أسس منظمة الأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية من أجل تنظيم العلاقات بين الدول وعدم ارتكاب الخطأ الذي كلف البشرية غالياً مرة أخرى، المقصود بالخطأِ هنا اعتداء ألمانيا النازية على جيرانها. فميثاق الأمم المتحدة يعترف بأن اللجوء إلى القوة لحل الصراعات الدولية يظل ضرورياً، بل حتى حتمياً ولازماً في بعض الأحيان. ولكنه بلور بعض القواعد التي تخلع عليه طابع الشرعية الدولية. لقد وضع القاعدة البسيطة التالية التي ينبغي أن تتحكم بعمل المنظمة الدولية كله ألا وهي : في حالة حصول عدوان أو تهديد بالعدوان ضد السلام العالمي فإن مجلس الأمن الدولي هو وحده المخول لاتخاذ قرار يبيح استخدام القوة أو لا. ينبغي الاعتراف بأن تطبيق هذه القاعدة عُرقِل طويلاً على مدار الحرب الباردة. فقد كان حق الفيتو يستخدم من هذه الجهة أو تلك لمنع تنفيذ قرارات مجلس الأمن الدولي. ولكن بعد انهيار الإمبراطورية السوفييتية أصبح ممكناً تطبيقها لتنظيم العلاقات بين الدول ولمنع أي دولة من تهديد جيرانها أو الاعتداء عليهم وتهديد السلام العالمي

بالتـالي. والشيء المؤسف الذي طرأ مـؤخـراً هو أن المحـافظين الجـدد في أمـريكا أعـادونا إلى مـا قـبل تـأسـيس الأمم المتـحـدة، أي إلى فـتـرة سـاد فـيهـا منطق الحق لـلأقـوى الذي حـولوه إلى عـقل الـدولة. وهكذا تغلّب منطق القـوة على منطق الـقـانون واختـلّت المعـادلة السـابقـة التي كـانت تنظِّم العـلاقـات بينهـمـا. فـأمـريكا غـزت العـراق دون أي قـرار من مـجلس الأمن. وكـان ذلـك يمثل انتـهـاكاً للشـرعـيـة الـدولية. والواقـع أنه على مدار تاريخها كانت الولايات المتحدة تتذبذب بين سياسة التعاون مع الآخـرين وسـيـاسـة الاسـتـفـراد بالقـرار الدولي. فـفي عـهـد الرئيس ويلسون كـانت مثـالية منفـتحة على الآخـرين. وكانت كذلك أيضـاً عندما أسست الأمم المتحدة لحل مشاكل العالم عن طريق التشاور مع الجميع وتطبيق القـانون الدولي. ولكنهـا عـادت مؤخـراً إلى سـيـاسـة الاسـتـفـراد بالقـرار وعـدم المبـالاة بآراء الآخـرين. فـقـد أصـبـحت القـوة العـظمى الوحـيـدة القـادرة على ممارسـة هـيـمنتهـا على صـعـيـد الكرة الأرضـيـة بأسـرها. وهـي تمتلك تفوقـاً واضـحاً على كافة الأصعدة والمستويات من إستراتيـجية، وتكنولوجيـة، وعسكرية. وهي لا تخشى على أراضيها من أي تهديد حقيقي حتى ولو كانت ضـربة ١١ سـبـتـمـبـر قـد كـشـفت عن بعض الهـشـاشـة والضـعـف لديها. وحتى على المستوى الثـقـافي نلاحظ أن هـيـمنتـهـا تنتـشـر في كل أنحـاء العـالـم. وأمـا الشـركـات الأمـريكيـة العـمـلاقـة فـهي المسـتـفـيـد الأول من الـعـولمة التي تضـمـن للبـلاد نمواً

اقتصادياً قوياً ومطرداً. وأخيراً ينبغي الاعتراف بأن الهيمنة الأمريكية ترتكز على بعض القيم والمبادئ الأخلاقية. وهذه الهيمنة الكبرى تتناقض بشكل صارخ مع انهيار بعض الدول والآثار السلبية الناتجة عن هذا الانهيار. نقصد بهذه الآثار ظهور الدول المارقة، والجنّات الضرائبية أي الأماكن التي تزدهر فيها الأموال المهربة والوسخة. كما نقصد تصاعد الإرهاب وازدياده، وانتشار المافيا، والصراعات الإقليمية. وانهيار هذه الدولة أو تلك يعطي بالضرورة مصداقية للنموذج الإمبراطوري الأمريكي الذي يحاول أن يفرض نفسه على العالم حالياً. وبالتالي فنحن أمام خيارين لا ثالث لهما : إما القبول بالعصر الإمبريالي الجديد، وإما بالعصر الجماعي الجديد الذي يشارك فيه الجميع في عملية اتخاذ القرار وليس دولة واحدة أياً تكن عظمتها وأهميتها. نحن نقف الآن أمام تصورين عن وحدة العالم. الأول تصور إمبراطوري مرتكز على القوة والهيمنة وعلى قانون الأقوى والنظام والهيبة الفوقية. والثاني تصور ديمقراطي مرتكز على التضامن والتكامل في المصالح، وإذا أمكن على الاشتراك في القيم العليا.

نلاحظ أن الولايات المتحدة تعيش اليوم "لحظتها الإمبراطورية الأحادية الجانب". ويبدو لنا أنها تريد تحقيق نبوءة الرئيس تيودور

روزفلت[٨٧] التي أطلقها عام ١٨٩٨ والتي قال فيها : "إن أَمْرَكة العالم هي قدرنا ومستقبلنا". إن الثورة الإستراتيجية التي قامت بها واشنطن مؤخراً تضع الولايات المتحدة أمام مشهد إيديولوجي لم تعرفه في تاريخها حتى الآن. فحتى الفترة الراهنة عندما لم تكن تنغلق داخل الموقف الانعزالي والانكفاء على الذات، كان مشروعها يتمثل في تشكيل نظام عالمي جديد يعكس قيمها الديمقراطية. وضمن هذا المنظور أراد فرانكلين روزفلت٨٨ بعد الحرب العالمية الثانية تأسيس عالم متعدد الأقطاب ومتصالح مع نفسه ومتمحور حول نظام الأمم المتحدة. ولكن الحرب الباردة سرعان ما عرقلت مشروعه وجعلته مستحيل التحقُّق لأن الاتحاد السوفييتي كان يعارضه دائماً ويعطِّل بذلك عمل الأمم المتحدة.

وبعد انتهاء الحرب الباردة وعلى أثر حرب الخليج وتحرير الكويت عام ١٩٩١ وعد الرئيس جورج بوش الأب بتحقيق مشروع مشابه، وقال حرفياً : "إننا نعمل من أجل استهلال عهد نظام عالمي جديد يسود فيه حكم القانون وليس حكم الغاب. فالقانون هو الذي ينبغي أن يتحكم بتصرفات الأمم وسياساتها".

ولكن ها نحن نعيش الآن منعطفاً كبيراً. فلأول مرة في تاريخها نلاحظ أن الولايات المتحدة تريد تأسيس زعامتها العالمية على تفوقها

العسكري بقدر ما تؤسسها على القيم التي تؤمن بها. وهكذا يحصل التقاطع المفاجئ بين استفرادها بشؤون العالم وبين نزعتها التبشيرية بمبادئ الحرية والديمقراطية وكل القيم الحديثة. بمعنى آخر فإن الولايات المتحدة تريد نشر السلام والديمقراطية والحرية عن طريق القوة. ولم تعد تستطيع أن تنتظر تبنّي الدول الأخرى لهذه القيم من تلقاء ذاتها. وهذا الطموح الكبير الذي يبدو تناقضياً في الظاهر يرتكز على الرغبة في الفعالية والبراغماتية. وهاتان هما القيمتان الأساسيتان لحضارتها ولنجاحها المادي الصارخ. إن هذا المنعطف التاريخي الكبير أو قل هذا التغير الكامل الذي طرأ على السياسة العالمية يشكل نوعاً من الزلزال فيما يخص مجال الإستراتيجية والدبلوماسية. ويمكن أن نقارنه من حيث ضخامته وطابعه المباغت بما حصل عام(١٧٥٦) عندما طرأ انقلاب كامل على التحالفات الأوروبية.

لقد أصبحت رسالة أمريكا الحضارية تتمثل في النضال ضد الشر (سواء أكان الأمر يتعلق بمحاربة الإرهاب أم بمنع انتشار أسلحة الدمار الشامل، أم بمواجهة الدول المارقة). وجورج دبليو بوش إذ ينتهج هذه الإستراتيجية الجديدة يتمايز كلياً عن السياسة الخارجية التي بلورها والده غداة سقوط جدار برلين، وعن سياسة سلفه كلينتون في آن معاً. وهكذا يسمح لنفسه بهامش سياسي واسع لمواجهة حالة

داخلية مشوشة. لماذا يفعل ذلك؟ لأن الساحة الدولية هي وحدها التي لا تزال حتى الآن توهمنا بأنه لم يتغير شيء على وجه الأرض. إنها وحدها التي تستطيع الدولة العظمى فيها أن تمارس الاحتكار الشرعي لاستخدام القوة دون أن تقيد حركتها عقبات أو إكراهات كثيرة. هذا في حين أن العنف الذي تمارسه الدولة على المستوى الداخلي يصطدم برفض كبير من قبل الشعب الأمريكي. وبالتالي فإن الدائرة الدولية هي وحدها التي يمتلك فيها الرئيس الأمريكي هامش حركة لا يستهان بها مع دعم مضمون للرأي العام الأمريكي. وهو لا يصطدم فيها بمصالح أو رهانات مرتبطة كثيراً بالصراعات والمصالح الداخلية. كما أنه يتمتع بمشروعية سياسية في تحركه على المستوى الدولي، مشروعية لا تزال تحظى بالاعتراف الكامل من قبل شعبه على الأقل.

ضمن هذه الظروف المستجدة نطرح هذا السؤال : هل ستعرف أوروبا كيف ستُسمع صوتها على مستوى العالم؟ نقول ذلك ونحن نعلم أنها من خلال تجربتها التاريخية، أصبحت غير راغبة في استخدام القوة وأصبحت مسالمة ووديعة أكثر مما يجب. فقد علّمتنا تجارب الماضي المريرة أنه من السهل أن نعلن الحرب ولكن ليس من السهل أن نضع حداً لها. ودفعنا الثمن باهظاً أثناء الحربين العالميتين، وكذلك

أثناء الحروب الاستعمارية. ولذلك فإن أوروبا تميل إلى استخدام أسلوب الدبلوماسية السلمية لا أسلوب القوة من أجل حلّ الصراعات الدولية. ولذلك حصل الخلاف مع أمريكا مؤخراً. ينبغي العلم بأن الرأي العام في كلتا جهتيّ نهر الراين، أي فرنسا وألمانيا كان ميالاً إلى الحرب ومفعماً بالنزعة العسكرية عام ١٩١٤. وذلك لأن كل طرف كان يعتقد بأنه سوف ينتصر على الطرف الآخر بسرعة. ولكن ذلك لم يحصل. ولذا راحت أوروبا تسبح في حمام من الدم على مدار أربع سنوات. وعندئذ حصل رد فعل ضد الحرب ووحشيتها ومآسيها لدى الرأي العام الأوروبي. وراح الناس بدءاً من عام ١٩١٨ يقولون : "أبداً لن نرتكب هذه الجريمة مرة أخرى". ولكن ذلك لم يحل دون وقوع القارة الأوروبية في جحيم الحرب بعد عقدين من الزمن فقط ! وهكذا حصلت الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩. ومنذ ذلك الوقت أصبحت الشعوب الأوروبية مسالمة فعلاً بعد أن ذاقت طعم الحرب وأهوالها. منذ ذلك الوقت أصبح استخدام القوة أو اللجوء إلى لغة الحرب والعنف يثير الاشمئزاز والريبة أكثر مما يثير الإعجاب في هذه الجهة من المحيط الأطلسي (وذلك على عكس الجهة الأخرى : أي أمريكا التي لم تعان من هذه الحروب مثلما عانت أوروبا وكانت دائماً بمنأى عن الخسائر الكبيرة والدمار). نقول ذلك ونحن نعلم أن نزعة تجميد البطولة التي سادت في نهاية القرن التاسع عشر والتي

كانت تعتقد أن تجديد الحضارة السائرة نحو الأفول لا يمكن أن يحصل إلا عن طريق القوة هي التي فتحت الطريق أمام اندلاع الحربين العالميتين في القرن العشرين وعربدة الهمجية أو البربرية التي لا توصف. وبالتالي فيوجد هنا فرق واضح بين العقلية الأوروبية والعقلية الأمريكية فيما يخص مسألة الحرب أو الانخراط فيها. فالأوروبيون عرفوا معنى المأساة والتراجيديا الناتجة عن الحرب أكثر من الأمريكان، ودفعوا الثمن باهظاً، ولا تزال ذكريات الحربين العالميتين محفورتين في أعماقهم. ولهذا السبب فضلوا الحل الدبلوماسي على الحل العسكري فيما يخص المسألة العراقية. ولهذا السبب حصل الخلاف بين أوروبا وأمريكا.

ولكن إذا كانت المواريث التاريخية أو الصدمات النفسية هي التي تحسم موقفنا من الرغبة في استخدام القوة أو عدم استخدامها، فإننا نلاحظ كل يوم أن عوامل القوة تغيرت وتطورت. فمنذ الآن فصاعداً أصبح العامل الثقافي يلعب دوره في تحبيذ اللجوء إلى القوة أو عدم اللجوء وذلك بالإضافة إلى عوامل أخرى أكثر تقليدية أو قل أصبح يقف على قدم المساواة معها. ونقصد بها العوامل الجغرافية، والديمغرافية، والعسكرية، والجيوبوليتية، والاقتصادية. ينتج عن ذلك أن جبروت دولة ما أو أهميتها لم تعد تتجلى على هيئة القوة المحضة أو الحرب فقط، أو قل لم تعد تمر من خلال ذلك بالضرورة. ففي

عصر العولمة الشمولية زالت الحدود بين الدول وأصبحت المعلومات والأخبار تسري بشكل أكثر سرعة وكثافة من بلد إلى بلد ومن قارة إلى قارة. وبالتالي فالصورة التي نقدمها عن أنفسنا، وجاذبية النموذج الذي نحبّذه في حياتنا وسلوكنا ونظامنا السياسي، ومقدرتنا على إقناع الآخرين وجعلهم ينضمون إلينا من تلقاء أنفسهم، كل ذلك يلعب دوراً كبيراً لا يقل أهمية عن الدور الذي تلعبه القوة المحضة والجيوش الجرارة التي قد نمتلكها. وبالتالي فهناك القوة الخشنة والقوة الناعمة أي قوة الحرب والضرب وقوة النموذج والإشعاع الثقافي، والثانية لا تقل أهمية عن الأولى. ويمكن القول بأن هذه النقطة الأخيرة تمثل إحدى أهم المتغيرات التي حصلت مؤخراً على الصعيد الدولي ورافقت الطفرة النوعية الكبرى التي يعيشها العالم حالياً.

وذلك لأن القوة وحدها تكون في الغالب الأعم قوة جوفاء عاجزة عن الأخذ بعين الاعتبار العوامل الجديدة التي تستعصي على فهمها والتي هي ارتكاسية جداً في آن معاً. نضرب على ذلك مثلاً ما نلاحظه الآن من تشدد في المطالب الثقافية والدينية للعالم العربي الإسلامي. فهناك تصلّب وتمسّك قوي جداً بهذه الجذور أو قل عودة قوية إليها هناك. وربما كان يصعب علينا فهم ذلك لأن مجتمعاتنا الغربية لم تتعرض لنفس الخطر الذي هدد هويتها الثقافية-الدينية وكاد أن يسلبها منها. ولهذا السبب فلا توجد حركات أصولية مسيحية

متشددة عندنا مثلما هو حاصل عندهم. والواقع أن عودة الدين إلى الشرق بمثل هذه القوة تثير لدى بقية العالم الحيرة والقلق أكثر مما تثير التفهم والاستيعاب. نقول ذلك ونحن نعلم أن الشعارات الدينية والثقافية أكثر تمرداً من غيرها على إرادة الهيمنة والرغبة بممارسة السلطة والجبروت.

ينبغي العلم بأن زيادة القوة أو الإفراط في استخدامها يسيء إلى القوة ويلغمها ويجعلها تتآكل وتموت. وهذا هو أكبر درس نستخلصه من تجربة حداثتنا أو حضارتنا التكنولوجية التي تعرف جيداً ثمن عماها : أي الثمن الذي دفعته مقابل عماها الإيديولوجي وغرورها. والواقع أن ردود الفعل التي تثيرها الهيمنة التكنولوجية على العالم تسيء إلى الدعامة الأخرى للقوة الأمريكية. وأقصد بها ثقافتها الراقية وإشعاع نمط حياتها وحضارتها. فأمريكا إذا ما استخدمت القوة الخشنة أو العصا الغليظة أكثر مما يجب سوف تثير بالضرورة كره الآخرين لها بل حتى لحضارتها الناعمة وثقافتها الرائعة التي لا علاقة لها بالجيوش أو بالأساطيل والتكنولوجيا العسكرية الجبارة. يضاف إلى ذلك أن صرف المبالغ الضخمة على الميزانية العسكرية كما يفعل الرئيس بوش سوف يؤدي بالضرورة إلى تقليص ميزانية قطاعات حيوية أخرى. إنه سوف يتم على حساب مصلحة صحة الاقتصاد الأمريكي وحيويته التجارية، الشيء الذي أدى إلى منافسة

الدول الصاعدة لها كالصين مثلاً أو النمور الآسيوية أو سواها. فهل سيستطيع المجتمع الأمريكي أن يصمد أمام كل هذا التركيز على الشؤون العسكرية؟ هل سيستطيع تحمل كل هذه النفقات التي تصرف على وزارة الدفاع؟ ألن تؤدي عسكرة الدولة إلى مناقضة قيم الحرية والديمقراطية والفردية الليبرالية التي تأسس المجتمع الأمريكي عليها؟ ألم تصبح هوية البلد ذاتها على المحك؟ نقول ذلك ونحن نعلم أنها شُكِّلت من قبل أولئك الذين هربوا من عقلية أوروبا العجوز التي كانت قائمة آنذاك على التسلط والهيمنة والاستعمار والنزعة الحربية. فالرواد الذين أسسوا أمريكا كلهم هربوا من بلدان الإمبراطوريات الاستعمارية التي كانت سائدة آنذاك كإنجلترا، وفرنسا، وألمانيا، وهولندا، الخ... لقد أرادوا تأسيس دولة قائمة على قيم أخرى غير القيم العدوانية والتوسعية للأوروبيين آنذاك. أما اليوم فقد أصبحت أمريكا شيئاً آخر. أصبحت هي الاستعمارية والتوسعية وليست أوروبا وهكذا انعكست الأدوار. ونلاحظ أن نشر قوتها العسكرية تجبر أمريكا اليوم على احتلال البلاد التي تتدخل فيها، وعلى إدارتها بشكل مباشر وتمويلها. ولم تكن متعودة على ذلك سابقاً، فلم تكن أبداً قوة استعمارية كإنجلترا أو فرنسا. وفي مواجهة هذا التحدي الجديد الذي لم يهيّئها تاريخها له اكتشفت أنه لا يكفي أن تمتلك أكبر جيش في العالم لكي تنجح في مشاريعها وتسيطر على الوضع. واكتشفت أنه

لا يكفي أن تمتلك كل إمكانيات التدخل اللوجستيي والعسكري أينما كان وحيثما كان لكي تحقق أهدافها. وإنما ينبغي عليها أن تعتمد أيضاً على الفهم الحقيقي والعميق للرهانات الجديدة والأوضاع المحلية.

وفي عالم محكوم من قبل قوانين معقدة ومهدَّد بالأخطار الشمولية في عصر العولمة، ينبغي علينا أن نعيد النظر في مفهوم القوة ذاته. ينبغي أن نقوم بمراجعة له، أن نضعه على محك التساؤل والنقد. فإذا كانت المكونات التقليدية للسلطة لا تزال تلعب دورها فإن لعبة التوازنات بينها تعرضت لتعديل كبير. فمثلاً أصبحت السلطة الاقتصادية تعتمد أقل فأقل على وفرة المصادر الطبيعية واليد العاملة. أما المقدرة العسكرية التي تعتبر القاعدة التقليدية للقوة والجبروت فإنها أصبحت مفهوماً ضبابياً أو غامضاً إلى حد ما. لماذا؟ لأن تزايد أهمية الأسلحة الذرية والبكتريولوجية أو الجرثومية أدى إلى التقليل من قيمة العوامل التقليدية للغلبة كاتساع البلد أو عدد سكانه أو مصادره الطبيعية. ثم جاء انهيار الكتلة الشيوعية في نهاية الحرب الباردة لكي ينقض أسس النظريات التقليدية الخاصة باستخدام السلاح. ونقصد بذلك أن الأخطار الجديدة أصبحت في الغالب تجيء من جهة قوى صغرى أو حتى قوى منهارة أكثر مما تجيء من جهة القوى الكبرى التقليدية. وذلك لأن هذه القوى الصغرى أو

الدول المنهارة لا تشعر بأي مسؤولية عن أعمالها وبالتالي فتستطيع أن تفعل ما تشاء، وأن تستخدم أسلحة الدمار الشامل دون رادع أو وازع. وبالتالي فأي منظمة إرهابية تستطيع أن ترهب دولة كبرى ذات جيوش جرارة.

وهذه الطفرة تحصل في الوقت الذي تطرأ فيه تغيرات كبرى على السلطة، وعلى كيفية ممارستها أو استخدامها، وكذلك كيفية تصور الناس لها. فعلى مستوى الدول مثلاً نلاحظ أن خيبة الناس بالعمل السياسي وتصاعد النظرة الارتيابية الذي رافق انهيار الإيديولوجيات من ماركسية وسواها قد يؤديان إلى جعل السلطة مجرد مسرحية يجري تمثيلها على المنصة كأي مسرحية أخرى. فنرى الرؤساء والوزراء ورجالات السلطة يتحركون كالدمى على شاشات التلفاز ولكن دون تأثير فعلي على السياسة أو أي تغيير للأمور أو لتحسين لأحوال المواطنين. ولهذا السبب فقد هؤلاء ثقتهم بالسياسة والسياسيين. وهذا ما يتبدى لنا في بلدان الغرب الديمقراطية حيث لم يعد المواطنون يشاركون في الانتخابات إلا بنسبة ضعيفة.

وأما على المستوى العالمي فإن الحاجة إلى قواعد تضبط العولمة وتنظم عملها لا تزال تصطدم بفراغ من السلطة. بمعنى آخر لا توجد سلطة عالمية قادرة على وضع حد لهذه العولمة الفوضوية أو تأسيس قواعد ضابطة لها وتكون قادرة على أن تفرض نفسها على الجميع.

ولذا، وفي مواجهة هذا الوضع، فإن أمريكا تقترح على العالم قوتها وجبروتها من أجل رسم الخطوط العريضة للنظام العالمي الجديد. ولكن لهذا المشروع مخاطره. فقد يؤدي إلى ظهور أخطار جانبية أو تحالف المعارضات من شتى أنحاء العالم ضده. فالولايات المتحدة تشكل قوة مرئية ضخمة وأكبر من أي قوة أخرى. ولذلك فهي تثير الخشية والنقمة عليها لدى الآخرين، في اللحظة التي يبدو فيها أن رصيدها وإشعاعها يؤمنان لها امتيازاً أو تفوقاً أبدياً. ثم جاءت ضربة ١١ سبتمبر لكي تكشف عن حجم المتغيرات التي حصلت على مستوى العالم. لقد أثبتت أن الضعيف يمكن أن يضرب القوي بل يجعله يترنح ولو للحظة. ولكن إذا كان ذلك صحيحاً وإذا كانت الإيديولوجيا المتطرفة للأصوليين تحتقر الحقوق الأساسية للإنسان أو الحد الأدنى من الكرامة الإنسانية، فإننا لا نعتقد بأن القوة المحضة تشكل رداً كافياً عليها كما تتوهم الإدارة الأمريكية. فالشيء الأهم من قوة السلاح للرد على تحديات الحاضر وفرض النظام وتهدئة الصراعات هو المزيد من الضمير والإحساس بآلام الآخرين وضرب القدوة والمثال.

إن العالم المعاصر بحاجة إلى مبدأ عام ينظّمه أو ينظّم استخدام القوة فيه، مبدأ يتوافق مع المعطيات الجديدة لعصرنا. ونقصد بهذه المعطيات : الموقع المركزي الذي تحتله التكنولوجيا في حياتنا مع كل

رهاناتها، ثم رسوخ العوامل الثقافية وبالأخص التراثية وتأثيرها القوي على العقليات، ثم صعود أهمية الفرد والنزعة الفردية في عصر الحداثة، ثم استهلال عهد المجتمع الشمولي في عصر العولمة. وفي هذا السياق الجديد كلياً بالنسبة للبشرية ينبغي علينا أن نجد توازناً بين ضرورات العمل والممارسة من جهة، ودروس التجربة التاريخية من جهة أخرى. كما ينبغي علينا أن نعيد الصلة بالحكمة القديمة للعصور اليونانية الرومانية وسواها. وهذه الحكمة تقول لنا ما معناه : وحده الاعتدال يجعل استخدام القوة مقبولاً. لقد علّمنا ذلك المؤرخ اليوناني الشهير تيو سيديد٨٩ الذي يقول : إن التغلب على الآخرين عن طريق القوة أو قهرهم ليس شيئاً رائعاً أبداً. ولكن بالمقابل فإن القوي إذا ما عامل عدوه بإنصاف بعد التغلُّب عليه فإن ذلك شيء رائع بالفعل. هذا في حين أنه كان بإمكانه أن يتصرف طبقاً لنزواته ومصالحه ويشبعها عن طريق الانتقام منه. فالقوة مهما فعلت لا تستطيع أن تستغني عن المشروعية في نهاية المطاف. والمشروعية لا يمكن أن تحصل إلا بواسطة الحق أو القانون فقط، وإلا فسوف ندخل في تصعيد جهنمي للعنف والعنف المضاد.

الانحلال والتفكيك

نحن جميعاً مشاهدون قلقون لما يجري على مسرح التاريخ أمامنا من سباق محموم ومتسارع بين قوى النظام وقوى الفوضى أو التفكك والانحلال. ونتيجة هذه المعركة لم تكن في أي يوم من الأيام غامضة أو مترددة، مثلما هو عليه الحال الآن. فلا أحد يعرف من الذي سينتصر في النهاية. وهذا الكلام ينطبق على الصعيد السياسي والاستراتيجي، كما على صعيد القيم والمبادئ العليا. ولكن البحث عن نظام قادر على تأمين العدالة والأمن في العالم يقتضي الاتفاق على الأفكار التي نرغب في الدفاع عنها، وكذلك الاتفاق على قواعد هذا البنيان المشترك للعالم.

والسؤال المطروح الآن هو التالي : هل يحق للبشرية أن تأمل في التوصل يوماً إلى قيم مشتركة على الرغم من اختلاف شعوبها وأقوامها وتراثاتها الثقافية وأديانها؟ فلم تعد النزعة الكونية تحظى بالإجماع في أوساط المفكرين. وقد تراجع عنها الكثيرون إما بحجة السأم واليأس من إمكانية تعميمها على الشعوب الأخرى غير الأوروبية أو الأمريكية الشمالية، وإما لأن البعض يشتبه بها ويرى فيها قناعاً يخبئ وراءه الغرب إرادته الإمبريالية في الهيمنة على العالم. كان الكاتب الألماني توماس مان٩٠ قد كتب مرة يقول : "كل نزعة

إنسانية تحتوي على نقطة ضعف راجعة إلى احتقارها للتعصب وإلى تسامحها وميلها للشك حتى في ذاتها. باختصار فإنها تعود إلى طيبتها الطبيعية أو الفطرية التي يمكن أن تؤدي إلى مقتلها في بعض الأحيان". في الواقع إن تطرفات النزعة الارتيابية أو الشكوكية أدت إلى فقدان الإيمان بالعقل وإلى عدم الثقة بالنزعة الإنسانية (هيومانيزم). وهكذا تتسع الشقة بين الخطاب الداعي للتسامح واحترام الآخر وحقوق الإنسان بشكل عام، وبين التعصب أو سوء التفاهم المتزايد الذي يجعل الشعوب والثقافات المختلفة تدخل في صراع بعضها مع بعض. باختصار فإن موقف التسامح والانفتاح على الآخر يدخل الآن في صدام عنيف مع خطاب التعصب والانغلاق على الذات والهوية الشديدة الخصوصية. في الواقع إن مجتمعاتنا من غربية ومشرقية تراقب بعضها بعضاً يومياً من خلال الفضائيات التلفازية ولكن الارتياب يبقى سائداً بينها وكذلك انعدام الثقة والحوار. والأحكام السلبية التي تخلط كل شيء بكل شيء تتزايد هذه الأيام وبخاصة فيما يتعلق برؤية الإسلام من قبل الغرب. والواقع أن الإرهاب الأصولي والتزمت الديني وأحداث الشرق الأوسط تعيد من جديد تنشيط الأحكام السلبية المسبقة والعتيقة ضد الإسلام في أوروبا وأماكن أخرى من العالم. وهي أحكام قديمة ولكن كانت نائمة فإذا بالأحداث الأخيرة توقظها. إن هذه الأحداث المرعبة والمأساوية

تقوي الاعتقاد لدى الأوروبيين والغربيين بشكل عام بأن الشرق الإسلامي يستعصي على الحداثة والتقدم. ولكنه اعتقاد ضمني ولا يصرِّح به المسؤولون الغربيون إلا نادراً وبشكل غامض لكيلا يثيروا حساسية نظرائهم العرب والمسلمين.

على مدار ألفي سنة من العهد المسيحي كان الإنجيل قد نصَّ على هذا المبدأ الجديد، هذه البشارة الرائعة : وهي أن الإنسان واحد في كل مكان، وأن البشرية واحدة مهما تعددت أقوامها وتراثاتها، وأن لها قدراً واحداً مشتركاً في نهاية المطاف. يقول الإنجيل بالحرف الواحد :"لا فرق بين اليهودي واليوناني، أو العبد والسيد، أو الرجل والمرأة، وذلك لأنكم كلكم واحد في يسوع المسيح". وهكذا ابتدأ عهد جديد، عهد ينقطع عن الفكر السابق، فكر العصور اليونانية الرومانية القديمة. فكما نفهم من كلام القديس بولس فإن الاختلاف في الدين لا أهمية له بالقياس إلى الإيمان بالله المخلِّص الفادي أو الاشتراك فيه. والمساواة أمام الخالق وضعت حداً لآليات النَّبذ والاستبعاد التي كانت سائدة في المجتمع اليوناني وتقسم الناس إلى سيد وعبد، أو رجل وامرأة، يوناني ويهودي مع إعطاء الامتيازات دائماً للطرف الأول من المعادلة. وإذن فإن النزعة الكونية الإنسانية تجسدت على مدار القرون من خلال المثل العليا الدينية، أو الأخلاقية، أو الفلسفية بدءاً من فلسفة عصر النهضة إلى فلسفة التنوير، ومن الوضعية إلى

الوجـودية. وهـذه المثل العليـا كـانت تولّد الوعـد والأمل وتملأ قلوب البشر بالتفاؤل والمحبة.

ولكن في الوقت الذي تبدو فيه وحدة العالم والبشـرية حقيقة واقعة ومـحسوسـة منذ الآن فـصـاعـداً، نلاحظ أن النزعـة الكونية فـقـدت معناها. فبدلاً من أن يكون استهلال عهد العولمة تتويجاً لانتصارها إذ بنا نفـاجـأ بظهور الأصـوليـات المتطرفـة والخـصـوصـيـات المنغلقـة على ذاتهـا والكارهـة لـلآخـر. وياله مـن تناقض عـجـيب لـعـصـرنـا الراهن ! فنحن نـشـهـد تفـتت عـالم الحـرب البـاردة إلى مـا لانهـاية وظهـور عـدد كبير من الدول السيدة المستقلة على أنقاضه في الوقت الذي أصبحت السيادة فيه إشكالية أو محدودة جداً بفعل ذاتها ! وهنـاك تناقض آخر يخص فـتـرتنا الراهنة. فـقـد كنا نعـتـقـد أن السـلام سـيـعمّ العـالم بعد نهاية الحـرب البـاردة وفترة توازن الـرعب النووي بين القـوتين الأعظم. فإذا بنا نفاجأ باشـتعـال العنف في كل مكان، أقـصـد العنف الناتج عن المنافسـات القـبليـة أو الحـروب الأهليـة أو وحـشـيـة المـافـيـا وشـرهـا أو الحـروب الصـليبية القـاتلة لـلأصـوليات الدينية المتعصبة. وهـناك تناقض آخـر لفـتـرتنا الراهنة التي تشـهـد نهـاية آخـر الأنظمـة التـوتاليـتـارية المتمثلة بالشيوعية وحلول عـهد الديمقراطية الكونية محلها. ولكن هذه الديمقــراطيــة، وهـنا يكمـن وجــه التنـاقض، لم تـعــد تـغــري النـاس بالتـصـويت في الدول المتقـدمـة على الأقل. فـالناس تعـبت أو ملّت من

الديمقـراطيـة ولم تعـد ترغب في التـصـويت لأي حـزب أو أي شـخص كـائنـاً من كـان. وهناك قـرف عـام مـن السـيـاسـة في الـدول الأوروبيـة والأمـريكيـة الشـمـاليـة. وأكبـر دليـل على ذلك هـو أن عـدد الممتنعين عن التصويت أصبح أكبـر من عـدد المصوّتين في الانتخـابات العـامـة. ينتج عن ذلك أن الانتـصـار السـاحـق للمـعـسكر الـديمقـراطـي على المعـسكر الشيوعي والذي ينبغي أن يـكون أعـظم حدث بالنسـبة لعصـرنا لا يؤدي إلى امتـلاء قلوب الناس بالتـفـاؤل والحـمـاسـة كـمـا كنـا نتـوقـع. وبالتـالي فلم يعـد المستقبل المشـرق يلوح في الأفق كـمـا كنـا ننتظر ونتـأمل. على العكس فـإن المنتـصـر، ومـعـه العـالم كله، يشـعـر بأن قـواه قـد خـارت وأن الأرض تميـد تحت رجليـه. لا ريب في أن الديمقـراطيـة ربحت مـعـركـة المشـروعيـة التـاريخية بصـفتهـا أفضل نظام سيـاسـي ممكن كـمـا أثبـتت أنها قـادرة على فرض نفسهـا حتى في الأمـاكن التـي مـا كانت مهيـأة لها أبداً. ولكن في ذات اللحظـة التي انتـصـرت فـيـهـا نلاحظ أن مـشـكلة مستقبلهـا أخذت تطرح نفسهـا، وكذلك مسـألة مقدرتهـا على تجييش الهمم والشعوب.

وهكذا يـشـعـر المرء بالإرهـاق من جـراء تعـداد كل هـذه التنـاقـضـات المحيرة التي يمتلئ بها عصـرنا. فالفتـرة المنقبضـة التي نعيشـهـا والتـي لا تتـميـز بالكرم والأريحية، ولا بالإيمان والحـمـاسـة للانطلاقـة الإبداعيـة تثـيـر اسـتـنكارات مـبـرمـجـة أو هبّـات لاعـقـلانيـة لا تؤدي أبداً إلى

استملاك الحيوية المستعادة. وإنما هي تقلقنا بصفتها علائم ترهص بمجيء الليل الدامس الذي يخنق الروح. فكل معنى مشترك أو قيمة مشتركة بين البشر يبدو أنهما اختفيا عن الأنظار وانقرضا تماماً. وهذا شيء مقلق بالفعل. فانتصار النزعة الفردية شجع كل واحد منا على الاعتكاف في معبده أو مسجده أو كنيسته ورفض الآخر. وهذا المعبد هو عبارة عن خليط من القيم القديمة والجديدة المختارة طبقاً للنزوات والحاجيات تماماً كما تختار أطباق وجبة في مطعم. إنها مختارة بأعداد ونسب متغيرة بحسب الحالة والحاجة. ولم تعد هناك أي علاقة بين هؤلاء الأفراد المتوحدين المعزولين على ما يبدو.

وهكذا، بعد أن كنا نخشى الدوغمائية الإيديولوجية المتحجرة أصبحنا نخشى العكس : أي انحلال القيم وتفككها وزوال المبدأ الكوني الذي يجمع بين البشر على اختلاف تراثاتهم ولغاتهم وأديانهم. وسبب ذلك هو أن العولمة تتيح لبلدان عديدة، أو لمعظم المجتمعات والأديان البشرية أن تُسمع صوتها داخل جوقة كاملة متعددة الأصوات، الشيء الذي يجعل التعبير عن الكونية أمراً معقداً وصعباً. فكل واحد منا يريد أن يعبر عن أصالته وخصوصيته واختلافه. والنزعة الكونية ما عادت قادرة عل تحاشي اختبار الواقع، أو وضع نفسها على محك الواقع المحسوس. فالمثل العليا أصبحت مدعوة لأن تتجسد في أفعال محسوسة لكي تقدر على جذب الناس إليها وجعلهم يعتنقونها بشكل

دائم. أما ما دامت مجردة أو تجريدية فإنها لا تقنع أحداً. فالناس لا يفهمون إلا المحسوسات. ينبغي العلم بأن العولمة أدت إلى تفاقم الهويات أو قل إلى التعلق الهائج للناس بهوياتهم التراثية، وبخاصة تلك الهويات الأكثر هشاشة والتي تشعر بأنها مهدَّدة من قبل الحداثة الغربية. لا ريب في أن احترام هويات الآخرين، أي ثقافات الشعوب المختلفة، يساهم في تشكيل عالم أكثر عدالة وأماناً وسلاماً. ولكن التعلق الزائد عن الحد لبعض الشعوب بهوياتها وخصوصياتها يؤدي حتماً إلى التعصب الأعمى والجنون القاتل والبربرية. وتجربة القرنين الماضيين وضحت لنا بطريقة مأساوية غموض الهويات أو ازدواجيتها. فهي إيجابية وسلبية في ذات الوقت. فإذا ما تعلق بها الإنسان بطريقة متسامحة أدت إلى تماسك المجتمع، وإذا ما فهمها بطريقة متعصبة وكارهة للآخرين فإنها تؤدي إلى العراك والصدام مع الآخرين.

إن الآمال التي تولَّدت عن سقوط جدار برلين قد حجبت إلى حد كبير ذلك التعطش للهوية أو التعلق بها، وهو من خصائص الشعوب. ولكن المراقبين لم يفهموا هذه الظاهرة على حقيقتها، في البداية على الأقل. فقد أهملوها وقللوا من شأنها معتقدين أنها عبارة عن ردود فعل عتيقة وبالية لا تزال بقاياها موجودة لدى بعض الشعوب التي لم تتحرر من الماضي بعد. واعتقدوا أنها ستزول بسرعة بحلول العهد الديمقراطي العالمي. ثم جاء التكذيب لهذا الرأي أولاً من منطقة

البلقان. ففي حين كانت أوروبا تحتفل بوحدتها المستعادة من جديد كانت يوغوسلافيا تتفكك طبقاً للاختلافات العتيقة التي اعتقدنا أن الزمن تجاوزها. ونقصد بها الاختلاف في الدين، أو الدم والعرق، أو الأحقاد العتيقة المتوارثة منذ مئات السنين، أو طبقاً للتعصب الأعمى بكل بساطة. وهكذا انهارت يوغوسلافيا وتحولت إلى مسيحيين ومسلمين، إلى صرب وبوسنيين وكرواتيين، بل حتى إلى كاثوليكيين وأرثوذكسيين. وكان الماركسيون والشيوعيون منذ عهد تيتو يعتقدون بأنها تجاوزت كل ذلك إلى الأبد. فإذا بالنعرات القديمة والعصبيات الدينية والعرقية تنتعش من جديد. واستفاقت أوروبا مذعورة على الحرب الأهلية والدينية التي تجري في عقر دارها وليس لدى الشعوب المتأخرة أو البعيدة. استفاقت على المجازر العمياء وأعمال التطهير العرقي. وكانت صدمة رهيبة بالنسبة لنا جميعاً. ولا تزال الانقسامات والجراحات نازفة ويصعب لأمها.

في الماضي كان الناس قد بلوروا نظاماً سياسياً قادراً على جعل الهويات المختلفة تتعايش فيما بينها على مدار قرون عديدة. وهذا النظام السياسي هو : الإمبراطورية. ففي الشرق مثلاً، وداخل الإمبراطورية العثمانية، لم تكن الهويات القومية تؤكد ذاتها من خلال التضاد والصراع بقدر ما كانت تفعل ذلك من خلال التمازج والاختلاط بين الأعراق والأديان واللغات المختلفة. كان الجميع

يتعايشون بسلام نسبي داخل إطار الإمبراطورية. ففي أزمير وإسطنبول وصالونيك كان انسجام التركيبة الديمغرافية يشبه التعايش بين مختلف أفراد الجمهور الكوسموبوليتي السائر في الشارع. ونفس الشيء يمكن أن نقوله عن الإمبراطورية النمساوية-الهنغارية. فمدنها الكبرى كفيينا وبراغ أو بودابست كانت تحتوي على سكان مختلطي المذاهب والأعراق. والتوترات التي كانت تحصل أحياناً داخل هذه التجمعات الكبرى بين مختلف الطوائف والأعراق كانت تعود في الغالب إلى أسباب اقتصادية. ولم تكن الهويات، بصفتها تلك، تشكل عندئذٍ سبباً للصدام والصراع.

ولكن في نهاية القرن التاسع عشر جاء عصر القوميات أو الدول القومية لكي يضع حداً للأنظمة الإمبراطورية المتعددة القوميات. فقد كان أكثر فعالية وأقوى بنية وهيكلية. فالإمبراطوريات كانت غير منسجمة عرقياً، وفيما بعد غير متماسكة شعبياً. لقد عرقلتها فسيفساء الهويات العرقية أو القومية المتناقضة ومنعتها من التوصل إلى درجة عليا من المركزية. وراح النموذج العمودي للدولة القومية الحديثة يوقظ الشعور القومي لدى الأقليات العرقية العائشة داخل إطار الإمبراطورية الواسعة. فلم تعد تقبل بالخضوع للعرق الغالب كما كان يحصل سابقاً (انظر يقظة العرب بالقياس إلى الأتراك). ولم تعد الإمبراطورية قادرة على تحقيق التعايش السلمي بين مختلف أقوامها

ومكوناتها وأقلياتها. ونلاحظ أن هذه الجراحات والنزاعات الموروثة عن الماضي البعيد انبعثت مؤخراً عبر الحروب الأهلية التي جرت في منطقة البلقان بعد انهيار الشيوعية. فعندما كانت الشيوعية سائدة كانت تقمعها ولذلك اعتقدنا أنها انتهت وماتت في حين أنها كانت نائمة تنتظر أول فرصة سانحة لكي تستيقظ وتتفجر كالبركان.

أما إفريقيا السوداء فقد عانت هي الأخرى أيضاً وبشكل موجع من الصراعات العرقية أو صراعات الهويات القبلية المختلفة وإن لأسباب أخرى بالطبع. في الواقع إن هذه القارة تعيش على إيقاع حركة مزدوجة ومتناقضة. فهي من جهة موحدة داخل منظمة إقليمية تضمن السلام والاستقرار في القارة هي منظمة الوحدة الإفريقية، ولكنها من جهة ثانية تشهد تمزقات عرقية وقبلية. وأكبر مثال عليها مجزرة "رواندا" التي دلت على العودة التراجيدية لهذه التمزقات والصراعات بين الهويات المختلفة. وبالتالي فالقارة السوداء الكبيرة تقدم لنا مشهداً متناقضاً، إيجابياً وسلبياً في آن معاً. فنحن من جهة نشهد حصول المصالحة التاريخية بين البيض والسود في إفريقيا الجنوبية بعد قرون طويلة من ممارسة التمييز العنصري. ولكننا من جهة أخرى نشهد اندلاع الصراعات المتكررة والعنيفة أكثر فأكثر بين الأعراق والقبائل والهويات المتنافسة.

كان ليوبولد سيدار سنغور[٩١] قد فتح للبشرية كلها طريقاً ملائماً : ألا وهو تعميق كل هوية لذاتها من خلال تمازج الهويات وتفاعلها فيما بينها. وقد كتب عام ١٩٥٤ في نهاية كتابه "أثيوبيات" ما يلي : "نحن جميعاً هجناء أو أنغال من الناحية الثقافية". بمعنى أنه لا توجد ثقافة نقية صافية خالية من التأثيرات الأجنبية على عكس ما يتوهم الأصوليون والشوفينيون. وهذا أكبر رد على دعاة التعصب والخصوصيات المنغلقة ثقافياً، على المتعلقين بهوياتهم إلى حد الهوس وارتكاب أعمال الإجرام والقتل. إن سنغور يبرهن لنا على أن الإخلاص للأرض الوطنية أو "لمملكة الطفولة" كما يحب أن يدعوها هو الذي يتيح لنا أن نتعامل مع الآخر دون حقد أو نقمة عليه لمجرد أنه مختلف عنا أو حتى لأنه اضطهدنا. وأكبر دليل على ذلك موقفه من فرنسا التي كانت إمبراطورية استعمارية هيمنت على بلاده (السنغال). فبعد تحقيق الاستقلال لم يعد يحقد عليها. وكان يفرق بينها وبين اللغة الفرنسية التي فرضت عليه فرضاً في البداية ثم اختارها وقبلها عن طيبة خاطر فيما بعد وأصبح من كبار الكتّاب بها. لقد جدد ليوبولد سيدار سنغور إرث رامبو وشق طريق التعايش الممكن بين الهويات المختلفة والراسخة الجذور وأحياناً المفروضة عليك من قبل مصادفات التاريخ. وبفضل مثاله وشهادته، وكذلك مثال "سيزير"[٩٢] وأصدقائه وكل أولئك الوسطاء الكبار بين لغتين وثقافتين

وهويتين، بفضلهم جميعاً فإن "المواطن الأصلي" يكشف في ذات الوقت عن هوية الذات وهوية العالم أو قل هوية الذات من خلال هوية العالم. بفضلهم جميعاً ساهمت الثقافة الزنجية في صياغة النزعة الإنسانية الكونية. وهكذا تتداخل الخصوصية والكونية معاً ويزول التعارض بينهما.

إن تاريخ القارة الجريحة، تاريخ إفريقيا السوداء يعيدنا إلى تلك القرون السابقة التي حصلت فيها التبادلات والصراعات والابتكارات بين الغرب والشرق والتي لم تستطع أوروبا دمجها في ذاكرتها الجماعية إلا بصعوبة وبعد فترة طويلة. وهذا التمازج حصل أولاً عن طريق الهجرات أو على إيقاعها عندما أصبحت الصحراء الإفريقية أكثر أنواع الصحارى إقفاراً وجدباً بدءاً من الألف الخامسة قبل الميلاد. وعندئذ تحول وادي النيل إلى مكان للتبادل بين إفريقيا السوداء، والشرق الأوسط، وحوض البحر الأبيض المتوسط. ولنفكر أيضاً، ولو للحظة، بشعب إفريقيا الغربية الذي عبر القرون ونجح باستمرار في دمج واستيعاب الوافدين الجدد إلى المنطقة. كما نجح في تبنّي الأشخاص والاختراعات التقنية الوافدة من أماكن أخرى. وكذلك نجح في تبنّي الأشكال الجديدة للتنظيم السياسي دون أن يفقد هويته وأصالته.

إن الحركة الكبرى التي أدت إلى التمازج الثقافي في إفريقيا مشت على أثر الطرق التجارية ومسالك القوافل التي كانت على مدار ألفي سنة تربط بين قطبي الصحراء الإفريقية. وكما الملح والذهب فإن الشعوب والعادات والتقاليد راحت تنتقل ببطءٍ على طول خط الطرق التي شقَّها الإنسان ومهَّدها. ثم جاء عصر الاكتشافات الكبرى وبداية المتاجرة بالعبيد عام ١٥١٠ لكي يضع حداً لهذه الأشكال التقدمية والإنسانية من الالتقاء بين الشعوب. ثم جاء عصر الأبارتيد (أي التمييز العنصري) وأصبح مشرَّعاً بشكل مؤسساتي لكي يتناقض مع كل تاريخ القارة الإفريقية. لماذا؟ لأنه يمنع كل احتكاك بين العرقين الأبيض والأسود وينشر المخاوف عن التمازج والاختلاط العرقي والثقافي.

وعلى الرغم من كل هذا العنف والمشاكل فإن إفريقيا السوداء حافظت على أصالة تقاليدها العرقية وعمقها. وهذه التقاليد أصبحت مزدهرة، متفتحة كالأزهار وأنت تسمع لغاتها وأصواتها المتعددة في مدنها الكبرى عندما تزورها وكأنها جوقة موسيقية. إنها تتنفس وتحيا وتنتعش من خلال تعددية الشعوب والأديان الموجودة في كل بلد إفريقي. إنها تعبِّر عن نفسها بكل حرية في جوقة من الأصوات المتعددة التي يستحيل صهرها في صوت واحد أو لغة واحدة. إنها تعبر عن عظمة الحياة الإفريقية وغناها. فهي تظل المثل والقدوة

والنموذج بالنسبة لنا. وذلك لأنها تمتلك سرَّ الاغتناء الناتج عن اللقاء بالآخر. فمثلاً تقول لنا الحكايات التقليدية الكبرى المنتشرة في غرب إفريقيا أن تدشين مؤسسة ما لا يمكن أن يبدأ دون لقاء أو تحالف مع الآخر الآتي من بعيد سواء أكان هذا الآخر صياداً أم محارباً. ونلاحظ أن الزواج بين أناس مختلفين وكذلك تبادل المعارف والكفاءات والعقائد الدينية يرسخان هذا الانصهار ويوطّدانه.

ولكن للأسف يبدو أن هذه التعددية الثرية أصبحت نقمة على القارة الإفريقية بعد أن كانت نعمة. فهي الآن ضحية تيارات متعصبة تشدد على الهوية والاختلاف الخصوصي وترفض كل التراثات الخارجية الوافدة. وأخذت تبحث عن أصول النقاء العرقي أو الطهارة الخيالية التي لا تشوبها شائبة. هكذا أصبحت إفريقيا ترفض الاختلاف والتعددية الثقافية بعد أن كانت مرتعاً لهما. وحلّت محل تمازج الثقافات إغراءات الانغلاق على الذات وكره الآخر أياً كان. ولهذا السبب فإن الأفق الثقافي المنفتح الذي دشّنه "سنغور" يبدو الآن في حالة خطر. لقد أصبح مهدداً في اللحظة التي نحن أحوج ما نكون فيها إليه، سواء أكنا نعيش في شمال الكرة الأرضية أم في جنوبها. لقد أصبح مرفوضاً في الوقت الذي يشكل فيه آخر خط لإنقاذ الإنسان من السقوط في مهاوي التعصب والحقد. ينبغي العلم بأن العولمة تدخل الحداثة إلى صميم المجتمعات التقليدية وتقضي على

المعالم والصوى القديمة التي كان الإنسان قد ألفها وتعود عليها منذ آلاف السنين. إنها تقضي عليها بشكل مفاجئ وعنيف. كما تعرّض الناس لموجات الغزو المتدفقة للصور التلفازية وبقية وسائل الاتصال الحديثة. وكل ذلك يثير ردود الفعل السلبية والانغلاق على الذات في بعض الأوساط.

ولكن إذا كانت الحداثة تزعزع الهيبة الفوقية للأب البطريركي أو لرجل الدين، وإذا كانت تزعزع المراتبيات الهرمية للمقامات والطبقات العليا وتؤدي إلى المساواة بين البشر، وإذا كانت تخلخل أنماط الحياة والثقافات والعقائد التقليدية، فإنها لا تخلق إجماعاً جديداً يحل محل الإجماع القديم لأنها لا تحمل معها قيماً خاصة. وإنما تحمل في طياتها عوامل التفكك والانحلال، وتغذي النزعات الطائفية والانفصالية والصراعات المحلية أو الإقليمية. وحيثما ينقطع الحوار فإن الأزمة تنفجر والصراع يشتعل لأن العولمة لا تنسج علاقات أخرى بين البشر. وبالتالي فإن الحداثة أو العولمة التي تهجم فجأة على هذه الشعوب الفقيرة والحائرة فتصدمها وتزعزعها نفسياً واجتماعياً تجبر هذه الأخيرة على التشبّث بهوياتها العتيقة وكأنها حبل النجاة الذي يعصمها من التفكك الكامل والانهيار. ولذلك تحصل ردود فعل عنيفة على الحداثة الغربية في العالم الإسلامي ويحصل رفض لها على هيئة حركات متشددة وأصولية. فهي وحدها القادرة على مداواة هلع

الشعوب اليائسة المحرومة من كل شيء عن طريق وصل العلاقات من جديد بين أفرادها وعن طريق رتق اللحمة الاجتماعية المتفككة بسبب عوامل الحداثة والتحديث. وهي تفعل ذلك بواسطة الجمعيات الدينية والخيرية وجمع الناس حول التراث والهوية. وبالتالي فالأصولية في أحد معانيها هي رد فعل على هجمة الحداثة المباغتة على هذه المجتمعات التقليدية.

المواجهة الصدامية

يرى بعض المحللين أن ضربة ١١ سبتمبر أكدت صحة ذلك السيناريو الجهنمي الذي يقول بوجود حرب بين عالمين مختلفين، عالم الشرق وعالم الغرب، أو عالم الإسلام وعالم الحداثة التنويرية والعلمانية. وهنا يكمن المفتاح الجديد الذي يفسر لنا سبب فقدان العالم لتوازناته الجيوبوليتية. ويرفض هؤلاء المتشائمون نظرة أولئك المتفائلين الذين يعتقدون بأن المستقبل سوف يشهد انتصار السلام والديمقراطية في شتى أنحاء العالم، وبالتالي نهاية التاريخ : أي بمعنى نهاية الصراعات بين البشر كما يقول فوكوياما[٩٣]. على العكس من ذلك يرى المتشائمون أن تطورات الأحداث سوف تجبر الحضارات على مواجهة بعضها بعضاً بشكل عنيف أكثر فأكثر. ثم يضيف هؤلاء قائلين بأن التعلّق بالهوية الثقافية سوف يتفاقم ويزداد تعصباً، وأن

الشعوب سوف تنخرط في صراعات محتومة فيما بينها بسبب الاختلاف في الهوية الثقافية أو الدينية. وهذه هي أطروحة صموئيل هانتنغون[٩٤] كما هو معلوم. و"الحضارة" بعد أن كانت تعني لدى المؤرخ أرنولد توينبي[٩٥] نظام الكلّيانية الواعية، أصبحت ذات أهمية الآن وأصبحت تشكل العامل الأعظم الذي يحسم مصير العلاقات الدولية المعاصرة. ولكن هذه النبوءة "الجديدة" عن صدام الحضارات توقظ مخاوف قديمة في الواقع. فنحن، الشعوب اللاتينية، نحمل في أعماق أعماقنا ذكرى الغزوات البربرية الكبرى التي تدفقت أو هجمت على الإمبراطورية الرومانية من الشمال وقضت عليها. ولا تزال بقايا هذه الذكرى المرعبة محفورة في أعماق وعينا الجماعي أو لاوعينا.

ولكن هذا التحليل للأمور لا يبدو دقيقاً بما فيه الكفاية. إنه عمومي وتجريدي أكثر مما ينبغي. فالقول بأن الاختلاف بين الحضارات لا يمكن حله إلا بواسطة الصراع والمواجهة يعني أننا نتصور الحضارات على أساس أنها كتل متراصة وجامدة مشكلة من القيم والتراثات المختلفة. كما يعني أننا نعتبرها وريثة تاريخ طويل عريض لم يشهد أي احتكاك فيما بينها ولا أي تفاعل واستفادة مشتركة وتبادل. وهذا مناقض للحقيقة التاريخية. وهكذا يُبَتّر من كل ثقافة تأثيرات الثقافات الأخرى عليها لكي تصبح نقية أو طاهرة مطهرة. وهكذا تشكل كل حضارة هويتها الخاصة عن طريق الهضم

الكامل أو الرفض الكامل للعناصر الأجنبية عليها. يضاف إلى ذلك أنه من الاصطناعي أن نختزل ثقافة ما إلى إحدى تجلياتها فقط. فإرهاب القاعدة الذي ينسب نفسه للإسلام لا يمكنه أن يزعم أنَّ هذا هو الإسلام، أو أنه يمثل الإسلام بأكمله. ولا ينبغي أن نسقط في لعبة القاعدة عن طريق المطابقة بينها وبين العالم الإسلامي بمجمله. هذا خطأ فادح توقعنا فيه نظرية هانتنغتون عن صدام الحضارات. ينبغي العلم بأنه حصلت تبادلات وتفاعلات كثيرة بين الحضارة الغربية وحضارة الإسلام على مدار التاريخ. فالعلاقات بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط لم تنقطع. وهذه العلاقات المثمرة والإيجابية في أحيان كثيرة تنقض النظرية القائلة باستحالة التفاهم بين الحضارتين، أو بالصدام المحتوم بينهما. فالواقع أن العلاقات بين الغرب والشرق قد جرت على هيئة الاختلاط والاستعارة والمشاطرة المتبادلة أكثر مما جرت على هيئة المواجهة والصدام.

وقد بلغ التعايش بين الثقافتين ذروته في الأندلس أثناء العصور الوسطى. عندئذ كان التفاعل بينهما خصباً أكثر من أي وقت مضى. وخصوبة هذه التجربة تعود إلى الحقيقة التالية التي مفادها أن كل مجموعة حافظت على خصوصيتها أثناء احتكاكها بالخصوصيات الأخرى. فاليهود والمسيحيون الذين اعتنقوا الإسلام استمروا غالباً

في التعلق بدينهم الأصلي وممارسة شعائره سراً. أما البدو فكانت أغلبيتهم من البربر القادمين من إفريقيا الشمالية. وقد اكتشفوا لأول مرة نمط الحياة المدنية أو الحضرية المستقرة على عكس الحياة البدوية. وقد أتاحت هذه الحياة الحضرية لثقافتهم بأن تعبر عن ذاتها وتزدهر بكل تألق. وأكبر دليل على ذلك قصر الحمراء[٩٦] في غرناطة. وضمن هذا الإطار الجديد راح العرب ينقلون الثقافة الإغريقية إلى الغرب. ومعلوم أنها كانت محفوظة في مكتبة الإسكندرية ثم نُقِّحت ودُرست من قبل النخب العلمية في بغداد العباسية. وكان اليهود يساهمون في هذا المناخ من الغليان الثقافي. فقد نقلوا النصوص الإغريقية من العربية إلى اللاتينية وعلَّموا المسلمين كما المسيحيين العقيدة القَبْلانية : أي التفسير الصوفي والرمزي للتوراة طبقاً للتقاليد الحديثة. والمعلوم أن هذه العقيدة أثرت على كبار مفكري عصر النهضة الأوروبية.

إن الأندلس القروسطية تشكل إحدى المراحل الأساسية لتشكيل الفكر الأوروبي. والشخصية الكبيرة لابن رشد جسَّدت هذه اللحظة الاستثنائية في تاريخ الفكر. ومعلوم أنه ولد في قرطبة عام ١١٢٦م ومات في مراكش عام ١١٩٨م. لقد كان ابن رشد فيلسوفاً يحمل ثلاثة تسميات بالعربية، واللاتينية، والعبرية لأنه اشتهر في كل هذه الأوساط الثقافية اللغوية ولأن فكره انتشر فيها كلها. وقد استطاع

التوفيق بين الدين الإسلامي والفكر الأرسطيّ. وتجلى ذلك في كل العلوم التي كان يسيطر عليها كالطب، وعلم الفلك، واللغة، والقانون أو الفقه. وكان شارحاً كبيراً لمؤلفات المعلم الأول. وهو الذي نقلها إلى اليهود والمسيحيين في الأندلس. وقد عاش في قلب المناقشات الفكرية لأوروبا وحاول في كتابه "فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال" أن يوضح العلاقات الكائنة بين الوحي الديني والعقلانية الفلسفية. واستطاع عن طريق المحاجة الدقيقة والمرنة جداً أن يبرهن على أن القرآن لا يتعارض مع الفكر الفلسفي وإنما يشجع عليه وينصح باتباعه. وقال ما معناه : إن الفلسفة يمكن أن تضيء القانون الديني (أي الشرع) وتجعله يبدو بشكل جديد. ولا يوجد بين العقل والدين تماثل كامل وإنما تواصلية واستمرارية بالأحرى. وقد أثارت تحليلاته الجريئة الكثير من سوء التفاهم والعداء لدى معاصريه. والواقع أن ابن رشد لم يحاول أن يُخضع الإيمان للعقل أو العكس بقدر ما حاول أن يكشف عن العلاقات أو التمفصلات العديدة الكائنة بينهما. لقد كان ابن رشد مفكر المصالحة والتوفيق. ولم يجبر أحداً على الاختيار بين الثقافات المختلفة وأنماط الحياة. لم يوجه إنذاراً لأحد قائلاً له بأن يختار أحد طرفي المعادلة : إما الدين وإما العقل. وإنما برهن على أن الاختلاف بينهما أو التمييز بينهما لا يعني التضاد أو النَّبذ والاستبعاد. فالدين لا يستبعد العقل، والعقل لا ينبذ الدين

كما يتوهم بعضهم. وهكذا ظلت الأندلس منارة لنا حتى بعد خمسة قرون على انتهاء حضارتها. لقد ظلت مثالاً على الانفتاح والتسامح والفضول المعرفي والتفاعل الثقافي وقابلية التأثر والاستقبال. وهذه التجربة مضادة لأوهام الأصوليين المهووسين بالنقاء المتجردين من أي تأثير أجنبي والمتشبثين بالانغلاق على الذات. وهي أكبر مثال على أهمية الاحتكاك بالآخر والإحساس بالاغتناء من خلال هذا الاحتكاك والتفاعل الثقافي معه. ولكن استعادة إسبانيا على يد الملوك الكاثوليك عام ١٤٩٢ وضعت للأسف حداً لهذه "المغامرة الفكرية والروحية" العزيزة على قلب بورخيس[٩٧].

هذا التشابك في التبادلات بين الشرق والغرب يبدو لنا رائعاً. وتزداد روعته بهاء إذا ما علمنا أن الانغلاق على الذات هو السمة الأساسية التي تطبع تاريخ البشر بتاريخها. فالإنسان ميَّال عادة للتعصب إلى قومه وجماعته وليس للانفتاح على الآخرين والقبول بهم. فالانغلاق على الذات وكره الآخر قديم قدم البشر. فمنذ عهد المدن اليونانية القديمة كان البشر ينغلقون على أنفسهم داخل جماعتهم المكتفية بذاتها، ولا يتخيلون وجود بشرية أخرى فيما وراء الجدران العالية للمدينة المحصنة. لا يتخيلون وجود أي شيء مهم أو له معنى خارجهم. وفي مدينة إسبارطة كانوا يطردون الأجانب عن المدينة متهمين إياهم بخلخلة النظام القائم على القانون. وفيما بعد

سوف يتكرر نفس الموقف لدى الرومان. والدليل على ذلك هذا المثل اللاتيني الذي يقول : "أجنبي=عدو". وأما أفلاطون فيقول في كتاب "القوانين" بأنه ينبغي الفصل بين المواطنين المستقرين والمسافرين العابرين، أي الأجانب. ولهذا السبب فإنه ينصح ببناء ميناء أثينا في مكان بعيد عن المدينة لكيلا يختلط الرحّالة بالسكان الأصليين. وينصح بأن تكون له إدارته الخاصة. وهكذا يبقى الشعب اليوناني نقياً أو طاهراً مطهراً من الاختلاط. وفي كتاب "الجمهورية" نلاحظ أن الفيلسوف الكبير يطرد من المدينة المثالية (أو المدينة الفاضلة) الشعراء. لماذا؟ لأنهم قادرون على تهييج خيال الناس وإثارته عن الطريق التحدث عن مكان آخر يرفضه الحكيم. وبالتالي فهم مذنبون ومفسدون للشعب وينبغي طردهم.

ثم ننتقل إلى الحضارة الرومانية فنجد أن روميلوس[98] الذي أسس روما يبتدئ قبل كل شيء برسم الحدود الدائرية التي ينبغي أن تبنى المدينة داخلها. إنه يرسمها عن طريق محراثه. ثم تكبر هذه المدينة تدريجياً عن طريق دوائر أكثر اتساعاً. وفي تخوم الإمبراطورية الرومانية أو على أطرافها نجد الحزّ الكبير الذي يفصل بين روما وعالم البرابرة والهمج كما كانوا يقولون. كل ما هو خارج حدود الإمبراطورية كان يعتبر همجياً. وهكذا، لم يتغير شيء منذ عهد أثينا. ولا تزال آثار ذلك ماثلة للعيان حتى الآن. فعلى تخوم إنجلترا

واسكتلندا نجد بقايا جدار هادريان[٩٩] صامدة. وهي تعطينا فكرة عما كانت عليه تلك النطاقات المسوَّرة والفناءات الواسعة. وفيما وراءها، فيما وراء جدرانها العالية، ما كان أحد من مواطني روما يتجرأ على المغامرة إلا إذا كان مطروداً أو مُبعداً من قبل الدولة. وهذا ما حصل لأوفيد[١٠٠] الذي غضب عليه الإمبراطور أوغست[١٠١] وحكم عليه بالمنفى والعيش على تخوم الإمبراطورية في طوميس : أي في الأقطار المتوحشة والهمجية لبون-أوكسان.

ما أسهل الانصياع للخوف من الآخرين ! وما أجمل إغراءات البقاء داخل إطار الضفة الواحدة ! ولكن التجربة التاريخية تعلمنا أن هذا الانغلاق بدلاً من أن يفتح أمامنا الآفاق يفقر شخصيتنا وعقليتنا. وبدلاً من أن يحمينا من هؤلاء الآخرين فإنه يشجع على حصول المواجهة الصدامية معهم. وأكبر دليل على ذلك ما حصل للإمبراطورية السماوية (أي الصين كما كانت تدعو نفسها). فقد كانت مقتنعة بتفوقها على كافة الشعوب الأخرى. وكان إمبراطورها يخلع على نفسه لقب "ابن السماء" لا أكثر ولا أقل. وكانوا يعتقدون أن جوهره الإلهي ينتقل إلى كل ما يلمسه، بل حتى كل ما ينظر إليه. وكانوا يطبعون بصمة ختمه على الرسوم واللوحات التي يطالب بعرضها عليه. وكان كل صيني يركع أو حتى يسجد أمام أثر النظرة الإمبراطورية دون أن يرفع بصره لكي يرى جدران المدينة الممنوعة.

وبالتالي فليس من المستغرب أن تكون هذه الحضارة مكتفية بذاتها وترفض أي تحسين أو تطوير يجيئها من الخارج. ولذلك فعندما وصل الغربيون بأساطيلهم إلى الموانئ الصينية أعلن الإمبراطور "كانغ هي"[102] أن التكنولوجيا الغربية لا تحتوي على أي شيء جديد بالقياس إلى التعاليم القديمة الموجودة في "كتاب الطفرات والتحولات". نقول ذلك على الرغم من أن الإمبراطور المذكور كان منفتحاً على المعرفة وذا روح فضولية، فما بالك بالآخرين ! وهكذا رفض الصينيون تبنّي العلوم الغربية ومناهجها لأنها كانت قد "استعيرت منهم" بحسب ما تقول العقيدة الرسمية وهكذا قتلهم غرورهم وانغلاقهم على أنفسهم. لهذا السبب بقيت الصين متخلفة على عكس اليابان التي قبلت باستيراد العلم الغربي. وابتدأت الصين تتراجع القهقرى على كافة الأصعدة العلمية، والتكنولوجية، والصناعية، والاقتصادية في اللحظة التي أخذ فيها الغرب يقلع حضارياً وينطلق. وراح أغنياء الصين يكرسون أموالهم وجهودهم لتهذيب الحياة الأرستقراطية والتفنن فيها. وراحت الدولة تختنق تحت ضغط الإمبراطورية المليئة بالموظفين الكبار ذوي الامتيازات لكن دون أي عمل منتج. وفي البداية كان موقف الغرب من الصين يتسم بالمراعاة والمجاملة المفرطة. ولكنه تحول فيما بعد إلى موقف عنجهي ثم عدواني بعد أن رفضت الصين عروضه وطلباته في الانفتاح. فقد ملّ من القيادة الصينية ورفضها لبعثاته

الدبلوماسية وسفرائه. ولهذا السبب فإن البريطانيين أرسلوا مدافعهم الثقيلة وراحوا يقصفون الصين من الشواطئ. وعندئذ اضطرت الصين إلى الاستسلام تحت وابل من القنابل القذائف. وقبلت بأن تفتح العديد من موانئها للتجارة الغربية. وهذا ما أدى إلى توقيع معاهدة في مدينة "نانكان" أو التصديق عليها عام ١٨٤١. وفي عام ١٨٦٠ وصلت حملة عسكرية فرنسية-إنجليزية مشتركة إلى الصين. وكانت بقيادة الجنرال كوزان-مونتوبان. الذي أصبح فيما بعد الكونت دوباليكاو. وقد دمر قصر الصيف الخاص بالإمبراطور. وهكذا فقدت الصين خلال بضعة عقود فقط المكانة الكبيرة أو الهيبة العالية التي كانت قد تشكلت من خلال عبقريتها وعلمها. وعلى العكس منها فإن اليابان بقيادة سلالة الميجي المستنيرة اتخذت الخيار المعاكس وقبلت بالانفتاح على الغرب وبخاصة في مجال التكنولوجيا العسكرية. ولم تجد غضاضة في أن تضيف كل ذلك إلى تراثها. وكانت نتيجة ذلك أنها تفوقت على جيرانها ولحقت بالغرب من حيث التقدم العلمي والصناعي. وهكذا استطاعت عام ١٨٩٥ أن تنتصر على الصين، ثم انتصرت على روسيا عام ١٩٠٥. وهذا ما جعل منها أحد عمالقة العالم من حيث القوة والتقدم والجبروت. هذا في حين أن الصين راحت تغرق في الثورة والفوضى بعد أن أذلّها الغرب وأهانها، وذلك على أثر الفشل التام الذي ختم انتفاضة البوكسريين[١٠٣].

ينبغي العلم بأن الحضارات تتفتح على الخارج عندما تكون واثقة من نفسها ومتأكدة من مستقبلها. ولكنها تتغلق على ذاتها عندما تشك بذاتها وتخشى من لولب الانحطاط. في عام ١٩١٨ نشر المفكر الألماني أرنولد شبنغلر١٠٤ كتاباً بعنوان : **انحطاط الغرب**. وكان يعكس مخاوف فترة بأسرها وقلقها. وكذلك فعل صموئيل هانتنغتون عندما نشر كتابه عن **صراع الحضارات** عام ١٩٩٣. فهذه الأطروحة تعبر أيضاً عن الخوف من العالم الخارجي، عن قلق الغرب الذي يعيش حالة أزمة، وحيرة، وضياع. فهو يعيش في عالم بلا معالم أو صوى. ولهذا السبب فإن الإنسان في مثل هذه الحالة بحاجة إلى تحديد عدو خارجي له، إلى اختزال كل الروابط طبقاً لمعايير ثقافية تعميمية هدفها وضع اسم على رعب متفش أو منتشر. ولكن نحن نعيش في عالم يشبه المتاهة، عالم مسجون داخل شبكة أخطبوطية من الروابط والسببيات والتداخلات. وبالتالي فالانكفاء على الذات ليس حلاً. والدفاع عن مبادئنا الخاصة داخل حدودنا لم يعد كافياً. فالخطر يجيء من التفاوتات الاجتماعية الهائلة بين الشمال والجنوب، وكذلك التفاوت في الثروة وبحبوحة العيش. هذا بالإضافة إلى عوامل أخرى. فالفقر المدقع له دوره في نقمة الشعوب الأخرى على الغرب الأوروبي-الأمريكي. وله دوره في تغذية الإيديولوجيات المتطرفة.

إن احتمالية حصول صدام الحضارات كشفت عن أهمية الهويات

والرهانات الثقافية والدور الكبير الذي تلعبه في التقارب أو التباين بين الشعوب. وفي الماضي كنا نولي الأهمية للعوامل الاقتصادية والسياسية بالدرجة الأولى. وأما اليوم فأصبحنا ننتبه أكثر للعوامل الدينية المشكلة للهوية العميقة للشعوب. وهي تتطلب منا بذل جهد كبير من أجل فهمها أو تفهمها. كما تتطلب منا انفتاحاً متزايداً على الآخر ومحاولة بطولية لوضع قيمنا الخاصة على محك التساؤل والشك. وذلك لأننا لا نستطيع أن نعيد السلام والاستقرار للمناطق التي يكتسحها العنف والنقمة علينا إذا لم نفهم مسبقاً مختلف أوجه الصراع ونفرز خيوطه بعضها عن بعض. وكما حصل في الفترات المفصلية الحاسمة من تاريخنا فإن العودة إلى الجذور، وحفظ الذاكرة الجماعية، والتعلق بالهوية، كل ذلك يغذّي تساؤلاتنا التالية : من نحن؟ بم نعتقد؟ وللبحث عن أجوبة على هذه التساؤلات فإننا نعود بالطبع إلى أصولنا، إلى الأزمنة القديمة والجذور التاريخية.

كان أخيل ابن بيلي يجمع بين الجمال والقوة الخارقين للطبيعة بالإضافة إلى ذكاء حاد. وقد جعل طروادة ترتجف خوفاً وكذلك معسكره الخاص بالذات. وكان جسده لا يُقْهَر ولا يُغْلَب. وبما أن أحداً لا يستطيع أن يقتله فإنه كان يرتكب كل المجازفات ويخاطر بنفسه. وكان يصرخ بأعلى صوته معلناً غضبه. وراح ينتقم لصديقه باتروكل ويلاحق أعداءه، ويبيد خصومه. وعلى الرغم من كل ذلك فإنه لم

يستطع أن يقود الإغريق إلى الانتصار على طروادة. لماذا؟ لأنه كان يعاني من نقطة ضعف واحدة وهي : كعبه. ولذلك ضرب به المثل : أكثر هشاشة من كعب أخيل. وكان يشكل نقطة صغيرة جداً من جسمه، ولكنها سوف تكون سبب مقتله.

والآن لنشبه العالم الذي ولد بعد سقوط جدار برلين بكعب أخيل. فقد بدا لنا للوهلة الأولى وكأن العالم اقترب من الكمال. فقد سقط الستار الحديدي الذي كان يفصل بين شرق أوروبا وغربها لمدة أربعين سنة أو أكثر. وانتهت العداوة بين الطرفين وأصبح الجميع شركاء وأصدقاء. وانتهى أيضاً حقد أنظمة أوروبا الشرقية على الرأسمالية. ومعلوم أنه باسم محاربة النظام الرأسمالي كانوا يرفضون أن يعطوا لشعوبهم حريتها ويزعمون أن ذلك لصالح التقدم والتقدمية. كل شيء بدا وكأنه يسير في الاتجاه الصحيح بعد عام ١٩٨٩. فإذا بنا نكتشف فجأة أن عالمنا أيضاً له كعب أخيل ! وفي أي شيء يتجسد هذا الكعب؟ في الهوية، أو قل في التمسك المتعصب جداً بالهوية التراثية أو التقليدية. وإذا بالهويات تنفجر في وجوهنا من كل حدب وصوب كالقنابل الموقوتة. والواقع أنها كانت مكبوتة أو مجمَّدة طيلة الحرب الباردة، أي طيلة نصف قرن تقريباً. وهكذا راحت الهويات خلال أقل من خمسة عشر عاماً تشكل الثورات الأكثر أهمية في شتى أنحاء العالم بدءاً من توحيد ألمانيا مروراً بانفجار منطقة البلقان وتفكيك

الإمبراطورية السوفييتية إلى هوياتها القومية الأصلية وانتهاء بصدمة ١١ سبتمبر الرهيبة. كل هذه الأحداث هي نتيجة اشتعال الهويات المختلفة من قومية أو عرقية أو دينية. وهكذا وجدنا أنفسنا نعيش فترة قلق واضطراب تماماً كمعاصري أخيل. وجدنا أنفسنا وقد دخلنا في مرحلة اهتزاز وخلخلة، وأحياناً مرحلة أزمة حادة وعنيفة بالفعل.

ولكننا نعلم أنه بعد أن مات أخيل راح أجاكس وأوليس يجسّدان في شخصيهما المعركة بين القوة الجبروتية من جهة، والحكمة والتعقل من جهة أخرى. واجتمعت فئة الحكماء لكي تتشاور في الموضوع وتحديد من الذي سيرث أسلحة أخيل من بين هذين البطلين. ومعلوم أن تيتيس وعد بها أكثر الأبطال شجاعة وإقداماً. وكان أجاكس هو الأفضل في ساح الوغى. كان بطلاً مزوداً بطاقة جريئة باسلة موضوعة في خدمة إرادته الراغبة في الاستقلال. وقد صرح بأنه قوي وقادر على قهر الأعداء دون معونة الآلهة. ولما كان سكران بنشوته وقوته فإنه رفض مساعدة أثينا. أما أوليس فقد كان رجل المناقشة والحوار والإصغاء للآخرين. كان رجل الاعتدال. وكان يفضل إقناع الآخرين بالحجة والكلام المعقول على أن يفرض إرادته عليهم بالقوة. كان يفضل تعبئة الناس وليس تقسيمهم أو إحداث الفرقة بينهم. كان يفضل الابتكار على أن يكرر نفس المعارك التي لم توصله إلى أي نتيجة. وبفضل استخدامه لحيلة فرس أخيل فإنه استطاع أن

يحقق النصر للإغريق.

أما أجاكس فلأنه كان يشعر بأنه الأقوى فإنه رفض القبول بتصويت الجمعية الاستشارية التي رجحت موقف أوليس وفضلته عليه. وقد أعماه الغضب فخرج من المعسكر غير عابئ إلا بصوت الغضب والقوة المهانة أو الجريحة. وهكذا خرج من نطاق الحوار لكي يدخل في نطاق العنف. وعندئذ اختل التوازن. فأثينا ضلّلت المسكين أجاكس. وأما أوليس فقد رفض أن يغترّ أو يتبجح بانتصاره. لماذا؟ لأنه يعرف بأنه قد يتصرف كما فعل أجاكس إذا ما أغراه العنف يوماً ما واستولت عليه رغبة القوة والبطش والجبروت. حقاً لقد كان أوليس حكيماً.

أما الجزء الثاني من ملحمة هوميروس، أي **الأوديسة**، فقد بلورت أسطورة الآخر الذي سيجد أوليس نفسه في مواجهته باستمرار. ومساره هو عبارة عن رحلة قسرية مفروضة من قبل الآلهة المضادة لإرادة البطل الذي يكمن كل همه في العودة إلى جزيرته "إيثاك" وزوجته "پينيلوپ".

إن **الأوديسة** تعلمنا أن اكتشاف الآخر يحصل دائماً بشكل غير طوعي أو لاإرادي. وهو يحصل دائماً من خلال المخاطر المجهولة والمخاوف التي لم يسبق لها مثيل. وفي لحظات رحلته الأكثر يأساً

وقتامة كان الأمل بالعودة المدعَّم بنبوءة تيريسياس هو وحده الذي يشجعه على مواصلة رحلته وهو يأمل بالعثور على جذوره والحاجة لأن يشعر بأنه في "بيته" أخيراً. ولكن قبل أن يتوصل إلى ذلك فإنه كان يستشعر على مدار رحلاته الطويلة بأن عليه أولاً أن يمر من خلال الآخرين.

الفصل الثالث

الفـــخ

الفصل الثالث

الفــــخ

ندر أن استقطب حدثٌ ما كل توترات العصر وصراعاته مثلما استقطبت حرب العراق. ندر أن أدت مأساة معينة إلى حصول صدام بين رؤيتين مختلفتين جذرياً للعالم مثلما فعلت الأزمة العراقية. وندر أن استشعر الرأي العام العالمي خطورة الحدث والرهان مثلما استشعر ذلك مؤخراً. ورهان العملية كلها هو كما نعلم : تشكيل أسس النظام العالمي المقبل أو تدميرها. والواقع أن العنف يثير العنف ورد الفعل كقانون طبيعي، وذلك حتى درجة التصعيد والجنون. فبعد الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي راح لولب العنف الجهنمي عن طريق السيارات المفخخة والتفجيرات ينتقل إلى العراق. بل حتى الرأي العام العالمي أصبح معتاداً على أعمال العنف اليومية هذه. وأخذ الخوف ينتشر لدى كل الأطراف ويهدد بتعميم نفسه على كل المنطقة. والواقع أن الجماعات الإرهابية الأكثر راديكالية والمتطرفين الأكثر عنفاً هم وحدهم الذين يرضيهم هذا الوضع. فهم لا ينتعشون إلا في جو الفوضى والبلبلة لأنهم يجدون فيه تسويغا لمعركتهم والوسيلة التي تمكّنهم من مواصلتها.

وهكذا أصبحت الجماعة الدولية رهينة صراعات لا تعرف كيف تهدأ، وأحقاد تزداد اشتعالاً أسبوعاً بعد أسبوع. وهكذا فالسؤال الوجيه الذي ينبغي طرحه هو التالي : كيف وصلنا إلى هنا؟ ومن أوصلنا. أما المهمة التي ينبغي أن نضعها نصب أعيننا ونضطلع بها فهي التالية : ضرورة إنجاح عملية الانتقال السياسي في العراق عن طريق مساعدة الشعب العراقي على التوصل إلى سيادة حقيقية. وذلك لكي يستطيع أن يمشي بالعراق على طريق السلام والتنمية.

لقد دشنت الأزمة العراقية ثورة حقيقية في الإرهاب فاشتعل وانتشر بشكل لم يسبق له مثيل من قبل. وأكبر دليل على ذلك تفجيرات ١١ مارس في مدريد عام ٢٠٠٤، فقد كانت نتيجة مباشرة لما يحصل في العراق. وأول درس نستخلصه من ذلك هو أن الإرهاب يتحول أو يتطور أو يتجدد دون توقف. إنه يشبه الجرثومة التي تتغير بحسب الدواء الذي يكافحها وذلك لكي تتغلّب عليه أو تتحاشاه. هذه هي أول سمة من سمات الإرهاب الجديد. في كل مرة يخترع أساليب جديدة لمواجهة المكافحة الدولية له وللتحايل عليها. ولهذا السبب فإن تركيبة الجماعات الإرهابية تغيرت، وكذلك أساليب تحركها وعملها. فهي الآن مشكّلة من مجموعات صغيرة مستقلة بعضها عن بعض وتمارس كل مجموعة دورها دون أن تكون لها علاقة مع المجموعات الأخرى بالضرورة. ثم إن هذه المجموعات تذوب داخل السكان.

وتندمج في الحياة الاجتماعية والمهنية للبلدان الأوروبية بشكل طبيعي لكيلا ينكشف أمرها. وهكذا تتحاشى المراقبة أو محاولات القبض عليها. إنها تمارس عملها على هيئة منظمات أفقية لا شاقولية ولا عمودية. وهذا ما يتيح لها أن تقيم علاقات عديدة بسرية كاملة. وإذا ما قبضت الأجهزة الأمنية عليها أو على أحد أعضائها فإنها لا تستطيع أن تتوصل إلى القبض على الرؤساء لأنه لا توجد علاقة مباشرة بين القاعدة والقمة. والواقع أنه لا توجد قمة في مثل هذا التنظيم الأفقي المنتشر كالأخطبوط المتقطع أفقياً على مساحة المجتمع كله.

أما السمة الثانية من سمات الحركة الإرهابية الحالية فهي أن مختلف أعضاء المجموعة السديمية هذه يتوزعون المهام فيما بينهم. فهناك أولاً خطباء الجوامع الذين يحرّفون الرسالة الدينية عن جوهرها ويحولونها إلى دعوة للحقد وخلع المشروعية الإلهية على العنف والقتل. وهناك ثانياً أولئك المختصون بالتكنولوجيا والتلاعب بالقنابل والأسلحة ويمتلكون الخبرة العلمية الكافية لتنفيذ العمليات التفجيرية. وهناك ثالثاً أولئك الذين يضعون القنابل في الباصات أو الأماكن العامة. وهم مستعدون لأن يموتوا في عمليات كاميكاز انتحارية. وهذا النظام يجعل من العمل الإرهابي شيئاً مشابهاً لمنهجية

المهندس تايلور (١٨٥٦-١٩١٥) الذي نظم المصانع في القرن التاسع عشر بشكل تخصصي دقيق وأوكل لكل عامل مهمة خاصة به دون غيره ضمن العملية المعقدة لصناعة السلعة. نعم لقد تحول الإرهاب إلى تخصص مؤلف من عدة مراحل، وكل عضو في الخلية يقوم بجزء من العمل لا كله. وهكذا يحصل التكامل بين الجميع ويتم تنفيذ العملية الإرهابية التي تصيب السكان العزَّل وتفتك بهم فتكاً رهيباً في المخازن العامة أو المقاهي أو الباصات، الخ...

أما الخاصية الثالثة والأخيرة للإرهاب الحالي فهي أنه يحب أن يبث الرعب والشك في قلب المجتمعات الغربية لكيلا يدعها تستريح أو تطمئن. وهو يفعل ذلك عن طريق القيام بتفجيرات كبيرة تؤدي إلى قتل عدد كبير من المدنيين أو المواطنين. وهذا ما يؤدي إلى تخويف أكبر عدد ممكن من السكان وزعزعة الأنظمة الديمقراطية الغربية. وهذا يعني أن المسألة خطيرة ومعقدة. وبالتالي فموقف التواضع هو الأنسب أمام ظاهرة في مثل هذه الخطورة. نقصد التواضع العلمي بالطبع، فهو يشكل المرحلة الأولى للمواجهة. فلكي نستطيع أن نواجه الإعصار العراقي وانعكاساته ينبغي علينا أن نحاول فهم أسبابه وجذوره. فالأزمة العراقية اندلعت بعد عدة هزات أو طلقات إنذار. وقد آن الأوان لكي نقدم لمحة تاريخية عنها وعن مراحلها المتتالية.

للتحدث عن المرحلة الأولى ينبغي أن نعود إلى الوراء خمسة وثلاثين عاماً عندما استولى صدام حسين على السلطة باسم حزب البعث وفرض ديكتاتوريته على شعبه. وقد استخدم كل الأساليب لترسيخ نظامه : من إجبار الناس على الوشاية، أو اغتيالات سياسية، أو سجن تعسفي مع التعذيب، الخ... كل الوسائل كانت مباحة في نظره من أجل قمع الشعب والحفاظ على النظام. وقد أعطى البعض كل هباته، وحرم الآخرين واستغلهم وأساء إليهم. وكان بارعاً في استخدام أسلوب الابتزاز والكذب سواء تجاه المقربين منه أو تجاه الجماعة الدولية بأسرها.

أما المرحلة الثانية من سلسلة المراحل التي أدت إلى اندلاع الأزمة العراقية عام ٢٠٠٢ فقد ابتدأت عام ١٩٩٠. فقد غزا العراق آنذاك الكويت بعد أن اعتقد بأن الغرب سيقف موقف الحياد ولن يحرك ساكناً، أو هكذا توهم على أي حال. وكان راغباً في الهيمنة على مجمل دول المنطقة والتوصل إلى منفذ مائي على الخليج. وكانت هذه هي الخطوة الزائدة عن اللزوم. كانت القشة التي قصمت ظهر البعير. فقد قررت الولايات المتحدة أن تتصدى له وتوقفه عند حده. ولذلك حشدت حولها تحالفاً دولياً واسعاً تحت راية الأمم المتحدة وأخرجت الجيش العراقي من الكويت. ولم تستغرق العملية أكثر من بضعة أسابيع.

أما المرحلة الثالثة من مراحل الأزمة العراقية فقد ابتدأت عام ١٩٩١. فقد توالت قرارات الأمم المتحدة الصادرة بحق العراق واحداً تلو الآخر. وتوالت أيضاً العقوبات والقصف بالقنابل ولكن بشكل متفرق. وزمن الانتظار والإحباط هذا دام فترة طويلة إلى حد أنه ابتدأ يزعج بعض المسؤولين السياسيين في الولايات المتحدة. فابتدأوا يجمعون ملفاً كاملاً ضد النظام العراقي. واقتنع بعض أعضاء الإدارة الأمريكية أن مهمتهم لن تكتمل قبل إسقاط هذا النظام والتخلص منه كلياً.

ولكن هذه التحركات ضد نظام بغداد ما كانت كافية أبداً لشن حرب عليه. فمهما تكن الحجج المؤيدة لقلب نظام صدام حسين قوية فمن المؤكد أنها كانت ستبقى ورقة ميتة لو لم تتغير الظروف ويحصل حدث خطير خارق للعادة لكي يصبح قلب النظام العراقي على قائمة الأولويات الأمريكية. وهذا الحدث أصاب أمن الولايات المتحدة في الصميم بل هزَّها هزاً. كما هزَّ الصورة التي يمتلكها العالم الغربي عن نفسه. فقد كان يعتقد أن أحداً لن يتجرأ على مهاجمته في عقر داره بهذه الطريقة. نقول ذلك وبخاصة بعد أن انتصر على الشيوعية وأصبح سيد العالم دون منازع. هذا الحدث المذهل الذي لا يكاد يصدق هو بالطبع ١١ سبتمبر ٢٠٠١. وهو الذي جعل الإطاحة بصدام حسين أمراً متاحاً. فلأول مرة في تاريخها أحست الولايات المتحدة

بأنها أُصيبت في قلبها وصميمها. وهكذا اتخذ هذا العمل الإرهابي الفريد من نوعه في التاريخ هيئة إعلان حرب على أكبر قوة عظمى في العالم. وأشعر أمريكا بابتداء عهد جديد من الارتياب والهشاشة. لأول مرة أحست الولايات المتحدة بأنها تعاني من نقطة ضعف، وأن العدو يمكن أن يجيئها من هذه النقطة بالذات. فكل قوة أمريكا، وكل هذه الطاقة الجبارة، وكل هذه الإرادة في تحقيق الرفاهية والنجاح، وكل هذا التعطش للمعرفة والتقدم، وكل هذه الإنجازات الرائعة أُصيبت بلطخة سوداء. وأحست أمريكا بالخوف لأول مرة، وهو إحساس يصعب تحمله بالنسبة لقوة عظمى مثلها. وما كان بإمكان الشعب الأمريكي أن يسكت على الضيم أو أن يتلقى الضربة دون أن يرد عليها. فهذا الموقف الجبان غريب عن تقاليده وتاريخه.

كان لا بد من الرد لكي تستعيد أمريكا هيبتها في نظر نفسها وفي نظر العالم. وكان لا بد على أمريكا الجريحة أن ترد على العدوان بالصاع صاعين وتستعرض قوتها وجبروتها أمام العالم كله. لقد أثبتت أمريكا في السابق مقدرتها على تحقيق النمو الاقتصادي، واختراع أحدث أنواع التكنولوجيا المستقبلية. وأثبتت مقدرتها على الإبداع في مجال السينما والفن. ولكنها هذه المرة كانت مدعوة لتبيان عظمتها في مجال آخر يخص أمنها داخل حدودها وخارج تلك الحدود.

وكان العراق يشكل هدفاً من الطراز الأول. فهذا البلد كان يكثّف في داخله معظم عناصر الأزمة الحديثة. فقد كان يهدد بامتلاك أسلحة الدمار الشامل التي تشكل رمزاً على الأخطار الجديدة التي ظهرت بعد نهاية الحرب الباردة. ومعلوم أنه تجرأ على استخدامها ضد الأكراد في حلبجة. فحاكمه ديكتاتور دموي مثير للقلق. وبقاؤه في السلطة يثير مسألة التناقض بين ضرورة الحفاظ على سيادة الدولة من جهة، وضرورة احترام حقوق الإنسان داخل حدود هذه الدولة من جهة أخرى. ومعلوم أن هذه المسألة الصعبة والشائكة أثارت نقاشات حادة على الصعيد الدولي. فالبعض برر حق انتهاك سيادة الدولة (أي دولة كانت) من أجل حماية حقوق الإنسان، والبعض رفض ذلك. وهناك أيضاً رهانات اقتصادية ضخمة في بلد غني بالاحتياطات البترولية كالعراق. هذا بالإضافة إلى الرهانات الإستراتيجية والعسكرية الضخمة الموجودة في قلب المنطقة الأكثر اضطراباً في العالم. وأخيراً فهناك جانب قوي يخص الثقافة والهوية،و وقد أُسيء تقدير أهميته في البدايات الأولى للأزمة. ومعلوم أن هذا الجانب أصبح أحد المكونات الأساسية للعلاقات الدولية. وهو يلعب دوراً كبيراً فيها. والمقصود به الصراع بين الإسلام والغرب أو الهوية العربية والغرب. وبالتالي فعلى كافة الأصعدة والمستويات كان العراق يشكل بؤرة مكثفة للأزمات المقبلة بين الشرق والغرب وبؤرة لحلّها أيضاً

وبالتالي فالمعركة الدبلوماسية التي ابتدأت في خريف ٢٠٠٢ ناتجة عن اللقاء العنيف بين الهوس بالمسألة العراقية وبين صدمة ١١ سبتمبر المؤلمة جداً بالنسبة لأمريكا. وهذا التلاقي أو التقاطع بين المسألتين هو الذي دفع بالسلطات الأمريكية إلى أن تحسم خياراً استراتيجياً حقيقياً عندما دخلت في صراع مفتوح مع العراق. وهذا الخيار ناتج عن دوافع شتى من اقتصادية، وثقافية، وعسكرية. وقد أملته رؤيا فريدة للعالم المنقسم على نفسه بين قوى التقدم وقوى الظلامية، قوى النظام وقوى الفوضى، قوى الخير وقوى الشر. ولا يمكن تفسير أي من انعكاسات هذه الحرب دون العودة إلى حقيقتها الأولية. فبالنسبة لواشنطن يوجد معسكران لا ثالث لهما. وعلى كل دولة من دول العالم أن تختار إما هذا المعسكر وإما ذاك. ولكن هذا التقسيم للعالم لا يخضع فقط لمقولة إيديولوجية، وإنما يدل أيضاً على انبعاث الإمبريالية التي لا تتردد في إعلان مقاصدها على رؤوس الأشهاد قبل أن تدافع عنها في ساح الوغى.

والولايات المتحدة إذ حددت العراق خصماً اختارت مكاناً محدداً : هو المكان الذي يقع على أنقاض الإمبراطورية العثمانية. إنه المكان المليء بالصراعات على الحدود، هذه الصراعات التي دفعت بالبريطانيين إلى حرمان إسطنبول من امتلاك إي منفذ على الخليج العربي. إنه المكان الذي ورث نظام الملل والطوائف : أي تلك

الجماعات العرقية-الطائفية التي كان سلاطنة بني عثمان يستخدمونها بعضها ضد بعض أحياناً من أجل إحكام سيطرتهم على الجميع. وأخيراً فإنه المكان الذي يجسد حرمان الشعوب التي ما إن خرجت من الهيمنة العثمانية حتى سقطت تحت هيمنة قوى الانتداب الغربية من إنجليزية وفرنسية ثم تحت هيمنة الديكتاتوريات المحلية. هذه هي باختصار شديد قصة العراق كمكان تكثّفت فيه كل مشاكل التاريخ. ولهذا السبب فإنه ينبغي علينا أن نعود في الزمن قروناً إلى الوراء لكي نفهم بواعث ورؤى كل طرف من الأطراف المتصارعة ولكي نقيس حجم إرادتها وتصميمها.

العقدة العراقية

يكفي أن نذكر أسماء سومر وبابل وآشور لكي نثير ذكرى التاريخ القديم للعراق. ثم نتذكر بعدئذ الخلفاء العباسيين وعلماءهم ومكتباتهم الشهيرة. وينبغي أن نتذكر أيضاً الأديان وأضحيات الأنبياء التي يحتفل بها كل عام ملايين المؤمنين. ففي العراق كل حركة ولو صغيرة وكل إشارة يمكن أن تدل على عقود من الصراعات والمنافسات، على الاعتقادات العميقة، على المخاوف، على الخرافات والخزعبلات. كل حركة ترمز لشيء يتجاوزها بكثير. وهناك لا يمكنك أن تدخل كما تدخل إلى أي بلد آخر. أنت هنا في العراق، بلد الحضارات المتراكمة على مدار التاريخ.

وسائل الإعلام الغربية تتحدث عن العراق وكأنه مجرد بلد صحراوي مليء بآبار البترول... ولكن هذه صورة مشوهة عن العراق. فهو على العكس من ذلك يستحق تسمية أكبر من ذلك. إنه يستحق تسمية بلاد وادي الرافدين : "أي البلاد المتموضعة جيداً والراسخة الجذور". وهذا البلد يحتل مكانة مركزية في مخيلة سكان منطقة الشرق الأوسط. وفي العصور القديمة جداً كانوا يدعونه بلاد وادي الرافدين : أي البلاد الواقعة بين دجلة والفرات، مهد الحضارة البشرية. وذلك لأن سكانه هم الذين اخترعوا العجلة (أي الدولاب) والكتابة كما يقول المؤرخون. وهم الذين اخترعوا قانون حمورابي الذي يعتبر واحداً من أقدم النصوص التشريعية التي عرفتها البشرية. وقد كانت بابل مركزاً لحضارة قوية مشرقة. وكانت تحتوي على اثنتين من عجائب الدنيا السبع : الحدائق المعلَّقة لسميراميس، وبرج بابل الشهير المذكور في سفر التكوين. وهذه الحضارة تحمل سمات ذلك الوجه الرائع للثيران المجنَّحة الغريبة الشكل والبشرية الرأس والتي تنهض واقفة بتماثيلها على أبواب المدن العتيقة. أنت هنا في العراق، بلد أقدم حضارة على وجه الأرض.

وأما بالنسبة للمسلمين فإن ذكر اسم العراق يحيي في مخيلتهم صوراً قديمة وعريقة أيضاً. فأسماء المدن ذاتها تذكرنا بقصص ألف ليلة وليلة. لنعدد بعضها : بغداد، الكوفة، الكرخ، الرصافة، النجف،

كربلاء. وهي أسماء مثقلة بالمعاني التاريخية والرموز. وقد أُسست بغداد في القرن الثامن الميلادي من قبل الخليفة المنصور تحت اسم : مدينة السلام، أي الجنة في الواقع. ثم أصبحت فيما بعد عاصمة ثقافية كبرى، مزدهرة. وبدلاً من أن ترفض التراث اليوناني العتيق بحجة أنه وثني راحت على العكس تترجمه، وتستقبله، وتحتضنه، وتضيف إليه. "فبيت الحكمة" الذي أسسه الخليفة المأمون ابن هارون الرشيد هو عبارة عن مكتبة ضخمة. وقد ترجموا فيه إلى العربية المؤلفات الكبرى للفلسفة أو الطب الصادرة عن الإغريق، وبلاد فارس، والهند. وهناك استعاد العرب التراث الكلاسيّ للحضارات القديمة وطوروه. ومعلوم أن اثنين من مؤسسي المذاهب السنّية الأربعة كان موطنهم العراق. ففيه بلورا عقيدة المذهب ودرّبا التلامذة والمريدين على أصول العقيدة. وهما أحمد بن حنبل وأبو حنيفة النعمان. وهناك أيضاً نجد المتصوفين الكبار وعلى رأسهم الحلاج. وبالتالي فإن بغداد أشعت بأنوارها على مجمل العالم الإسلامي وحتى فيما وراءه. وعلى الرغم من أنه لم يبق من تلك الفترة أية آثار عمرانية أو فنية إلا أن ذكراها تظل حية في الذاكرة الجماعية العربية. لقد جسدت بغداد العصر الذهبي للحضارة الإسلامية. ففي هذه المدينة ازدهر الإسلام المنفتح الذي هضم تراث الفرس والإغريق والبيزنطيين تماماً كما حصل في دمشق سابقاً. إنه العصر الذهبي للحضارة العربية الإسلامية.

ينبغي العلم بأن المجتمع العراقي متنوع ومتعدد على الصعيد الديني أيضاً. فحوالي ثلثي الشعب ينتمون إلى الطائفة الشيعية. وهذا العدد الكبير ناتج عن حركة واسعة ابتدأت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ثم ازدادت في القرن العشرين وأدت إلى اعتناق هذا المذهب من قبل أعداد كبيرة من السكان. فقد نشط الدعاة في الجنوب العراقي بشكل خاص ونجحوا في تحويل القبائل البدوية التي أفقرها الاستيطان الحضري إلى المذهب الشيعي. وكانت راغبة في البحث عن مخرج روحي والتخلص من نير الاحتلال العثماني. فلم تجد إلا التشيُّع طريقاً إلى ذلك. يضاف إلى هذا أن أربعة من أكثر المقامات قداسة عند الشيعة موجودة في العراق. وإليها يحج شيعة العالم كله. وفيها يتم تدريس الفقه والعلوم الإسلامية أيضاً.

وهذه الأمور التي تشكل الرابطة الوثيقة التي تربط شيعة العراق هي بمثابة صلة الوصل أيضاً مع جارها الأكثر أهمية : إيران. فهناك قاسم مشترك بين الطرفين من حيث الفكر والمذهب والتعلق بنفس التراث. وهذا يشكل إحدى المعطيات الأساسية للعراق من الناحية الجيوبوليتية (أي الجغرافية-السياسية). وهذا يؤثر أيضاً على نفسية الشعب ويطبعها بطابعه. من المعلوم أن رابع الخلفاء الراشدين علي بن أبي طالب مات مقتولاً من قبل أحد أتباعه السابقين وذلك على عتبة مسجد الكوفة. وفي شهر أكتوبر من عام ٦٨٠م حصلت معركة كربلاء

التي أدت إلى مصرع ابنه الحسين مع الكثير من أفراد عائلته وأتباعه. وكانت مجزرة حقيقية قام بها جيش الخليفة يزيد بن معاوية. ومعلوم أن الحسين صمد وقاوم طويلاً مع اثنين وسبعين من أصحابه قبل أن يقتل في نهاية المطاف. ولذلك فإن الشيعة يحتفلون كل عام بهذه الذكرى الحزينة، ذكرى عاشوراء. وهم يسيرون عندئذ في مواكب ضخمة ويلطمون وجوههم وصدورهم لكي يعاقبوا أنفسهم على خذلان الحسين بن علي والتخلي عن نصرته. وعلى هذا النحو يؤبدون ذكراه جيلاً بعد جيل. وتحت راية هذه الذكرى المزدوجة، أي ذكرى علي والحسين، فإن السيكولوجيا الشيعية تظل محاصرة بالخوف من الخيانة أو الهزيمة أو الظلم أو انعدام العدالة في هذا العالم. ولكنها في ذات الوقت تظل مفعمة بالكرم والتضحية بالذات والشعور بالاعتزاز بالنفس. كما أنها مفعمة بالأمل وحب المقاومة. والشيعة وراءهم تاريخ طويل عريض من المعارضة للأنظمة السياسية التي تعاقبت على أرض الإسلام منذ الأمويين وحتى يومنا هذا. وهم يعتقدون بأن السلطات الزمنية لا يمكن أن تكون إلا جائرة وبالتالي فتنبغي معارضتها وعدم التعامل معها. وذلك بانتظار عودة المهدي المنتظر الذي يعتقدون بأنه سيملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً.

أما بقية سكان العراق فهم سنّة في معظمهم. ومعلوم أن السلطة كانت حكراً على السنة منذ قرون وقرون. فهم الذين حكموا العراق

على مدار التاريخ. أما الشيعة فقد استُبعدوا على الدوام من أية مسؤولية سياسية أو اقتصادية. والسنة كانوا دائماً يخشون من أن يستخدم جارهم الإيراني الطائفة الشيعية لكي يهيمن على البلاد. ولكن وجود أغلبية إسلامية شيعية وسنية في العراق لا ينبغي أن ينسينا وجود أديان أو طوائف أخرى. فهناك اثنتا عشرة طائفة مسيحية. وهي تجمع ما لا يقل عن ستمائة ألف نسمة : أي أقل من ٥٪ من عدد السكان. أما اليهود الذين بقوا في بابل بعد المنفى فلم يبق منهم إلا حفنة من الرجال بعد أن كانوا يعدون بمئات الألوف سابقاً. ولكن هناك نقطة مشتركة لدى كل الأديان التوحيدية سواء أكانت إسلامية أم مسيحية أم يهودية : وهي أنها جميعها تعترف بالنبي إبراهيم الخليل أصلاً لها. ومعلوم أنه يدعى بالبطريرك لدى اليهود والمسيحيين، وقد ولد في "أور" بمنطقة الكلدانيين في العراق. وبالتالي فأصل الديانات التوحيدية يعود إلى العراق.

ولكن بالإضافة إلى هذه التعددية الدينية والطائفية في العراق هناك تعددية أخرى على الصعيد العرقي هذه المرة. صحيح أن ثلاثة أرباع السكان هم من العرب. ولكن العراق يحتوي على أقلية كردية كبيرة. والعصبية الكردية (أو القومية الكردية) ليست حديثة العهد على عكس ما نتوهم وإنما تضرب بجذورها في أعماق التاريخ. إنها تعود إلى فترة الاستقلال الذاتي الذي حصل عليه الأكراد داخل

الإمبراطورية العثمانية في القرن السادس عشر. ثم انتعشت بعدئذ في القرن التاسع عشر إبان استيقاظ القوميات أو المشاعر القومية داخل الإمبراطورية ذاتها. وعندئذ ظهرت القومية العربية أيضاً كرد فعل على القومية الطورانية أو التركية التي حاولت الهيمنة على الجميع. ومشكلة الأكراد في العراق حساسة جداً لأن المناطق الكردية محاذية لآبار البترول الغنية في كركوك.

في الواقع إن الشعب العراقي عنده إحساس حاد بتعدديته. كما أن ذكرى الإمبراطورية العثمانية لا تزال عالقة في أذهانه. وهي ذكرى تثير الأحقاد المكبوتة بين بعض فئات الشعب وتزيد من حدة الخصومات المتضادة. والتعايش بين مختلف فئات الشعب لا يزال هشاً. نقول ذلك وبخاصة أنه لا تزال هناك أقلية تركمانية تعيش في الأقاليم الكردية. وتاريخها المضطرب ولّد خوفاً حقيقياً من تقسيم النواة الأولى للبلاد : أي منطقة وادي الرافدين. هكذا نلاحظ أن العراق يقع على تخوم العالم العربي الإسلامي. وكما نلاحظ فإن الذكريات التاريخية تزيد من تعقيد المشهد الجغرافي والبشري المتفتت أو المتبعثر إلى حد كبير.

ولكن على هذه الأرضية المتنوعة والمتبعثرة تشكلت الوحدة العراقية كالطُّعم. نعم لنعد إلى التاريخ قليلاً. نحن نعلم أن البريطانيين أثناء

الحرب العالمية الأولى وعدوا الشريف حسين بتشكيل دولة عربية واحدة تحت قيادة ابنه الأمير فيصل. ولكنهم لم يفوا بالوعد بعد نهاية الحرب وانتصارهم على دول المحور. إلا أن ذكرى هذا الوعد ظلت عالقة في النفوس. وبعد أن فشل فيصل في حكم دمشق أو قل بعد أن طرده الفرنسيون منها ذهب إلى بغداد حيث شكل أول دولة عربية مستقلة في الشرق الأوسط منذ الفتح العثماني للمنطقة في القرن السادس عشر. وقد وجدت الإيديولوجيا القومية العربية التي ولدت في لبنان وسوريا في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر أصداء قوية في العراق. ثم أسس المسيحي ميشيل عفلق عام ١٩٤٧ حزب البعث في دمشق بالتعاون مع المسلم السني صلاح الدين البيطار. ومعلوم أن هذا الحزب يعتبر العالم العربي أمة واحدة لا تتجزأ. وبالتالي فلا معنى للحدود الاصطناعية الموروثة عن زمن الاستعمار الأوروبي والتي تفصل أقطاره بعضها عن بعض بشكل تعسفي. وهذا الفضاء الشاسع يشكل بالنسبة للبعث أمة واحدة بالمعنى السياسي والثقافي للكلمة. وبما أن حزب البعث قومي النزعة فإنه يرفض الطائفية. ولكنه يولي مكانة خاصة للإسلام بصفته "روح العروبة" كما يقولون. يضاف إلى ذلك أن البعث أصبح حزباً اشتراكياً وتقدمياً. وقد شارك في الانقلاب الذي حصل بتاريخ ١٤ يوليو ١٩٥٨ في العراق. وهو الانقلاب الذي وضع حداً للنظام الهاشمي. وقد ساهم في

السلطة بعض الوقت ثم غاب عنها ثم عاد لكي يتولاّها بشكل كلي عام ١٩٦٨. وفي ذات الوقت أو قبله بسنوات معدودة استولى الجناح الآخر للبعث على السلطة في دمشق. ثم تقلص البعث القومي لكي يصبح عراقياً بالدرجة الأولى. وبعد اثني عشر عاماً من التردد والتذبذب أصبح تحت إمرة رجل واحد هو صدام حسين.

لقد عرف الديكتاتور العراقي كيف يستغل كل مرحلة، أو كل حالة، لصالحه. وراح يمارس السلطة بشكل مطلق ودون مشاركة أحد. كما راح يرعب السكان، الأقارب منهم كما الأباعد، راح يتصرف تصرُّف طاغية عنيف ودموي. وعلى الرغم من أنه انخرط في خط التنمية وجعل من الشعب العراقي أحد أكثر الشعوب تعلماً في المنطقة، إلا أن هذه المكتسبات سرعان ما أفسدها عن طريق المغامرات العسكرية المنهكة هنا وهناك، وعن طريق الرغبة العمياء في الفتح والهيمنة على الآخرين، وعن طريق اللامبالاة الكاملة بمصير شعبه وآلامه. باختصار فإن هيمنة البعث كتنظيم سياسي أوحد وديكتاتورية صدام ساهمتا في تفاقم التصدعات والتفاوتات الاجتماعية والطبقية والفئوية داخل المجتمع العراقي. فقد لعب صدام على الانقسامات الكائنة بين مختلف المذاهب الدينية وأشعل المنافسات والخصومات بينها لكي يبقى في السلطة أطول فترة ممكنة. وأدى ذلك إلى إضعاف البلاد وجعلها نهباً لقوى الانقسام والصراعات الداخلية.

ينبغي العلم بأن العراق يحتل مكانة جيوستراتيجية (أي جغرافية- استراتيجية) في إحدى المناطق الأكثر اضطراباً وقلاقل في العالم. ففي الشمال نلاحظ أن التداخل مع تركيا يتخذ أهمية كبرى وذلك نظراً لوجود الأقلية الكردية هناك ونظراً لمطالبها في نيل الاستقلال الذاتي. لا ريب في أن أنقرة معادية للقومية الكردية لأنها ترى فيها خطراً على مصالحها الاقتصادية. كما تعتقد أنها تهدد وحدة أراضيها التي تحتوي أيضاً على أقلية كردية ضخمة. وإذا ما استقلت هذه الأخيرة فإن تركيا سوف تفقد أجزاء واسعة من أراضيها في المنطقة الشرقية. ولهذا السبب فإن استقلال كردستان العراق يخيفها لأن ذلك قد يعدي أكرادها ويدفعهم إلى المطالبة بالانفصال والاستقلال. أما على الحدود الشرقية للعراق فنجد إيران التي خاضت حرباً ضروساً ضد صدام في الثمانينات من القرن الماضي بعد أن غزاها بجيوشه. ولم تشهد المنطقة حرباً أكثر وحشية ودموية منها. والخلاف على شط العرب لا يفسر إلا جزءاً من هذا الصراع بين الدولتين. فالواقع أن الرهان الحقيقي للمنافسة بين النظامين كان هو الهيمنة على منطقة الشرق الأوسط بأسرها. وكان السؤال المطروح هو التالي : أيٌّ واحدة من هاتين الدولتين قادرة على بسط هيمنتها بشكل دائم على شعوب المنطقة؟ يضاف إلى ذلك أن وجود أغلبية شيعية في العراق لا يمكنه إلا أن يزيد من تعقيد العلاقات بين بغداد وطهران. وأما في الغرب

فإن وجود سوريا يزيد من قلق العراق لأنها واقعة في مواجهة مباشرة مع إسرائيل ومنخرطة كلياً في أزمة الشرق الأوسط المزمنة. وهذا لا يمكن إلا أن ينعكس على وضع العراق ويزيده خلخلة وعدم استقرار. وأخيراً هناك معطى أساسي لا ينبغي أن ننساه ألا وهو : الرهان البترولي. فوجود البترول بكثافة في العراق يجعله محط المطامع والمنافسات بين الدول الكبرى. ينبغي العلم بأن أرض العراق تحتوي على ١١٪ من الاحتياطي العالمي للبترول. وبالتالي فالعراق يجيء بعد المملكة العربية السعودية ويحتل المرتبة الثانية من حيث الأهمية. وهذا يعني أن العراق يشكل منذ بداية القرن العشرين مرتعاً لتصارع القوى العظمى الراغبة في تأمين مصالحها الاقتصادية على أفضل وجه.

لكل هذه الأسباب مجتمعةً فإن العراق يجد نفسه على مفترق طرق الرهانات الكبرى للشرق الأوسط. ونقصد بهذه الرهانات أو الضرورات القصوى ما يلي : نشر الديمقراطية في مجتمعات المنطقة، الدور الكبير الذي يلعبه الدين هناك، المنافسات العنيفة أحياناً بين الأنظمة السياسية، احتمالية انتشار أسلحة الدمار الشامل، مزاعم العراق بقيادة صدام في امتلاك المشروعية التاريخية للهيمنة على العالم العربي،اندلاع الصراعات بين الأعراق المختلفة أو الطوائف المختلفة داخل العراق، عدم قدرة النظام العراقي على التفاهم السلمي مع جيرانه. وكل هذه العوامل تداخلت بعضها مع بعض وشكلت خليطاً قابلاً للانفجار في أي لحظة.

ولكن تنوع الأزمنة والعوامل المختلطة المتداخلة والتي أدت إلى انفجار الأزمة لا تتوقف هنا. فالحرب العراقية الثانية تعود في جذورها إلى أحداث حصلت قبل اندلاعها الفعلي في نهاية ٢٠٠٢ وبداية ٢٠٠٣ بزمن طويل. في الواقع إنها تعود إلى عام ١٩٧٩ تاريخ سقوط الديكتاتورية التحديثية للشاه محمد رضا بهلوي ووصول الخميني إلى السلطة. منذ تلك اللحظة ابتدأت الأزمة العراقية، أو أزمة النظام العراقي التي أدت في نهاية المطاف إلى الإطاحة به. ففي شهر فبراير من نفس العام عاد آية الله الخميني من منفاه الباريسي إلى طهران. ومعلوم أنه كان قد أمضى سابقاً سنوات عديدة في العراق. وهكذا راحت تترسخ سلطة أصولية معادية لأمريكا بعنف في طهران. وقد رافقت وصوله حملة هائلة ضد "الشيطان الأكبر" ثم سرعان ما حصلت أزمة الرهائن في السفارة الأمريكية هناك. وفي ذات الوقت راحت المعارضة الأصولية تقوى في المملكة العربية السعودية وتتصاعد أهميتها. والدليل على ذلك هجوم مجموعة من الأصوليين المتزمتين على المسجد الحرام في مكة المكرمة في شهر نوفمبر من عام ١٩٧٩. وفي الشهر التالي حصل حدث خطير أيضاً الا وهو غزو القوات السوفياتية لأفغانستان. ثم تلا ذلك بفترة قصيرة صعود الطائفة الشيعية اللبنانية على المسرح السياسي حيث دخلت في حالة من الثورة والغليان. وهكذا أصبحت الحالة في المنطقة سيئة

بالنسبة للأمريكان. نقول ذلك وبخاصة أن أمريكا كانت قد انتهت للتو من حرب فيتنام. وبالتالي فلم تكن مستعدة للدخول في حرب جديدة أو نشر قواتها العسكرية في المنطقة. كانت بحاجة إلى فترة من الزمن لكي تلتقط أنفاسها وتضمد جراحها. ولهذا السبب فإن الولايات المتحدة، بعد أن استشارت السعودية وأنظمة الخليج الأخرى، قررت دعم صدام حسين عندما شنَّ هجومه على إيران في شهر سبتمبر من عام ١٩٨٠. وقد حقق في البداية بعض الانتصارات الملحوظة ولكن سرعان ما تلتها هزائم وخيبات جدية.

ينبغي العلم بأن القوتين الأعظم -أي أمريكا والاتحاد السوفياتي- كانتا ترغبان في انتصار العراق لأن هذا الانتصار يضعف النظام المتشدد في طهران. ولكنهما في ذات الوقت كانتا تخشيان من أن يؤدي ذلك إلى تقوية ديكتاتور بغداد أكثر من اللزوم. وكانت معظم دول المنطقة تشاركهما هذه الرغبة والخشية معاً. وكانت أمريكا تخشى أن تؤدي قوة العراق الزائدة عن الحد إلى تهديد أمن إسرائيل وربما وجودها. وكان الاتحاد السوفياتي يخشى بالدرجة الأولى انتصار إيران لأن ذلك قد يدفعها إلى مساعدة المقاومة الأفغانية. ولكنه في ذات الوقت ما كان يريد أن يهدد العراق سوريا أو يضعفها. وكانت سوريا تدعم إيران خوفاً من الهيمنة العراقية عليها على الرغم من أن انتصار إيران قد يهدد بوصول سلطة شيعية إلى بغداد. هكذا نلاحظ أن كل

تناقضات المنطقة تكثّفت وتمركزت في الصراع العراقي-الإيراني الذي يجسد كل تعقيدات المنطقة ومشكلتها. وعندما انتهى هذا الصراع في نهاية عام ١٩٨٨ كان كلا الطرفين قد أصبحا متعبين بل ومنهكين تماماً. ثم هبطت أسعار البترول بعد انتهاء الحرب وأدى ذلك إلى الإفلاس الاقتصادي والمالي للعراق. وشعر النظام العراقي بالإحباط بعد أن أدانته الأمم المتحدة بسبب استخدامه للأسلحة الكيماوية وبعد أن شعر بأن أحداً لم يساعده على إعادة بناء نفسه وإصلاح البنى التحتية التي دمرتها حرب طويلة ومريرة. وقد أدى الركود الاقتصادي الناتج عنها إلى إشعار العراقيين بالإهانة والذل لأنهم كانوا مقتنعين بأنهم حاربوا من أجل المحافظة على استقرار البلدان العربية كلها وليس فقط من أجل العراق.

ولهذا السبب شن صدام حسين حرب الخليج الأولى عام ١٩٩٠ على الكويت وغزاها في جنح الظلام. فهذا الغزو كان يشكل في نظره الرد المشروع على الظلم الفادح الذي لحق بالعراق. كما أراد من الغزو أن يشكل محاولة جديدة لاستنهاض العزة القومية العراقية وتجميعها حوله من خلال مغامرة عسكرية جديدة. بدءاً من هذه اللحظة بالذات شعرت الجماعة الدولية بالخطر الذي يمكن أن يشكله نظام كنظام صدام حسين. وبعد انتهاء حرب تحرير الكويت وإرسال المفتشين

الدوليين إلى العراق تمكن أعضاء التحالف من فهم حجم المشروع الهادف إلى صناعة أسلحة الدمار الشامل من قبل النظام العراقي أو تطويرها. وبعد أن درس المفتشون الدوليون الوضع على الأرض بشكل دقيق أدركوا مدى تقدم المشروع النووي العسكري العراقي. فقد كانت الأجهزة المختصة تعتقد أنه لا يزال بدائياً أو جنينيّاً فإذا بها تكتشف أنه وصل إلى مراحله النهائية تقريباً. وهذا الاكتشاف المفاجئ والمرعب كانت له أهميته الحاسمة في كيفية معالجة الجماعة الدولية للملف العراقي لاحقاً. فمن يستطيع أن يتصور، ولو للحظة واحدة، وجود القنبلة الذرية في يد شخص كصدام حسين؟ ولهذا السبب استشعرت الأمم المتحدة هذا الخطر. كما استشعرت بشكل عام خطورة انتشار أسلحة الدمار الشامل لدى دول غير مسؤولة. وأصبحت هذه القضية في صميم اهتمامات الجماعة الدولية. ومنذ الآن فصاعداً أصبح من حق أي حكومة ديمقراطية أن تعتقد أن حجم الخطر يتجاوز كل ما كانت تتخيله، وكل ما كانت تملكه من معلومات عن الموضوع. والواقع أن صناعة أسلحة الدمار الشامل من قبل بعض الأنظمة الاستبدادية يعرِّض السكان المدنيين لخطر ماحق يصعب تقدير أهميته، وبالتالي فهو يثير مخاوف مرعبة، لاعقلانية.

هكذا نجد أن الأزمة العراقية التي اندلعت عام ٢٠٠٣ تجد سببها المباشر في حرب الخليج الأولى. ففي الثاني من شهر أغسطس عام

١٩٩٠ ذهل العالم عندما عرف بأن قوات صدام حسين قد غزت الكويت. وهي إمارة صغيرة قليلة السكان ولكنها غنية بالمصادر البترولية ومفصولة عن العراق بحدود كانت قد رسمت بشكل قسري أو اعتباطي من قبل بريطانيا غدية الحرب العالمية الأولى. والواقع أن القادة العراقيين لم يعترفوا أبداً بهذه الدولة في أي يوم من الأيام. وذلك لأن الكويت تغلق أمام بلادهم أي منفذ على الخليج العربي. وقد حصلت مشاكل بهذا الخصوص عام ١٩٦١ أثناء استقلال الإمارة. فقد اضطرت بريطانيا إلى ممارسة الضغوط على الجنرال عبد الكريم قاسم مؤسس الجمهورية العراقية لكي يقلع عن فكرة غزو الإمارة. وبالتالي فلم يكن صدام حسين هو أول من فكر بذلك، وإن كان أول من نفذه.

ولكن ضربة صدام المباغتة عام ١٩٩٠ اصطدمت مباشرة بمعارضة الرئيس بوش الأب وتصميمه على إعادة الأمور إلى نصابها : أي إجلاء القوات العراقية عن الكويت بأي شكل. فالقانون الدولي يقتضي ذلك لأنه يمنع استيلاء أي دولة على دولة أخرى بالقوة. فهذا انتهاك لميثاق الأمم المتحدة. ولكن كانت هناك اعتبارات أخرى منها الحفاظ على أمن إسرائيل التي هدد العراق بقصفها إذا ما هاجمته الجماعة الدولية. ومنها أيضاً الحفاظ على استقرار دول الخليج العربي الغنية جداً بالبترول والتي أصبحت تحت رحمة صدام إذا ما قرر مواصلة

الهجوم والذهاب إلى أبعد من الكويت. ولهذا السبب استطاعت الولايات المتحدة بسرعة أن تجمع حولها تحالفاً دولياً واسعاً. فقد دعمت تسع وعشرون دولة الهجوم على قوات صدام. واستطاع الرئيس بوش الأب مع وزير خارجيته جيمس بيكر أن يقنعا مجلس الأمن الدولي بتأييد العملية العسكرية الهادفة إلى تحرير الكويت من القوات التي تحتلها عنوة. وقد أصدر مجلس الأمن بين أغسطس ونوفمبر من عام ١٩٩٠ جملة من قرارات متلاحقة ضد النظام العراقي. وكان من بينها قرار يأمره بسحب قواته ويدين الأعمال التعسفية التي يقوم بها في الكويت ويحدد لها عقوبات صارمة. ثم توجت هذه القرارات بالقرار رقم ٦٧٨ الصادر في ٢٩ نوفمبر والقاضي باستخدام القوة المسلحة ضد بغداد إذا لم تطبق منذ ذلك الوقت وحتى ١٥ يناير ١٩٩١ قرارات مجلس الأمن الدولي.

لقد حصل آنذاك شيء رائع يستحق التقدير : وهو أن الأمم المتحدة لعبت دورها كاملاً على الرغم من أن المناخ الدولي كان لا يزال مزعزعاً ومعقداً بعد سنة واحدة فقط على سقوط جدار برلين. وكان الاتحاد السوفياتي بقيادة غورباتشيف غارقاً في مشاكل داخلية. وأما الصين فقد انضمت إلى معسكر الدول التي تحترم القانون محاولة أن تسينا القمع البوليسي للطلاب في ساحة "تينامين" الشهيرة. وكانت أوروبا قد انخرطت في العملية التوحيدية التي قادتها إلى اتفاقية

ماستريخت. وبالتالي فقد كانت مواقف دولها متناغمة ومنسجمة على الرغم من وجود بعض الخلافات في الأمزجة والحساسيات. وهذا شيء طبيعي.

وفي ١٧ يناير من عام ١٩٩١ عندما ابتدأت المرحلة العسكرية من العمليات التي سُمّيت "عاصفة الصحراء" كان التحالف الدولي الذي شكلته الدبلوماسية الأمريكية حولها بكل صبر ومثابرة قد أصبح صلباً ومتيناً. وكانت القوات الإنجليزية والفرنسية تقف إلى جانب القوات الأمريكية في ساح الوغى. وكانت الإستراتيجية التي بلورها رئيس أركان الجيش الأمريكي كولين باول والمدعوة بإستراتيجية "القوة التي لا تقاوم" تبدو صحيحة. وقد برهنت على نجاحها وفعاليتها. وقد غرقت قوات صدام حسين تحت وابل لا ينقطع من القنابل وصواريخ باتريوت، ولذلك سرعان ما تفككت وهُزمت وتفرقت هاربة.

ثم لعبت الأمم المتحدة دوراً كبيراً فيما تلا من أحداث. فقد تحدثت فرنسا منذ ٢ أبريل ١٩٩١ عن "واجب التدخل الإنساني" لإنقاذ السكان المضطهدين في العراق. أو أي مكان آخر. وقد تبنّى مجلس الأمن الدولي هذا الشعار وأعلن أنه ضد قمع صدام حسين لانتفاضة الأكراد في شمال العراق. ثم أصدر بتاريخ ٣ أبريل من نفس العام القرار ٦٨٧ الذي يحدد شروط وقف إطلاق النار بشكل دائم في

منطقة الخليج. ثم رسم نطاق المنطقة التي ينبغي تنظيفها بعد فترة من الزمن من أسلحة الدمار الشامل : أي الأسلحة ذات الطبيعة الكيماوية، أو البيولوجية، أو الذرية. وفي هذه القضية أكدت الولايات المتحدة مكانتها كقوة عظمى وحيدة لأن الاتحاد السوفييتي كان في طريقه إلى الانهيار الكامل. ومنذ السادس من مارس عام ١٩٩١ أعلن الرئيس جورج بوش الأب أمام الكونغرس عن استهلال عهد "النظام الجديد" الذي ستلعب أمريكا فيه الدور الأول.

ومرة أخرى لاحظنا انقسام الدول العربية تجاه الولايات المتحدة. فبعض هذه الدول وجدت نفسها عملياً إلى جانب أمريكا، والبعض الآخر كان يدعم صدام حسين سراً. وهكذا انكسر الإجماع العربي حول الصراع مع إسرائيل. ولم يعد المنطق القديم القائل بوجود العرب كلهم في جهة، وإسرائيل وحدها في جهة أخرى قائماً. أو قل إن بعض العرب وجدوا أنفسهم دون أن يشعروا إلى جانب أمريكا مع إسرائيل ذاتها. وكسر هذا المنطق القديم والراسخ هو الذي فتح الطريق أمام إمكانية حل الصراع العربي-الإسرائيلي بطريقة سلمية : أي عن طريق المفاوضات لا الحروب. وقد زادت المشروعية الدولية من قوة أمريكا فراحت تحلم بأن تكون حامية للشرق الأوسط. وشعرت بأنها قادرة على إعادة تركيب خريطة المنطقة من أجل حل الأزمات المزمنة فيها وضمان أمن إسرائيل من جهة والمملكة العربية السعودية من جهة

أخرى. وكانت أمريكا من القوة بعد حرب الخليج وتحرير الكويت بحيث أنها أصبحت قادرة على التقريب بين قائد فلسطين وقائد إسرائيل بعد أن أصبحا ضعيفين جداً أمامها. وهكذا استطاعت أن تجمع بين ممثلي عرفات الذي دعم الغزو العراقي للكويت، وبين إسحاق شامير الذي أُجبر من قبل الأمريكان على عدم الرد على الصواريخ العراقية التي تساقطت على تل أبيب دون أن يكون له حق الرد. ونقصد بالجمع بينهما تقريب المواقف وإجلاس كل من الوفدين الفلسطيني والإسرائيلي على طاولة المفاوضات في مدريد، وليس الجمع الشخصي بين الرجلين.

ولكن التدخل الأمريكي المباشر في منطقة الخليج العربي أدى لاحقاً إلى ازدياد الأصولية الإسلامية راديكاليةً وحدّةً. وكان تأسيس "القاعدة" على يد أسامة بن لادن بمثابة الرد على الغضب الذي أثاره تدخل أمريكا لدى عدد كبير من المتزمتين الإسلاميين، ثم بشكل أخص على استقرار قواتها على أرض الجزيرة العربية التي تعتبر مقدسة بكليتها لأنها تحتوي على الحرمين الشريفين (مكة والمدينة). وهكذا حصلت أول عملية تفجير قاتلة ضد السفارة الأمريكية في نيروبي بتاريخ ٧ أغسطس عام ١٩٩٨. وكانت بمثابة الرد على دعوة الملك فهد للقوات الأمريكية لكي تدخل بلاده بتاريخ ٧ أغسطس عام ١٩٩٠ : أي قبل ثماني سنوات بالضبط. ثم تلا ذلك تفجير عدن الذي أصاب

الباخرة الأمريكية في شهر أكتوبر من عام ٢٠٠٠، وفي الوقت نفسه كان العنف قد تزايد في فلسطين بسبب بداية الانتفاضة. وأما فيما يخص العراق نفسه فإن الرئيس جورج بوش الأب أبى أن يذهب إلى بغداد لكي يسقط نظام صدام حسين بعد أن طرد قواته من الكويت. وقد فعل ذلك التزاماً منه بالتفويض الذي أوكلته له الأمم المتحدة والذي يقضي بتحرير الكويت فقط من الاحتلال العراقي. كما فعل ذلك لكي يحافظ على تماسك التحالف الدولي الذي شكله حوله والذي يضم عدداً كبيراً من الدول العربية. ولكن قرار الرئيس الأمريكي قوبل باعتراضات عديدة حتى داخل الإدارة الأمريكية ذاتها. فالكثيرون قالوا : لقد كانت الفرصة سانحة للتخلص من صدام ومشاكله دفعة واحدة. ولكن بوش الأب كان من أتباع المدرسة الواقعية في السياسة الأمريكية. وقد أراد المحافظة على مشروعية أمريكا الحائزة على رضى الأمم المتحدة بالإجماع. وأصبح العراق بدءاً من عام ١٩٩١ موضوعاً تحت سيطرة الأمم المتحدة. وصدرت بشأنه سلسلة قرارات متلاحقة عن مجلس الأمن الدولي. وكان هدفها احتواء النظام ومنع اعتدائه مرة أخرى على جيرانه.

إن سياسة الاحتواء هي إستراتيجية متبعة على المدى الطويل. والهدف منها، مبدئياً، منع ظهور أي منافس استراتيجي لأمريكا. ولذلك طُبقت على الاتحاد السوفييتي أثناء الحرب الباردة. أما في

حالة العراق فهي تهدف إلى تقليص الإمكانيات العسكرية لنظام بغداد وكذلك تقليص إمكانيته على الأذى والضرر وذلك عن طريق حرمانه من أسلحة الدمار الشامل التي يمتلكها. وهذا هو جوهر القرار الصادر عن مجلس الأمم رقم ٦٨٧. يضاف إلى ذلك أن إستراتيجية الاحتواء المطبقة على العراق كانت تهدف أيضاً أن تشمل إيران. والمقصود بذلك أن أمريكا كانت تريد أن تحد من نفوذ إيران في المنطقة وذلك عن طريق دعم القوة المنافسة لها : أي المملكة العربية السعودية. وكانت أمريكا تعتقد بأن تحييد العراق واحتواء إيران سوف يؤديان إلى استقرار المنطقة كلها.

إن هذه الخطة الإستراتيجية التي وضعتها واشنطن أدت إلى نتائج ملموسة. فاللجنة الخاصة التي تم تشكيلها بناء على قرار مجلس الأمن رقم ٦٨٧ استطاعت أن تفتش العراق وأن تعثر على قسم كبير من معامله لصناعة أسلحة الدمار الشامل وتدميرها. وهذا إنجاز لا يستهان به. وأما الوكالة الدولية للطاقة الذرية فقد قدمت تقريراً عن العراق عام ١٩٩٨ وقالت ما معناه : الملف الذري العراقي أصبح مغلقاً الآن ولم يعد يحتاج إلا إلى مجرد مراقبة على المدى الطويل. أما فيما يخص المرحلة الراهنة للأمور فهو في حكم المنتهي. وأما التقارير التي قدمتها مختلف لجان الأمم المتحدة المختصة بتقييم الوضع فذكرت أن نزع أسلحة العراق قد أُنجز في قسمه الأساسي. ولكن بقيت هناك

مسائل غامضة فيما يخص صناعة الأسلحة الكيماوية والبيولوجية. وهكذا قام مفتشو الأمم المتحدة بعمل ضخم في العراق وحققوا إنجازات لا يستهان بها.

ولكن العراق رفض الخضوع لبعض القرارات أو تنفيذ بعض الالتزامات المطلوبة منه من قبل الشرعية الدولية. فقد منع مفتشي الأمم المتحدة من الوصول إلى بعض المواقع الحساسة. ورفض أن تفتشها اللجنة الخاصة بنزع الأسلحة والتي شكلت بناء على القرار ٦٨٧ الصادر عن مجلس الأمن. كما رفض النظام العراقي عودة مفتشي الأمم المتحدة إلى البلاد مرة أخرى عام ١٩٩٨. واتخذ موقفاً سلبياً من مطالب الأمم المتحدة. وهذا الموقف هو الذي قاد الإدارة الأمريكية إلى تشديد لهجتها حيال العراق بدءاً من ١٩٩٨ وبلورة مفهوم الاحتواء بشكل رسمي : أي بشكل يهدد باستخدام القوة ضد النظام العراقي إذا لزم الأمر. وهكذا حصلت أزمة عام ١٩٩٨ وتم قصف بغداد من قبل الأمريكان. وكانت النتيجة أن العراق تراجع وغير موقفه وقبل بدخول المفتشين إلى أراضيه بل قبل حتى بتفتيش القصور الرئاسية. ولكن الأزمة أوشكت عندئذ على التحول إلى نزاع كبير مفتوح على مصراعيه.

وهذا التأزم الناتج عن سوء نية حكّام بغداد زاد من هوس بعض أعضاء الإدارة الأمريكية بالمشكلة العراقية وحقدهم على صدام

حسين. وهؤلاء كانوا قلقين من انتشار أسلحة الدمار الشامل بعد نهاية الحرب الباردة في بلدان كإيران، وكوريا الشمالية. واخترعوا عندئذ مصطلحاً جديداً هو "التهديد المُبطَّن أو المنتشر بشكل سري وضمني" لأسلحة الدمار الشامل على أمن العالم. وطبقوه على العراق باعتبار أن أحداً لا يستطيع القول بأن كل مواقعه قد كشفت من قبل المراقبين أو فتشت. وهكذا زادت أهمية هذا البلد وخطورته في نظر الإدارة الأمريكية على الرغم من أنه خرج محطماً غداة حرب الخليج أو تحرير الكويت. واعتبروا أنه لا يزال يشكل تهديداً ضمنياً لأمنهم وأمن الآخرين.

ينبغي القول بأن تغير سلّم الأولويات في السياسة الخارجية الأمريكية يعود إلى النفوذ المتزايد للمحافظين الجدد عليها. وهؤلاء وصلوا إلى السلطة في الولايات المتحدة بعد انتخاب جورج دبليو بوش في يناير ٢٠٠١. والواقع أنهم كانوا مهتمين بالملف العراقي منذ زمن طويل. وكانوا قد بلوروا العديد من البحوث والأطروحات حوله. وقالوا إن سياسة الاحتواء المطبقة على العراق من قبل إدارة كلينتون لم تعط مفعولها. وكانوا منزعجين جداً من طريقة معالجة بوش الأب وكلينتون لها. فإيقاف العمليات العسكرية بعد تحرير الكويت مباشرة بعد ان كانت القوات الأمريكية على أبواب بغداد أزعجهم جداً أيضاً ولم

يجدوا له أي مبرر بعد كل ما حصل. وعدم فعالية لجان التفتيش التابعة للأمم المتحدة بحسب رأيهم كان شيئاً مزعجاً أيضاً في الحالة العراقية، وكذلك صعوبة تطبيق قرارات الأمم المتحدة على نظام كنظام صدام. يضاف إلى ذلك الاستفزازات المتكررة للقادة العراقيين لأمريكا والأمم المتحدة. كل ذلك أصبح مزعجاً جداً ولا يكاد يطاق بالنسبة للمحافظين الجدد أو لصقور واشنطن الذين يعيبون على بوش الأب وكلينتون ضعفهما تجاه النظام العراقي إن لم يكن ميوعتهما. وبما أن الجماعة الدولية وأمريكا أيضاً أعطتا مكانة مركزية للأمم المتحدة في معالجة المشكلة العراقية فإن المحافظين الجدد استنتجوا فشل السياسة المتعددة الأقطاب بوجه عام وسياسة الأمم المتحدة بوجه خاص وراح المحافظون الجدد يطرحون السؤال التالي : كيف يمكن أن نعطي الثقة للمنظمات الدولية من أجل ضمان أمن الولايات المتحدة في حين أن هذه المنظمات يسيطر عليها أعداء أمريكا؟ كيف يمكن أن نثق بمجلس الأمن في حين أنه كشف خلال مرات عديدة عن عجزه عن تطبيق قراراته على العراق؟ كل هذه العوامل راحت تدفع منظّري المحافظين الجدد إلى تعديل العقيدة الإستراتيجية والدبلوماسية للولايات المتحدة وإلى اتباع سياسة أخرى مختلفة جذرياً. وأول شيء فكروا فيه هو تضييق الخناق على نظام صدام حسين.

ومن أجل ذلك راحوا يهاجمون العراق ليس فقط لأنه لا يتقيد بالتزاماته تجاه الأمم المتحدة والجماعة الدولية بأسرها، وإنما لأن تصرفاته، واستفزازاته، وعلاقاته المفترضة مع الإرهاب، كل ذلك يجعل منه بلداً خطراً. وبالتالي فهو يشكل تهديداً لأمن الولايات المتحدة بحسب وجهة نظرهم. ولذا فلا ينبغي على السلطات الأمريكية أن تكتفي بتحجيم قوته، وإنما ينبغي عليها أن تسقط نظامه بكل بساطة. هذه هي تنظيرات المحافظين الجدد في تلك الفترة. وهذا ما كتبه حرفياً وُلفوفيتز وظالمي خليل زادة بشكل صريح ومباشر في مقالة صدرت في الأول من ديسمبر عام ١٩٩٧. وفيها يقولان : لقد آن الأوان لبلورة "إستراتيجية جديدة تجعل من إسقاط صدام حسين هدفاً عاماً لنا ". بل تجعل من ذلك درساً وعظة للآخرين.

وفي بداية عام ١٩٩٨ كتب فريق من الباحثين رسالة إلى الرئيس بيل كلينتون يطلبون منه فيها أن يجعل من رحيل صدام حسين إحدى أولويات السياسة الخارجية الأمريكية. وألحوا على المبادئ الأخلاقية التي تبرر هذا العمل النبيل. كما قالوا إن هذا الإجراء يلبي الحاجيات الأمنية للولايات المتحدة الأمريكية. ولكن دون أن يتراجع كلينتون عن سياسة الاحتواء فإنه جعلها أشد قسوة وطلب من وزيرة الخارجية مادلين أولبرايت أن تصرح بأن قلب النظام العراقي خيار غير مستبعد. ولكنها في الواقع العملي لم تغير سياستها وإنما ظلت

محافظة على نفس الإستراتيجية التي تكمن ميزتها الأولى في احتواء الخطر العراقي دون أن تفتح جبهات دبلوماسية أو عسكرية جديدة. وقد أعطت السيدة أولبرايت الأولوية لتشجيع انطلاقة عملية السلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين. أما حل المشكلة العراقية فكانت تبدو ثانوية بالقياس إلى هذا الهدف الكبير. صحيح أن العراق يمثل شوكة في قدم الجماعة الدولية ولكنه لا يشكل تحدياً ضخماً قادراً على تهديد التوازنات العالمية الكبرى. وكانت الوزيرة تفكر على النحو التالي : النظام العراقي معزول، ومقدرته على الشر أو الأذى محدودة. وبالتالي فلماذا الاهتمام به أكثر مما يجب أو إعطاؤه أكثر من حجمه؟ يضاف إلى ذلك أن مشاريعه الخاصة بصناعة أسلحة الدمار الشامل ملجومة باستمرار وبشدة من قبل الحصار المضروب عليه. وبالتالي فالأولوية العاجلة هي لفتح المفاوضات حول أزمة الشرق الأوسط المزمنة، أي الصراع العربي -الإسرائيلي، حيث توجد مخاطر فعلية في الاشتعال ومخاطر تهدد السلام العالمي. ولهذا السبب جرت آخر محاولة للرئيس كلينتون قبل أن يترك البيت الأبيض لحل المشكلة. فكان اجتماع كامب دافيد الشهير مع باراك وعرفات الذي انتهى إلى الفشل الذريع. ولكنه خلّف وراءه أنضج خطة لحل الصراع بين الطرفين، وهي "خطة كلينتون" ومعلوم أنها لا تزال تشكل حتى اليوم قاعدة صلبة لأي حل شامل ومعقول للأزمة الفلسطينية-الإسرائيلية.

ثم جاء انتخاب الرئيس جورج دبليو بوش لكي يقلب المعطيات والأولويات. ففي عهده لم يعد المحافظون الجدد مجرد باحثين نظريين يشتغلون في مراكز البحوث، وإنما أصبحوا في مركز السلطة والقرار والنفوذ. وبالتالي فقد أصبحوا قادرين على تطبيق أفكارهم ونظرياتهم التي استخفّت بها إدارة كلينتون والتي كانوا يدافعون عنها منذ سنوات طويلة. ومنذ البداية قالوا بأن تحدي العراق للجماعة الدولية وللولايات المتحدة بشكل خاص لن يبقى دون عقاب. وهكذا عاد الملف العراقي إلى الصدارة من جديد وأخذ يتكرر بإلحاح في خطابات الرئيس وكبار المسؤولين الأمريكان الآخرين.

والواقع أن فشل مفاوضات كامب دافيد لتحقيق السلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين تحت ظل بيل كلينتون غيّر المعطيات بالنسبة للإدارة الأمريكية الجديدة. وراحت تفكر على النحو التالي وتتساءل : بما أن جبهة الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي مسدودة ولا مجال لتحقيق أي خرق فيها، أليس من الأفضل أن نفكر في عكس نظام الأولويات المستعجلة والمعطيات؟ أليس من الأفضل أن نبتدئ بحل مشكلة العراق وبعدئذ ننتقل إلى مشكلة فلسطين حيث يكون حلها قد أصبح أكثر سهولة بالنسبة لنا؟ ألا يمر طريق السلام بالنسبة للشرق الأوسط من خلال بغداد أولاً؟ هذا هو الرهان الكبير لكل الإستراتيجية الجديدة. وبالنسبة للكثيرين من المسؤولين الأمريكان

فإن ذلك كان يشكل بديهية لا تستحق حتى النقاش. فإذا ما نجحت الولايات المتحدة في استعراض عضلاتها في العراق فإنها سوف تحقق الخطوة الأولى نحو إعادة تركيبة خريطة المنطقة بشكل كامل. وهذا ما يسهّل على أمريكا حل مشكلة الشرق الأوسط بفعالية. فالتدخل الأمريكي إذا حصل في العراق سوف يبرهن لجيرانه على مدى تصميم أمريكا، وبالتالي فسوف يقنع جميع الأطراف بالانضمام إلى طاولة المفاوضات من أجل حل المشكلة من جذورها تحت إشراف القوة العظمى الوحيدة في العالم.

ثم جاءت ضربة ١١ سبتمبر لكي تقدم لهذه الإستراتيجية مبررها الأكبر ومشروعيتها. فقد أصبحت النفوس مشتعلة في أمريكا من أجل الانتقام من أعدائها الذين يتحدونها والذين تجرأوا على ضربها في عقر دارها بمثل هذا الشكل المذهل. لا ريب في أن الدول الأوروبية التي تعاطفت مع الشعب الأمريكي ودعمته دون أي تحفظ في هذه المناسبة الأليمة لم تدرك حجم الجرح الذي أصاب النفسية الأمريكية. ولم تقدر حجم المتغيرات التي طرأت على العقلية الأمريكية حق قدرها. فأمريكا اكتشفت بهذه المناسبة هشاشتها أو نقطة ضعفها. وهذا الاكتشاف زلزل الروح الأمريكية بشكل لم يفهمه الأوروبيون حق الفهم. لقد اكتشف المواطنون الأمريكان فجأة ودون سابق إنذار أن أرضهم التي كانت ملاذاً للسلام والمتعة والازدهار يمكن أن تصبح

هدفاً للجماعات الإرهابية مثل غيرها. هذا الشيء ما كان الأمريكان يعرفونه على عكس الأوروبيين الذين تعرضت بلادهم للغزوات والضربات الإرهابية مرات عديدة. ينبغي العلم بأن الأرض الأمريكية لم تطأها قدم جيش أجنبي منذ عام ١٨١٤ حيث هجمت القوات الإنجليزية على مركز السلطة في واشنطن وعلى البيت الأبيض بالذات وحرقتهما. ومنذ ذلك الوقت لم تتعرض أمريكا لأي غزو أو عدوان. ونتجت عن ذلك حساسية خاصة لدى الشعب الأمريكي. وهي حساسية تتمثل في الاعتقاد بأن الأرض الأمريكية هي عبارة عن قلعة محصنة أو حرم مقدس لا يمكن انتهاكه من قبل أي قوة على وجه الأرض. وما عدا الحرب الذرية الشاملة التي كان الأمريكان يخشونها أثناء الحرب الباردة مع الاتحاد السوفييتي، فإن أي هجوم على الأرض الأمريكية كان يعتبر بمثابة المستحيل حتى ضربة ١١ سبتمبر المفاجئة والصاعقة.

وبالتالي فإن الشعب الأمريكي رأى في هذه الضربة تحدياً سافراً للعظمة الأمريكية. ولم يستطع أن يقبل بهشاشة الولايات المتحدة أو بأنها تعاني من نقطة ضعف وأنه يمكن أن يحصل عليها عدوان مثلما يحصل على غيرها. فهذا يشكل تطاولاً على الكبرياء الأمريكية. وهذه الاحتمالية يصعب على شعب أكبر قوة في العالم أن يتحملها أو أن يقبل بها. من هنا شراسة الرد الأمريكي على الضربة سواء في

أفغانستان أم في العراق. إذا لم نأخذ هذه النقطة السيكولوجية بعين الاعتبار، فإننا لن نفهم السياسة الأمريكية بعد ١١ سبتمبر : أي سبب التغيير الراديكالي الذي طرأ عليها. وبالتالي فإن اتخاذ القرار بالرد الصاعق لم يتأخر كثيراً. فبعد شهر واحد فقط من ضربة ١١ سبتمبر ابتدأت العمليات العسكرية في أفغانستان تحت اسم **الحرية الدائمة**. وكانت مدعومة من قبل الجماعة الدولية إلى حد كبير. وقد أدت إلى قلب نظام الطالبان بسرعة ووضع نظام انتقالي محله تحت إدارة الرئيس حامد كرزاي. ولم تكن أفغانستان تمثل إلا خطوة أولى في الإستراتيجية الأمريكية. فقد كان واضحاً بالنسبة لمعظم أعضاء الإدارة في واشنطن أن العراق يشكل الهدف الثاني والأساسي. ولكن بما أن الهجوم على العراق كان يتطلب إرسال قوات ضخمة أكبر بكثير مما هو عليه الحال في أفغانستان فإنه كان يلزمه بعض الوقت. وبما أن الشعب الأمريكي كان متعطشاً للانتقام فإنه ما كان يستطيع أن ينتظر وقتاً أطول لضرب أعدائه. ولذلك ابتدأت العمليات بأفغانستان. يضاف إلى ذلك أن ضرب العراق ما كان ليشفي غليل الشعب الأمريكي لأنهم لم يستطيعوا أن يجدوا أي علاقة حقيقية بين القاعدة ونظام صدام حسين. وبالتالي فالهجوم على العراق كان يتطلب بعض الوقت لكي تنضج الظروف وتصبح مؤاتية للشروع فيه.

ساعة الخيار

إن تسارع الأحداث بدءاً من خريف ٢٠٠٢ وكذلك تمركز أنظار الرأي العام العالمي على هذه الأزمة أظهرا وجود تناقض واضح بين موقف أوروبا وموقف أمريكا من الأزمة العراقية. فأوروبا بعد أن خاضت حربين عالميتين وعرفت أهوالهما ومآسيهما أصبحت تضع ثقتها في قواعد القانون ومشروعية المنظمات الدولية التي كانت قد أُنشئت في الماضي بمبادرة أمريكية كعصبة الأمم والأمم المتحدة ولم تعد راغبة في المزيد من الحروب وسفك الدماء. أما أمريكا فلم تعد تثق إلا بقوتها العسكرية لنيل حقوقها أو للرد على أعدائها. وهكذا حصل انقلاب في المواقف، انقلاب لم يشهد له التاريخ المعاصر مثيلاً. فالدول الأوروبية كانت طيلة قرون الاستعمار لا تؤمن إلا باستخدام القوة والضرب وإخضاع الآخرين. ولكنها تراجعت الآن عن هذه العقلية الحربية القائمة على استخدام القوة بالدرجة الأولى. وأصبحت ترغب في تحقيق التوازن عن طريق القانون. لقد تخلّت عن قانون السلاح وتبنّت سلاح القانون. أما أمريكا فقد فعلت العكس. فقد كانت في السابق لا تحلف إلا باسم القانون الدولي أيام الرئيس ويلسون وأما الآن فأصبحت تدير ظهرها وتتبنّى منطق القوة التكنولوجية والعسكرية التي لا تنتظر إلا ساحات الوغى لكي تعبر عن نفسها وتستعرض كل عضلاتها فيها.

وفي أثناء ذلك جاءت ضربة ١١ سبتمبر لكي تحدث انقلاباً في العقيدة الإستراتيجية الأمريكية كما قلنا. وأصبحت الضربات الوقائية تشكل العمود الفقري لهذه العقيدة الإستراتيجية الجديدة. فما دام تحالف التطرف الأصولي مع التكنولوجيا الحديثة يشكل خطراً أعمى على الولايات المتحدة، فإنه من حقها أن تستبق ذلك بضربات وقائية تشلُّ العدو قبل أن يضرب ضربته. فالولايات المتحدة لا تريد أن تتكرر معها تجربة ١١ سبتمبر مرة أخرى أو أن تؤخذ على حين غرة. ولذلك فهي مستعدة لأن تفعل كل شيء من أجل تحاشي ذلك. فالتفجيرات التي حصلت في نيويورك وواشنطن أثبتت أن العدو موجود في كل مكان ولكنه غير مرئيّ، وأنه مستعد لأن ينبثق بشكل مفاجئ وفي اللحظة غير المتوقعة لكي يضرب ضربته ثم يختفي. وضمن هذه الظروف فإن مفهوم العمل الوقائي يجدد مفهوم حق الدفاع عن النفس عن طريق عكسه أو قلبه. فلم يعد الأمر يتعلق بالنسبة لأمريكا في الدفاع عن أراضيها ضد تهديد خارجي معين، وإنما أصبح يتعلق باستئصال مصدر الخطر المحتمل الموجود في الخارج. وبالتالي فإن عقيدة الحرب الوقائية أو الاستباقية تراهن على التدمير الخلاق كما يقول جوزيف أ. شيومبيتر١٠٥ فيما يخص التنمية الاقتصادية. إنها تراهن على مزايا قلب النظام القائم باستمرار أو وضعه على المحك باستمرار وتفضل إحداث الفوضى في العالم على الاحتمالية غير المؤكدة لهجوم مباغت قد تتعرض له من الخارج.

ولكن تجديد العقيدة الإستراتيجية الأمريكية لا ينحصر فقط في بلورة مفهوم الضربات الاستباقية وتنفيذها. وإنما أصبحت تعتمد على ثلاث ركائز أساسية. تتمثل الركيزة الأولى في بلورة سياسة جديدة للدفاع الأمريكي. وهي سياسة تؤدي به إلى إعادة تركيب وترتيب القوات المسلحة وبلورة هيكلية إستراتيجية لا يعود فيها السلاح الذري يشكل إلا أحد العناصر بالإضافة إلى عناصر أخرى كالدفاعات المضادة للصواريخ وكتدعيم القدرات العسكرية التقليدية.

أما الركيزة الثانية للعقيدة الإستراتيجية الأمريكية الجديدة فتتمثل في إعطاء الأولوية لميزانية الدفاع داخل الميزانية العامة الفيدرالية. ولهذا السبب ازدادت ميزانية البنتاغون بشكل ملحوظ في عهد بوش الإبن، وكان ذلك تعبيراً عن هذا الخيار السياسي الذي اتخذ بعد ١١ سبتمبر ونتيجة له. ولم يعد الأمريكان يفكرون بإغلاق القواعد العسكرية الأمريكية في الخارج كما فعلوا في بداية رئاسة بوش. لم يعودوا يفكرون في تأسيس وحدات عسكرية أكثر خفّة وإحلالها محلها، وحدات يسهل نشرها في الخارج على مسافات طويلة، كل هذا أُلغي بعد ضربة ١١ سبتمبر ولم يعد واردا على الإطلاق. على العكس لقد نال البنتاغون موافقة الحكومة على أن يحتفظ بجهازه التقليدي وأن يكمله عن طريق الاستثمارات التكنولوجية المتقدمة التي لا سابق

لهـا : أي عن طريق صنـاعـة أسلحـة جـديدة قـادرة على إعـادة رسم ساحة الحرب بشكل جديد كليـاً وإدارة الحروب بطريقة معقدة وفعالة جداً. وراحت القيـادة الأمريكية ترسخ اقتصاد الحرب لكي يدعم هذا الجهد العسكري الهائل. وبالتالـي فهذا الرهان الجديد يذكّرنا بمبادرة الدفاع الإستـراتيجي التي أطلقـهـا رونالد ريغان في زمـانه والتي أدت إلى سقوط الاتحاد السوفييتي في نهاية المطاف. فقد زاد ريغـان كثيراً من ميزانيـة الدفاع والبحث العلمي والتكنولوجي إلى حد أجبر الاتحاد السوفييتـي على الدخول في منـافسـة أكبـر من إمكانيـاته فكان أن أدت إلى مـقـتله. فـالاقـتـصـاد السـوفـيـيتـي مـا كـان قـادراً على تحـمل هذه المصـاريف العسكرية التي تتطلبـهـا المنافسـة مع أمـريكا على حـرب النجوم وعـلاوة على ذلك فإن هذه المبادرة التي اتخـذها ريغان أدت إلى تحـقـيق تقـدم حـاسم في مـجـال الـتكنولوجـيـا، وبخـاصـة تكنولوجـيـا الاتصالات والمعلوماتية.

أمـا الركيـزة الثالثـة فتتمثل في تحديد الدول المستهدفة بالغضب الأمريكي والمعتبرة بمثابة "محور الشـر" على غرار "إمبـراطورية الشـر" لريغان والتي كان قد طبقهـا على الاتحاد السوفييتي. أما جورج دبليو بوش فـيطبق مـصـطلحـه على دول أخـرى كـإيران، وكـوريا الشـمـاليـة، والعراق. فهي تشكل في رأيه الـعمود الفقري لهذا المحـور ، فهذه الدول

تشكل في نظر الإدارة الأمريكية تهديدات غير مقبولة بسبب تصرفاتها اللامسؤولة ومقدرتها على إيقاع الشر والأذى. وبالتالي ينبغي على أمريكا أن تتخذ سياسة التشدد تجاهها وتتخلى عن سياسة الواقعية المهادنة التي كانت متبعة سابقاً. وهكذا أراد الرئيس جورج دبليو بوش وفريقه أن يقطع الصلة مع سياسة سلفه بيل كلينتون المتهم بالضعف تجاه "الدول المارقة" بل أن يكفّ عن مراعاتها أكثر من اللزوم. كما أراد أن يعثر على بعض نقاط الارتكاز في عالم يسوده إرهاب ضمني متفَشٍّ وذلك عن طريق تحديد بعض الأعداء المحددين بدقة والمدعوين بأسمائهم.

وهذا التحليل العام للوضع العالمي بعد ١١ سبتمبر ترافقه رؤيا جيوستراتيجية (أي جغرافية-إستراتيجية) متمركزة حول الشرق الأوسط. وهكذا تزحزح مركز الثقل الخاص بالأزمات باتجاه الشرق قليلاً بعد أن كان في أوروبا. فبعد انهيار الكتلة الشيوعية لم تعد أوروبا هي الرهان الجيوستراتيجي الأساسي لأمريكا، لم تعد هي مسرح الأزمات أو بؤرتها. بدءاً من الآن فصاعداً أصبحت المنطقة الحساسة تمتد من البوسفور إلى كشمير وحتى بحر الصين. وهي المنطقة التي ترسم "قوس الأزمات" الحقيقي بالنسبة لأمريكا والغرب كله. وبما أن العراق يقع في مركز هذا القوس فإنه يتخذ مرتبة

الأولوية بالقياس إلى كوريا الشمالية على الرغم من أن برامجه لصناعة أسلحة الدمار الشامل أقل تقدماً من برامج كوريا. وبعد أن انخرطت أمريكا في الشرق الأقصى ماضياً فإنها تبدو الآن راغبة في إعادة تركيب خريطة العالم العربي بدءاً من المغرب الكبير وحتى الشرق الأوسط. فهذه المنطقة تشبه برميل بارود قابل للانفجار في أي لحظة. يضاف إلى ذلك أن احتياطها البترولي الضخم يجعلها مهمة جداً بالنسبة لمصالح الغرب.

والسمة البارزة للعقيدة الإستراتيجية الأمريكية الجديدة هي التركيز على الآلة العسكرية وأهمية الدور الذي يمكن أن تلعبه في حل الأزمات. هذا في الوقت الذي تعلن فيه القيادة الأمريكية عن عدم ثقتها بالتعاون مع الآخرين وبالقانون الدولي. فمفكرو المحافظين الجدد يعتبرون ذلك أداة يستخدمها الضعفاء ضد القوي. فالضعيف هو وحده الذي يلجأ إلى الأمم المتحدة والقانون الدولي لنيل حقوقه. وهو وحده الذي يلجأ إليهما من أجل عرقلة سياسة الولايات المتحدة وأهدافها. وحسب رأيهم فإن المنظمات الدولية تُستخدم أساساً لمنع أمريكا من التحرك لحل الأزمات في الوقت الذي تمتلك فيه وحدها إمكانيات هذا التحرك. وهكذا نجد أنفسنا من جديد أمام تصورين تقليديين متضادين عن العلاقات الدولية : تصور الفيلسوف الإنجليزي

توماس هوبز[١٠٦] الذي يفضل استخدام القوة، وتصور الفيلسوف الألماني كانط[١٠٧] الذي يعطي الأولوية للاحتكام إلى القانون والحل السلمي.

ينبغي العلم بأن القانون الدولي كان يقضي لفترة طويلة بحصول اتفاق بين إدارات الدول المستقلة من أجل حل الأزمات والمشاكل التي قد تنشب هنا أو هناك. والشيء الأساسي الجديد الذي جاء به نظام الأمم المتحدة عندما تشكلت هو أن تحل محله في بعض الحالات قاعدة الأغلبية في مجلس الأمن ولكن مع إعطاء حق الفيتو للدول العظمى المنتصرة بعد الحرب العالمية الثانية. ثم جاءت الولايات المتحدة مؤخراً لكي تواجه هذه المشروعية الدولية التي أصبحت تقليديةً بمشروعية أخرى مستمدة من المعجم العسكري الدولي : مشروعية التحالف. وهذا المصطلح كان قد ظهر لأول مرة أثناء حرب الخليج عندما شكلت أمريكا تحالفاً دولياً كبيراً حولها من أجل تحرير الكويت ولكن هذا التحالف اعتمد آنذاك على مجلس الأمن الدولي وتجسدت إرادته في القرارات الصادرة عنه. وأما في الأزمة العراقية الجديدة فإن التحالف تجسد في مؤتمر القمة الذي عقد في جزر "الآسور" في البرتغال وضم الولايات المتحدة، وإنجلترا، وإسبانيا، والبرتغال فقط. وعندئذ تحرر التحالف من قواعد القانون الدولي وتغلّب على مجلس الأمن أو أهمله وحل محله.

ومهما يكن حكم التاريخ على هذا التصرف فإن خيارات الإدارة الأمريكية تشكل رؤية متماسكة وعقيدة إستراتيجية واضحة. وهذه الرؤية وتلك العقيدة ترتكزان على القاعدة البسيطة التالية : وهي أنه يحق للولايات المتحدة أن تمارس هيمنتها العالمية لأنها تمتلك إمكانيات ذلك. ومن مصلحة الكون كله ومصلحتها هي بالطبع أن تحافظ على هذه الهيمنة. وبما أنها تجسد الديمقراطية فإن على أمريكا في نظر الرئيس جورج دبليو بوش ومستشاريه أن تمارس هيمنتها وجبروتها دون أي عُقد نقص ودون أن تتردد في حذف كل من يعترض طريقها أو يهدد السلام الأمريكي والرفاهية الاقتصادية الناتجة عنه، فنحن بعد سقوط الاتحاد السوفياتي دخلنا في عصر الهيمنة الأمريكية شبه المطلقة.

باختصار فإن هذه الإمبريالية التبشيرية أو الخَلاصية تستخدم المصادر الكلاسيّة للقوة وتضعها في خدمة تصور مانوي عن العالم، أي الصراع بين الخير والشر. فضربة ١١ سبتمبر دفعت بالولايات المتحدة للعودة إلى تصور قديم عن علاقات القوة وتنظيم العالم. وأصبحت الدول بالنسبة لهم تحدد موقعها عن طريق الانضمام إلى هذا المعسكر أو ذاك، أي عن طريق تبني مفاهيم وقيم متضادة. فالدول الأخرى إما أن تكون مع أمريكا، وإما ضدها.

ولكن العولمة تمنع تعبئة الشعوب الأخرى على أساس قناعات غير مشتركة بين الجميع. واليوم لم يعد ممكناً إجبار الدول الأخرى على الخضوع لإرادة معينة حتى لو كانت إرادة أعظم قوة في العالم عن طريق التهديد أو الوعيد. وإنما أصبح كل شيء يعتمد على القناعة أو الإقناع أو التأثير على الآخرين عن طريق شبكات النفوذ. وقد كانت الولايات المتحدة هي السباقة إلى هذا المنطق، منطق الإقناع عن طريق الحوار السلمي والحضاري. وبالتالي فاستخدامها للغة القوة العسكرية يبين أنها تخلت عن تراثها السابق. ويحق لنا أن نطرح بعض التساؤلات حول صحة هذا الخيار على المدى البعيد. لا ريب في أن القوة العسكرية ضرورية للدفاع عن قيمنا المشتركة وفرض احترام القانون على جميع الدول والشعوب. وأمريكا محقة إذ تفعل ذلك. ولا ينبغي على الدول الديمقراطية أن تتراجع في استخدام القوة بشكل منتظم ومستمر بحجة أنها ديمقراطية. فهذا يُضفي عليها مظهر ضعف أمام الآخرين. ولكن إعطاء الأولوية المطلقة للآلة العسكرية كما تفعل إدارة بوش حالياً قد يؤدي إلى الفوضى وزعزعة استقرار العالم. وهذا الموقف لا يقدم إلا حلولاً على المدى القصير لمشاكل معقدة تتطلب التزاماً طويل النفس واقتناع الأطراف المعنية بشكل عميق. وبالتالي فإن فعالية الحل الذي تقترحه العقيدة الأمريكية لمشكلة الشرق الأوسط وإحلال السلام بشكل دائم ليست مؤكدة أو قل إنها لا تزال تنتظر البرهان عليها وعلى صحتها.

في أثناء الأزمة العراقية كانت فرنسا قد ناضلت من أجل بعض القيم. فقد كنا واعين لخطورة الأمر وأهمية الرهان. كنا نعلم أن الرهان الكبير للعملية ليس أقل من التنظيم المقبل للعالم في القرن الواحد والعشرين. وقد دافعنا عن المبادئ التي اعتقدنا بضرورة أن يتشكل النظام العالمي على أساسها.

كانت مسألة المشروعية قد طرحت نفسها أولاً علينا. وكنا، نحن الفرنسيين، نعتقد بأن العمل الوحيد المشروع فيما يخص العراق هو ذلك الذي تقوم به الجماعة الدولية أو يحظى برضاها وموافقتها. فالمشروعية هي التي تعطي القوة مبرراتها وإمكانياتها على التحرك وتغيير الأمور. والمشروعية تحصل عن طريق ارتكازها على القانون الدولي والاستشارة الجماعية. وتترسخ عن طريق نيل موافقة أغلبية الدول عليها. ونلاحظ أن هذه الأغلبية تؤدي في كل المجالات إلى توحيد الإرادات داخل إرادة جماعية واحدة. وهذه هي أفضل ضمانة للقيام بعمل فعال في العراق أو غير العراق. نضرب على ذلك مثلاً مسألة الإرهاب. فإذا كان نضالنا مشروعاً في مكافحته ومعتمداً على قرارات مجلس الأمن الدولي، وإذا كنا نسجل نتائج إيجابية في هذا المضمار، فإن ذلك عائد إلى أننا وحّدنا قوانا وإرادتنا كلها. كما أنه عائد إلى أننا شكلنا تعاوناً دولياً وثيقاً بين أجهزة البوليس المختلفة وكذلك أجهزة العدالة والاستخبارات. وهو عائد أخيراً إلى أننا

نتشاطر نفس الهدف المتمثل في استئصاله من جذوره. صحيح أن تشكيل المشروعية الدولية أو الإجماع الدولي يتطلب وقتاً طويلاً وجهداً. كما يتطلب التقريب بين وجهات النظر المختلفة والأخذ بعين الاعتبار لمصالح كل طرف وهو عمل متعب وليس سهلاً. ولكن الوقت الذي نكرسه للحوار حتى ولو طال يجنّبنا لاحقاً الاعتراضات والاحتجاجات والعرقلات التي قد تجيء من هذه الجماعة أو تلك. والعناية التي نوليها لبناء المشروعية الدولية يسهّل علينا عملية اتخاذ القرارات الخطيرة وتحديد الهدف النهائي وحسم المشاكل التي قد تطرأ لاحقاً في أي لحظة.

وكان هناك مبدأ ثان وافقت عليه فرنسا ألا وهو : العدل والإنصاف. فبدونه لا يمكن أن نتوصل إلى نتيجة إيجابية دائمة. وما ينطبق على بلد ما ينبغي أن ينطبق على الجميع. فمثلاً فيما يخص صناعة أسلحة الدمار الشامل ينبغي أن تطبَّق نفس القواعد الدولية على الجميع وفي كل مكان، وخيار العقل والموضوعية هو الذي يحمينا من الاستسلام لعواطفنا الذاتية وأهوائنا. وهكذا لا يبقى أحد قادراً على القول بأننا نكيل بمكيالين عندما نحكم في الصراعات الدولية. ولا يبقى أحد يحقد علينا أو يشعر بالمرارة تجاهنا وبخاصة في هذه المنطقة الحساسة من العالم : منطقة الشرق الأوسط.

قد يعترض أحدهم قائلاً بأننا لا نستطيع أن نعالج كل المشاكل دفعة واحدة، وأنه ينبغي تحديد الأولويات بحسب استعجالها وتقييم الممكن وغير الممكن في فترة ما. وهذا صحيح. ولكن في عالم محكوم بالترابط بعضه مع بعض وبالتعقيد فإنه من الضروري أن نحتفظ في أذهاننا برؤية شاملة ومتوازنة عن التحديات التي تفرض نفسها علينا. فلا يمكن لشعب أن يقبل بمعاملتنا الظالمة له طيلة سنوات وسنوات دون أن يحرك ساكناً. لا يمكن أن يقبل بأن نعامل خصمه بشكل أفضل منه دون أن يشكو أو يتذمر. يضاف إلى ذلك أن الحل العادل هو الحل الفعال. وبالتالي فإذا لم نتبع مقاربة عامة أو شمولية للأزمات، وإذا ما ركّزنا الاهتمام على إحداها وأهملنا الأخرى، فإننا سنجد أن كل ما بنيناه قد ذهب مع الريح ولن يصمد طويلاً.

بهذا المعنى أقول إن الأزمة العراقية كانت سانحة ولكننا ضيعناها بأيدينا، بسوء تصرفنا. لقد كانت فرصة ملائمة يمكن أن تنتهزها الجماعة الدولية لكي تبلور منهجية عادلة وشاملة لمكافحة انتشار أسلحة الدمار الشامل. وكان بالإمكان تطبيقها على جميع الدول المشبوهة التي يعتقد بأنها تمتلك برامج سرية لصناعة هذه الأسلحة. وهكذا كان يمكن للحل المطبق على العراق أن يصبح نموذجاً قابلاً للتطبيق على دول أخرى ككوريا الشمالية مثلاً. وقد بلورنا لهذا الغرض مشروعاً مؤلفاً من عدة مراحل أولها دعوة مجلس الأمن

الدولي للانعقاد، وثانيها إصدار قرارات بهذا الشأن، وثالثاً إرسال المفتشين إلى هذه البلدان المشبوهة للكشف عن مصانعها السرية وتدميرها مع منتجاتها الممنوعة. وهذه المنهجية كانت قابلة للتطبيق في أماكن أخرى كما قلنا. ولكن بالنسبة لأمريكا فقد كانت القضية العراقية تقدم الجواب على حالة خاصة تهمها بالدرجة الأولى. نقصد بأن الهجوم على العراق كان يلبي رغبة الانتقام لديها ويشكل رداً على عدوان ١١ سبتمبر وتصفية حسابات مع كل القوى التي تتحداها في المنطقة. وأما بالنسبة لنا فكانت تشكل مختبراً للأزمات القادمة. والرهان كان يتمثل فيما يلي : تحديد القواعد التي ستشرف مستقبلاً على تشكيل النظام العالمي المتماسك والمحترم من قبل الجميع.

أما المبدأ الثالث الذي كان يهمّ السياسة الفرنسية فهو : مبدأ المسؤولية. ونعني به أنه ينبغي على كل دولة من دول العالم أن تنخرط في هموم العالم وتساهم في إدارة قضاياه بروح منفتحة وبنّاءة. وهذا المبدأ مهم جداً في الوقت الذي نواجه فيه جميعاً تهديداً إرهابياً ضمنياً منبثاً في كل مكان بشكل سري أو خفيّ. وبالتالي فعلى أعضاء الجماعة الدولية أن يتضامنوا بعضهم مع بعض لكي يبحثوا عن حلول لمشاكلهم والتحديات الخطيرة التي تواجههم. فالمغامرات الفردية (أي التي تقوم بها دولة واحدة أياً يكن حجمها) تسيء إلى فعالية النضال من أجل الأمن العالمي. والسؤال المطروح الآن هو التالي : هل أدركنا

حجم الثورة أو الطفرة النوعية التي حصلت مؤخراً وغيرت عالمنا كله؟ فلم تعد هناك كتلة ضد كتلة أخرى أو دولة كبرى ضد دولة كبرى كما كان عليه الحال أثناء الحرب الباردة. وإنما توجد جماعة دولية مهددة بكليتها من قبل انتشار شبكات المافيا، والمنظمات الإجرامية التي لا تراعي إي قاعدة مشتركة، والحركات المتطرفة المفعمة برفض الآخر والحقد عليه.

وأمام كل هذه الأخطار فإن تعبئة الجميع تصبح أمراً لازماً. فنحن لن نستطيع محاربة "القاعدة" وأنصارها بفعالية إلا إذا شكلنا تعاوناً دولياً مصمماً على ملاحقتها حيثما وجدت وفي كل البلدان. وبالتالي فينبغي على كل دولة من دول العالم أن تشعر بأنها تتحمل جزءاً من المسؤولية في هذه المعركة. وينبغي أن تحزم أمرها وتقدم إسهامها في هذا المجال عن طريق الاستخبارات ومراقبة المشبوهين مثلاً.

ينبغي العلم أنه في عالم يتعرض لتحولات سريعة أكثر فأكثر فإن الحركة السريعة هي مفتاح النجاح. فالذي يكون أسرع في حركته هو الذي يربح المعركة. وبالتالي ينبغي علينا أن نتأقلم كل يوم مع وقائع جديدة، وأن نكون يقظين وحذرين، وأن نرفض الاكتفاء بالوضع القائم، وأن نرفض المقولات الجاهزة والمُعتَقَد بأنها أبدية أو صالحة لكل زمان ومكان. ينبغي أن نخرج من حالة الجمود والتكلس والتحجر. نحن في

زمان السرعة والمعلوماتية والتحولات الكبرى والطفرات النوعية والعولمة. وينبغي أن نأخذ كل ذلك بعين الاعتبار إذا ما أردنا مواجهة هذا التحدي الجديد -أقصد الإرهاب- بفعالية ونجاح. فيما يخص العراق كانت فرنسا قد ألحت باستمرار على ضرورة اقتراح حلول جديدة وتطوير الهياكل الموجودة لكي تتلاءم مع الوضع الراهن. فمثلاً عندما بدا أن السلطات العراقية مترددة في تطبيق قرارات مجلس الأمن فإنها اقترحت على الجماعة الدولية تقوية لجان التفتيش وتزويدها بوسائل تقنية وإمكانيات جديدة، وزيادة عددها. ولكن مقترحاتنا قوبلت بالتشكيك أو عدم الاقتناع من قبل البعض بحجة أن المسألة ليست مسألة مفتشين يشتغلون ميدانياً داخل العراق وإنما هي أكبر من ذلك. فهؤلاء عددهم كاف ولكن القضية تتجاوزهم. ولكن أليس من الغريب أن القوى الموجودة على الأرض طالبت لاحقاً بزيادة عدد المفتشين المسؤولين عن نزع أسلحة الدمار الشامل العراقية إلى ألفي مفتش في حين أن عددهم كان فقط مائة وخمسين عندما طالبت فرنسا بزيادتهم؟ أليس هذا تناقضاً في الموقف الأمريكي؟

والسؤال المطروح الآن هو التالي : إذا كانت الأزمة العراقية قد كشفت عن رؤيا أمريكية معينة للعالم، فما الذي علّمتنا إياه عن رؤيتنا نحن للمستقبل؟ ما هو الدرس الذي يمكن أن نستخلصه منها؟ لقد فهمت فرنسا ومعها دول أوروبية عديدة أن روح التشاور والمعرفة

العميقة بخفايا كل مشكلة أو أزمة هما القاعدة الأساسية التي ينبغي أن ننطلق منها لتشكيل الأمن الجماعي للبشرية. وهذا الموقف لا يدل على أن أوروبا ضعيفة لا تحب لغة القوة ولا تعرف استخدامها، وإنما هو دليل على أنها تحاول بناء قوة مختلفة ترتكز على الحوار مع الدول الأخرى وعلى الصلابة في الدفاع عن مبادئها وكذلك على البحث عن مشروعية دولية من أجل حل الأزمات الإقليمية وتحقيق العدالة على هذه الأرض بقدر الإمكان.

التفاوض

لقد توحدت الجماعة الدولية حول أمريكا عشية ضربة ١١ سبتمبر وتعاطفت معها إلى أقصى الحدود. ولكن هذه الوحدة تصدعت على صخرة الأزمة العراقية. وأصبحت أمريكا في جهة، وفرنسا وألمانيا وروسيا في جهة أخرى. والسؤال الذي نطرحه هو التالي : هل يشكل هذا البلد خطراً مباشراً أو فورياً يا ترى؟ كانت المعلومات التي نمتلكها تدل على أن العراق يشكل خطراً محتملاً ومحدوداً في إمكانياته. كنا قلقين لاحتمالية أن النظام لا يزال يحتفظ بخبرة عسكرية تمكنه من صناعة أسلحة الدمار الشامل أكثر مما كنا نتوقع ضربات فورية من قبله أو من قبل قواته العسكرية. وإذا كان واضحاً لنا أنه ينبغي على الجماعة الدولية أن تراقب العراق وتسيطر عليه، فإنه لم تكن هناك

أي حاجة ملحة لمهاجمة هذا البلد نظراً لخطورة هذا العمل فيما يخص زعزعة المنطقة التي سيؤدي إليها حقاً. وبالتالي فلم يكن هناك أي سبب وجيه يدفعنا للقبول بالحل العسكري أو يبرر اللجوء إلى القوة.

وكان هناك خلاف ثان بيننا وبين الولايات المتحدة فيما يخص تحليل الأزمة العراقية. وهو يخص إقامة علاقة بين ضربة ١١ سبتمبر الإرهابية وبين التدخل العسكري الأمريكي في العراق. فنحن لم نكن نرى سبباً لهذه العلاقة لأن العراق ليس مسؤولاً عن الضربة الإرهابية وإنما بن لادن. ينبغي العلم بأننا برهنا في الماضي على تصميمنا الكلي على محاربة الإرهاب. وقد شاركنا بفعالية في العمليات العسكرية في أفغانستان والتي تمت تحت اسم "الحرب الدائمة". ولكننا رفضنا أن نقيم علاقة بين الشبكات الإرهابية والأصولية وبين النظام العراقي لأننا لم نكن نمتلك أي معلومات عن هذا الموضوع. وبالتالي فدعمنا غير المشروط للنضال الذي تقوده الولايات المتحدة ضد الإرهاب لا يعني أننا سنتبعهم في كل شيء وبشكل أعمى. ما كنا مستعدين للسير وراءهم حتى نصل إلى ضرب "محور الشر" أو ما يسمونه كذلك : أي العراق، وإيران، وكوريا الشمالية. بالمقابل فإن السلطات الأمريكية عبرت فوراً عن اقتناعها بوجود علاقة وثيقة بين العراق والإرهاب بقيادة القاعدة وبن لادن.

وهناك سبب آخر يفسر هذا الاختلاف في وجهات النظر بين فرنسا وأمريكا. وهو أن فرنسا كانت مقتنعة بأن فتح جبهة عسكرية جديدة سوف يسهّل عمل قوى الفوضى والإرهاب الدولي. فيكفينا ما نحن منخرطون فيه في أفغانستان. وكنا قد أدركنا مدى حجم الظاهرة الإرهابية وخطورتها. وقد أدركنا بأنها انتهازية تعرف كيف تقتنص الفرص لكي تضرب في اللحظة المناسبة. وعرفنا أنها سرية، متحركة من مكان إلى آخر وقادرة على أن تستغل أي مصدر من مصادر الاضطراب والفوضى في أي مكان كان في العالم. وأدركنا أيضاً أنها تستغل شعور الجماهير العربية والإسلامية بالذل تجاه الغرب المتفوق والمتعجرف أحياناً. كما تستغل أي زعزعة للاستقرار في المنطقة وتنفذ إليها لكي تحقق غاياتها. وبما ان المشكلة الفلسطينية لم تحل، وبما أنه لا يوجد أي منظور للسلام في الشرق الأوسط فإننا كنا نخشى أن يؤدي فتح الجبهة العراقية إلى زيادة غضب الجماهير في المنطقة، وإلى زيادة حقد الأصوليين المتطرفين على البلدان الغربية وقيمها.

كل هذه العوامل كنا نأخذها بعين الاعتبار، نحن الفرنسيين. والواقع أن الخلاف بيننا وبين الأمريكان حول تحليل الوضع يعود إلى أسباب تاريخية عميقة أو بعيدة المدى وليس فقط إلى أسباب حديثة أو آنية. ولكن الأحداث الراهنة زادت بالطبع من أهمية البواعث

التاريخية. وهذا الخلاف يضرب بجذوره في أعماق التحليلات الجيوبوليتية المتغايرة لكلا الطرفين منذ سنوات عديدة. وسوء التفاهم الناتج عنها يفسر إلى حد كبير فشل جهودنا الدبلوماسية. فنحن لنا نظرة للعالم، وأمريكا لها نظرة أخرى.

في الواقع إن الولايات المتحدة ما كانت راغبة في سلوك طريق الأمم المتحدة من أجل مواجهة التحدي العراقي. فجزء من الإدارة الأمريكية كان تابعاً لتيار المحافظين الجدد. وهؤلاء كانوا معادين للمنظمات الدولية بشكل عام وللأمم المتحدة بشكل خاص. من المعلوم أن هنري كيسنجر كان يقول إن الولايات المتحدة لا تملك خبرة معادلة لتلك التي تمتلكها الدول الأوروبية في مجال الدبلوماسية والعلاقات الدولية. فالدول الأوروبية قديمة جداً وعريقة. وقد شهدت على مدار تاريخها الكثير من التحالفات والمفاوضات والمعاهدات، والاتفاقيات أو التنازلات. باختصار فإنها شهدت الكثير من التجارب الدبلوماسية. وفرنسا هي وريثة تجربة الكاردينال ريشيليو١٠٨ في مجال العلاقات الدبلوماسية القائمة على البراغماتية. ومعلوم أنه كان يرى أن العلاقات بين الدول ينبغي أن تقوم على المهارة، وعقد الصفقات والمساومات، واستغلال كل نقاط الضعف لدى الخصم. أما الولايات المتحدة فتقيم سياستها على قوتها العسكرية الكبرى التي ترفض مشاطرتها مع أي جهة أخرى. وبالتالي فدبلوماسيتها قائمة على القوة

بالدرجة الأولى، وأي اتفاق يتم عن طريق المفاوضات تعتبره نوعاً من المساومة والتنازلات التي لا تليق بها وبعظمتها وجبروتها. وفي جوقة الأمم المتحدة ما كانت الولايات المتحدة تقبل إلا بمكانة الزعيم الأوحد. يضاف إلى ذلك أنها حديثة العهد على عكس أوروبا العتيقة.

ينبغي الاعتراف بأن بعض المسؤولين الأمريكان من أمثال كولن باول كانوا يرغبون بالحل الدبلوماسي والمرور من خلال الأمم المتحدة. وبالنسبة له فإن عودة المفتشين الدوليين إلى العراق كانت تشكل خطوة أولى من أجل اختبار نوايا الحكومة العراقية ومعرفة مدى تجاوبها أم لا. وبعد ذلك يمكننا أن نستخلص النتائج وننتقل إلى المرحلة التالية سواء أكانت سلبية أم إيجابية. بعدئذ يمكننا أن نلجأ إلى استخدام القوة ضد النظام العراقي إذا لم يتجاوب معنا. على هذا النحو كان يفكر كولن باول. ولكن المشكلة هي التالية : هل كان الجناح الأكثر تشدداً في الإدارة الأمريكية مقتنعاً في أي يوم من الأيام بإمكانية حل الأزمة عن طريق الأمم المتحدة؟ وهل كان راغباً في أن تتحمل الجماعة الدولية مسؤولية حل المشكلة التي يطرحها نظام بغداد على الجميع؟ أم أنه كان يعتبر المرور من خلال الأمم المتحدة مجرد عملية شكلانية أو صورية ضرورية للحفاظ على المظاهر ولكنها لا تمنع الولايات المتحدة من متابعة مخططها واللجوء إلى القوة في اللحظة المناسبة؟

عندمـا تدخل الرئيس جـورج دبليـو بوش من على منصـة الأمم المتـحدة في شهـر سبـتـمبـر من عـام ٢٠٠٢ كان خطابه ينحـو منحى الاتجاه الذي حدده كولن باول. وكان خياره شجاعاً ولكنه غير خال من الغمـوض. فلم يوضح لنا مـاهية الهدف النهـائي للسلطات الأمـريكيـة : هل تريد نزع أسلحة العراق أم قلب النظام؟ على هذا السؤال لا نجد جـواباً في خطاب بوش. والعـديد من المسـؤولين الأمـريكيين كـانوا يصـرحـون بشكل ضمـني قليـلاً أو كثـيراً بأنهم لـن يكتفـوا بمـجـرد نزع أسلحـة النظام وإنما يريدون رحيل صدام حسين عن السلطة. وكانوا يوحون بأن المسألة لن تحل نهائياً إلا برحيله. وكان هناك غموض ثان فيما يخص الموقف الأمريكي، وهو غموض يتعلق بنوعية الاتهام الموجه إلى النظام. فهل يريدون قلبه لأنه يصنع أسلحة الدمار الشامل أم لأنه يتـعـاطى عـلاقـات مـؤكـدة مع بن لادن والقـاعـدة؟ نلاحظ أن الإدارة الأمـريكيـة لم تسـتطع تقديم أي برهان مقنع على هذه العلاقات على الرغم من كل الجهود التي بذلتها.

وقـد بقـيت بعض التسـاؤلات عـالقـة فـيـمـا يخص رغبـة الولايات المتـحدة في المحـافظة علـى وحدة الجـمـاعـة الدوليـة أم لا. فـالرئيس جورج دبليو بوش لم يخف تصـميمـه على خوض المعـركة ضد العـراق دون نيل إذن من مـجلس الأمن الدولي إذا اقـتـضى الأمـر ذلك : أي إذا لم تسـتطع الأمم المتـحـدة أن تتـوصل إلى إجـمـاع بهـذا الخـصـوص.

والواقع أنه بدءاً من شهر أكتوبر عام ٢٠٠٢، وحتى قبل أن يبتدئ نظام التفتيش الدولي للأسلحة في العراق، فإن الكونغرس سمح للرئيس الأمريكي باستخدام القوة. وبالتالي فالمفاوضات التي جرت من أجل استصدار قرار جديد عن مجلس الأمن يتيح نزع أسلحة العراق بشكل فوري وكامل تمت في مناخ أقل توحيداً وشفافية مما نظن. وهذه النقاط الغامضة في الموقف الأمريكي هي التي أدت إلى سوء التفاهم والخلافات التي حصلت عام ٢٠٠٣ بين فرنسا وأمريكا بشكل خاص.

ينبغي العلم بأن الخطوط الكبرى لموقف فرنسا أثناء التفاوض على إصدار قرار جديد تجاه العراق من قبل مجلس الأمن كانت قد حُددت منذ البداية من قبل رئيس الجمهورية جاك شيراك. وكان الرئيس مقتنعاً بضرورة استصدار قرار يقضي بعودة المفتشين الدوليين إلى العراق. فهو يشكل ضمانة أمنية لكل الجماعة الدولية. يضاف إلى ذلك أنه يحفظ وحدة التحالف الذي كان قد تشكل بعد تفجيرات ١١ سبتمبر حول الولايات المتحدة من أجل النضال ضد الإرهاب. وبالتالي فالمسألة شديدة الخطورة وتتعلق برهان أعظم من المسألة العراقية، رهان يهمّ الجماعة الدولية بأسرها.

وكان الهدف المحدد للبعثة الدولية هو التفتيش ثم تدمير أسلحة الدمار الشامل المحظورة عالمياً إذا ما وجدت. وإذا لم يكن هدفها

تغيير النظام فإن تطورها أو زيادة إمكانياتها كانت ضرورية ومرغوبة من قبل فرنسا. وكنا نعتقد أن التطبيق الجيد لقرار مجلس الأمن سوف يؤدي إلى حصول تغييرات عميقة في العراق. أما المشروع الأمريكي الذي يريد أن يذهب إلى أبعد من ذلك والذي يهدف إلى قلب النظام الطغياني لصدام حسين فكان يصطدم بعقبتين كبيرتين. الأولى تتلخص بالسؤال التالي : كيف يمكن أن نكون واثقين من تحقيق الديمقراطية في العراق عن طريق عملية عسكرية إذا كنا نعلم أن الديمقراطية تتطلب وقتاً طويلاً لكي تنضج وتتحقق في مكان ما؟ فالديمقراطية لا تحصل بضربة عصا سحرية بين عشية وضحاها. أما العقبة الثانية فيمكن التعبير عنها على النحو التالي : كيف يمكن أن نضمن أن عملية جراحية كهذه لن تؤدي إلى اشتعال المنطقة كلها؟

هذان هما السببان اللذان دفعا بفرنسا إلى عدم الموافقة على الحل العسكري. وقد قال بعضهم أن المشكلة العراقية شكلت مناسبة سانحة للجماعة الدولية لكي تبلور منهجية جديدة من أجل إدارة الأزمات الصريحة أو المضمرة التي قد تندلع عما قريب. والواقع أن الحالة العراقية ليست وحيدة في العالم للأسف. فهناك أنظمة أخرى استبدادية وتمتلك أسلحة الدمار الشامل. وبالتالي فهي تجمع بين كلا الخطرين المرعبين في آن معاً. والإدارة الأمريكية الهادفة إلى القضاء على هذين الخطرين المترابطين على الرغم من طبيعتهما المختلفة

كانت تعني ما يلي : أن قلب نظام صدام حسين سوف يخلق سابقة على الصعيد الدولي. وقد يؤدي ذلك إلى إدخال عامل زعزعة مستمرة في إدارة الشؤون الدولية. ولهذا السبب فقد كانت لنا نحن الفرنسيين وجهة نظر مختلفة. فقد كنا نعتقد أن بعثات المفتشين الدوليين عن أسلحة الدمار الشامل كانت كافية لكي تنجز مهمتها في العراق. ثم تنطلق بعدئذ للقيام بنفس العمل الضروري في بلدان أخرى تشكل خطراً على المجتمع الدولي.

وكنا نعتقد أنه ينبغي علينا أن نبلور قرار مجلس الأمن طبقاً لمنهجية واضحة وهدف محدد بدقة. وكانت النقطة الأساسية بالنسبة لنا هي الحفاظ على حرية القرار الذي سيتخذه مجلس الأمن فيما يخص اللجوء إلى القوة العسكرية أو لا. ومنذ البداية قلنا للأمريكان أننا لن نقبل بإصدار قرار يبيح لهم استخدام القوة بشكل آليّ ضد العراق. فهذا شيء مخالف لميثاق الأمم المتحدة والقواعد الضابطة التي تحدد عمل مجلس الأمن وصلاحياته. ولكن نتساءل : كيف يمكن لهذا المجلس الأعلى الذي يحكم العالم أن يتخلى عن إحدى صلاحياته العظمى إن لم تكن الأعظم؟ بمعنى آخر فإن قرار اللجوء إلى الحرب ضد أي دولة من دول الأمم المتحدة ينبغي أن يكون في يد مجلس الأمن وحده وليس في يد أي دولة واحدة مهما عظمت وكبر شأنها. فهو الذي يمثل المشروعية الدولية وليس غيره. يضاف إلى ذلك أن

اتخاذ قرار باستخدام القوة العسكرية هو شيء خطير جداً. وبالتالي فيلزمنا الحذر والحيطة بهذا الشأن. ولا ينبغي أن يتخذ قرار كهذا دون معرفة دقيقة بكل مناحي الأزمة وتفحص جماعي صارم لها. وبالتالي فالحالة كانت خطيرة إلى درجة أنه ما كان ممكناً أن نضحي بمشروعية القرار من أجل إرضاء الولايات المتحدة وتسريع المجريات في مجلس الأمن. ولهذا السبب فإن جاك شيراك اقترح حلاً يمكن تنفيذه على مرحلتين. في المرحلة الأولى نطالب بالعودة الفورية ودون أية شروط للمفتشين إلى العراق. وأما في المرحلة الثانية فإنه يمكن إصدار قرار عن مجلس الأمن يبيح لنا استخدام القوة إذا ما رفض العراق عودة المفتشين. وهذه المنهجية في العمل تتيح لمجلس الأمن أن يسيطر على الوضع فيما يخص الأزمة العراقية. كما أنها تتيح لنا أن نجد حلاً وسطاً بين موقف الدول التي لا تريد القيام بعمل عسكري ضد العراق، وموقف الولايات المتحدة التي ترغب في ذلك. وهذا الحل ذو المرحلتين يعترف ضمنياً بأن العراق يشكل خطراً على الأمن الدولي ويؤمّن في ذات الوقت الوسائل لمعالجته دون استبعاد الخيار العسكري كاحتمال أخير.

لا ريب في أن الحل العسكري كان يشكل أصعب مرحلة من مراحل المفاوضات داخل مجلس الأمن. فالولايات المتحدة كانت تريد منه أن يصدر قراراً يبيح اللجوء الألي إلى القوة إذا ما انتهك العراق التزاماته

بشكل صـارخ. وفي مـثل هذه الحـالة، يقـول الأمـريكان، لا تعـود هناك حاجة للعودة إلى مجلس الأمن مرة أخرى، ولا إلى استصدار قرار ثان بالطبع. وعلى هذا النحو يصبحون أحراراً في تحديد معنى "الانتهاك الصـارخ" لقـرار مجلس الأمـن. وهكذا "يخضـعـون" للقـانـون الدولـي من جـهـة، مع الاحـتـفـاظ بإمكانيـة التـحـرر منه في اللحظة التي يرونهـا مناسبة من جهة أخرى.

وهنا نصل إلى العـقـدة الثـانيـة من المفـاوضـات ، وتلك هي تحـديد السلطات العليا التي يحق لها أن تقدر فيما إذا كان العراق قد احترم التزاماته فيما يخص القرار الجديد أم لا. والمسألة بالنسبة للفرنسيين كـانت واضـحـة بهـذا الخـصـوص. فـقـد كنا نريد أن نوكل مـسـؤوليـة التفتيش عن أسلحة الدمار الشامل العراقية وتدميرها إذا ما وجدت إلى مفتشي الأمم المتحدة الموجودين ميدانياً هناك. فهم المسؤولون عن إخبار مجلس الأمن بكل انتهاك يرتكبه العراقيون تجاه التزاماتهم.

وهذه المسـألة المبدئيـة كانت تعكس تصورين مختلفين لدور الأمم المتـحـدة. فـإمـا أن تمارس المنظمـة الدوليـة عـملهـا على هيـئـة كيـان ديمقراطي عالمي حيث أن صوت كل دولة يساهم على قدم المساواة في بلورة القـرارات والاتجـاهـات، وحـيث أن مـجلس الأمن يمثل الأداة التنفيذية للقرارات. وإما أن تكون عبارة عن مكان تجري فيه المداولات

الحرة التي لا تلزم أحداً، أي عبارة عن غرفة تسجيل للمناقشات ليس إلا. وبالتالي فلا وزن لقراراتها إلا إذا وافقت عليها الدولة العظمى. وهذه الاختلافات كانت تدل على أهمية التوصل إلى نص واضح على الرغم من المناقشات العنيفة الجارية. ونقصد به النص الذي لا يحتمل تأويلات ذاتية عديدة فيما يخص الوقائع.

وبعد أسابيع عديدة من المناقشات الحامية توصلنا إلى تسوية بخصوص كل واحدة من نقاط الاختلاف. فقد اتفقنا على ما يلي : في حالة أن العراق انتهك التزاماته فإن على المفتشين أن يرسلوا تقريراً بهذا الخصوص إلى مجلس الأمن لكي يقيّم الوضع ويتخذ قراراته على ضوء ذلك. ثم اتفقنا أيضاً على مختلف الفرضيات المتعلقة بالانتهاك الصارخ لقرارات الأمم المتحدة وعلى إلحاقها بالجهاز العملياتي. وأخيراً فإن أي انتهاك يتحدث عنه أحد أعضاء مجلس الأمن ينبغي فحصه من قبل المفتشين للتحقق من صحته أم لا.

وهكذا توصلنا بتاريخ ٨ نوفمبر من عام ٢٠٠٢ إلى اتفاق عام صوّت عليه مجلس الأمن في القرار رقم ١٤٤١. وكان ثمرة عمل جماعي متعدد الأقطاب. وقد جاء بعد أن عاشت الجماعة الدولية محنة أو خلافات عصيبة ثم استطاعت أن تتجاوزها بنجاح. وبالطبع كانت تبدو في القرار آثار التنازلات التي اضطرت إليها مختلف الأطراف

المتحاورة والمتصارعة أحياناً. وفيما بعد راحت الولايات المتحدة تستنتج أن القرار ينطوي على الإذن باستخدام القوة ضد العراق دون العودة إلى مجلس الأمن واستصدار قانون ثان بهذا الخصوص. أما نحن فقد أصررنا على تفسير القرار بطريقة معاكسة تماماً. والواقع أن هذه التناقضات كان يصعب تحاشيها. ولكن ميزة القرار ١٤٤١ على الأقل هي أنه بلور الأسس العقلانية المتينة لحل الأزمة العراقية. وهدفه الأول لم يكن مدعاة للجدل أو للنقض أو للخلاف. ونقصد به هنا: نزع أسلحة العراق بشكل كامل وفوري. كل أعضاء مجلس الأمن دون استثناء كانوا متفقين على ذلك. ولهذا السبب دعمنا نظام التفتيش الدولي وأعطينا المفتشين إمكانيات جديدة وكبيرة لتفتيش العراق طولاً وعرضاً. وكان هدفنا أن نعطي للجماعة الدولية كل الضمانات التي يحق لها أن تطلبها بشأن التطبيق الكامل لقرارات مجلس الأمن.

وعلى مدار المفاوضات بذلت فرنسا كل جهودها من أجل تبنّي القرار الدولي بالإجماع. وقد حافظت على علاقات مستمرة مع الصين وروسيا لكي يدعم هذان البلدان الكبيران عملية إصدار القرار ولا يكتفيان بموقف الحياد الإيجابي أو ذي النية الطيبة. في الواقع إن إخلاص مختلف الأطراف وتفانيها الكامل كانا ضروريين من أجل خلع كل الوزن الممكن على التسوية النهائية. وقد أقنعت شخصياً كل عضو

من أعضاء مجلس الأمن بالتصويت على القرار. وقبل التصويت ببضع ساعات لم يتردد رئيس الجمهورية الفرنسية عن الاتصال بنظيره السوري بشار الأسد لكي يأخذ موافقته على القرار. ومعلوم أن سوريا كانت آنذاك عضواً غير دائم في مجلس الأمن.

وهكذا شكلنا وحدة مجلس الأمن بكل مثابرة وصبر وتصميم. وكان ذلك بمثابة أكبر نجاح حققته المفاوضات التي استغرقت شهري سبتمبر ونوفمبر من عام ٢٠٠٢. وعندئذ تحقق الإجماع الدولي وأرسلنا لأول مرة إنذاراً شديد اللهجة إلى السلطات العراقية. فإما أن تتجاوب بسرعة مع قرار الجماعة الدولية، وإما أن تعرض نفسها لعقوبات جسيمة. صحيح أن هذا الإجماع قد حصل بعد أن أخذنا بعين الاعتبار معطيات المشكلة العراقية والضغط الأمريكي. ولكن أعضاء مجلس الأمن ما كانوا يجهلون أن الأمر يتجاوز الحالة العراقية، وأن الرهان الأكبر يخص تصوراً معيناً عن دور الأمم المتحدة في العالم. كنا مدركين أنه إذا ما استطاع مجلس الأمن حل المشكلة العراقية فإنه سيكسب رصيداً كبيراً ومصداقية حقيقية. وسوف يكون قادراً في المستقبل على حل مشاكل العالم الأخرى بما فيها الأكثر تعقيداً. وبالتالي فالحالة العراقية كانت بمثابة اختبار لدور الأمم المتحدة وهيبة مجلس الأمن ومدى قدرته على فرض قراراته.

ولكن يبقى صحيحاً القول بأن الحصول على قرار إجماعي بخصوص العراق كان صعباً جداً لأن بعض الأعضاء ما كانوا مقتنعين بخطورة الوضع أو بأن العراق يشكل خطراً مباشراً على الجماعة الدولية. ومنذ بداية المفاوضات حول الموضوع تبين لنا أن تركيبة مجلس الأمن المتغايرة جداً آنذاك كانت تشكل عقبة في وجه التواصل إلى اتفاق. فقد كان من الصعب جداً أن نجعل دولاً مختلفة إلى حد التباعد تتفق على نفس المشروع مثل المكسيك والتشيلي في أمريكا اللاتينية، أو سوريا في الشرق الأوسط، أو باكستان والصين في آسيا، أو أنغولا وغينيا في إفريقيا، أو إنجلترا وفرنسا وأسبانيا وروسيا وبلغاريا في أوروبا، أو الولايات المتحدة في أمريكا الشمالية، ولكن هذا التنوع الكبير لتركيبة مجلس الأمن أصبح أكبر رصيد لمشروعية عمله وقراراته. فهذا التنوع كان يعني أنه يمثل بالفعل كل العالم. وكان يعني أنه ليس جزءاً معيناً من العالم هو الذي يتخذ موقفاً عدائياً ضد جزئه الآخر، وليس مجموعة دول متشابهة تملي إرادتها على مجموعة أخرى، وإنما الجماعة الدولية بأسرها هي التي توجه رسالة إنذار إلى حكومة بغداد.

وكان ذلك يعني أن الدول الأعضاء لمجلس الأمن قادرة على أن تتخذ قرارات إجماعية خلال فترة معقولة، أي قصيرة نسبياً. كما يعني أنها تعرف كيف تبلور خطة إجماعية وتوظف الوسائل اللازمة

لتحقيقها. وبالتالي فتنوع أعضاء مجلس الأمن يمكن أن يكون حظاً وعاملاً إيجابياً لا سلبياً. فهذا التنوع هو الذي يتيح إفهام الآخرين ودفعهم لقبول خيارات حساسة في الغالب، أي قرارات تلزم سيادة كل دولة. وهكذا أصبحت في يدنا ورقة عظيمة تتيح لنا أن نواجه التحديات الأمنية المطروحة علينا حالياً كالإرهاب أو كانتشار أسلحة الدمار الشامل.

وبالتالي فإن أهم درس نستخلصه من القرار ١٤٤١ هو أنه برهن على وجود جماعة دولية حقيقية. ولكن هذا الانتصار الدبلوماسي الكبير لا ينحصر فقط في ذلك. فالواقع أنه ما كان ممكناً لولا وجود قاعدة عريضة للتوافق بين الدول : أي مجموعة من المبادئ والقيم المشتركة التي هي في طور التشكل والانبثاق. وهذا المكتسب الكبير هو الذي يفسر لنا سبب انضمام الرأي العام العالمي إلى القرار بشكل ضخم وواسع جداً.

ومنذ نهاية شهر نوفمبر عام ٢٠٠٢ راحت فرق التفتيش التابعة للجنة المراقبة والتفحص والضبط تواصل أعمالها في العراق وتزور المواقع المشبوهة. وكذلك فعلت فرق التفتيش المرسلة من قبل اللجنة الدولية للطاقة الذرية. وخلال ثلاثة أشهر راحت أعمال هذه اللجان تتقدم في الاتجاه الصحيح وتحقق نتائج ملموسة وفي الوقت نفسه

لاحظت أن نظام بغداد أخذ يخضع تدريجياً لمطالب الجماعة الدولية. صحيح أن السلطات العراقية لم تكن قد برهنت بعد على نيتها الطيبة في التعاون الكامل مع فرق المفتشين كما كنا ننتظر منها، ولكن فيما يخص النقاط الأكثر حساسية ابتدأنا نسجل بعض النتائج الإيجابية. نضرب على ذلك مثلاً إمكانية استجواب العلماء العراقيين لأول مرة، وكذلك تدمير صواريخ "الصمود". وهاتان النتيجتان الملموستان تدلان على أن عمل المفتشين أخذ يعطي ثماره. وأصبحنا نمشي على الطريق الصحيح فعلاً، ولم يعد هناك أي شيء يمنعنا من الاستمرار في نفس الاتجاه.

وكان الشيء الملح آنذاك هو تقوية أدوات التفتيش والوسائل الموضوعة تحت تصرف المفتشين الدوليين لكي يستطيعوا القيام بعملهم على أفضل ما يرام. وقد فكرنا مع شركائنا الروس والألمان حول أفضل طريقة لتحسين أعمال المفتشين وتدعيم مواقع المفتشين في العراق. وكان ذلك شغلنا الشاغل لأننا كنا نعرف أن النظام سوف يحاول عرقلة عملهم بقدر المستطاع. وفي كل مرحلة من مراحل هذا العمل الكبير كنا نخبر الولايات المتحدة وإنجلترا باقتراحاتنا وأفكارنا لكي نقنعهما بالانضمام إلينا. وكذلك وضعنا أعضاء مجلس الأمن الآخرين في الصورة. والمسار الذي اتبعناه كان يتماشى مع التقدم الذي يحققه المفتشون على أرض الواقع في العراق. وكان ذلك يدعم

مصداقية عملهم ويشهد على يقظة كل أعضاء المجلس ومتابعتهم المستمرة لأعمالهم.

ولكن في كل مرة كنا نتلقى تقارير المفتشين الإيجابية كان الأمريكان يقللون من أهمية النتائج المتحققة ويشككون بنوايا صدام حسين. وهذا التقليل من أهمية النتائج الملموسة التي أنجزها المفتشون كان يعني أن الأمريكان يريدون إحلال المنطق العسكري محل منطق التعاون مع المفتشين ولكن بشكل تدريجي. وخلال الشهور الثلاثة الأولى من عام ٢٠٠٣ أفهمنا الأمريكان بشكل ضمني أن الأمور قد حسمت لصالح الحل العسكري. وأصبح مطلوباً من الأمم المتحدة -التي أرسلت المفتشين إلى العراق لنزع أسلحته سلمياً- أن تصدر الآن قراراً جديداً يسمح باستخدام القوة ضد هذا البلد. وهكذا لم يكن هناك وقت كاف لكي تكمل فرق التفتيش أعمالها على الرغم من كل الفعالية التي أبدتها في المراحل الأولى. فجأة أصبح مطلوباً منها أن تقطع عملها وأن تترك العراق لأن الحل لن يجيء عن طريقها. وهذا الموقف الأمريكي هو الذي تغلّب على ما عداه على الرغم من أنه أزعج الكثيرين وأثار سوء التفاهم لدى آخرين داخل مجلس الأمن.

في الواقع إن الخطاب الأمريكي تجاه الأزمة العراقية راح يتغير طبقاً لثلاثة خطوط متضافرة. الخط الأول يقضي بتغيير الهدف عن

طريق إحلال إسقاط النظام العراقي محل نزع أسلحته وتدميرها. والثاني يشكك بفعالية المفتشين الدوليين وأنهم لن يصلوا إلى نتيجة حاسمة مهما فعلوا لأن النظام سيعرقل عملهم حتماً أو سيخبئ عنهم بعض المواقع التي لا يستطيعون تفتيشها. والثالث تسريع التحضيرات العسكرية لغزو العراق. كل هذه الخطوات راحت الإدارة الأمريكية تتخذها دفعة واحدة وبشكل متساوق. وهكذا أصبح تغيير النظام هو الهدف الأساسي على مدار الأسابيع التالية، وأما نزع الأسلحة فأصبح هدفاً ثانوياً. وهذا التغيير المفاجئ في الموقف الأمريكي كان مفهوماً ومعقولاً. فمن منا لم يكن راغباً في قلب الديكتاتورية المهيمنة في بغداد؟ من منا لم يكن يتمنى من كل قلبه رحيل صدام حسين عن السلطة؟ ولكن المشكلة هي أن الجماعة الدولية كانت قد اتفقت على هدف محدد : ألا وهو نزع أسلحة العراق بشكل كامل وفوري. فهل كان من المقبول أن نغير الخط والهدف بعد بضعة أسابيع فقط من محاولة تنفيذ القرار المجمع عليه رقم ١٤٤١؟ ولماذا بذلنا كل تلك الجهود من أجل تحقيق الإجماع الدولي لإصدار ذلك القرار إذا كنا سنتخلى عنه بسرعة لاحقاً؟

في الواقع أنه كلما أثبتت فرق التفتيش فعاليتها في العراق وكلما أعطت نتائج محسوسة كانت تزعج أمريكا أو تعرقل هدفها الذي كانت قد وضعته نصب أعينها ألا وهو : إسقاط نظام بغداد ولا شيء غيره.

وذلك لأنه إذا كان ممكناً نزع أسلحة العراق بشكل سلمي فإنه لا توجد بعدئذ حجة لمهاجمة صدام حسين عسكرياً. وهذا ما أزعج الإدارة الأمريكية وكاد يفشل مشروعها الأساسي. وبالتالي فإن الأمم المتحدة لم تعد هي الحل في نظر واشنطن وإنما أصبحت العقبة التي تعترض طريق الحل.

معركة كسر العظم

بقي أن نعرف هل كان مجمل أعضاء الجماعة الدولية سيقبلون بتغيير الهدف تجاوباً مع رغبة أمريكا. في الواقع إن تاريخ ٢٠ يناير من العام ٢٠٠٣ كشف عن الانقسام الذي حصل داخل مجلس الأمن بشكل لاشعوري تقريباً. وسوف يقسم لاحقاً الأمم المتحدة كلها ثم الضمير العالمي. وكنت قد شرحت موقف فرنسا على أثر اجتماع استثنائي لمجلس الأمن ومن خلال مؤتمر صحفي عقدناه لهذا الغرض. والاجتماع الاستثنائي لمجلس الأمن كان قد عقد بناء على طلبنا وكرس لموضوع الإرهاب. وفي المؤتمر الصحفي المذكور قلت ما يلي : إن المفتشين الدوليين يقدمون نتائج ملموسة عن عملهم في العراق، وبالتالي فينبغي أن نتركهم يتابعون عملهم. ولهذا السبب فلا نرى أي داع للدخول في منطق الحرب. ولكن إذا فشلت مهمة المفتشين الدوليين فإننا سنكون عندئذ مستعدين لبحث كل الخيارات بما فيها

الخيار العسكري. ولكن هذه المسألة غير مطروحة في نظرنا الآن ما دام المفتشون يواصلون عملهم ولم يخفقوا في مهمتهم حتى الآن.

ولم يكن في كلامي هذا أي شيء جديد، اللهم إلا اختيار المكان الذي عقدت فيه المؤتمر الصحفي : أي حرم الأمم المتحدة. يضاف إلى ذلك أن اللحظة كانت هامة جداً لأنها تزامنت مع إرسال القوات الأمريكية-الإنجليزية إلى الخليج بشكل مكثف واستعراضي كبير. وربما لهذا السبب لفت مؤتمري الصحفي الانتباه أكثر من اللزوم. فقد تصادف انعقاده مع أحداث جسام وانعقد في المركز السياسي للعالم. ولذلك راحت الصحافة الأمريكية تهاجمني وتقول بأني نصبت كميناً لوزير الخارجية الأمريكي؟ ! ولكن موقفي يمثل دعوة للعودة إلى واقع الأشياء، وهو واقع شديد التسارع. وفي تلك اللحظة بالذات كان ينبغي أن نتخذ موقفاً صريحاً واضحاً لأن تطورات الأمور تفرض ذلك. ينبغي العلم بأن وزارة الخارجية كانت قد هُزمت آنذاك أمام هجمة البنتاغون وتصميم البيت الأبيض على خوض الحرب. ولذلك ألقى كولن باول سلاحه وتراجع عن موقفه المعتدل. وفجأة راح الموقف الأمريكي يقلب إلى الطرف الآخر دون أي تصريح رسمي. فجأة فهمنا أن المناقشة حسمت لصالح الحل العسكري. وفي كل يوم كانت الجماعة الدولية تجد نفسها أمام أمر واقع جديد تفرضه واشنطن.

وبالتالي فهل ينبغي علينا، نحن أعضاء مجلس الأمن، أن نستمر في نقاشاتنا البيزنطية في الوقت الذي تحضّر فيه الإدارة الأمريكية نفسها للحرب؟ ما معنى ذلك؟ وراح الكثيرون يعتقدون أننا سننضم إلى الموقف الأمريكي عاجلاً أو آجلاً ودون أي اعتراض. الكثيرون اعتقدوا أننا سوف نتنكر في آن معاً للجهود التي قام بها المفتشون في العراق وللمهمة التي حددها لهم مجلس الأمن. ولكننا رفضنا القبول بهذا المنطق حفاظاً على مواقفنا وإخلاصاً لمبادئنا. فنحن كنا نعتقد أن الرهانات الأساسية للقصة كلها هي السلام، والاستقرار، والدفاع عن النظام العالمي المتمحور حول الأمم المتحدة.

فيما وراء ذلك كان يرتسم عالم متعدد الأقطاب، كان ينبثق أو يحاول أن ينبثق لكي يقضي على هيمنة القطب الأمريكي الواحد أو لكي يحجمها قليلاً على الأقل. وهذا العالم المتعدد الأقطاب هو الذي كانت تريده فرنسا من كل قلبها منذ عهد الجنرال ديغول. وكان يرتسم أيضاً مستقبل العلاقات بين ضفتي المحيط الأطلسي، أي بين أوروبا وأمريكا الشمالية. ومعلوم أن هذه العلاقات هي التي تشكل حجر الزاوية في النظام العالمي منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى سقوط الشيوعية. وراحت الانقسامات تظهر في قلب أوروبا. فإنجلترا وأسبانيا وإيطاليا وبعض دول أوروبا الشرقية الراغبة في الحماية الأمريكية راحت كلها تنضم إلى الولايات المتحدة وتؤيد حربها في

العراق. وأما فرنسا وألمانيا المدعومتان من قبل روسيا فقد ظلتا وفيتين لمبادئهما ومعارضتين للحرب.

وقد كشف يوم ٢٠ يناير عن خلافات كانت مخبوءة حتى ذلك الوقت. وظهر عندئذ موقفان متضادان في مواجهة متبادلة. الأول يقول بالحسم العسكري للأزمة العراقية ويحضّر لها عن طريق الإرساليات العسكرية واللوجستية المتزايدة إلى المنطقة. والثاني يقول بالحل الدبلوماسي عن طريق المفتشين الدوليين. وكان متوقعاً أن يدخلا في صدام مباشر عاجلاً أو آجلاً إلا إذا فكرنا بإمكانية الفرضيتين التاليتين. الأولى توجيه إنذار إلى النظام العراقي، وهذا الإنذار يؤجل شنّ العمليات العسكرية حتى تكون فرق التفتيش قد أنهت عملها. وأما الثانية فتخص احتمالية أن يقوم صدام حسين بعمل استفزازي كبير يجعل عمل المفتشين مستحيلاً ويؤدي إلى طردهم من العراق. ولكن بما أن أياً من هاتين الفرضيتين لم تحصل فما بقي علينا إلا أن نعلن نهاية اللعبة.

إن فرنسا، وهي عضو دائم في مجلس الأمن، ما كان بإمكانها أن تستبعد احتمال استخدامها حق الفيتو. وكان الأعضاء غير الدائمين قد طرحوا عليها هذا السؤال بإلحاح أثناء المواجهة مع الولايات المتحدة. ومعلوم أن هذه الدول غير الدائمة هي التي تعبر عن رأيها

أولاً إذا ما جرى تصويت. وقد جاوبناهم قائلين إننا مستعدون لتحمل مسؤوليتنا واستخدام حق الفيتو. وقد عاب علينا الأنجلوساكسون هذا الموقف لاحقاً بشدة. والواقع أن مسألة استخدام حق الفيتو ما كانت لتطرح نفسها لسبب بسيط هو : أن الولايات المتحدة وحلفاءها ما كانوا يمتلكون أغلبية في مجلس الأمن، وبالتالي فلا حاجة للفيتو الفرنسي. فحق الفيتو لا معنى له إلا إذا كانت أغلبية الأعضاء ستصوت لصالح القرار الأمريكي. عندئذ يمكن لحق الفيتو أن يعرقل مخططات أمريكا ومشاريعها. أما بغير ذلك فلا.

أما الإنذار الذي وجه للعراق فقد كانت آخر مهلة له ١٧ مارس، أي بعد أسبوع من ذلك التاريخ. وهذه المدة المقترحة كانت قصيرة جداً وتدل على رغبة أمريكا في التعجيز، وبالتالي في التدخل العسكري بسرعة. والواقع أن الدول الست التي لم تحسم أمرها بخصوص التصويت فهمت الرسالة جيداً وقالت إنها لن تنضم إلى الموقف البريطاني. فهذا الموقف يصدّق على قرار الدخول في الحرب دون مبرر. والواقع أن الحرب اندلعت حتى قبل أن يعرض مشروع القرار على التصويت. ثم انعقدت قمة بوش مع بعض حلفائه الأوروبيين في جزر الآسور البرتغالية يوم ١٦ مارس ووضعت الأمم المتحدة خارج اللعبة. وكان ذلك يعني نهاية المرحلة متعددة الأقطاب فيما يخص الولايات حول المسألة العراقية. بدءاً من الآن فصاعداً سوف يصبح

صوت أمريكا هو وحده المسموع. والقطب الأوحد والأعظم في العالم ما عاد يسمح بوجود أي قطب آخر يعارضه. ولو أن المشروع الداعي إلى استخدام القوة والمختبئ خلف الإنذار الخادع عرض على مجلس الأمن لكانت النتيجة واضحة : وهي أنه لن يحصل أبداً على أغلبية الأصوات وبالتالي لن يمر. ولذلك استبقت الولايات المتحدة الأمور وأشعلت الحرب بلا قرار من الأمم المتحدة.

وبعد بضع ساعات من توجيه الرئيس الأمريكي إنذاره إلى صدام حسين ابتدأت العمليات العسكرية. وكان رئيس المفتشين ووزير خارجية السويد سابقاً هانز بليكس قد استعرض أمام مجلس الأمن مشروع عمل المفتشين الدوليين في العراق. ولكن ما إن انتهى من كلامه حتى ابتدأ القصف المكثف على العاصمة العراقية وعلى مدن أخرى عديدة من البلاد. وراحت المدفعية الأمريكية تستهدف البنى التحتية التي تغذي البلاد بالماء والكهرباء من أجل شلّ الدفاع العراقي وإحباط معنويات السكان. وفي ذات الوقت دخلت القوات الأرضية العراق من حدوده الجنوبية. وفي مدينتي أم القصر والبصرة لاقت القوات الأمريكية مقاومة أكبر مما هو متوقع. ولهذا السبب فإنها راحت تتحاشى المدن والتجمعات البشرية الكبيرة لكي تتقدم بسرعة على الطريق حتى تصل إلى بغداد وتسقط النظام. وهذا ما كان.

١

فبعد ثلاثة أسابيع من المعارك دخل الجيش الأمريكي إلى العاصمة العراقية. وفي التاسع من أبريل قلب الجنود الأمريكان التمثال العملاق لصدام حسين الذي كان يشرف من عليائه على إحدى الساحات الكبرى في بغداد. وإسقاط التمثال كان يرمز إلى سقوط عهد بأسره. فسرعان ما انهار النظام العراقي بعد أن احتل الجنود القصر الرئاسي. وفي الأول من مايو/أيار ألقى الرئيس بوش خطاباً قومياً من على سطح حاملة الطائرات "أبراهام لينكولن" الراسية بالقرب من شواطئ كاليفورنيا. وأعلن فيه نهاية العمليات العسكرية الكبرى في العراق. وعندئذ فتحت مرحلة جديدة من تاريخ العراق. وأصبحت قوات التحالف مسؤولة منذ الآن فصاعداً عن إعادة الأمن إلى البلاد ثم إعادة إعماره.

وبعد أن أصبحت الولايات المتحدة سيدة البلاد اكتشفت صعوبات موقعها كقوة احتلال. فقد راحت تتعرض فوراً للمقاومة. صحيح أن المقاومة كانت متفرقة في البداية ولكنها سرعان ما اشتدت يوما بعد يوم وأخذت تحدث الأضرار في صفوف القوات الأمريكية وتسقط العديد من موتى وجرحى. والواقع أن الجميع أخذوا يدفعون ثمن هذا الوضع. فالقوات التابعة لدول التحالف أخذت تتعرض لضربات موجعة. ووصلت الضربات إلى الجماعة الدولية بأسرها عندما حصل تفجير مقر الأمم المتحدة يوم ١٩ أغسطس ٢٠٠٣ في بغداد. وقد

شمل التفجير أيضاً اللجنة الدولية للصليب الأحمر. وفي هذا التفجير الضخم قتل ممثل الأمم المتحدة في العراق سيرجيو فييرا دوميليو. هذا دون أن نتحدث عما حصل للسكان العراقيين الذين بدا عليهم الخوف والهلع مما يحصل.

في الواقع إن أغلبية العراقيين كانوا يعتقدون أن قوة الولايات المتحدة الهائلة سوف تحل لهم كل مشاكلهم دفعة واحدة مثلما أسقطت نظام صدام بسهولة وفعالية. ولكن نهب المتحف الأثري في بغداد تحت أنظار الجنود الأمريكيين اللامبالين أخذ يثير الحيرة والتساؤلات لدى الناس. وبدت أمريكا عاجزة عن مواجهة المشاكل الضخمة للعراق التي أصبحت مسؤولة عنها بعد احتلالها للبلاد. فهي مسؤولة عن إعادة إعمار البلاد، وعن تشغيل آلة مجتمع ضخم ومعقد، وعن ترسيخ الديمقراطية في بلد لم يعرفها في تاريخه قط. وخلال بضعة أشهر أصبح العراق مرتعاً للجماعات الإرهابية الأكثر دموية وفتكاً. وراحت هذه الجماعات تهاجم القوات العسكرية للتحالف. ثم صعّدت من عملياتها لكي تصيب المؤسسات التي تساهم في إعادة بناء البلاد كالماء والكهرباء والمنشآت البترولية، الخ... ثم راحت تقتل العراقيين أنفسهم عن طريق السيارات المفخخة دون هدف آخر غير نشر الفوضى والرعب في البلاد. ولم تكن لها استراتيجية أخرى غير استراتيجية المناوشات المستمرة. وقد حظيت هذه الجماعات الإرهابية

بدعم من الخـــارج وكــانت تتلقى المدد من خــلال الحــدود المجــاورة والطويلة التـي تصعب السيطرة عليهـا. وراح الوباء الإرهـابي يصل إلى الدول المجاورة. فسوريا أصبحت لأول مـرة ضحيـة الأعمـال الإرهـابيـة، وكذلك المملكة العربيـة السعودية التي ضُربت مؤخراً أكثر من مرة، وتم استهداف الأجـانب فيها بشكل خاص، وكانت الغـاية هـي زعزعة النظام الحاكم. وانتشـر وباء الإرهـاب كالغنغرينة في شتى أنحاء المنطقة, وراح يجـد له دعـمـاً في البلدان المحـيطة بالمتـوسـط ويوشك أن يصـل إلى الأراضي الأوروبيـة. وبالتـالي فقد أصبـح العـراق من وجهـة النظر هذه حقل تجارب للإرهابيين. كما أصبـح محرّضاً إيديولوجياً يبـرر النضال الأصولي المتطرف بحجـة محاربة الاحتلال الأجنبي. كمـا أصبـح قاعدة مـحـبّـذة لكل أنواع المتـاجـرات غيـر المشـروعـة والتـهـريب والمزاودات والتلقين العقـائدي لأفواج المتشددين. باختصـار : لقد أصبـح بؤرة لكل الأخطار.

ينبـغي ألا ننسى أن الحـروب التي جـرت مـؤخـراً كـانت الفـرصـة السـانحة والـذهبيـة لكي تزيد المنظمـات الإرهـابيـة من عـددهـا وعدتهـا. فقـد أتاحت لهـا بشكل مـبـاشـر وغيـر مـبـاشـر التـوصل إلى الأسلحـة والمتفـجـرات التي كـانت عصيـة عليـهـا سـابقـاً. كمـا سـهّلت لهـا تدريب الأشـخـاص المتـحـمـسين والوافـدين من بلاد مـختلفة، وقـدمت المبـررات لنضـالهم وجـهـادهـم. وهـذا الأمـر كـان ينطبق على البـوسـنـة بالأمس

عندما كانت ممراً منتظماً للعديد من الجماعات المتطرفة المرتبطة بالإرهابيين. وأما اليوم فقد أصبحت ممراً إجبارياً لجماعات الجريمة المنظمة. وهذا الأمر ينطبق أيضاً على أفغانستان التي انتشرت فيها معسكرات التدريب "للجهاديين" كما هو معلوم. فقد استقبلت على مدار سنوات عديدة أفواجاً كبيرة من هؤلاء. والآن جاء دور العراق. وقد أخذوا يسرحون فيه ويمرحون.

والسؤال المطروح الآن هو التالي : كيف يمكن أن يعيد الأمريكان الهدوء إلى البلاد؟ فلا أحد له مصلحة في استمرارية الفوضى وفقدان الأمن. على العكس، يظل من المهم بالنسبة لنا جميعا سواء أكنا أمريكيين، أم أوروبيين، أم محليين تابعين لدول المنطقة أن يستعيد العراق، أخيراً، توازنه واستقراره. ينبغي العلم بأنه إذا ما انقسم العراق على نفسه وانتشرت فيه الفوضى وسيطرت عليه الجماعات القومية والأصولية المتشددة أو الجماعات الانفصالية فإنه سيصبح بؤرة توتر واضطراب خطرة على كل المنطقة وليس عليه وحده. ولا يكفي أن يزيد الأمريكان من عدد قواتهم هناك لكي تحل المشكلة. فهذا لن يؤدي إلا إلى زيادة المقاومة وتصلّبها أكثر فأكثر. كما سيزيد من انضمام أعداد جديدة من المتشددين والكاميكاز إلى هذه المقاومة. وسوف يغذّي العنف بشكل كبير.

وهكذا راح الخوف يستقر في كلا المعسكرين، معسكر قوات التحالف ومؤيديها، والمعسكر الآخر. وهذا الانقسام يحول دون التعاون والعمل المشترك الضروري لكي تسترجع البلاد عافيتها وتقف على قدميها. وهذا الوضع المتفجر يجعل المستقبل مظلماً ويمكن أن يؤدي إلى أسوإ أنواع الانحرافات، أي إلى ممارسة التعذيب وارتكاب أعمال العار التي لا تحتمل. وهذا ما حصل في سجن أبي غريب الذي وصلتنا عنه صور مخجلة يندى لها الجبين. إنها صور المساجين وكيفية تعذيبهم بوحشية. وهي صور أقلقت ضمير العالم وصدمته. إنها الشهادة المزعجة على أن المغامرة الأمريكية في العراق ضلّت طريقها وانحرفت عن مسارها ومقصدها الأولي. وكذلك تبرهن على حقيقة وصول الأمور بديمقراطية كبرى، كالديمقراطية الأمريكية، إلى حد أنها انتهكت القيم التي جاءت للدفاع عنها في العراق!...

يجدر بنا أن نعلم أنّ كل حدث تاريخي يخضع لسببيّته الذاتية ولقواعده الخاصة. ولكن ينبغي أن نتذكر دروس الماضي لكي نفهم الحاضر ولا نرتكب نفس الأخطاء. فكل الفتوحات ترافقها انحرافات. وأكبر دليل على ذلك فتوحاتنا نحن الفرنسيين عندما غزونا إسبانيا عام ١٨٠٨ بقيادة نابليون بونابرت. وكان آنذاك في ذروة عظمته ومجده. فبعد أن انتصر على أعدائه في معارك أوستيرليتز، وإيينا،

وفيـردلاند، لم يعـد له أي منافس عسكري على القـارة الأوروبيـة. بل أكثر من ذلك، فقد أصبح له حليف في شخص قيصـر روسيـا. وهكذا راحت الإمـبـراطورية الفـرنسـيـة الكبـرى تتشكل بعد أن أصـبح إخـوة نابليون ملوكاً على هولندا ونابلي في إيطاليا، ثم بعد أن أصبح أخوه جيـروم ملكاً على مملكة ويستفاليـا الجديدة في ألمانيـا. وهـي مملكة أُقيمت على أنقاض بروسيا التي بُتر منها للتو نصف أراضيها. ولكن إذا كانت فرنسا تهيمن عسكرياً على أوروبا، فإنها كانت تريد أيضـاً تجديد الجسـد المهترئ والمنخور لأوروبا الإقطاعيـة الملكيـة الأصوليـة عن طريق نشر نموذجها الإداري والمؤسساتي والتنويري في كل مكان. وهو النمـوذج المتجسد برؤسـاء المحافظات والقـانون المدني. وهذا يعني أن القوة العسكرية كانت تمشي بشكل متساوق مع تقدم الفكر والروح. وكانتا تتقدمان جنباً إلى جنب. وكانت الهيمنة الفرنسيـة تعتقد أنهـا مبـرَّرة ومشـروعة عن طريق إخلاصها لمبادئ الثورة الفـرنسيـة ونشرها في العالم. وهـي مبـادئ تحمل راية الحرية والمسـاواة والإخاء وحقـوق الإنسان والمواطن ومحـاربة التعصب الديني والجهل. ولما أصبح نابليون حـراً من كل عـرقلة ولا شيء يقف أمامـه أصـبح يتـجـرأ على فعل كل شيء. فحتى ذلك الوقت كان ينتظر أن يُهاجم لكي يرد على المعتدين عليـه. وهذا مـا يضعـه في موقع الدفاع عن النفس أمام الرأي العـام الفـرنسي ويضـمن الالتفـاف المقدس للجميع حول شخصـه. كل هذا

صحيح. ولكنه لم يكن قد هزم إنجلترا بعد. ومعلوم أن غناها أو ذهبها راح يتدفق على ملوك أوروبا الآخرين ويؤدي إلى تشكيل أول تحالف ضده. وبما أنه يعلم باستحالة غزوها انطلاقاً من ترافلغار[١٠٩] فإنه راهن منذ نهاية ١٨٠٦ على خنقها اقتصادياً عن طريق حصارها القارّي: أي عن طريق منع أي تبادل تجاري بين القارة الأوروبية والجزر البريطانية. ولكي يحكم هذا الحصار حولها فإنه اضطر إلى السيطرة على شواطئ أوروبا عن طريق التحالف مع الآخرين ودياً أو إجبارهم على ذلك بالقوة. ضمن هذا السياق أصبحت إسبانيا تحتل مكانة إستراتيجية حاسمة. وأصبح غزوها محتوماً. والواقع أنه إذا كانت البرتغال ميّالة إلى إنجلترا فإن إسبانيا بدت حليفاً مخلصاً للإمبراطور، وذلك على أثر الميثاق العائلي الشهير الذي عقده شوازول[١١٠] معها.

وقد استغل نابليون انقسامات العائلة الإسبانية المالكة وارتكب ما لا تحمد عقباه عندما نصب الكمين في منطقة "بايون" لملك إسبانيا. وبدلاً من الوساطة الموعودة لحل المشكلة لجأ النسر[١١١] إلى ضم إسبانيا بشكل مقنَّع إلى فرنسا. فقد أجبر الملك شارل الرابع وابنه على التخلي عن العرش لصالح أخيه جوزيف بونابرت. ولما كان نابليون تلميذاً مخلصاً لفلسفة الأنوار فإنه كان مقتنعاً بأن كل إسبانيا سوف تنهض متحمسة لاستقباله من أجل تجديدها أو بعثها من رقادها

الإقطاعي والانحطاطي على يديه. ولكنه كان مخطئاً في التقدير خطأً جسيماً. فالواقع أنه جهل عاملين أساسيين : الأول هو العزّة القومية للشعب الأسباني، وهي عزة تشكلت أثناء مقاومته للغزو الإسلامي. والثاني هو أن الطابع الأساسي لذلك المجتمع كان تمسكه الشديد بسلالته المالكة وبمذهبه الكاثوليكي المسيحي. وبالتالي فلا تنوير يغريه ولا من يحزنون. وإنما هو متعصب لمذهبه ودينه وقوميته بالدرجة الأولى.

وهكذا راحت أناشيد مايو الحماسية تعلن بدء الانتفاضة الإسبانية ضد الاحتلال الفرنسي. وقد انتشرت في كل أنحاء البلاد بالسرعة القصوى. واصطدم جيش نابليون الذي كان يعتبر آنئذ أقوى جيش في العالم، تماماً مثل الجيش الأمريكي الآن، أقول اصطدم بحرب المغاوير السرية واللامرئية للشعب الإسباني. وراحت هذه المقاومة تستخدم ضده كل أساليب الإيقاع، والضربات المفاجئة، والكمائن. ولم يكن قادراً على ضرب هؤلاء الفدائيين الذين سرعان ما يذوبون بين السكان ويختفون. وراح القتل يرد على القتل، والذبح على الذبح، والتعذيب على التعذيب من كلا الطرفين. وقد تم ذلك في ظروف وحشية مرعبة وتحت أنظار المسكين جوزيف بونابرت الذي بدا عاجزاً عن فعل أي شيء. لقد حاول أخو نابليون أن يوقف المجزرة ولكن عبثاً. كان يريد بذلك أن ينال مودة "رعيته" الإسبانية وتقديرها. ولكنه لم

يحصل على أي شيء. وبعد خمس سنوات اضطر الجيش الكبير -أي جيش نابليون- إلى العودة على أعقابه صاغراً بعد أن قطع الحدود الإسبانية-الفرنسية في منطقة "بيداسوا" في الاتجاه المعاكس. وبعد رحيله استلم الحكم الجناح الإسباني الشديد التعصب والرجعية والإجرام. وراح يمعن القتل والذبح بالنخبة الليبرالية المستنيرة في البلاد لأنها تعاونت مع المحتل على حد قوله. وهكذا أدت حملة نابليون إلى عكس النتيجة المتوخاة منها.

لقد كان التدخل الفرنسي مصمَّماً على هيئة المنطق العسكري للحرب الوقائية ضد إنجلترا ولكنه باء بالفشل وأدى إلى عكس مقصوده كما قلنا. فهو لم يؤد فقط إلى تسريع سقوط إمبراطورية نابليون بونابرت في فرنسا، وإنما أدى أيضاً إلى تشويه المثل العليا للثورة الفرنسية وفقدانها لمصداقيتها في نظر الشعب الإسباني. وساهم ذلك ضمن ظروف مأساوية مرعبة في تأخير مسيرة إسبانيا نحو الحرية والديمقراطية والتنوير. كما ساهم إلى حد كبير في إضعاف فرنسا وفقدانها لهيبتها ومصداقيتها في كل أنحاء أوروبا وذلك عن طريق جرح مشروعيتها الأخلاقية بشكل قاتل. فلم يعد أحد يصدق أنها الأمة الكبيرة المحرِّرة للشعوب الأخرى : أي الأمة التي تجسد المثل العليا والقيم الإنسانية الرائعة التي يتضمنها إعلان حقوق الإنسان والمواطن. وهذا ما فهمه جيداً ماكسميليان روبسبيير عندما

قال عبارته الشهيرة :"لا أحد يحب المبشّرين الفاتحين إذا كانوا مدججين بالسلاح".

ولذلك نقول إن المستقبل العراقي في اللحظة التي نكتب فيها هذه السطور يبدو غير واضح المعالم وغير مضمون. والسؤال المطروح هو التالي: هل ستودي إعادة السيادة العراقية إلى البلاد بتاريخ ٢٨ يونيو ٢٠٠٤ إلى تدشين حقبة جديدة إيجابية وتعطي الثقة لسكان هذه البلاد؟ وكم يلزم من الوقت لكي تنتهي التفجيرات وأعمال القتل والذبح؟ وهل ستنتصر قوى النظام والأمل والمستقبل في نهاية المطاف على تلك القوى الشريرة التي تريد قتل كل أمل وكل مستقبل؟ هذه هي الأسئلة المطروحة على العراق الآن.

أخيراً سوف أقول ما يلي :

ينبغي أن نتقدم إلى الأمام معاً، جنباً إلى جنب، يداً بيد، سواء أكنا غربيين أم شرقيين. ولكن لماذا أعود إذن إلى تلك المحنة؟ طالما نظرت إلى وجوه المحاربين القدماء الذين شاركوا في الحربين العالميتين الأولى والثانية في فرنسا. وطالما تفحصت تلك الوجوه لكي أفهم معانيها وما يرتسم عليها من دلالات. ولكني وجدتها صامتة تريد أن تسدل الستار على سنوات النضال والكفاح إما خجلاً وكبرياء وإما عن خيار مقصود. ولكني أثق بالكلمات التي تطبع حروفها على ذاكرة الأعاصير. أقول ذلك وبخاصة أن الأزمة العراقية ليست كغيرها من

الأزمات. فهي ليست مجرد حادثة إضافية تحصل في مسار العالم الكبير. وإنما هي تشكل قطيعة كبرى في تاريخ عصرنا. إنها تفتح طلاقاً ممكناً بين ثقافتين ودينين مختلفين : أي الثقافة العربية الإسلامية من جهة والثقافة الغربية العلمانية أو المسيحية من جهة أخرى. وبالتالي فتلزمنا جرأة كبيرة وطاقة ضخمة وتصميم هائل لكي نستطيع أن نعيد المصالحة بين كلا الشعبين اللذين هما متعطشان لمعرفة بعضهما بعضاً في الواقع. نعم إن التراجيديا العراقية هي بمثابة الفخ الذي سقطنا فيه جميعاً والذي قد يؤدي إلى الكارثة، أو إلى العكس قد يؤدي إلى استشعارنا بالخطر الأعظم فننتفض من جديد ونصعد الطريق على خاصرة العالم بطاقة خلاقة. بمعنى آخر فإن هذه الكارثة تحمل في طياتها كلا الاحتمالين : الخير أو الشر، الولادة الجديدة أو الموت والدمار. ورب ضارة نافعة كما يقول المثل.

بعد ضربة ١١ سبتمبر شعرت الولايات المتحدة بإحساس غريب وتناقضي في آن. لقد شعرت بالخوف الكبير لأنها ضربت لأول مرة في عقر دارها بهذا الشكل أو بهذه الطريقة العمياء والصارخة. ولكن رافق ذلك شعورها بالقوة والعظمة بعد أن أصبحت الدولة الأولى في العالم. وبالتالي فهي تشعر بالهشاشة، ومن جهة أخرى تشعر بقوة عملاقة لاتكاد تسيطر عليها. هذا هو إحساسها المزدوج عشية ١١ سبتمبر. ولولا هذا الشعور لما انتهجت هذه السياسة الهجومية

الجديدة، ولكانت اتخذت موقفاً آخر من الأزمة العراقية. وبالتالي فالعراق دفع بشكل مباشر أو غير مباشر ثمن ضربة ١١ سبتمبر. ولولا أن الإيديولوجيا الأمريكية كانت قد أصبحت عنيفة ولا تؤمن إلا بلغة القوة لربما كانت فرنسا قد غيرت من طريقتها في مواجهة الأزمة واتبعت أسلوباً آخر لخوض المعركة الدبلوماسية غير الذي اتبعته. ربما كنا لجأنا عندئذ إلى النصيحة الأخوية الهادئة خلف الجدران، أو ربما كنا سنتركهم يفعلون ما فعلوه باعتبار أنه محتوم وذلك من أجل زيادة مردود الإجماع الدولي. ولكن عندما رأينا مدى جهل الأمريكان بحقائق الشرق الأوسط، عندما رأينا مدى شراسة إيديولوجيا المحافظين الجدد وتصميمها على استخدام القوة في العراق اليوم وربما في مكان آخر غداً قررنا أن نصمد حتى النهاية في مجلس الأمن وأن نعارض السياسة الأمريكية أياً يكن الثمن المدفوع. ولذلك حافظنا على المبادئ ولم نتزحزح عنها قيد شعرة. ولذلك خضنا معركة الدفاع عن المشروعية الدولية بكل قوة في إفريقيا، وأمريكا اللاتينية، وآسيا.

لا ريب في أن المنعطف الكبير حصل في بداية عام ٢٠٠٣. عندئذ، وبعد أن سمحت الإدارة الأمريكية للدبلوماسية بأن تعبر عن نفسها لفترة، طوت الصفحة وابتدأت تفكر في الحرب جدياً. وهكذا قضوا على بعثة المفتشين الدوليين في العراق بعد أن كانت قد ابتدأت بالكاد.

وراحوا يقولون في واشنطن : لماذا كل هذا التعب؟ هذا لا يفيد في شيء، فصدام لا تنفع معه إلا لغة القوة. وهكذا راح كل شيء يمشي باتجاه استخدام القوة العسكرية الضارية. ولم يعد أحد قادراً على إيقاف التصعيد. وراحوا يقولون بأن الحرب سوف تؤدي إلى السلام والديمقراطية في العراق وفي كل منطقة الشرق الأوسط. وكنت أقول لهم في كل اجتماع يعقده مجلس الأمن : هناك طريق آخر ممكن غير طريق الحرب. انتبهوا إلى خطورة الوضع. فالحرب لا يمكن إلا أن تنكأ الجراح بين العالم العربي والغرب وتزيد العنف أضعافاً مضاعفة. قلت لهم ذلك وكررت القول أكثر من مرة، ولكن لا سميع لمن تنادي. وفي ١٤ فبراير، في ذلك الاجتماع الشهير لمجلس الأمن، كنت أتحدث من أجل اليوم ومن أجل الغد، من أجل المستقبل والتاريخ. وقد تكلمت لكي أقنع السامعين ولكي أمس قلوبهم مدفوعاً بتأثير ذاكرة وأمل الكثيرين من الفرنسيين والأوروبيين والشعوب الأخرى المتآخية. وفي ذلك الاجتماع الشهير حصلت مواجهة بيني وبين كولن باول ولم تعد المسألة مسألة "دلائل" أو "براهين" على امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل أو على تعاطيه للعلاقات السرية مع "القاعدة". لم تعد مسألة تلاعبات وأكاذيب، وإنما أصبحت مسألة رؤية عامة للعالم أو عدم وجود رؤية على الإطلاق ! لم تعد مسألة حسابات صغيرة عن عدد المنتجات السامّة التي يمتلكها العراق وإنما أصبحت أكبر من ذلك

بكثير. وكانت فرنسا آنذاك تمتلك إلى جانبها معظم دول الشمال والجنوب عندما وقفت في وجه الولايات المتحدة. وكنت فخوراً في تلك اللحظة لأني المسؤول عن إسماع الصوت الفرنسي إلى العالم بصفتي وزيراً للخارجية. فهذا الصوت طالما هزّني بكل أمجاده العريضة وأعماقه التاريخية العريقة. وفجأة أحسست بقوة الصوت ما إن فتحت فمي وتكلمت، فجأة رحت أدرك مدى حجم أصدائه وأبعاده العالمية.

لقد وجدت الرؤية والقناعات التي جسّدها جاك شيراك على المسرح الدولي طيلة سنوات عديدة هنا أفضل تجلياتها. فقد كانت له ميزة التدخل الإنساني في البوسنة، وأفغانستان، والشرق الأوسط دفاعاً عن قيم الحرية والعدل والرؤيا المستنيرة. كانت له ميزة الانخراط بلا هوادة لمصلحة الشعوب المضطهدة والناس الأكثر فقراً. كما دافع عن الحوار بين الثقافات والأديان المختلفة، وكذلك عن التنمية الدائمة لشعوب الجنوب. وكان في الخط الأول من جبهة النضال ضد انتشار أسلحة الدمار الشامل والإرهاب. هنا أيضاً كان جاك شيراك الرائد الذي دلّنا على الطريق. ويوماً بعد يوم كنت أراقبه وهو يتابع هذه القضايا بكل رصانة لا يمكن أن تكون إلا ثمرة التأمل العميق والتجربة الطويلة في الحياة والسياسة. كم من المرات رأيته منتفضاً ضد احتقار الكرامة الإنسانية، وضد التعصب واللامبالاة، رافضاً النزعة الوعظية لبعض أولئك الذين يتجلببون بجلباب الأخلاق

من أجل إعطاء الدروس للآخرين وهم لا يفعلون شيئاً. كم رأيته حريصاً على مواصلة الحوار بين البشر من مختلف المشارب والآفاق. لقد رأيته ذا تصميم عال وإرادة حديدية عندما ينخرط في الممارسة العملية. ورأيته منفتحاً على التبادلات الإيجابية بين الشعوب ولكن رأيته أيضاً رافضاً للخوف والضعف أمام الباطل وكذلك رافضاً لروح المساومة والتلوث والانبطاح. والواقع أن جاك شيراك يعرف معنى الحرب. وقد رأيته أحد أيام الصيف عام ١٩٩٥ بعد أن سمع بحصول تفجير إرهابي في محطة المترو بشارع سان ميشيل وسط باريس، وقد طلب مني آنذاك أن أرافقه إلى مكان الحادث. وفي سيارته العتيقة من طراز "سيتروين" رأيته يقودنا عبر الشوارع العريضة وكان كل فكري مرتكزاً على مشهد آلام الجرحى والقتلى الذي ينتظرنا بعد قليل. وكانت أصوات صفارات الإنذار تحيط بنا من كل الجهات وتحاول شق الطريق أمامنا في الشوارع المزدحمة بالسيارات.وقد خفض الرئيس زجاج نافذته قليلاً وراح ينظر إلى المارة والأشجار التي تتراءى أمامه على مدار الطريق. وبعد أن استغرق بتفكيره لفترة صمت طويلة قال لي : عندما كنت ضابطاً شاباً في جبال الجزائر غالباً ما وجدت نفسي في مواجهة الموت. والواقع أنك لا تستوعب العزاء أبداً عن موت أحد جنودك. ولكن بعدئذ ينبغي أن تعيش بقوة أكبر".

الفصل الرابع

روح العالم

الفصل الرابع

روح العـــالم

إن الوعي البشري إذ يجد نفسه محاصراً بزوبعة الحقد والتعصب الديني الأعمى يشعر بالخوف فيخرس صوته وينتابه الشك ويبدو عاجزاً عن فعل أي شيء. فالقناعات الراسخة تتحل، والقيم تتفكك تحت ضغط الأحداث المتلاحقة. والرهان الأكبر لما يحدث في منطقة الخليج لا يخص فقط الولايات المتحدة الأمريكية والعراق، وإنما يخص أيضاً إرادتنا في عدم ترك سوء التفاهم يخيّم على العلاقة بين الشعوب وبخاصة بين العالم العربي والغرب. ولهذا السبب ينبغي أن نتخلص من ضغط الأحداث اليومية علينا ونرتفع فوقها أو نتخذ مسافة عنها لكي نستطيع أن نفهم المعنى العميق للغيْريّة : أي للآخر المختلف عنا ثقافة وديناً.

ينبغي العلم بأن الفرص السانحة للالتقاء بين الشرق والغرب طالما ضيعناها على أنفسنا في الماضي. "فأطول حلم في التاريخ" بحسب تعبير المفكر الفرنسي بنوا ميشان، أي حلم اللقاء بين الشرق والغرب، كان قد ابتدأ مع الاسكندر المقدوني. وهو يمتد عبر التاريخ حتى يصل

إلى السياسي الفرنسي لويس ليوتي مروراً بيوليوس قيصر، وفريديريك دو هوهنستوفين، ونابليون بونابرت. ومعلوم أن نابليون الذي فشل أمام حصار عكا ولم يتعزَّ أبداً عن ذلك الفشل الذي سدّ عليه أبواب العالم قال : "الشرق لا ينتظر إلا رجلاً" يعرف كيف يحرّره أو يوقظه من سباته العميق. والواقع أن تأسيس معهد مصر على يد نابليون والعلماء الذين اصطحبهم معه كان يشكل حدثاً لا مثيل له بالنسبة لتلك الفترة. فقد كان يعني إحلال الحوار بين الثقافات محل الهيمنة العسكرية للغرب على الشرق. وكان الفاتح الفرنسي يفهم هذا الحوار على أساس أنه تبادل أو تفاعل بين الثقافتين الشرقية والغربية من خلال احترام خصوصية وهوية كل منهما. هكذا نلاحظ أن المنتصر في معركة "لودي"[١١٢] كان يأمر قواته باحترام الإسلام ويوكل بعض المسؤوليات إلى النخب المحلية المصرية لكي يشركها في حكم البلاد. وعلى الرغم من فشله التراجيدي في مصر إلا أن هذا الرجل ذا الروح المنفتحة على الآخرين استطاع أن يزرع بذور التأثير الحضاري الأوروبي الذي استمر حتى يومنا هذا. وتشهد على ذلك ديناميكية المعهد الفرنسي في القاهرة الذي هو عبارة عن استمرار للمعهد الذي أسسه نابليون بونابرت قبل مائتي سنة أو أكثر. يضاف إلى ذلك أن محمد علي الكبير أصلح مصر وبنى نهضتها بمساعدة المستشارين والمهندسين الفرنسيين. والكثيرون يقولون بأن يقظة مصر والمشرق العربي ابتدأت بعد حملة نابليون بونابرت عام ١٧٩٨.

في الواقع إن العديد من الكتّاب الأوروبيين وهواة المغامرة كانوا تواقين للرحيل إلى المشرق، لاكتشاف الشرق. وقد ابتدأ ذلك منذ القرن الثامن عشر وعلى مدار أجيال متلاحقة. نقول ذلك ونحن نعلم أن رحلة فولني[١١٣] إلى سوريا ولبنان كانت قد سجلت في كتاب أصبح كلاسيّاً لاحقاً. ومعلوم أن نابليون اطلع على هذا الكتاب واستفاد منه قبل أن يقوم بحملته على مصر وفي أثنائها من أجل التعرف على عقلية الشرقيين لكي يعرف كيف يتعامل معهم عندما يصل إلى هناك. ومعلوم أيضاً أن الكتّاب الفرنسيين من أمثال شاتوبريان، ولامارتين، وجيرار دونيرفال قاموا برحلات رومنتيّة إلى المشرق. وفي حين كانت إنجلترا مقصد كل أولئك الذين يريدون التعرف على الفكر السياسي، فإن المشرق ظل على مدار الأزمان محجة لكل من يرغبون في التعرف على الدين، والثقافة، وحلم الجمال.

وفي عصرنا هذا، عصر التواصلات والشبكات، عصر الإنترنت والبُعد الثالث نجد أن كل شيء ينثال علينا من كل حدب وصوب دفعة واحدة، سواء أكان قريباً أم بعيداً. كل شيء أصبح في متناول أيدينا إلى درجة أن جاذبية اللقاء أو متعته تبخرت ولم تعد كما كانت. فأنت في غرفتك الصغيرة تستطيع أن ترى العالم كله من خلال الفضائيات التلفازية وبكل اللغات. وتستطيع من خلال الإنترنت أن تتواصل مع العالم كله في طرفة عين. وبالتالي فالرغبة في السفر إلى الأماكن

البعيدة أصبحت تخفّ وتتلاشى، والتعرف على الشرق الغرائبيّ بكل مناظره الساحرة لم يعد مغرياً كما كان عليه الحال في زمن شاتوبريان وجيرار دونرفال. أصبح كل شيء في متناول يديك من بضائع ومنتوجات وماركات. كل شيء تحول إلى سلعة رخيصة في عصر الاستهلاك الكوني بما فيها الرحلات المنظمة من قبل وكالات السفر. أصبح السفر حول العالم كله يستغرق ثمانين ثانية فقط بالإنترنت وهو ليس إلا رحلة حول الذات. هل يعني ذلك أن إغراء السفر قد انتهى؟ بالطبع لا. ولكنه السفر القاصد للتعرف على الآخر فعلاً وليس المرور أمامه دون أن تراه. إنه السفر الذي يشكل مجازفة للتعرف على أولئك الذين يختلفون عنا لغة وديناً وشكلاً، إنه السفر إلى خارج المكان المعهود بكل ما ينطوي عليه ذلك من مخاطر واكتشاف للمجهول. إنه السفر الذي يتخذ هيئة المغامرة.

ينبغي أن نؤمن بالإنسان وعظمته عندما يعرف كيف يتحرر من سلاسله وأغلاله، وعندما يتخلص من ثقل العالم وضغطه وينطلق حراً قوياً. ينبغي أن نؤمن بالإنسان عندما يحدد المعايير والمقاييس لتصرفاته وسلوكه، وعندما يثبّت القواعد والمبادئ التي تخلع المعنى على وجوده. وينبغي أن نؤمن بقوة النزعة المثالية عندما تتوصل إلى تشكيل الحياة أو صياغتها على هواها. نعم إن الإنسان قادر على صنع المعجزات. ونحن اليوم بحاجة لأن نرفع راية قيمنا عالياً، ولأن نستعيد

قوة مبادئنا ومثلنا العليا. وأقصد بذلك مبادئ التنوير والثورة الفرنسية وحقوق الإنسان والحرية والعلمانية والديمقراطية. ولن نفعل ذلك من أجل محاربة أولئك الذين يقفون في وجهنا أو يحملون قيماً مختلفة عن قيمنا وإنما من أجل أن نعيد الصلة بتلك الروح الاستكشافية التي أتاحت لأوروبا أن تصبح منارة العالم ووفيةً لتراثها المتمثل بالانفتاح والحوار. ينبغي أن نتجاوز مرحلة الندم وتأنيب الضمير والصمت. وهي مرحلة عشناها بعد نهاية الاستعمار مباشرة وبسببها. فالإنسان كان دائماً قادراً على اكتشاف الطريق الصحيح لكي يخرج من حطام الماضي. فلنحاول، بدورنا، أن نعرف كيف نعيد الصلة بتلك المرونة الفكرية التي صنعت مجدنا في الماضي والتي هي وحدها القادرة على إخراجنا من ورطتنا الراهنة.

من هم أعداؤنا اليوم؟ هل هم الطغاة؟ أم الإرهابيون؟ أم الفقر المدقع الذي يصيب مئات الملايين على سطح الأرض؟ أم التعصب الديني الأعمى؟ كلها من غير شك. وذلك لأن جراحات العالم المعاصر وهمومه عديدة. وعلى سبيل العادة والضعف والخوف فإن الإنسان بدلاً من أن يواجه مشاكله بكل شجاعة وجهاً لوجه، فإنه ميّال إلى خلط الأشياء بعضها ببعض من خلال ضراوته واستشراسه ضد عدو شيطاني أو مُشَيْطَن، إنه يخلق عدواً خيالياً لكي يقاتله. لا ينبغي أن نسيء تقدير أهمية الصور الخيالية أو الكاريكاتورية التي يشكلها

أبطال هوليود عن أتباع بن لادن. فكل طرف ميّال إلى تشكيل صورة شيطانية مرعبة عن الطرف الآخر. ولكن لنعد إلى أرضية "الواقع الخشن" كما يقول رامبو ولننزل من سماء أحلامنا الوردية لكي نحبط الأفخاخ المنصوبة لنا عن طريق المكر والحيلة.

ونحن أمام خيارين لا ثالث لهما : إما موقف أجاكس الهاجم بكل شراسة على أسوار طروادة، وإما موقف أوليس الذي عثر من خلال حصان طروادة على حيلة أكثر فعالية من الهجوم العنيف والمباشر. إذا ما استخدمنا طريقة أجاكس في الحروب فهذا يعني أننا سنواجه العدو وجهاً لوجه ونقدم له كل ساحات المعركة التي يحلم بها لكي يصارعنا ويصيبنا بأكبر الأضرار. أما إذا استخدمنا طريقة أوليس فإن هذا يعني أننا سنقوم بتعديل أسلحتنا لكي تتأقلم مع ضرورات الوضع الذي نواجهه. وهكذا نصبح مثله متعددين، كتومين، فطنين أو ماهرين. من المعلوم أن أوليس يتميز عن كبار أبطال هوميروس الآخرين بمقدرته على استخدام وسائل أخرى غير القوة. فبما أنه أقل ضخامة جسدياً من أغاممنون فإنه يستطيع بواسطة مرونته ورشاقته أن يرتفع إلى مستوى أجاكس في ساح الوغى. كما يستطيع أن يجمّع هذه القوة في بؤرة واحدة وفي توظيفها بكل فطنة وبصيرة. وعلى مدار الأوديسة نلاحظ أنه يحلل كل حالة صعبة يجد نفسه فيها. إنه يحللها بذكاء ويستخدم حذره وتبصره لكي يتغلب عليها. ويحاول أن

يتحاشى تلك المخاطر العديدة التي يلاقيها في طريقه وبخاصة ذلك الفخ الذي تنصبه له كايسبو عندما تعده بالخلود. وعن طريق الحيلة والمكر فإن أوليس يعرف كيف يتحاشى مخاطر البحر الهائج، وكيف يقاوم أناشيد جنيات البحر وإغراءاتها وكيف ينجو من سيكلوب. وبالإضافة إلى هذه المهارة المتعددة الأوجه فإنه يتحلى بالرزانة والحكمة. وهاتان الصفتان هما اللتان تشكلان بطولته الحقيقية. وبهذا المعنى فهو المحميّ والمختار بالفعل من قبل أثينا، وليس منافسه أجاكس.

أما في القرن العشرين فنلاحظ أن الحيلة والبركة قد اجتمعتا في جسد غاندي الهزيل والهش. ومعلوم أنه كان مسكوناً بعقيدة اللاعنف. وقد تنقل من غوجارات، موطنه الأصلي، إلى لندن حيث أكمل دراساته العليا، إلى إفريقيا الجنوبية حيث شاهد سياسة التمييز العنصري بأم عينيه وعانى منها. وعلى مدار كل هذه الرحلة الطويلة كان يحلم بشيء واحد هو : استقلال بلاده، الهند. وبعد أن اكتشف قوة المقاومة السلبية عرف كيف يعكس مسار التاريخ وينتصر على قوة أكبر منه بعشرات المرات : هي قوة المستعمر الإنجليزي. وقد استخدم سلاح المظاهرات السلمية الصامتة ولكن الضخمة، وكذلك سلاح المقاطعة واحتلال المباني العامة للدولة. وبرهن هو وآلاف الهنود الذين اتبعوه على أن المقاومة السلمية العنيدة استطاعت أن تنتصر في النهاية على

القوة المدججة بالسلاح للمستعمر الإنجليزي. ثم أصبح بعدئذ والد الوطن الحر وأباً لكل الأمة الهندية. ولكنه فهم فوراً مدى الخطر الذي تشكله الصراعات الدينية بين الهندوس والمسلمين على استقرار بلاده المستقلة حديثاً. وقد سقط صريع الرصاصات التي أطلقها عليه متعصب هندوسي بعد أن كان قد انتهى للتو من وضع حد لصيامه من أجل أن يتحقق السلام في نيودلهي وتنتهي المجازر الدينية. وهذه النهاية الفاجعة والعنيفة لمؤسس عقيدة اللاعنف في النضال السياسي تدلنا إلى أي مدى يمكن أن يصل التعصب والهوس الأعمى.

إن أوليس وغاندي يجسدان المثل الأعلى للبطولة والفضيلة الشخصية. وفيما وراء كل ذلك فإنهما يكشفان لنا عن معنى النضال الحكيم والعاقل والإنساني عندما يصل إلى ذروته. إنهما يجسدان الحكمة من خلال الانخراط، والانخراط من خلال الحكمة، لا الطيش ولا العنف ولا التهور على عكس أجاكس وسواه. وفيما كانا يرفضان الاستسلام للأمر الواقع فإنهما كانا واعيين بكل عمق للمحدودية التي يفرضها علينا الواقع مهما كانت قوانا ضخمة. وبالتالي فهناك دائماً جدلية بين إمكانياتنا وبين الواقع، والتقدم المتحقق هو حصيلة هذه الجدلية. فنحن عندما ننخرط في تغيير الأمور تصطدم قوانا بثقل الواقع ورواسبه وعراقيله وربما تكسرت رؤوسنا على صخرة الواقع. وقد فهم أوليس وغاندي أن الحيلة هي التي تتيح لنا أن ننجو من

الحلقة المفرغة للمواجهة المباشرة والشرسة مع الأعداء. والحيلة بهذا المعنى ذات قيمة إيجابية لا سلبية. بل إنها قمة الإيجابية لأنها تمنع سقوط آلاف الضحايا البشرية. فلماذا المواجهة المباشرة والمكشوفة إذن؟ لماذا هذه العنترية والبطولة الفارغة؟

إعادة اكتشاف الآخر

من المعلوم أن الأنظمة الشمولية كانت تستخدم دائماً العاطفة الوطنية وتمجدها أكثر مما ينبغي وترتكز عليها لكي تجعل منها أداة لهيمنتها على المجتمع. وهذا ما فعله ستالين عندما استخدم أفلام ايزنشتاين لكي يحمّس الروح الروسية ويمجدها أثناء الحرب العالمية الثانية. وعن طريق ذلك كان يسيطر على الجماهير السوفييتية ويدفع بها إلى ساح الوغى ويجعلها تطيعه بشكل أعمى. وهذا ما فعله صدام حسين عندما أشاد بالملحمة البابلية وتاريخ وادي الرافدين القديم واعتبر نفسه بمثابة نبوخذ نصَّر لكي يهيمن على الشعب العراقي ويزج به في الحرب مع إيران ويفعل به ما يشاء. وبالتالي فالعملية نفسها تتكرر في كل مرة. بمعنى أن هؤلاء المستبدين يستخدمون الهوية القومية أو الدينية كالاسمنت المسلح لكي يرصوا الصفوف ويشدوا عرى التماسك الوطني رافضين التأثيرات الأجنبية عن طريق استخدام العنف. وذلك لأنه يحصل عندئذ تعصب أعمى للهوية، تعصب يرفض الآخر بشكل مطلق ودون أي نقاش.

ولكن هل ينبغي أن يدفعنا هذا الوضع المتوتر إلى التراجع عن تاريخنا وإنكار هويتنا الديمقراطية؟ لا. ألا يوجد طريق آخر غير التخلي عن قيمنا من جهة، والدفاع الأعمى عن الهوية من جهة أخرى؟ هناك طريق ثالث غير هذين الطريقين. وهو يتمثل في الذهاب لملاقاة الآخر دون محاربته ودون أن نفقد المعالم والصوى والقيم الخاصة بنا. فنحن أبناء المجتمعات الديمقراطية المتقدمة يمكن أن ندافع عن قيمنا الحديثة والإنسانية الحرة دون أن نكره الآخر الذي يتعصب لهويته بشكل أعمى ودون أن نخشاه أو ننهزم أمامه ودون أن نتخلى عن قيمنا من أجل إرضائه. وينبغي العلم بأن فرادة الإنسان وتميزه على كل المخلوقات هما اللذان يتيحان له أن يشكل قواعد أخلاقية معينة تضبط سلوكه. ولكن هذه الأخلاقية تتخذ اليوم معنى آخر غير ذلك الذي كان شائعاً في عصر التنوير. وإلا فكيف نفهم أن القانون الأخلاقي الذي غرسته فلسفة التنوير بعمق كبير في الطبيعة البشرية قد تم الانحراف عنه وخيانته مرات عديدة على مدار التاريخ السابق. وهذه الخيانة هي التي سمحت بارتكاب أبشع أنواع المجازر البربرية والهمجية في القرن العشرين. انظر النازية والفاشية والفظائع التي ارتكبت في ظلهما. هذا بالإضافة إلى المجازر الاستعمارية في الخارج. والسؤال المطروح هو التالي : لماذا لم تمنع أخلاقية التنوير من ارتكاب كل ذلك؟ كيف نفسر هذه العودة غير المتوقعة إلى الوراء : أي عودة

البشرية الأوروبية إلى عصر الجهالة والهمجية؟ كيف يمكن أن نفهم هذا الضلال الذي أصاب هذه البشرية حتى أنساها أخلاقيتها الحضارية وجعلها تنكر جوهرها؟ كيف تأخرت بعد أن تقدمت؟ هذه هي الأسئلة التي تطرح نفسها على الغرب اليوم. وبالتالي فنحن مدعوون لاستخلاص النتائج والعبر من هذا الانحراف الذي طرأ على حضارة الغرب من أجل تشكيل أخلاقية جديدة تتجاوز الأخلاقية السابقة التي تشكلت في القرن الثامن عشر، أي في عصر التنوير بالذات. وينبغي على نزعتنا الإنسانية الجديدة أن تحمل في صميمها تجربة اللقاء بالآخر والتفاعل معه والاستفادة منه. وهي تجربة لا تعوض. فهذا اللقاء يتيح لنا أن نضع أنفسنا على محك الاختلاف، أي اختلافنا عن الآخر. وعند هذا الاحتكاك تغتني شخصيتنا وتتسع نزعتنا الإنسانية وتتخذ أبعاد العالم الجديد.

وعلى هذا النحو يتم تجاوز أخلاقية التنوير دون التخلي عنها أو عن مقاصدها الأساسية. على هذا النحو يمكن توسيعها لكي تستوعب خصوصية الآخر وليس فقط خصوصية الذات : أي خصوصية الغرب الذي شكلها. على هذا النحو تصبح نزعة إنسانية كونية أو بحجم الكون. وهذا هو معنى عصر ما بعد التنوير أو ما بعد الحداثة.

كانت النظرة الإثنولوجية، أي النظرة التي تدرس الآخر غير

الأوروبي وتهتم به، بمثابة علم قديم موروث عن الروح النقدية لعصر التنوير. ومنذ ولادة هذه النظرة أو تشكلها قبل قرنين أصبح الاعتراف الكامل بالآخر يشكل القاعدة الأساسية للمجتمعات الحديثة المنفتحة على تنوع العالم وتعدديته العرقية والثقافية واللغوية. ولم يعد كافياً أن نؤكد على التسامح كمثال أعلى تجريدي ولا أن نقول بأننا مواطنون من مواطني العالم وبالتالي فنحن جميعاً متساوون. وذلك لأن مجرد التفكير بتشكيل بشرية نمطية أي تمثل نسخة طبق الأصل بعضها عن بعض أصبح يخيف الناس. لا. الأمر المهم بالنسبة لنا هو التأكيد على وحدة البشرية من خلال التنوع. الشيء المهم هو أن نشكل عالماً من الأفراد المتساوين لا المتشابهين إلى حد التطابق. فالتعددية والتنوع هما اللذان يخلعان على البشرية جمالها ومتعتها. أما التطابق أو التماثل بين جميع أفراد العالم فهو مدعاة للضجر والملل وهو غير مستحب أبداً. وإذا كانت العولمة تثير كل هذا القلق لدينا فذلك لأنها تجد صعوبة في إقامة التوازن بين تنميط البشر من جهة واحترام تنوعهم وتعدديتهم من جهة أخرى. وذلك لأنها أميل إلى التنميط. كما تجد صعوبة في إقامة التوازن بين تحديث المجتمعات التعددية وبين المحافظة على ذاكرتها الفردية أو خصوصيتها التراثية. كما تجد صعوبة في إقامة التوازن بين الزمن النمطي للتاريخ المشترك للبشرية وبين التاريخ المتفرد لكل شعب من الشعوب. وعلى هذا النحو فإن آثار

العولمة تبدو مجموعة من التناقضات حيث يتجاور الأحسن مع الأسوأ، وحيث تمحى المكتسبات العامة من قبل الكوارث الخاصة، وحيث لا يوجد هدف عام للعولمة أو توجه محدد. وهذا الغياب للهدف أو التوجه نشعر بآثاره السلبية علينا كل يوم. نقول ذلك ونحن نعلم أنه لا توجد أي أمة أو فئة اجتماعية أو حتى فرد ما يقبل بأن تقدم التضحيات والجهود دون أن يعرف لماذا يفعل ذلك أو دون أن يرى النتائج الملموسة لعمله على المستوى الفردي أو الجماعي. وقد وصلنا الآن إلى هذه اللحظة من لحظات تاريخ العولمة حيث يتغلب الشك على التقدم المتحقق بشكل إجباري، وحيث يتجاوز ثقل الأسئلة أهمية الأجوبة، وحيث لا تكفي الصورة المطمئنة للمستقبل لإضاءة تتابع الأيام.

وهذه المهمة الصعبة الملقاة على عاتقنا اليوم تحيل إلى مسائل معينة كانت البشرية قد اضطرت إلى مواجهتها دائماً حتى ولو كانت تطرحها الآن على صعيد واسع لم يعرف من قبل : أي صعيد العولمة الكونية. في الواقع إن الاشتباه بالآخر أو عدم الثقة به يشكل نقطة الانطلاق التي تدفع إلى تشكيل العقد الاجتماعي بين البشر أو على الأقل تمهد له. وهذا الاشتباه بالآخر هو الذي يؤدي إلى رفضه ونبذه بشكل قطعي ولا مرجوع عنه. فهو ينكر على الآخر الانتماء إلى نفس البشرية التي ننتمي إليها نحن، تماماً كما تستملك بعض الشعوب

صفة "الإنساني" وتتكر هذه الصفة على جيرانها وتتهمهم بالبرابرة. وعندئذ نلاحظ أن تجربة الغَيْريَّة (أي الاعتراف بالآخر مقابل الأنا) تفتح على هاوية عدم التفهم والصراع بين الأنا والآخر بدلاً من التفاهم والحوار. وهكذا يجد الآخر نفسه مرفوضاً ومرمياً في ظلمات عالم الأشياء لا عالم البشر والإنسانية، هذا في حين أن الشعوب الغنية تتقوقع على ذاتها وأنانيتها وتنعم برغد العيش بعد أن تقيم الأسوار حول نفسها لكي تمنع المهاجرين من الدخول إليها. وحتى في عصر النهضة الأوروبية كانت النزعة الكونية لا تشمل إلا المسيحية والمسيحيين. وكانت تستبعد بقية الشعوب من جنتها أو إطارها. فقد كانت ترفض كل من تدعوهم "بالكفار" بدءاً من المحمّديين وانتهاء باليهود والزنادقة : أي كل من ليس مسيحياً. وحتى المفكر الكبير إيراسم، أمير عصر النهضة، كان يتحدث عن المسلمين بصفتهم "عصابات من البرابرة الحقيقيين، أعداء الجنس البشري". وهكذا مارست الطائفة المسيحية العنصرية والاستبعاد على الآخرين لكي تشعر بعصبيتها تجاه ذاتها ولكي تشكل صورة مثالية عن نفسها، صورة راسخة لا تتزعزع. وكل ذلك له ثمن مدفوع : ألا وهو الحطّ من قيمة الآخر واحتقاره ونبذه. يضاف إلى ذلك أننا عندما نوجه عدائيتنا وحقدنا على الأجنبي فإننا نصرف هذه المشاعر المدمرة عن أنفسنا لكيلا تفتك بنا. وهكذا تظل الطاقة العدائية الموجودة فينا

موجهة ضد الخارج لا ضد الداخل أو ضد الجماعة التي ننتمي إليها. وهكذا نتحاشى الحقد على أبناء طائفتنا وجماعتنا لكيلا نحقد إلا على الآخرين المختلفين عنا في الدين أو المذهب. ومعلوم أن الطاقة العدوانية موجودة بالضرورة داخل كل جماعة أو حتى كل شخص. كان فرويد قد تحدث عما يدعوه "بنرجسيات الاختلافات الصغيرة". وقال إنها تدفع الشعوب باستمرار إلى كره بعضها بعضاً أو احتقار بعضها بعضاً وبخاصة إذا كانت متجاورة ومتشابهة!.

ولكن إذا كنا قد تحدثنا حتى الآن عن نبذ الآخر ورفضه، فإنه ينبغي علينا أن نتحدث عن إهماله واللامبالاة به. فهذا الشيء يمثل أيضاً وسيلة لمحو الآخر ورفضه ولكن بطريقة معاكسة. وربما كان لا يقل إيلاماً عن الطريقة الأولى. والشيء الغريب المتناقض هو أن إهمال الآخرين يمثل الشكل السلبي لروح التسامح. فالواقع أنه يوجد معنى إيجابي ومعنى سلبي للتسامح. فإذا زاد عن حده انقلب إلى إهمال للآخر أو لامبالاة أو عدم الإحساس بوجوده. ينبغي العلم بأن أصحاب النزعة الإنسانية في عصر النهضة الأوروبية أعادوا اكتشاف الثقافة اليونانية-الرومانية القديمة وكذلك اكتشاف أخلاقية لا علاقة للدين المسيحي بها. وهذا الاكتشاف دفعهم إلى القبول بتعددية الآراء والأفكار بعد أن كانوا متعصبين في القرون الوسطى ولا يقبلون إلا بالفكر المسيحي والأخلاق المسيحية. أما هم فقد وسعوا عقلهم

وأصبحوا يقبلون بالفلسفة والحكمة السابقة للمسيحية أو الخارجة عليها. وهنا يكمن المعنى الإيجابي للتسامح : القبول بالتعددية. كما أنه يعني توسيع الأفق والنظرة. وكذلك فعل فلاسفة التنوير في القرن الثامن عشر. فقد دعوا إلى التسامح مع الآخرين واحترام الثقافات المختلفة عن ثقافتنا المسيحية لكي يحاربوا الرواسب الطائفية والأحكام المسبقة الموروثة و"التعصب الديني" الذي كان سائداً في أوروبا آنذاك. ولكن إذا ما بالغنا في خط التسامح والقبول بكل شيء وكل رأي فإن ذلك يؤدي إلى الشك والارتياب والتميّع و"عدم المبالاة بأي دين". وهذا ما أدانه زعيم الأصولية المسيحية الفرنسية في القرن السابع عشر : بوسويه١١٤. فقد لاحظ أن الفلاسفة ابتدأوا ينصرفون عن الدين ويشككون في عقائده وطقوسه دون حدود.

ينبغي العلم بأن نظامنا الديمقراطي في أوروبا تشكل على قاعدة الإيمان بوجود قيم كونية قادرة على قلب النظام الملكي السابق الذي كان يمتلك تصوراً خاصاً عن تنظيم العالم. وهو تصور إقطاعي أصولي في جوهره وقائم على الحق الإلهي للملوك والتمييز بين طبقة الكهنة والنبلاء من جهة، وبين عموم الشعب من جهة أخرى. أما النظام الجمهوري الديمقراطي الذي حل محله بعد الثورة الفرنسية فكان يرتكز على قيم مضادة. كان يمثل تصوراً كونياً غير التصور الكوني السابق بمعنى أنه كان علمانياً يشمل جميع البشر، وليس

أصولياً محصوراً بدين واحد أو طائفة معينة. وهكذا نجد أن إعلان حقوق الإنسان الصادر عام ١٧٨٩ كان يشكل انقلاباً لا مثيل له في التاريخ لأنه يساوي بين جميع البشر بغض النظر عن أصلهم وفصلهم أو عرقهم ودينهم. وهو يشكل عقداً اجتماعياً جديداً نحن بحاجة لتوطيده وترسيخه كل يوم. وذلك لأن العصبيات الفئوية من عنصرية وطائفية يمكن أن تظهر في أي لحظة وتهدد وجوده. ولهذا السبب نقول إنه لا ينبغي بأي شكل من الأشكال أو بأي حجة أو ذريعة من الذرائع أن ننقض القيم القائمة على فلسفة حقوق الإنسان. ولا ينبغي أن نضعفها أو نعتبرها قيماً نسبية من جملة قيم أخرى. فهي وحدها الكونية في الواقع وما عداها نسبي. بالطبع يمكن أن تتعرض للنقد وإلا فإنها تقع في تناقض مع ذاتها. ففلسفة التنوير استندت إلى أسس نقدية عقلانية. ولكن كونية حقوق الإنسان تشكل جزءاً من جوهرها ومحتواها. فإذا لم تكن حقوق الإنسان صالحة إلا لجزء من البشرية (أي للغرب مثلاً) فهذا يعني أنها ليست كونية وليست حقوقاً إنسانية، وإنما هي مجرد قواعد عادية لتنظيم الحياة المشتركة. وهذا خطأ.

إن أوروبا تمتلك نفس الطموح فيما يخص مشروعها التوحيدي. فهي لا تهدف فقط إلى بلورة نمط الحكم الديمقراطي الأكثر تلاؤماً مع الدول الأعضاء. وإنما هي تدافع أيضاً عن القواعد، والمبادئ،

والقيم التي يمكن أن تصبح نموذجاً يحتذى لكل دول العالم. وأكبر دليل على ذلك رغبتنا في حل الصراعات الناشبة عن طريق المفاوضات السلمية وليس عن طريق القوة المسلحة. بالطبع فإن هذا المبدأ ينطبق على الدول الأعضاء للاتحاد الأوروبي وكذلك الدول المرشحة لعضوية الاتحاد. فنحن مثلاً لا يمكن أن نتصور دخول صربيا (أي يوغوسلافيا السابقة) إلى الاتحاد الأوروبي قبل أن تحل خلافاتها مع إقليم كوسوفو بالطرق السلمية. ولكن هذا المبدأ مدعو إلى التوسع لكي يشمل بلداناً أخرى ومناطق أخرى من العالم. فهو نتاج التجربة التاريخية والفواجع الميتافيزيقية أو المعاناة الفلسفية العميقة. ولهذا السبب فإن القيم الناتجة عنه لها قوة الحقيقة الكونية. وبالتالي فلا يمكن نقضها أو التراجع عنها باسم الحق في الشك أو النسبية العدمية. ونحن نستنتج من ذلك ما يلي :

ينبغي أن نتعلم كيف نقبل بالاختلافات البشرية بشكل كامل في حين نحافظ على الطابع الكوني لحقوق الإنسان. ونقصد بذلك أنها صالحة لكل زمان ومكان وتنطبق على جميع البشر أياً كانت أصولهم العرقية أو القومية أو الدينية. وهذا هو التحدي الذي يواجهه المجتمع الفرنسي حالياً. فهو يحتوي على جاليات مهاجرة من أصل عربي أو إسلامي أو إفريقي. وتدور مناقشات كثيرة حول كيفية دمجها في المجتمع، وحول العلمانية، والتمييز الإيجابي، والنموذج الجمهوري

للحكم. والمقصود بالتمييز الإيجابي إعطاء وظائف كبرى في الدولة الفرنسية لأبناء العرب أو المسلمين أو المهاجرين بشكل عام لكي يصبحوا قدوة للآخرين ويشجعونهم على الاندماج في الحضارة الفرنسية بدلاً من رفضها والحقد عليها. ينبغي العلم بأن فرنسا الحديثة هي وريثة عصر التنوير وفلسفته : أي وريثة حقوق الإنسان والنزعة الكونية. ولهذا فإنها تجد صعوبة أحياناً في استيعاب المهاجرين والقبول باختلافهم الديني أو التراثي وكذلك عاداتهم وتقاليدهم الغريبة عن المجتمع الفرنسي. والواقع أن فرنسا تحقق حالياً داخل حدودها نفس الطفرة المعرفية والسياسية الكبرى التي تحصل على مستوى العالم كله في عصر العولمة. فالعالم أيضاً مشكل من فسيفساء من الشعوب والثقافات. وكانت حتى فترة قريبة متبعثرة، متشتتة، ودون ضمير موحد. وبالتالي فالكون يحق له أن يتجمع بل ومن واجبه أن يتوحد وأن يشكل فضاء مشتركاً واسعاً لكل الشعوب. من واجبه أيضاً أن يجد الوسائل المناسبة لحل المشاكل التي أصبحت عالمية ولم تعد محلية أو حتى إقليمية كمشكلة البيئة مثلاً.

ولكن ينبغي على روح التسامح أن تأخذ بعين الاعتبار ما ندعوه بالغَيْرِيَّة : أي اختلاف البشر فيما بينهم وكذلك اختلاف ثقافاتهم وأديانهم وعاداتهم وتقاليدهم. وهذه هي المشكلة الكبرى التي تواجهها حالياً فرنسا بسبب وجود الجاليات الأجنبية على أرضها. وكذلك

يواجهها العالم كله أيضاً كما قلنا في عصر العولمة الشمولية. والواقع أن موقفنا من الآخر يتأرجح بين التحفظ والقبول، بين الإحساس باختلافه المزعج عنا والرغبة في التآخي معه ومحبته. وينبغي أن نفهم ما يفصل بيننا لكي ندرك بشكل أفضل ما يجمع ويوحد بصفتنا أفراداً ننتمي إلى نفس الجنس البشري في نهاية المطاف. وهذه تجربة أساسية لا بد منها. ففي عالمنا الخائب الذي فقد كل أوهامه نجد أن مقدرتنا على الذهاب باتجاه الآخر، على ملاقاته في منتصف الطريق والقبول به واحترامه على الرغم من اختلافه عنا تجعلنا قادرين على قبول الحياة اليومية والتعايش معه بشكل أفضل. إن الآخر يجبرنا على الخروج من يقينياتنا المطلقة وتقوقعنا على ذاتنا. إنه يجبرنا على أن نصبح مسؤولين عن الإهانات التي يتعرض لها الآخر أو التي يعرّضنا لها.

هكذا نلاحظ أن الحوار المتبادل بين الذوات العاقلة يشكل مفتاح العالم الجديد. في الماضي كانت هيمنة الإنسان على الطبيعة تشكل شعار ديكارت والحضارة الأوروبية بمجملها. والآن بعد أن تحققت حل محلها شعار آخر مفاده : تحقيق المصالحة بين البشر وثقافاتهم. فالحضارة الغربية بالغت في السيطرة على الطبيعة إلى حد أن منطق الربح والفائدة هو الذي أصبح يسيطر عليها. ولذلك فإنه ينبغي أن تحل محل العقل البارد أو العقل الأدواتي المنفعي المرتكز على التحليل

والتقسيم الحسابي، عقلية أخرى قائمة على التبادل والتضامن الإنساني وتشاطر المنافع بين البشر كلهم. وبدلاً من منطق الأنانية الذي سقطت فيه الحضارة الغربية ينبغي أن يحل منطق الكرم والنزعة الإنسانية والإحساس بآلام البشرية وفقرها وأوجاعها. وإلا فإن الحضارة سوف تفقد مبرر وجودها بل وتنقلب إلى عكسها. ينبغي العلم بأن الحوار بين البشر والثقافات المختلفة هو الذي يجعل التاريخ يتقدم إلى الأمام في كل مرة. وذلك لأن كل ثقافة تقدم للآخرين جزءاً من الحقيقة البشرية، ولأن أياً منها لا يمتلك هذه الحقيقة بكليتها. لهذا السبب بالذات يبدو الحوار ضرورياً وإجبارياً وليس الصدام كما يدعي صموئيل هنتنغتون. والواقع أن كل شعب بحاجة إلى الاحتكاك بالشعوب الأخرى لكي يشعر بذاتيته وكيانيّته ويزدهر ويبني نفسه. ينبغي العلم بأن الشعوب هي ممر للعبور والتلاقي. ولا شيء يثبت ذلك أكثر من العلاقات التي لا حصر لها بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط : أي بين العالم الأوروبي والعالم العربي أو الإسلامي. فشعوب الضفتين على مدار التاريخ طالما استعارت بعضها مع بعض الأفكار والتقنيات والخبرات. وطالما تحاورت فيما بينها وتصارعت وشكلت هويتنا الحالية أو قدرنا ومصيرنا. إن ضفتي المتوسط تشبهان شفتين لنفس الفم. والفم لا يمكن أن يتكلم بشفة واحدة وإنما بتعاون الشفتين وانسجامهما.

نحن نمتلك تراثاً متوسطياً رائعاً في كلتا الجهتين وعلى مدار حوض هذا البحر الجميل الهادئ. وقد كان دائماً بحر التجارة والتبادلات والتفاعلات. وكان الزيت يُنقل في الجرار، وأما نسيج القماش فكان ينقل في صناديق تحملها القوارب والسفن. وعن طريق هذا البحر كان المحارب الإغريقي يصل إلى شواطئ إفريقيا ويهبط على أرضها. وأحلام أوليس الذي طالما تجول فيه يجعل حتى كهوفه وصخوره تتكلم. وهل كان يمكن للفن الروماني وعصر النهضة أن يوجدا لولا تأثير الشرق الأوسط؟ ألم تستفد الرومنتية من غوته إلى شومان مروراً بهولدرلين ونوفاليس من الشعر الفارسي لحافظ[١١٥] والجامي؟[١١٦] ألم تفتن بهما؟ هل نسينا أشعار أراغون التي يدعو فيها لانطلاقة المقاومة الداخلية أثناء الاحتلال الألماني لفرنسا. وفيها هذا المقطع : "جامي، جامي أنا لست إلا استمرارية لنشيدك". على هذا النحو يرن صدى ذلك الابتهال الذي يفتتح به ديوان : "**مجنون إلزا**". وعلى هذا النحو تبدو نقطة الانطلاق هناك بعيداً على الضفة الأخرى. وأدونيس يرى في شعره نشيداً متواصلاً واستمرارية لأغاني اليونان القديمة. هذا في حين أن محمود درويش يوظف جزءاً من قوته الرؤيوية والشعرية لخدمة الشعب الفلسطيني وذلك من خلال المسار ذي النزعة الإنسانية والكونية للأنوار الأوروبية.

إليكم الآن المهمة الكبرى التي تفوق التصور لعصرنا. إنها تكمن فيما يلي: تغيير نظرتنا إلى الآخر وإعادة التفكير فيه عن طريق الرفع

من قيمته. إنها تكمن في إعادة تشكيل علاقتنا بالغَيْريّة عن طريق الأخذ بعين الاعتبار حجم التحديات الجديدة. وذلك لأن المثال التجريدي للتسامح لم يعد يكفي في الوقت الذي أخذت فيه الهويات تطالب لنفسها بمكانة جديدة تحت الشمس. فهل سنعرف كيف نبلور عقداً توافقياً جديداً بين مختلف الثقافات على مستوى العالم كله؟ هل سنعرف كيف سنجعل التعايش بينها أمراً ممكناً؟. هل سنعرف كيف نجعلها تتحاور بدون أن تتغلب إحداها على الأخرى؟ هذا هو السؤال الأساسي المطروح علينا اليوم، وهذا هو التحدي.

واجب تثقيف الذات

وحدها الثقافة تخلع على التبادلات بين الشعوب عمقها وغناها. وهي وحدها القادرة على توعية الناس ومساعدة عقولهم على التفتح والتطور نحو الأفضل. وهي التي تخلق شروط العيش بسلام من خلال الاحترام المتبادل بين الشعوب. ينبغي العلم بأن الثقافات تمثل صلات وصل دائمة التفاعل فيما بينها. إنها أداة أكثر جرأة ومقدرة من القوة ذاتها. في القرن الثامن عشر، أي في عصر التنوير، أدرك المثقفون الأوروبيون مدى أهميتهم المركزية وأهمية الدور الذي يمكن أن يلعبوه في تشكيل الوعي الجديد والأمة السياسية الجديدة. فقد كانت هناك بلاد متفككة ولم تتشكل وحدتها السياسية بعد كألمانيا وإيطاليا اللتين

شعرنا بضرورة بلورة ذاكرة قومية ووطنية جماعية من أجل تشكيل الوحدة السياسية. وأما اليوم فإن دور الثقافة تجاوز هذه المرحلة أو قل لم يعد ينحصر فيها، وإنما أصبح يتمثل في إقامة جسور التفاهم بين الشعوب. وبالتالي فنحن إذ ندافع عن ثقافتنا اليوم لا يعني أننا نتعصب لهويتنا على حساب هويات الأمم الأخرى. وإنما يعني أننا نبحث عن الفرادة والحقيقة اللتين تشكلان التمهيد المبدئي لأي لقاء. وكما قلنا فإن لكل ثقافة حقيقتها أو ما يدعى بعبقريتها وخصوصيتها. واللقاء المثمر يكون بين الخصوصيات المختلفة، بل حتى داخل تراثنا الخاص ينبغي أن نعرف كيف نختار بين الصالح والطالح، أو بين الحنطة والزؤان. وينبغي أن نخلع على عقبة الاختلاف بساطة الالتقاء.

ينبغي العلم بأن الثقافة في معناها الأكثر غنى وكرماً تصبح أفضل سلاح ضد الخوف، هذا الخوف الذي يجعلنا عمياناً لا نرى العالم كما هو. فبعد ١١ سبتمبر أيقظ خطر التهديد الإرهابي في الولايات المتحدة رغبتها في الانكفاء على الذات ونسيانها لتراثها المتعدد المشارب والمتنوع الثقافات. وخفنا عليها من أن تسودها نزعة التعصب وردود الفعل العنيفة ضد الآخر باعتبار أنه المسؤول عن الضربة التي جرحتها في كرامتها. ولكن لا خوف على أمريكا في نهاية المطاف. فهي ستعود حتماً إلى الإيمان بالتعددية كما كانت دائماً لأن التعددية

العرقية والدينية واللغوية هي محور وجودها. فهي مشكلة من أقوام شتى وفدت عليها من كل أصقاع الأرض. وبالتالي فكيف يمكن أن تنسى ذلك وتكره الآخرين لمجرد أنهم عرب أو مسلمون؟ هذا مستحيل. وأوروبا مشكّلة هي الأخرى من الهجرات والهويات المتعددة التي تشكل قوتها وأحياناً ضعفها. ولكن لا ينبغي عليها أن تتصرف تجاه جالياتها المغتربة بطريقة الرفض. فقدرها مثل قدر أمريكا هو أن تقبل الآخر وتصهره في حضارتها.

ينبغي العلم بأن الثقافة هي ثمرة الذاكرة الجماعية. إنها تقدم نظاماً لإنتاج المعنى مستقلاً بالقياس إلى العقل الكوني المزعوم والمحروم من أي انغراس محسوس في تاريخ الإنسان وروحه. إنها، أي الثقافة، تشكل دعماً ضرورياً جداً لنا من أجل السير نحو السلام والديمقراطية. وبغير الثقافة لا يمكن بناء أي شيء صلب وقابل للاستمرارية والحياة. على العكس من ذلك، فإن رفض الثقافة أو انعدامها يسرّع من نزولنا إلى جحيم البربرية والهمجية كما تدل على ذلك تجربة الطالبان في أفغانستان. فقد دمروا ومحوا بشكل منتظم كل العلامات والآثار الدالة على تعلق الشعب الأفغاني بذاكرة مشتركة. فالمدارس أُغلقت، وأماكن اللقاء والحوار منعت، والتماثيل القديمة كسرت كما حصل لتماثيل بوذا الرائعة في منطقة "باميان". فقد دمرت بالديناميت والمتفجرات. والأمر لا يتعلق فقط بحذف كل الآثار

والتصورات التي يعتبرونها مضادة لروح الإسلام، وإنما هو تدمير أصغر أثر من آثار الماضي. ولكن هل يدرك الطالبان فداحة ما فعلوا؟ هل يعلمون أن اجتثات الثقافة من بلد ما يعني سجن الشعب في حالة الجهل المطبق بنفسه وبالآخرين؟ ولهذا السبب فإنه لمن المهم الآن بمكان أن تنجح تجربة الانتقال السياسي والديمقراطي الجارية حالياً في أفغانستان. فعلى نجاحها تتوقف مصداقية الجماعة الدولية وكذلك إنقاذ الهوية الأفغانية التي استرجعت لحسن الحظ، وخلال ثلاث سنوات فقط، رموزها، وطقوسها وأصالتها المتفردة.

ينبغي العلم بأن تشكيل نظام عالمي مستقر لن يحصل دون أن نأخذ بعين الاعتبار المسألة التالية : ضرورة أن يعبّر الطموح الكوني عن نفسه بحرية. فهو وحده الذي يوحد بين البشر على الرغم من تعدد هوياتهم وخصوصياتهم. والتعددية الثقافية تلعب دوراً أساسياً في البحث عن توازنات جديدة. كان الكاتب فيكتور سيغالين[١١٧] قد كتب حاشية لكتابه : "**مقالة عن البلاد الغرائبية. جماليات الاختلاف**". والمقصود بالبلاد الغرائبية هنا البلاد الشرقية التي تسحر الأوروبيين لأنها ظلت أقرب إلى المرحلة الطبيعية أو البدائية ولم تقض الصناعة بعد على براءتها. وفيها يقول : "التنوع يتناقص أكثر فأكثر في العالم. وهنا يكمن أكبر خطر على وجه الأرض. وبالتالي ينبغي علينا أن نناضل ضد هذا السقوط والانحطاط بأي

شكل. ينبغي أن نناضل ضده حتى الموت ربما، ولكن الموت بجمال". هذا ما كتبه فيكتور سيغالين عام ١٩١٧ بعد أن رأى الصين تتفتح على الحداثة وتفقد براءتها الأولى ومناظرها الطبيعية التي لم تمسسها يد البشر. فقد خشي أن يفقد العالم غناه الثقافي والفولكلوري وتعدديته الجمالية ويتحول إلى نوع من النمطية الواحدة المملة والمكرورة. وهذه النمطية تعني الموت لا أكثر ولا أقل. ولذلك أردف يقول : "عن طريق الاختلاف، ومن خلال التنوع، يصبح الوجود رائعاً ويبلغ ذروة المجد". وهذا الكلام الذي قيل قبل قرن تقريباً لا يزال محافظاً على كل معناه وصحته.

والواقع أن التناقص المتزايد للتعددية والتنوع يمكن أن نلحظه في مجالات أخرى. فعلم البيئة والطبيعة أصبح يحذرنا من تناقص الأنواع الحيوانية الموجودة على سطح الأرض بل وانقراض العديد فيها. ويقدر العلماء عدد الأجناس الحيوانية التي انقرضت منذ القرن السابع عشر بستمائة نوع. وهناك ستة آلاف نوع آخر في طريقها إلى الانقراض الآن. لا ريب في أن هذه العملية موجودة منذ أن كانت الحياة قد وجدت على سطح هذه الأرض. وبالتالي فهي طبيعية. ولكن الشيء غير الطبيعي هو سرعة انقراض بعض الأنواع تحت تأثير الأعمال السيئة للإنسان وتدميره للبيئة. فهو لا يترك لهذه الأنواع الحيوانية المهلة الكافية لكي تتطور وتتأقلم مع الظروف المستجدة. وهكذا يؤدي

إلى قتل أو اختفاء أنواع عديدة قبل أن تحل محلها أنواع أخرى جديدة.

ينبغي العلم بأن عدداً كبيراً من اللغات اختفى عن سطح الأرض بعد أن كان البشر يتكلمونها على مدار سنوات طويلة. وتسعة أعشار اللغات التي لا نزال نتكلمها حتى الآن في مختلف القارات هي في طور الموت والانقراض بحسب تخمينات العلماء. لقد كانت اللاتينية لغة كونية طيلة قرون وقرون قبل أن تموت وتحل محلها الفرنسية كلغة كونية أيضاً في أوروبا لفترة من الفترات. ثم حلت محلها الآن اللغة الأنجلوأمريكية التي أصبحت لغة التجارة العالمية، ثم لغة الإنترنت مؤخراً. نقول ذلك ونحن نعلم أن كل لغة تحمل تصوراً خصوصياً عن العالم. بل وكل كلمة تنطوي على مفهوم ما، وفي هذا المفهوم نجد طريقة خاصة لإدراك الواقع أو تصوره. وما إن تموت الكلمة حتى ينقرض معها هذا التصور الفريد من نوعه. وبالتالي فموت كلمة واحدة يعني موت جزء من الحياة.

ينبغي العلم بأن المعاني تتبخر وتتلاشى كلما أصبح الفكر مترجماًعلى مستوى العالم. وأما تنميط السلع فيقضي بلا شفقة أو رحمة على تنوع المذاقات والروائح التي كانت سائدة ومشهورة سابقاً. والواقع أن الحياة الاجتماعية أصبحت تعاش داخل فضاءات متشابهة

أكثر فأكثر إلى حد التماثل، وحيث أن الاختلاف يتم حذفه بكل عناية ودقة. وأصبح المجتمع ينقسم إلى عدة جحور (غيتو). فهناك غيتو للفقراء المنبوذين حيث يتكدسون بعضهم فوق بعض، وغيتو للأغنياء، وغيتو للعجائز، وغيتو للمرضى. وبسبب تأثير العولمة وانتشارها فإننا نلاحظ ظهور نمطية جديدة للمكان أو العمران. فمن باريس إلى لندن، ومن نيويورك إلى هونغ كونغ، ومن ريو دي جانيرو إلى سيدني، نلاحظ أن المشاهد العمرانية تتشابه أكثر فأكثر. ولا نكاد نشعر بأننا غيرنا المكان عندما ننتقل بين هذه العواصم. وذلك لأن نفس الفن العمراني يسيطر عليها وكذلك نفس التشكيلة الحضارية. وبالتالي فنمطية العمران تقيم نوعاً من التواصلية بين هذه المدن الكبرى. ولذا فلا نشعر بأننا اغتربنا عندما ننتقل من واحدة إلى أخرى. ولم نعد نشعر بإحساس الغرابة والجدة الذي كان ينتابنا سابقاً عندما نسافر من مكان إلى آخر. لم يعد شيء يدهشنا لأن كل شيء متشابه. وذلك لأننا عندما ننتقل من مركز تجاري إلى آخر، أو من شارع مزدحم إلى آخر، فإننا نشاهد نفس المناظر التي تتوالى أمام أعيننا. نشعر وكأننا رأينا ذلك سابقاً، في مكان آخر.

هكذا راحت الحدود تختفي في عصر العولمة وراحت الاختلافات تمَّحي أو تتناقص تدريجياً. وفي ذات الوقت راحت الثقافة المهيمنة تفرض نفسها على العالم وتحوله إلى مشهد نمطي متشابه. والبعض

يصف هذه الثقافة بأنها أمريكية والآخرون يقولون بأنها غربية أي أمريكية-أوروبية. وأمام الحداثة التي بدا له أنها تشرق على الغرب أطلق الشاعر بول فاليري عبارته الشهيرة : عن موت الحضارات. ولا يعني ذلك أنه ينكر غنى هذه الحضارة أو ديناميّتها، وإنما يعني الإشارة إلى المشاكل التي تطرحها مقدرتها الساحقة على نشر منتوجاتها وبخاصة في مجال السينما والإعلام المنطوق والمرئي والمسموع. فقد أصبحت سلع هذه الحضارة منتشرة في شتى أنحاء العالم إلى درجة أن كل الناس أصبحوا يرون نفس الأفلام الأمريكية ونفس المسلسلات التلفزيونية. واليوم نلاحظ أن الروايات أو الكتب الناجحة أخذت تغرق السوق التي اتسعت وكبرت حتى أصبحت بحجم العالم. وهي سوق خاضعة لنفس قانون الاستهلاك والعرض والطلب تماماً كبقية الأسواق التي تبيع البضائع والسلع المادية. وهكذا تحول الكتاب، أي نتاج الروح والفكر، إلى سلعة من جملة سلع أخرى كمسحوق الغسيل أو الصابون ! أليس هذا موتاً للثقافة والحضارة كما يقول بول فاليري؟ ألم تتحقق نبوءته يا ترى؟ وهكذا نلاحظ أن قائمة نفس الكتّاب الناجحين موجودة في كل مكان، ورواياتهم منتشرة في كل الأسواق والمخازن العامة وليس فقط المكتبات. وفي ذات الوقت نلاحظ أن نفس الأفلام والمسلسلات التلفزيونية قد أصبحت لغة كونية أو بالأحرى سلعة كونية تتنافس على رؤيتها الجماهير المتدافعة

عليها في نوع من الزحام الشديد. ونجد أيضاً أن تنميط العروض الإعلامية يؤدي إلى الامتثالية الاختزالية ويمنع فرادة الثقافات أو ابتكاريتها وعبقريتها من التفتح والانطلاق.

فهل سنعرف كيف نعثر من جديد على غنى التعددية الحقيقية؟ وهل سنعرف كيف نحافظ عليها إذا ما وجدناها؟ هناك قارات أخرى، ونظرات تقدم نفسها لنا. ولهذا السبب نقول إن إفريقيا غير المحبوبة من قبل الحداثة تنتظرها مكانة كبيرة لكي تحتلها في العالم المعاصر. لماذا؟ لأنها تتعاطى علاقة أساسية بين وجود الإنسان والأرض والبيئة الطبيعية العذراء. ينبغي العلم بأن إفريقيا تظل إشبينة هويتنا أو عرّافتها. فهي تحتوي على بعض الشعوب الأولى، الشعوب الأصلية التي تمثل "جذور البشرية" وأصلها. واليوم بعد أن أصبحت حضارتنا الغربية لاهثة بسبب الركض المستمر وراء التقدم التكنولوجي أخذت تدرك أهمية هذه الشعوب. فهل شعرت حضارتنا الشائخة بأنها قد تجد لدى إفريقيا الحكمة والطاقة الفوّارة الضروريتين لها لكي تواجه قدرها ومستقبلها؟ هل يمكن أن تستمد من إفريقيا براءة الإنسانية الأولى أو طزاجتها التي تساعدها على التجدد والانطلاق مرة أخرى؟ ربما. ولكن لأجل ذلك ينبغي أن نحافظ على هذه الشعوب الأولى وثقافاتها البدائية بالمعنى الإيجابي للكلمة وليس بالمعنى السلبي.

كانت أول صرخة لإنقاذ هذه الشعوب الأولى قد صدرت عام ١٩٩٥ من قبل أشخاص ينتمون إليها. وقد جاؤوا إلى مجلس النواب الأمريكي في واشنطن للتنبيه إلى خطورة الوضع. وكانوا بذلك يريدون تحذير العالم من فقدانهم التدريجي لعاداتهم وتقاليدهم وكذلك لخصوصيتهم الأولى التي تعود إلى آلاف السنين. فقد انتشرت في صفوفهم عادات سيئة كالإدمان على الكحول، والانتحار. وزادت نسبة الموتى لديهم وتجاوزت المعدل الوطني للوفيات. هذا هو مصير الشعوب الأصلية الأولى لكندا والولايات المتحدة، وشعوب "مايا" التي تقطن أمريكا الوسطى، أو الشعوب البلدية والأصلية لأستراليا. كل هذه الشعوب التي تمثل مهد البشرية وبراءتها الأولى مهددة الآن في وجودها وليس فقط شعوب إفريقيا السوداء. فالسياسة التي يتبعها الأوروبيون البيض منذ قرون عديدة لصهرها وإجبارها على اعتناق المسيحية والتخلي عن عقائدها الأولى وكذلك اللامبالاة العامة بها، كل ذلك أدى إلى خنق حياة هؤلاء السكان واختزالهم إلى مجرد كاريكاتور للشعوب البدائية أو الغرائبية. وهذا القدر التراجيدي الذي يهدد البشرية الأولى بالانقراض بعد القضاء على الهنود الحمر يذكّرنا إلى أي مدى يحتاج شعب ما إلى ثقافته الأصلية لكي يستطيع أن يعيش، أن يبقى على قيد الحياة. إنها بمثابة النسغ الذي يغذي الجذور. فإذا نضب النسغ ماتت النبتة. وكذلك يحصل للإنسان. فما

إن يقطعوه عن جذوره الروحية حتى يجد نفسه أمام خيار واحد : هو أن يترك نفسه يموت تدريجيا لأنه لم يعد له أي مبرر للحياة.

ينبغي العلم بأن خطر العزلة يضغط على السكان الأصليين. فهم مهمَّشون، ويتعرضون أحياناً للحرمان من الحقوق الإنسانية الأساسية، ويتألمون لأنهم يرون ثقافتهم تنقرض تدريجياً أمام أعينهم. ومع ذلك فإنهم يمتلكون من خلال العلاقة المتميزة التي يتعاطونها عادة مع محيطهم مفاتيح عديدة كان الغرب قد فقدها على الطريق أو لم يمتلكها أبداً. وبعد عدة عقود من اللامبالاة والجهل ابتدأنا نلحظ ولادة وعي جديد. أصبحنا نفهم أخيراً أن الحضارة التي تعزل نفسها أو تجد نفسها معزولة تصل إلى نقطة حرجة تنقلب فيها من حالة التوسع إلى حالة الانحطاط التدريجي باتجاه الأفول والزوال. وهذا أكبر دليل على أن غنى ثقافة ما ثم صلابتها بعدئذ يعتمدان على التبادلات والتفاعلات التي تقيمها مع الثقافات الأخرى. وبالتالي فإن مقدرة حضارة ما على التطور تعتمد على تنوع التأثيرات التي تتلقاها وتستوعبها، وعلى تعددية التفاعلات التي تقيمها مع الثقافات الأخرى. وهذا أكبر رد على الأصوليين المتعصبين الذين يهاجمون الانفتاح على الحداثة ويعتبرونه نوعاً من الغزو الفكري.

فالعالم لا يعيش على ثقافة ضفة واحدة أو حضارتها مهما كبرت. ولا يجد حيويته الإبداعية في الواحد المتماثل. وبغير اختلاف يصبح

مصيره الموت حتماً. فالاحتكاك بالمختلف أو التفاعل معه هو الذي يجدد الحضارة وينعشها. وبالتالي فقد آن الأوان لكي نسترجع حسّ المغامرة من جديد، لكي نجازف بالانفتاح على الآخر، لكي نمتلك شهية الإقبال على المختلف والمتنوع في مواجهة كل ما ليس مفهوماً بشكل فوري أو مُختزلاً إلى هويتنا وذاتيتنا. ولكن لكي نعانق الغَيْريّة، لكي نقبل بالآخر، ينبغي أولاً أن يكون إحساسنا بهويتنا وشخصيتنا قوياً راسخاً. وإلا فإن الهوية سوف تشعر بأنها مهددة من قبل نظرة الآخر. وهذا ما قد يدفع بها إلى الانكفاء على الذات إلى حد التعصب والعنف.

ينبغي العلم بأن الآخر مهما اقتربنا منه وحاولنا تفهمه يظل غريباً عنا بشكل جذري. فبين الذات والآخر تظل هناك هوة سحيقة، تظل "استحالة التفاهم الأبدية". وهذه هي علاقة الغَيِريّة والاختلاف. فالآخر يستعصي على الفهم العقلاني الذي يميل بطبيعته إلى التصنيف، والمقارنة، وخلق الأنماط المثالية النموذجية التي يقاس بها أو عليها. الآخر يبدو منذ الوهلة الأولى وكأنه أُحجية أو لغز من ألغاز العقل. والغَيِريّة تتحدى روح الحداثة التي لا تحب الأحاجي أو الألغاز كثيراً. ولكنها -أي الغَيِريّة- ترفض أيضاً الانحلال الساذج والمقلق أحياناً للأنا الفردية في الجماعة.

وبالتالي فينبغي علينا أن نخترع نمطاً فكرياً يعترف بتعددية العالم وتنوعه دون أن يذوِّبه في البحث عن القاسم المشترك الأعظم ويمحي ما يفرق لمصلحة ما يجمع أو يوحِّد. وهذا يعني أنه ينبغي أن نتوصل إلى نمط فكري علائقي تولّد فيه المجابهة بين المتناقضات شيئاً إضافياً زائداً، شيئاً أفضل من التلفيقية أو الصراع. نضرب على ذلك مثلاً التهجين بين لغتين أو ثقافتين أو عرقين. فهو يفترض حصول تفاعل بين عناصر متعددة تنتمي إلى ثقافتين على الأقل أو إلى هويتين. وهذه العناصر موضوعة على قدم المساواة ومشكّلة ليس لتلفيقة تركيبية وليس لخليط وإنما لعنصر ثالث مبتكر وجديد وغير متوقع لأنه نتيجة زواجهما. كان المفكر إدوار غليسان قد تحدث عن "فكر الأثر الباقي" أو فكر العلامات والرموز. وهو يشير بذلك إلى قصة حياة السود الذين اقتادوهم بالقوة من إفريقيا السوداء إلى أمريكا بعد أن جردوهم من عقائدهم الدينية وثقافتهم وحتى لغتهم. ثم عن طريق صيرورة معينة استطاع هؤلاء السود أن يركّبوا بواسطة الآثار لغة جديدة وفنوناً يمكن القول بأنها صالحة للجميع". ومعلوم أن المستعمرين كانوا يفصلون بين الزنوج الذين يتكلمون نفس اللغة. لقد كانوا يفصلونهم بعضهم عن بعض سواء داخل القوارب طيلة الرحلة أم في المزارع بعد أن يصلوا إلى أمريكا. وقد نتجت عن ذلك بشكل تدريجي لهجات جديدة تدعى "بالرطانة الإنجليزية". وهي عبارة عن

لهجة أو لغة مركبة من ثلاث لغات : الإنجليزية، والفرنسية، والإسبانية. وبالتالي فهي شيء غير الأصل أو زائد عليه، شيء مبتكر وغير متوقع.

وهذه العملية ليست جديدة وإنما هي ترافق البشرية منذ بدايتها، ولكنها تحصل دون علم منها. وهذه الهوية المتحركة تفقد عن طريق الطمي والحتّ معنى فرادتها لكي تصبح هوية عادية من جملة هويات أخرى وتكون مستعدة لتدخل هي ذاتها في نظام جديد من التبادلات والتفاعلات. وهذا ما نلاحظه من خلال التمجيد المعاصر "للتهجين أو التخليط" والذي من خلاله تختلط العناصر المختلفة بعضها ببعض وتذوب وتمّحي. والتهجين الواسع الشاسع الذي يحصل الآن من خلال العولمة غالباً ما يكون دون إرادتنا أو وعينا. إنه خارجيّ على الأفراد، ويحمل هلعاً عميقاً يسيء إلى التعددية قبل أن تمحي هذه التعددية بشكل لا رجوع عنه.

وفي مجابهة هذه الزوبعة المشوشة تقف بالمرصاد التجربة الداخلية للكرم والمشاطرة بين البشر. فكل واحد منا يسمع في داخله نداء انتماءاته الخاصة لهويته أو لتراثه في الوقت الذي يرتبط فيه بالثقافة المشتركة الأوسع للبشرية. وعبر المشاطرة أو الاشتراك في هذه الثقافة الكونية للإنسانية تتردد في أعماقنا أصداء الثقافات الدينية

التي ترعرعنا عليها ونحن أطفال والتي كنا قد اعتقدنا أننا انفصلنا عنها إلى الأبد منذ زمن طويل. كما تتردد أصداء الأقاليم أو القرى البعيدة أحياناً التي ولدنا فيها وإليها تعود جذورنا الأولى. كما تتردد أصداء المذاقات والميول، والقابليات، التي ورثناها عن الأسلاف والتراث الخصوصي الذي ترعرعنا داخله. وعلى هذا النحو تختلط السيرة الأُسرية، بالسيرة الدينية، بالسيرة القومية أو العرقية داخل كل واحد منا. ولها تأثير كبير على خياراتنا، ومصالحنا، وولاءاتنا. وفي متاهات عالم الثقافة الكونية نلاحظ أن هذه الانتماءات الخصوصية تثبّت المعالم والصوى التي تهدينا وتعصمنا من الضياع. كما تفتح أمامنا دروباً جديدة. وعبرها نلاحظ أن الثقافات الماضية، أو المطمورة، أو المكبوتة تطلع إلى السطح وتنبثق فينا مطالبةً بحقها في الحياة من خلالنا ضد حركة العولمة التنميطية التي تريد القضاء على كل الخصوصيات وتحويل العالم إلى شيء واحد. إنها حركة كاسحة تريد أن تزيل من على سطح الأرض لغات وفنوناً وثقافات بأسرها.

ونحن إذ نختار المشاطرة مع الآخرين واقتسام الثروات المادية والمعنوية معهم فإننا نحقق التبادل الإنساني بالفعل. وهذا التبادل المشترك بين كل شعوب البشرية هو مفتاح الوعي الجديد للعالم. إنه وعي يعبر عن الوفاء إلى الجذور المشتركة للبشرية وكذلك إلى الثقافة

المشتركة التي لا تلغي الخصوصيات ولا تقضي عليها. وهكذا نصبح كونيين من خلال الخصوصية ولا نشعر بأننا خنّا جذورنا الأولى. على العكس فإن الوعي الكوني الذي أخذ يتشكل الآن يقوي كل الانتماءات المحلية وكل الروابط التراثية الإيجابية والمنفتحة. ولكن الثقافة التي نعيشها أو نمارسها على هيئة المشاطرة تتطلب منا قبول الاندماج في أمة أوسع من أمتنا الخصوصية : هي أمة الجنس البشري كله. إنها تتطلب منا الاندماج في "أمة الأمم"، أي في الأمة التي تتجاوز كل الأمم وتحتضنها. وعندئذ يمكن أن تزدهر بطريقة مستقرة ودائمة العلاقة التفاعلية بين كل واحدة من هذه الأمم. ولكن الثقافة المُعَولَمَة – أو ثقافة العولمة الكونية– لا يمكن أن تشكل إطاراً واحداً أو وحيداً. فإذا كانت تشجع أحياناً على الاعتراف بالتعددية إلا أنها تنصاع غالباً إلى إغراء النمطية والتنميط. وهذا التنميط قد يؤدي إلى انقراض الثقافات التي كانت قد وعدت بمعاملتها على قدم المساواة. فتعميم النموذج الأمريكي أو الغربي على العالم كله سوف يؤدي إلى هذا الانقراض حتماً.

ما بين الهويات الخصوصية والثقافة المعولمة نلاحظ أن الثقافات القومية تجد نفسها اليوم مكلفة بدور جديد، بتحقيق أمل جديد. ففي الماضي كانت قد أُدينت بصفتها هياكل مؤسساتية وإيديولوجية تهدف إلى كبت الانتماءات المحلية أو الأصلية أو الإقليمية. وهذا ما فعلته

بالفعل في بعض الحالات وأكبر مثال على ذلك النظام اليعقوبي الفرنسي المركزي شديد التعصب قومياً والذي حاول القضاء على خصوصية إقليم كورسيكا وبلاد الباسك وسواهما. ولكن الثقافة القومية تبدو اليوم بمثابة الدعامة الأساسية لإعادة البناء أي تشكيل هوية جديدة. فمثلاً أصبحت الهوية القومية حالياً بمثابة حظ أو فرصة مؤاتية للإبداع الفني. ويشهد على ذلك فن الرسم الصيني أو الكوري اللذين اكتشفهما العالم عندما ابتدأ هذان البلدان ينفتحان على التبادل الاقتصادي مع الغرب بشكل خاص. ولكن هناك نقطة سلبية في الصورة : وهي أن التركيز الإعلامي والمضاربة المالية والمصرفية لا يفيدان إلا عدداً قليلاً من الفنانين وذلك على حساب مصلحة الإبداع المتجدد والمنتعش.

إن هذه الدهشة البدائية الناتجة عن اكتشاف الآخر، وذلك الانخطاف نحوه، وذلك الفضول المعرفي تجاه كل ما هو غريب وأخوي، هي أشياء ثمينة وأساسية. ينبغي بأي شكل أن نستعيد دهشة الفنانين الخارجين على المجتمع أو العاثري الحظ من أمثال غويا وفان غوخ، ورامبو، وفيرلين، وبودلير وآخرين. فهم وحدهم القادرون على فهم جرح البشرية العميق، أو على سبر وجوه الحياة اليومية وأغوارها كوجه الجنون مثلاً. وكل ذلك يحصل عندما يغطسون في عيون معاصريهم لكي يروا ما لا يُرى. إنهم يرون ترنُّح النظرة الحسير الذي

لا يكاد يُرى، ويرون ارتعاشة البؤبؤ الخاطفة كالبرق، ويرون خفقة الجفن الآسرة، أو تقطيبة الفم الزائدة عن الحد. كل هذا يراه الفنانون الكبار الذين أدانهم العالم لأنهم غريبو الأطوار ولا يشبهون بقية البشر. فالفنان جيريكو ينبش في أعماق الروح من خلال لوحته التي تدعى : "المجنونة المهووسة بالحسد"، أو من خلال لوحة "المجنون الذي يسرق الأطفال". وأما الفنان أوديلون ريدون فيصور العين المعزولة أو الرأس المائلة إلى أسفل في لوحته "سيكلوب" : أي العملاق الأسطوري ذي العين الواحدة، وأما لوحة غويا "سبت المشعوذات" أو الأشكال المسلوخة لفرانسيس بيكون فإنها تدخلنا إلى عالم آخر، عالم الوحدة والعنف : أي العالم الذي ينبغي أن نعرف كيف ندجّنه ونجعله أليفاً، أنيساً.

نعم ينبغي أن نحافظ على دهشتنا أمام الآخر لأنها نوع من أنواع الاستقبال والكرم تجاهه. وينبغي أن نعرف كيف نعقد الصِّلات مع الأجنبي أو مع القريب الذي ننبذه إلى الهوامش لأنه لا يشبهنا بكل بساطة. فمجتمعاتنا غالباً ما تتجاهل الناس المجروحين من الداخل، الناس المنزعجين أو الخارجين على الخط العام للمجتمع. وكثيراً ما تهملهم أو تحذفهم دون شفقة أو رحمة لأنهم ليسوا كبقية البشر. ومجتمعاتنا المتقدمة والحضارية أو المدعوة كذلك لا تحب الشيوخ العواجز، ولا المرضى، ولا المعوّقين جسدياً، ولا المصابين نفسياً أو

عقلياً. كل هؤلاء تحاول حصرهم أو نبذهم إلى الهامش وإخراجهم من ساحة المجتمع. وهذا يعني أننا نرفض الغَيْريَّة والاختلاف ولا نستطيع تحملهما. كل شيء يحصل كما لو أننا نرفض ذلك الجزء السري أو المعتم والغامض الذي يوجد في أعماق كل شخص بشري. لننظر، ولو للحظة واحدة، إلى لوحة فان غوخ المدعوة "صورة ذاتية لأذن مقطوعة". فالشيء الذي يثير هلعنا ليس فقط ذلك الوجه النحيل الضامر، أو ذلك القلق الذي يعبر عنه الفم المغلق، أو تلك الوجنتان المرسومتان على عجل، أو تلك الضمادة البيضاء التي تغطي أذنه الجريحة وحركته اليائسة، وإنما أيضاً مصيرنا نحن والقلق الذي نشعر به تجاه حقيقة الوضع البشري ومآله. وأمام لوحة ماتيس المدعوة "بالرقص" نشعر بالانخطاف لأنها تصور لنا تلك الرحلة الكبيرة للأشكال من قلب إفريقيا إلى باريس. إنها تصور لنا رحلة الأشكال من إنسان إلى آخر أو من شعب إلى آخر.

والشيء الغريب المتناقض الذي يدعو للدهشة هو التالي : أبداً لم تتعرض مجتمعاتنا لغزو الصور المنثالة عليها من كل حدب وصوب كما تتعرض له الآن. وأبداً لم تتعرض لتدفق الأخبار والمعلومات والريبورتاجات عليها بشكل مباشر وفوري كما يحصل الآن في عصر الفضائيات والإنترنت والعولمة الشمولية. ومع ذلك فإننا ننظر إلى آلام الآخرين ومجازرهم وكوارثهم الطبيعية على شاشات التلفزيون وكأنها

لا تعنينا، كأنها صور متحركة لا واقعية بالنسبة لنا. فهذه الريبورتاجات أو التقارير الصحفية المصورة تعرض علينا صوراً مفزعة كرجم النساء المخطئات، أو كالشعوب المصابة بالأوبئة كمرض فقدان المناعة (الإيدز)، أو كالأطفال المبتورين، الخ... ونحن نرى هذه الصور كل يوم على شاشات التلفاز. نحن نقف معها، إلى جانبها ولكن من خلال علاقة وهمية دون أي تبادل أو أي تفاعل أو أي كلام. صحيح أننا نشعر نحوهم بالعطف والشفقة ولكن لا نفعل أي شيء لمشاطرتهم آلامهم، لتفهم وضعهم، لمداواة جراحهم. وبالتالي يلزم من وراء المرايا أن تمتد يد نحو هذه البشرية المعذبة، ينبغي تشكيل نزعة إنسانية تضامنية لا نزال ندعو إليها من كل قلوبنا. ولكن يلزمنا الكثير من الوقت والاهتمام والشجاعة لتحقيق ذلك.

نحو تضامن جديد بين البشر

بينما تبلور البشرية وعياً كونياً للمصير الجماعي فإنها تشعر بالحاجة الأخلاقية إلى التضامن بعضها مع بعض. وهذا التضامن يشكل في آن معاً ولادة جديدة ووعداً ينتظر من ينجزه ويكمله. في الواقع إن الأخوّة التضامنية بين البشر هي فكرة جديدة ظهرت في العالم مؤخراً تماماً مثلما أن السعادة كانت فكرة جديدة في أوروبا عام ١٧٨٩ بحسب ما قاله أحد قادة الثورة الفرنسية : سان جوست. والواقع أن العولمة إذ قربت بين الشعوب والثقافات والإيديولوجيات

والأديان المختلفة وإذ جعلتها تتمازج وتتفاعل فيما بينها قد فرضت علينا الحقيقة البديهية التالية : وهي أن الجنس البشري واحد فيما وراء كل هذه الاختلافات والخصوصيات. وبالتالي فكل ما هو إنساني يخصنا جميعاً ويهمنا أمره. ولا يمكننا أن نعيش مستريحي الضمير وهناك إنسان جائع أو فقير يعيش على هذه الأرض سواء أكان قريباً أم بعيداً عنا. وفي عالمنا الحالي أصبح الواحد منا يرى كل ما يحصل في العالم من خلال الفضائيات وشاشات التلفاز . وأصبح يدري بكل المآسي والكوارث والآلام التي تحصل، وبالتالي فإن التفاوت الهائل بين الأغنياء والفقراء، بين من يملكون كل شيء ومن لا يملكون شيئاً، لم يعد يحتمل أو يطاق. لقد أصبح يشكل إهانة لإنسانية الإنسان. فهناك بشرية متخمة إلى حد البطر، وأخرى محرومة إلى حد الجوع القاتل. نعم، نحن مسؤولون عن الفواجع التي يثيرها على سطح الكوكب الأرضي كله هذا الفقر والجوع والمرض وتدهور الأحوال المناخية والبيئية والأزمات الإقليمية أو المحلية والحروب الأهلية.

ولكن، وهنا يكمن التناقض الذي يدعو للعجب، يبدو أن الأنانية لم تختف من العالم على الرغم من أنه لم يكن أبداً مترابطاً بعضه مع بعض، ولا معتمداً بعضه على بعض كما هو حالياً. وعلى الرغم من كل ثرواتها الوافرة وغناها فإن البلدان المتقدمة تصرف أنظارها عن الفقر المدقع الذي تعاني منه بلدان الجنوب ولا تفعل شيئاً يذكر

لتخفيف آلامها وأوجاعها. نقول ذلك ونحن نعلم أن سوء التغذية، والأمراض، وموت الأطفال في سن مبكرة لا تزال تكتسح هذه البلدان الفقيرة وتصيبها بالويلات. ومع ذلك فإن أنانية البلدان الغنية في أوروبا وأمريكا الشمالية وسواهما تمنعها من أن تمد إليها يد المساعدة. في الواقع إن المراكز الغنية الموجودة في المدن الكبرى للبلاد المتقدمة تجهل اليأس المطبق الذي يسيطر على سكان الأطراف المهمَّشة في دول الجنوب. وتجهل أيضاً مخزون العنف الذي يتراكم ويتزايد بسبب هذا اليأس والفقر. وهو عنف يهدر هدراً ويكاد يهدد بالانفجار وتصل شظاياه إلى بلداننا حالياً بأشكال شتى. فالناس في بلدان الجنوب يرون من خلال شاشات التلفاز كيف يعيش الناس في بلدان الشمال المترفة ويقارنون ذلك بحياة الحرمان التي يعيشونها ويرون الفرق واضحاً جلياً. وهذا ما يزيد من نقمتهم وسخطهم علينا. فالإنسان ينسى أخاه الإنسان الذي يتخبط في المآسي. والإنسان الغربي الذي يعيش في مجتمع قائم على النزعة الفردية الأنانية لم يعد للآخر من مكان في عالمه. إن الآخر غير موجود بكل بساطة. فهو مشغول بحياة المتعة والاستهلاك التي يعيشها ولا يريد أن يرى شيئاً آخر.

فهلاّ أدركنا النتائج المترتبة على لامبالاتنا بسكان الجنوب وفقرهم؟ هل نسينا أن هذا الفقر المدقع يحمل في طياته بذور الحقد والنقمة

علينا، وبالتالي بذور الصراع والمجابهة؟ نعم إن تزايد الظلم والتفاوتات الاجتماعية بين مجتمعات الشمال ومجتمعات الجنوب قد أصبح شيئاً لا يحتمل ولا يطاق. وهو يهدد تماسك العالم بقدر ما تهدده العصبيات الدينية والهويات الثقافية المنغلقة على ذاتها. ولو أننا أدركنا كل ذلك وأخذناه بعين الاعتبار لدفعنا ضميرنا بل ومصالحنا إلى أن نبذل كل ما في وسعنا لمساعدة دول الجنوب على تضميد جراحها والتخفيف من الآلام الناتجة عن فقرها وحرمانها. فديمومة هذه الآفات من فقر ومرض وجوع هي التي تزيد من اتساع الهوّة بين شمال غني ومزدهر أكثر فأكثر وجنوب غارق في هلع عميق لا يعرف كيف يمكن أن يخرج منه.

هل نعلم بأن هناك أوبئة جديدة تحصد الناس حصداً في قارات بأسرها؟ وأكبر دليل على ذلك مرض الإيدز (أي فقدان المناعة) الذي يهدد حياة ملايين البشر. ولا يحق لنا أن نتخلى عن واجبنا ونقف مكتوفي الأيدي أمام ما يحصل. فنحن في الغرب أغنياء ومتقدمون علمياً وطبياً. ونحن نمتلك الأدوية الفعالة لمكافحة هذا المرض الخبيث. وهذه الأدوية في متناول أيدي الناس في الغرب. كما أن الحصول عليها ممكن في بعض البلدان الأخرى بأسعار معقولة. ولكن معظم الناس في إفريقيا السوداء لا يستطيعون شراءها. ومعلوم أن مرض الإيدز مستفحل بشكل خاص هناك. وهكذا نتفرج عليهم وهم

يموتون دون أن نحرك ساكناً ودون أن نتضامن معهم عن طريق إرسال الأدوية إليهم. وبالتالي فعلينا أن نضاعف جهودنا وأن نبلور أفضل الإستراتيجيات لتقديم المساعدة وتحقيق الأهداف ذات الأولوية القصوى. فوحده العمل الجماعي المنظم يمكنه أن يوقف الأضرار الفادحة لهذا المرض اللعين عند حدها. فقد أصبح وباء الإيدز يهدد توازن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في بعض مناطق العالم.

عندما يكون ربع سكان العالم يعيشون على أقل من دولار في اليوم فإن التحدي الذي يطرحه واجب التنمية علينا يشكل أمراً ملحاً وعاجلاً. وينبغي أن نرتفع إلى مستوى التحدي. إذا ما نظرنا إلى حالة العالم اليوم في شموليتها نجد ما يلي : إذا كان يبدو أن آسيا وأمريكا اللاتينية قد دخلتا نهائياً في مرحلة النموّ الاقتصادي المطرد على الرغم من بعض نقاط الضعف الرازحة، إلا أن الأمر يختلف بالنسبة لإفريقيا. ولا يكفي أن نقدم لها المساعدة العامة من قبل الغرب. فهذا لا يشكل حلاً على المدى الطويل إذا لم ترافقه شراكة حقيقية بين الدول الغربية والدول الإفريقية من أجل دعم المبادرات التنموية والاقتصادية المحلية، ومن أجل تشجيع الاستثمارات. وهدف كل ذلك هو تشكيل البنى التحتية الضرورية لتحقيق التقدم الاقتصادي والاجتماعي بشكل ذاتي، داخلي.

ينبغي العلم بأن تضامننا مع دول الجنوب يشكل شرطاً ضرورياً لترسيخ الديمقراطية هناك. فالتحديث السياسي لهذه البلاد ينبغي أن يصاحب إقلاعها الاقتصادي، تماماً كما حصل سابقاً بالنسبة للديمقراطيات الغربية الكبرى في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. فقد تطورت سياسياً واقتصادياً في آن معاً. وبالتالي فالمساعدة التي يقدمها الغرب لهذه الدول لا تكفي لتحقيق تنميتها الاقتصادية إذا لم تصبح ديمقراطية بما فيه الكفاية. وذلك لأن النموّ الاقتصادي لا يؤمّن الاستقرار الاجتماعي والسياسي لأي بلد إن لم يكن هذا النمو عادلاً وينعكس بالخير على الجميع ويرفع من مستوى معيشتهم.

نعم إن المعركة من أجل تنمية دول الجنوب وتطويرها ينبغي أن تكون معركتنا جميعاً وفي سلم أولوياتنا. وهذا الشيء لا ينطبق فقط على إفريقيا السوداء، وإنما أيضاً على الشرق الأوسط، فبلدانه لا تزال في مؤخرة الشعوب من كافة النواحي : أي من ناحية التوظيف، أو التربية والتعليم، أو التطور التكنولوجي، أو معدل الإنتاج الاقتصادي. إن بلدان الشرق الأوسط متخلفة في كافة هذه المجالات ليس فقط بالنسبة لدول الغرب وإنما أيضاً بالنسبة إلى الدول التي دخلت الحداثة مؤخراً كتايوان، وكوريا الجنوبية، وسنغافورة.

وهذا الفشل الاقتصادي الذي تعاني منه دول الشرق الأوسط هو الذي أدى إلى شيوع تلك الفكرة المشبوهة والخطرة والتي تقول بعدم

وجود توافق بين الإسلام والحداثة، أو بأن الإسلام يعرقل تطور وتقدم البلدان التي ينتشر فيها. وهذا الاعتقاد السائد في الغرب ومناطق أخرى في العالم ضار لأنه يؤدي إلى توتر الأجواء بين الشرق والغرب وربما إلى الصراع بين الحضارات والثقافات. وهذا ما ينبغي تحاشيه بأي شكل لأننا مضطرون للعيش المشترك حول حوض البحر الأبيض المتوسط. وبالتالي فالقول بأن البلدان العربية لا يمكن أن تدخل الحداثة لأن الحداثة تصدم المبادئ الأساسية للدين الإسلامي يزيد الهوة اتساعاً بين الشرق والغرب ويخدم موقف الأصوليين والمتطرفين. فهؤلاء لا ينتظرون إلا الفرصة السانحة لكي يهيّجوا الشعوب بعضها على بعض كي تدخل في معركة الصراع والمواجهة والحروب. وبالتالي فأفضل رد على هؤلاء المتطرفين هو أن نساعد البلدان العربية على سلوك طريق التنمية وبالتالي الازدهار الاقتصادي والاجتماعي. وهذا سيؤدي في نهاية المطاف إلى الاستقرار السياسي والإقليمي في المنطقة.

ينبغي العلم بأن النمو الاقتصادي أصبح أحد العوامل الأساسية التي ينبغي توافرها لكي يستطيع بلد ما أن يندمج بشكل إيجابي في النظام العالمي : أو نظام العولمة. وأفضل مثال على ذلك الصين. فمنذ سنوات عديدة وهي تجعل من نجاحها الاقتصادي الاستثنائي ورقة رابحة على الصعيد الدولي. وبعد أن خفّت حدة الصراع الإيديولوجي

مع الغرب أصبح "الانفتاح الكبير" للصين يأخذ مجراه على الصعيد الاقتصادي وأما في السابق فكانت الإيديولوجيا الشيوعية المتزمتة تحول دون ذلك. ولذا أصبحت الصين تحقق نمواً اقتصادياً مضطرداً تغذيه الصادرات والاستثمارات. وفي موازاة ذلك راح القادة الصينيون يقيمون علاقات براغماتية مع الولايات المتحدة الأمريكية. كما راحوا يقيمون تعاوناً ناشطاً وفعالاً مع بلدان المنطقة المحيطة بهم. وفي ذات الوقت لم تتراجع الصين عن رغبتها في أن تصبح قوة عظمى يحسب لها الحساب. والدليل على ذلك أنها تتابع سياستها الطموحة الهادفة إلى تحديث أسلحتها التقليدية والذرية في آن معاً. وقد انخرطت في برنامج فضائي كبير لا سابق له. وسوف تكون له انعكاساته التكنولوجية، والمدنية، والعسكرية الواضحة. ولكن في ذات الوقت نلاحظ أنها تعطي الأولوية للتطور الاقتصادي وتبدو حريصة على تحاشي الخطأ الكبير الذي وقع فيه الاتحاد السوفييتي عندما جرته أمريكا إلى سباق محموم وباهظ التكاليف على التسلح. وهو السباق الذي أودى به وأدى إلى سقوطه في نهاية المطاف. أما الصين فلن تسلك نفس الخط ولن تحرف ثرواتها الاقتصادية التي جمعتها بعرق جبينها عن مسارها الصحيح. بمعنى آخر فلن تصرفها كلها على سباق التسلح وصناعة الأسلحة التي هي صناعة غير إنتاجية : أي تتم على حساب مستوى معيشة الشعب الصيني وتطوره العام. ومع ذلك فعلى

الرغم من الاشتراك في نفس النظام الاقتصادي، على الرغم من مساهمة دول متزايدة أكثر فأكثر في عملية التبادل التجاري والاستثمارات على مستوى العالم، فإن بعض الخبراء يطلقون صفارات الإنذار والخطر. لماذا؟ لأن المنطق الاقتصادي (أي تحقيق التقدم الاقتصادي) لم يعد يكفي لاستمرارية الإنسان على قيد الحياة ولتأمين التماسك بين الشعوب. وهكذا راحت العولمة تثير في كل مكان نفس الإحساس بالخطر ونفس الوعي بضرورة تحقيق العدالة الاقتصادية وليس فقط التنمية الاقتصادية. فالعولمة اللبرالية الجديدة ركزت على الحد الثاني من المعادلة وأهملت الحد الأول. ولذلك زادت الغني غنى والفقير فقراً. وبالتالي فقد آن الأوان لتصحيح الوضع : أي تصحيح مسار العولمة وطبيعتها. وهذه هي القناعة الأساسية التي تجيش طاقات الحركات النضالية المضادة للعولمة الرأسمالية وليس العولمة في المطلق. فالعولمة أصبحت ظاهرة كونية ولا مرجوع عنها. ولكن كل السؤال المطروح هو : أي عولمة نريد؟ إن الحركات النضالية المضادة للعولمة الرأسمالية تعبر عن تضامن دولي غير مسبوق. وهي الآن تساهم في تشكيل المجتمع المدني العالمي الذي يريد أخذ مصيره بيده. وهو يتجاوز المجتمع المدني الفرنسي، أو الأمريكي، أو الصيني، أو العربي، لكي يشمل العالم بأسره. وبموازاته راح يتشكل رأي عام عالمي جديد. إن هذه الحركة النضالية الجديدة تتحرر من الإطارات القومية

الضيقة لكي تخاطب شعوب العالم بأسرها ولكي تدين أنانية المنظمات المصرفية العالمية الكبرى كالبنك الدولي وصندوق النقد الدولي ومنظمة التجارة العالمية ونادي الدول السبع الصناعية الأغنى في العالم ومعرض دافوس الشهير في سويسرا، الخ... إنها تدين نواقص هذه المؤسسات الدولية الكبرى التي تتحكم بمصير العالم اقتصادياً وسياسياً. فهي غير قادرة على تأمين الحياة الكريمة لجميع سكان الكرة الأرضية وإنما تفيد بشكل خاص دول الشمال الغنية والشركات الرأسمالية الكبرى.

ولكن فيما وراء هذا التشكل للوعي والضمير الإنساني الجديد، بقي علينا أن نجد توازناً بين الاقتسام الأفضل والأكثر عدالة لثروات العالم، وبين ضرورات المصالح القومية والإقليمية المتناقضة بطبيعتها. فمن غير المتوقع أن يستمر التضامن بين بلدان الشمال وبلدان الجنوب أو أن يصمد أمام تضارب مصالح كل جهة إلى الأبد. لنضرب على ذلك مثلاً مشكلة البيئة والحفاظ عليها من التلوث الصناعي. فالمنظمات التي تدافع عنها تنتمي عموماً إلى المجتمعات الغربية الصناعية. وهي إذ تطالب بالحفاظ على البيئة من التلوث ومنع بث الغازات في الجو عن طريق المصانع أكثر مما يجب تصطدم بالدول النامية التي انخرطت مؤخراً في التصنيع على أوسع نطاق كالصين والهند وسواهما من بلدان الجنوب. فهذه البلدان تعتبر الدعوة

المتكررة إلى حماية البيئة وكأنها موجهة ضدها وتريد منعها من التصنيع واللحاق بركب الأمم المتطورة. فدول الغرب ليست بحاجة إلى تصنيع كثير لأنها كانت قد تصنّعت سابقاً على مدار القرنين الماضيين. وبالتالي فتستطيع أن تتقيد بقوانين حماية البيئة وتخفيض طاقة مصانعها التي تبث الغازات المسمّمة في الأجواء دون أن تتضرر كثيراً من جراء ذلك. أما البلدان التي ابتدأت تصنيع نفسها مؤخراً فهي بحاجة إلى المزيد من المصانع ولا تستطيع أن تستغني عن تشغيلها بأعلى طاقة ممكنة من أجل تحقيق التقدم والازدهار لشعوبها. وهذا ما تحاول أن تفعله الصين حالياً وكذلك الهند والبرازيل وغيرها من بلدان الجنوب التي تريد اللحاق بفرنسا وألمانيا وإنجلترا والولايات المتحدة واليابان... وهكذا يحصل تضارب في المصالح بين دول الشمال ودول الجنوب. بل حتى داخل دول الجنوب نلاحظ أن المصالح لم تعد متطابقة. ومنذ زمن طويل لم يعد الجنوب يشكل كتلة واحدة ومتجانسة في مصالحها وتدافع عنها كما تدافع عن البيئة والعمل. فالعولمة مثلاً أفادت بلداً كبيراً كالبرازيل، ولكنها خنقت بلداً صغيراً مثل "بينين" في إفريقيا. وفي المستقبل يتوقع أن تصبح التعارضات داخل دول الجنوب بنفس قوة التعارضات بين الشمال والجنوب حتى لو كان من الممكن التخفيف من الخصومات الاقتصادية عن طريق التركيز على التضامن الكائن فيما بينها أي بين دول الجنوب بسبب الهويات التراثية المشتركة.

والأمر الغريب المليء بالتناقض هو أن حدود العولمة هي التي تولّد غالباً أبشع أنواع الحرمان. قلنا إنه متناقض لأن العولمة تزيل الحدود بين الدول من حيث المبدأ وتحول العالم كله إلى سوق مفتوحة على مصراعيها، إلى فضاء واسع شاسع بحجم العالم. ولكنها في الواقع تقيم الحدود الحاجزة لحماية اقتصادات البلدان الغنية. ولهذا السبب فإن الهوة تزداد اتساعاً بين المركز (أي الغرب) والأطراف الهامشية (أي بلدان العالم الثالث أو ما يدعى بدول الجنوب حالياً). وهكذا ييأس أناس كثيرون من العولمة بعد أن كانوا قد علّقوا عليها آمالاً كبيرة. صحيح أن التبادل الاقتصادي الحر لا يضر بمصلحة البلدان النامية أو المنخرطة على طريق النمو. ولكنه يهدد الاقتصادات الأكثر ضعفاً وهشاشة. وهي اقتصادات غير مندمجة في التجارة الدولية إطلاقاً أو مندمجة بشكل قليل وغير كاف. وهذه هي حالة اقتصادات معظم الدول الإفريقية التي تتناقص حصتها أو مساهمتها في التبادلات العالمية سنة بعد سنة. صحيح أن هذه البلدان تمتلك يداً عاملة رخيصة. ولكن هذا غير كاف. فالنمو الاقتصادي لا يمكن أن يعتمد على هذا العامل فقط. فبما أن البلدان الأكثر فقراً محرومة من المهندسين ومن البنى الاقتصادية والمالية القوية، فإنها مجبرة على الاعتماد كلياً على الخارج. وهكذا تظل على هامش العولمة أو أطرافها. وبالتالي فلكي تستفيد من العولمة ينبغي أن تكون قوياً إلى حد ما.

إن الجماعة الدولية واعية لمخاطر هذا الوضع ولذلك فإن من واجبها أن تزيد الانخراط في عملية تقليص تفاوت الثروة بين الدول الغنية والدول الفقيرة. ولهذا السبب نشأت فكرة تقديم مساعدة عامة لهذه الأخيرة بعد الحرب العالمية الثانية : أي في لحظة نيلها للاستقلال. وفي الفترة الأولى كانت المساعدة المقدمة تتناسب مع المصالح التاريخية والجيوبوليتية لكل بلد أوروبي يقدمها إلى مستعمراته السابقة عموماً. أما في المرحلة الثانية، أي أثناء الحرب الباردة، فكانت المساعدة تقدم للدول الفقيرة طبقاً للمصلحة الإيديولوجية لكل قوة عظمى. وكان الهدف منها الحفاظ على تماسك كل معسكر وكذلك الحفاظ على مناطق نفوذه. فالمعسكر الغربي يقدم مساعدات للدول التابعة له، وكذلك يفعل المعسكر السوفييتي من طرفه. وبالتالي فلا توجد مساعدة نزيهة لوجه الله ! لا ريب في أن النزعة الإنسانية كانت واردة ولكن التنمية لم تكن الهدف الوحيد المبتغى من قبل الدول الكبرى. ولذلك لزم علينا أولاً أن نخرج من إطار العلاقات الثنائية الذي كان يتحكم بتقديم المساعدات من الدول الغنية إلى دول العالم الثالث. ولهذا السبب فإن الأمم المتحدة تولت هذا الأمر عام ١٩٦١ ودشنت مشروع "عشر سنوات من اجل التنمية". وفي عام ٢٠٠٠ جمعت الأمم المتحدة قادة العالم كلهم وتعهدوا بتحقيق "أهداف القرن الواحد والعشرين" ضمن فترات زمنية محسوبة

ومعقولة. والمقصود بها أهداف التنمية بالطبع : أي تنمية دول الجنوب المتأخرة عن ركب التقدم والتطور. ثم عقد مؤتمر لهذا الغرض في جوهانسبورغ بإفريقيا الجنوبية في شهر سبتمبر ٢٠٠٢ وعندئذ قررت الجماعة الدولية ربط أهداف التنمية بالمصالح الجماعية للبشرية وبخاصة مصلحتها في حماية البيئة التي بدأت أحوالها تتدهور وتطلق إشارات مقلقة.

ولكن بقي علينا أن نواجه درجات التفاوت الصارخة بين غنى الأغنياء وفقر الفقراء. والواقع أنه يوجد في العالم اليوم مليار شخص موسر، ومليارات ونصف من السكان الفقراء، ومليارات ونصف آخرون من السكان الفقراء جداً. ويتوقع الخبراء أن ٩٠٪ من سكان الأرض الجدد سوف يولدون في البلدان الفقيرة عل مدى الخمسين سنة القادمة. ينتج عن ذلك أن المساعدة المقدمة لأجل تنمية الدول الفقيرة ينبغي أن يكون لها هدفان اثنان. الأول هو تقليص الفقر، والثاني هو دمج البلدان الفقيرة داخل الاقتصاد العالمي. والواقع أن فعالية الجماعة الدولية سوف تصبح أكبر في هذا المضمار إذا ما توصلت إلى تنسيق جهودها بشكل جديد مع المنظمات الإقليمية والبلدان المعنية بالتنمية. وينبغي العلم بأن محاربة الفقر لن تنجح إلا إذا أخذت بعين الاعتبار كل جوانب عملية التنمية من البنى التحتية إلى الطاقة، ومن تشكيل الشركات الصغيرة والمتوسطة إلى تطوير التربية والتعليم

في هذه البلدان الفقيرة المحتاجة إلى المساعدة. وأما النضال من أجل الدفاع عن البيئة فيتطلب منا تنسيقاً أفضل للجهود المبذولة داخل إطار المؤسسات الدولية. وبهذا الصدد ينبغي القول إن العمل من اجل التنمية المستديمة وحماية "الخدمات العامة العالمية" يشكلان أولوية قصوى. ولتحقيق مثل هذه الأهداف ينبغي علينا استخدام أدوات ووسائل فعالة غير موجودة حتى الآن. ولذلك ينبغي تشكيل منظمة عالمية من أجل البيئة يكون هدفها السهر على الطبيعة وحمايتها بكل ما فيها. ويمكن لهذه المنظمة أن تكلف الخبراء المختصين تقديم الدراسات العلمية المستقلة عن الموضوع. وهذه الدراسات يكون هدفها تنبيه الجماعة الدولية إلى خطورة المشاكل الأكثر إلحاحاً وضرورة معالجتها. وينبغي علينا أيضاً أن نبلور على المستوى الدولي بعض القوانين الملزمة فعلاً للجميع من أجل مكافحة تلويث الجو والهواء. فهذا الوضع لم يعد يحتمل. ولم يعد يكفي الوعظ والإرشاد لأن الكثيرين لا يتقيدون بالنصائح الخاصة بهذه المسألة. وبالتالي فقد آن الأوان لأن تجبر الجماعة الدولية كل الأطراف على طاعة القانون.

ينبغي العلم بأنه لم يعد ممكناً أن نترك مصير العالم متوقفاً على المبدأ الشهير التالي : "دعه يعمل، دعه يمر". وهو المبدأ الرأسمالي الذي رفع الليبراليون شعاره في القرن الثامن عشر من أجل تحقيق التصنيع والتنمية في أوروبا. هذا لم يعد ممكناً الآن لأن الظروف

اختلفت. فأولاً لم تعد المنتجات البشرية كلها من نفس السلع المادية. نضرب على ذلك مثلاً المنطق الاقتصادي لمختبرات الصيدلة التي تصنع الأدوية. فهي تريد تحقيق الربح ككل الشركات أو المصانع. ولكن كيف نوفق بين رغبتها هذه وبين المنطق الإنساني الذي يقضي بمعالجة الأمراض التي يصاب بها اليتامى أو أولئك الذين لا يمتلكون أكثر من دولار أو دولارين في اليوم والذين هم بحاجة ماسة لمعالجة طبية مكلفة؟ هنا يقع المنطق الاقتصادي لهذه المختبرات (أي منطق الربح والفائدة) في تناقض مع المنطق الإنساني الذي يقضي بضرورة التضامن مع الفقراء أو توزيع الأدوية عليهم بالمجان.

نستنتج من كل ذلك أنه لا يمكننا أن نترك العولمة تسير على هواها لأنها عندئذ سوف تزيد الغني غنى والفقير فقراً. ولكي نغير مسارها الجائر ونعطيها معنى إيجابياً وإنسانياً فإنه لا يوجد إلا حل واحد : أن نشتغل معاً كباراً وصغاراً، أغنياء وفقراء. وينبغي علينا بهذا الصدد تشكيل فضاء إنساني يقع خارج منطق الربح والفائدة التجارية المحضة. هذا شيء ضروري جداً لكي يستطيع الفكر المسؤول والنزعة الإنسانية أن يعبرا عن مقاصدهما الكريمة والمتحسسة لآلام المعذبين في الأرض. ولهذا السبب تزايد عدد البلدان التي تدعو إلى تشكيل مجلس أعلى للأمن الاقتصادي والاجتماعي للعالم كله لكي يكون قادراً على الاهتمام بالمصلحة العامة للبشرية. بالطبع فإن للمؤسسات

الخاصة دوراً هاماً ينبغي أن تقوم به في مجال القطاعات الأكثر أهمية وتعقيداً كقطاع التغذية، والصحة، والثقافة، والبيئة. ولكن تفتيت المنظمات الكبرى إلى العديد من المنظمات الصغرى المحرومة من الوسائل وإمكانيات العمل يضعف كثيراً من فعالية العمل الذي تقوم به الأمم المتحدة. وبالتالي ففي الوقت الذي نقوي فيه من الهيكلية العامة للعمل، يمكن لهذه المؤسسات أن تسنّ قوانينها وأن تفرض على الجميع التقيد بها. وهكذا يمكن للجماعة الدولية أن توفق بين المنطق الاقتصادي والتجاري من جهة، وبين المنطق البيئوي والصحي والاجتماعي من جهة أخرى بغية بلورة استراتيجيات قابلة للاستمرارية على المدى الطويل. وعندئذ يمكن أن نضع حداً للتناقضات التي تميز الوضع الراهن. نذكر من بينها على سبيل المثال التناقض التالي : فهم يقررون في نفس اللحظة زيادة المساعدة الغذائية العاجلة للدول المنكوبة، ولكنهم يخفضون قيمة الدعم المادي لمساعدة التنمية الزراعية في هذه البلدان بالذات !

ولكن لكي نشكل هذا المجلس الأعلى للأمن الاقتصادي والاجتماعي للبشرية ينبغي علينا أن نجد طريقة لتمثيل كل الدول فيه دون خلق أي عرقلة في وجه المفاوضات المقبلة. ويمكن لهذا المجلس أن يعتمد على القوى الإقليمية تماماً كما يفعل الاتحاد الأوروبي الذي يحدد إستراتيجية مشتركة قبل أن ينضم إلى منظمة التجارة العالمية

أو يجلس على طاولتها. ويمكن عندئذ لمختلف قطاعات المجتمع المدني أن تنضم إلى هذا المشروع الكبير من خلال المنظمات غير الحكومية على وجه الخصوص. ينبغي العلم بأن حكم العالم بشكل فعال أو إدارة شؤونه ينبغي أن يرتكز على الطابع الجماعي للمداولات والاستشارات والممارسة العملية. وهكذا ننقل الممارسة الديمقراطية من الصعيد المحلي إلى الصعيد العالمي الذي يطمح إلى أن يصبح مجتمعاً حقيقياً: هو المجتمع الذي يضم كل مجتمعات العالم دون استثناء. إن الأمل قد أخذ ينبثق في هذا الاتجاه، وكذلك الوعي بوجود مصير مشترك للبشرية كلها. بقي علينا أن نجد الوسائل المناسبة لتحقيق هذا الأمل الكبير.

روح التقـــدم

لست من المعجبين بالحكمة المزيفة التي تدعو للزهد في العالم وإدارة الظهر له بحجة أنه كان دائماً فاسداً وسيبقى. على العكس فإنني أومن بضرورة الانخراط والممارسة وإصلاح النواقص وإعطاء معنى ما للعالم. وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا بعد احترام الآخر بشكل فعلي ومن خلال خصوصيته، وإلا بعد أن نعترف للثقافات البشرية المختلفة بدور أساسي تقوم به، وإلا بعد بلورة تضامن جديد متجسد في الزمان والمكان. عندئذ، وعندئذ فقط، يمكننا أن نحقق هذا الشيء البسيط ولكن الصعب جداً، ألا وهو وضع الإنسان في مركز كل عمل،

وكل مشروع، ولكن مع اعترافنا بأنه لن يستطيع أن يسيطر على العالم كلياً أو نهائياً. فأفق الإنسان هو أفق المحدودية وليس اللامحدودية أو اللانهائية كما كنا نتوهم. ولا ينبغي أن يغتر بنفسه وإمكانياته أكثر من اللازم. وتجربتنا عن ضخامة العالم نستمدها من تلك الحركة اللانهائية للأفق الذي يتراجع أمام أعيننا ثم ينغلق كلما اقتربنا منه. وبالتالي فالأفق لا ينتهي. وكلما اختفت منه قطعة ظهرت قطعة أخرى، وهكذا دواليك. ومحل التسامي العمودي يحل المستوى الأفقي والأرضي المحسوس الذي يتجسد فيما هو بشري وإنساني على عكس التسامي الذي هو إلهي رباني. وينبغي العلم بأن الأصل المحلي لا يتناقض مع الارتفاع إلى مستوى الكونية. فنحن لا نستطيع أن نرتفع إلى الكونية إلاّ من خلال الخصوصية الثقافية التي ولدنا فيها. نضرب على ذلك مثلاً علم الجبر الذي ولد عند العرب المسلمين، أو فن الخط الصيني، أو تاج محل الذي يمثل رائعة الفن المعماري والذي بني في الهند. فكل هذه الأشياء خصوصية في الأصل ولكنها تحولت إلى كونية وأصبحت تخص البشرية بأسرها. وبالتالي فإن الإنسان لا يستطيع أن يعيد تأسيس الكونيّ إلا انطلاقاً من ذاته وتجربته المحسوسة. وهكذا ينتهي ذلك التناقض المفتعل بين الكونية والمحلية.

ينتج عن ذلك أنه ينبغي أن تظهر روح جديدة للتقدم، وينبغي أن تحل محل الروح السابقة. فمشروع التقدم السابق كان أعمى وميالاً

إلى الهيمنة ولذلك وصل إلى المأزق المسدود الذي نعرفه. أما المشروع الجديد فسوف يكون واثقاً بالإنسان ولكن بمرونة أكثر وبمعرفة أدق لنقاط قوته ونقاط ضعفه. هذا في حين أن المشروع السابق، أي مشروع عصر التنوير، كان يثق بالإنسان ثقة عمياء مطلقة، وكان ذلك إيجابياً في وقته وهو الذي أدى إلى صنع الحضارة الحديثة. ولكنه لم يعد كافياً. وبالتالي فالمشروع الجديد سوف يكون أكثر حذراً منه، إذ يثق بالإنسان وبمقدرته على التخلص من براثن النزعة الشكوكية والقدرية أو العدمية. وتبلور هذا النوع الجديد من النزعة الإنسانية يفترض مسبقاً مراجعة أساليب التربية المتبعة وكذلك أساليب التعليم والتدريب وتخريج الأجيال الجديدة. كل هذا ينبغي أن يعاد النظر فيه لكي نشكل إنساناً جديداً قادراً على مواجهة التحديات. وهذا العمل يشكل تحدياً كبيراً أو رهاناً أساسياً مطروحاً على بلداننا المتقدمة. فقد أصبح لازماً عليها أن تواجه المشاكل الناتجة عن دمقرطة التعليم وجعله ظاهرة جماهيرية منذ فترة طويلة في بلدان أوروبا بشكل عام. كما يشكل تحدياً للبلدان النامية التي تواجه الآن مشكلة الأمية وإدخال الجماهير في سلك التربية والتعليم على نحو ما فعلنا نحن سابقاً. وهذه المشكلة تقع في صميم الأزمة التي يعاني منها العالم العربي حالياً. ينبغي العلم بأن الشرق الأوسط هو إحدى مناطق العالم الأقل اهتماماً بالتربية والتعليم وتدريب الأجيال الطالعة، وهو الأقل

إنفاقاً عليها. وضعف مستوى التعليم هو أحد أسباب غياب النساء عن سوق العمل. وكلنا يعلم أنه في بلد مثل باكستان أدّى تقصير الدولة في مجال التعليم إلى ظهور عدد كبير من المدارس التي لا تخرج إلا العقليات الضيقة والمتعصبة كعقلية الطالبان. فهذه المدارس تؤطر الأذهان الغضة للتلامذة الصغار وتوجهها في اتجاه مضاد لكل أفكار الانفتاح والحوار. فالمتعصب لا يحاور عادة وإنما يفرض رأيه عليك أو يضربك. يضاف إلى ذلك أنه عندما تهتم الدولة بقطاع التعليم فإنها تحرك كل الطاقات التي تستطيع مواكبة التحديث الاقتصادي. فالحداثة غير ممكنة في ظل الأمية وفقدان الكفاءات العلمية المدربة جيداً. وإذا كان البحث والابتكار يؤديان بعد فترة إلى الازدهار الاقتصادي، فإن التعليم الحديث يؤدي إلى تشجيع الحريات الأساسية، وإلى ممارسة الفكر النقدي، واحترام الآخر.

وإذا ما استعدنا الثقة بالتقدم من جديد فإن ذلك يشجعنا على الانخراط في حوار خصب لا بد منه مع العلم بالمعنى المحض للكلمة. قلنا إنه لا بد منه نظراً إلى أن العلم يقع اليوم أكثر من أي وقت مضى في صميم حياتنا ومجتمعاتنا. كما أنه ضروري لأن العلم يواجه الآن قضايا تخص مجالات أخرى بدءاً من الزراعة وانتهاء بالأخلاق. وأخيراً فإنه ضروري ولا بد منه لأن انقطاع هذا الحوار يؤدي إلى تغذية الجهل والخوف.

لقد استخلص العلم بعض النتائج من دروس الماضي. وأولى هذه النتائج أنه أصبح الآن واعياً للحقيقة التالية التي مفادها أنه لا يستطيع وحده أن يحدد نوعية الاستخدام الجيد أو غير الجيد للاكتشافات التي يتوصل إليها. وبالتالي فهو بحاجة إلى تدخل الفلاسفة والحكماء لهدايته إلى ذلك. ومنذ الآن فصاعداً أخذ العلم يزود نفسه بمعايير جيدة تحميه من نفسه، من شططه وضلاله. نضرب على ذلك المثل التالي : إن المنتجات التي يخلقها العلم بفضل تحكّمه بالجينات الوراثية أصبحت الآن تخضع لتقييم الحكماء والفلاسفة بشكل منتظم لئلاّ يحصل أي خطأ في الاستخدام. والآن أصبح مبدأ الحذر والاحتياطّ معتمداً إلى حد كبير في أوساط العلماء التجريبيين لئلاّ يحصل أي انحراف في استخدام المخترعات أو المكتشفات العلمية. وبالتالي فلا داعي لأن نفرض عليهم قيوداً واحتياطات جديدة تخنق مقدرتهم على البحث والإبداع. ولنكتف بتشجيع العلم على تحمل مسؤوليته الذاتية تجاه الكائن البشري والمجتمع في آن معاً.

ولنتحمل مسؤوليتنا نحن ولنتخل عن ممارسة التسامح بالمعنى السهل أو الرخيص للكلمة. فذلك لا يعني عندئذ إلا المساومات واللامبالاة بالآخرين. ولنحاول أن نستعيد من جديد الطريق المؤدية إلى الهوية والجذور الأصلية. ولتكن عندنا الشجاعة لإعادة الصلة

بثقافتنا لكي نستطيع أن نكون مع أنفسنا ومع الآخر، ولكي نستطيع أن ندجّن العنف الموجود في داخلنا أو حولنا. فهو وليد الوديان والبراكين والموانئ والأعاصير. ولتكن عندنا الأريحية لكي نمد يدنا بالمساعدة إلى الآخرين ولكي تظل روحنا متفتحة تجاههم بكل كرم ودون أن ننتظر أي مقابل من طرفهم. وهذا هو تعريف الكرم بالمعنى الحقيقي للكلمة، وكذلك تعريف التضامن الإنساني الشريف. ولتكن لنا المرونة الضرورية لكي نشق طرقاً جديدة، لكي نفتح ثغرة في جدار التاريخ المسدود، لكي نقلب ساحة الممكنات. هذا هو الشيء الذي ينتظره منا العالم المعاصر. لا ريب في أن الرؤيويين والمتبصرين الذين يرون ما لا يرى على غرار رامبو، وهولدرلين، ومنديلستام[١١٨]، وبورخيس، وكيرواك[١١٩]، وناظم حكمت، ومحمود درويش يشعرون باليأس من هذا العالم غالباً. ولكن هناك حيث يتهاوى الواحد منهم بعد الآخر يظهر "عمال آخرون رهيبون" لكي يكملوا المهمة والمسيرة.

الفصل الخامس

الواجـــب

الفصل الخامس

الواجـــب

تعكس الأزمة العراقية بكل توتراتها وكل رهاناتها وكل تناقضاتها، عُقد العالم. لكن هل تمثل نهاية حقبة وبداية عصر جديد؟ وهل ينبغي اعتبار معركة بغداد بمثابة المدخل الحقيقي إلى القرن الحادي والعشرين، مثلما كان اغتيال الدوق فرانسوا فرديناند في سراييفو عام ١٩١٤ قد افتتح القرن العشرين؟ أم أن الأمر يتعلق، على العكس، بولوج مرحلة أطول من التوتر مثلما كانت أزمة الصواريخ الكوبية عام ١٩٦٢ بمثابة ذروة المواجهات غير المباشرة بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة؟ وأخيرا هل يتعلق الأمر بآخر خلجة في حقبة تلفظ أنفاسها الأخيرة؟

تشكل بعض الأزمات نتاجا لتطور تشعبات موجودة في العمق. هكذا جسدت الأزمة التي هزت منطقة البلقان خلال العقد الماضي تفاقم هيجان المشاعر القومية والدينية والمشاعر المتعلقة بالهوية التي كان القمع الشيوعي يساهم في خنقها بدلا من المساهمة في حلها. إن الأزمة العراقية كشفت أولا عن إستراتيجية استخدام القوة الوقائية.

لكنها ارتبطت أيضا مع مسعى سياسي هو نشر الديمقراطية في البلدان الأخرى، وبواسطة القوة إذا استدعى الأمر ذلك.

وإذا كان الانتصار العسكري قد تحقق فإن مصاعب كبرى لا تزال قائمة على صعيد إعادة تعمير البلاد ونقل السيادة وضبط الأمن. فالفوضى والعنف بسرحان ويمرحان، ولا بدّ من مرور زمن طويل كي تلتئم الجراح في العراق. وسوف تكون هناك حاجة لطاقة الجماعة الدولية ولإرادتها من أجل تهدئة الأحقاد.

في هذا السياق يصبح من الملحّ فتح منظور جديد أمام الشرق الأوسط. فالازدراء والعنف وعدم الفهم كلها قد تؤدي إلى بلورة خصومات دائمة يمكنها أن تتحول إلى صدام ثقافات وصدام أديان. وعلى فرنسا وأوروبا واجب أخذ دورهما في مأساة عرفت انتهاك قيمنا في الحوار والمشاركة وروح العدالة. وطموحنا هو أن ندفع نحو وعي ما يجري على خلفية إرادتنا بالمساهمة النبيلة بالسلام والتنمية في مواجهة دوامة اللامبالاة والبغضاء. وقبل كل شيء يجب أن نستنبط الدروس من المأساة العراقية المؤلمة والعودة إلى حيث افترق طريقانا وحيث تشوش الأفق فجأة.

فهل كان ينبغي، من أجل التغلب على القدر، ولوج طريق بغداد والأسلحة مشرعة في الأيادي أو، على العكس، التشبث بإنقاذ القدس

بواسطة أسلحة السلام وحدها؟ إن طريقة أخرى في التفكير تفرض نفسها أمام مسلسل العنف؟ فمن الضروري بالنسبة للولايات المتحدة كما بالنسبة لأوروبا إيجاد مدخل مختلف إلى هذه المنطقة الممزقة. وما ننتظره هو وجه آخر ينمّ عن الحكمة والانفتاح والكرم. وإذا كان يتوجب هز العقول وخلق المفاجأة المؤاتية للنهوض فإنه قد ينبغي تبني مخاطرة السلام والحلم بحصان طروادة جديد من أجل تجميع كل الطاقات ورفض المصيبة المحتومة وإعطاء نفحة من الحياة للمستحيل.

إن الأمثلة الكبرى ومصادر الاستلهام منا ليست شحيحة. ألم تكن الجسارة هي نفسها في جميع القارات؟ هكذا في جنيف عام ١٩٢٦، كي لا نتحدث سوى عن أوروبا، ألقى ارستيد بريان١٢٠ بشاربه الكث وأجفانه الثقيلة ونظرته المنهكة أهم خطاب له من على منبر عصبة الأمم. لقد رأى وعاش الكثير من الأحداث. إنه من أصول اشتراكية ومن أصدقاء جان جوريس القدامى الحميمين، وكان المحرك الرئيسي لعملية فصل الكنائس عن الدولة بشكل سلمي ومتوافق مع روح التسامح التي كانت تنعش الجمهوريين الحقيقيين. وبعد أن وضع حدا للحرب بين مؤيدي الفصل ومعارضيه، تولى قيادة حكومة الحرب ما بين عام ١٩١٥ وعام ١٩١٧ وواجه امتحان معركة فيردان الرهيب.

وفي اللحظة التي كان فيها قسم كبير من الطبقة السياسية الفرنسية يريد أن تدفع ألمانيا استحقاقاتها ويطالب بالتطبيق الحرفي

الصارم لمعاهدة فرساي، فهم ارستيد بريان بأنه ينبغي مد اليد للمهزوم وإجراء المصالحة حيث لا يزال الوقت متاحا لذلك. كانت إرادته تلتقي مع إرادة نظيره الألماني "ستريسمان" الذي شكل معه أول ثنائي فرنسي-ألماني في التاريخ. وفي عام ١٩٢٥، بفضل ميثاق لوكارنو، اعترفت جمهورية "فيمار" بحدودها الغربية مما شكل خطوة هامة فتحت الطريق أمام حقبة من الأمل. بعد عام استقبل "حاج السلام" - أي بريان - شخصيا "العدو الوراثي" السابق في إطار عصبة الأمم. وكان للكلمات رنينها: "لقد انتهت بين ألمانيا وفرنسا اللقاءات المؤلمة والدامية التي تلطخت بها كل صفحات التاريخ وانتهت مآتم الحداد على الآلام التي لا تهدأ أبدا. لن تكون هناك حروب ولن تكون هناك حلول قاسية ودامية لخلافاتنا. لا شك بأن هذه الخلافات لم تنته، لكن القاضي هو الذي سيقول من الآن فصاعدا من هو صاحب الحق".

ثم أنهى "بريان" كلامه بالنداء الشهير: "فلتتراجع البنادق والأسلحة الرشاشة والمدافع ! وليُفسح المجال للمصالحة والتحكيم والسلام".

إذا كان بريان متمسكا إلى هذا الحد بالمصالحة الفرنسية-الألمانية، فما ذاك إلا لمعرفته بأنها تشكل مقدمة توحيد القارة، وكان يتمنى هذا

التوحيد. وكان يعتقد منذ نهاية الحرب العالمية الأولى أنه لم يكن أمام أوروبا أي خيار آخر في مواجهة الصعود القوي للولايات المتحدة وروسيا. وفي خطابه الهام الأخير في شهر سبتمبر ١٩٢٩ دعا بالقدر المطلوب من التعقل الضروري، إلى إقامة "نوع من الرابطة الفيدرالية" في القارة القديمة. في نفس تلك السنة، ويوم الخميس الأسود، دخل العالم في عقد جديد من التوترات انتهت إلى نشوب الحرب العالمية الثانية. لقد توفي ارستيد بريان قبل عام من وصول هتلر إلى السلطة، وهكذا لم ير اضمحلال عمله. وكما هو الحال غالبا في السياسة، فإن زمن الفعل ليس هو الذي يبقى للخلف. فإذا كان قد خسر رهانه المباشر فإنه بذر للمستقبل.

القانون والقوة

بعض المعارك تحدث ثورة في التاريخ العسكري، بل وفي التاريخ كله. ففي كريسي أو بواتييه أو ازنيكور[١٢١] ما بين ١٣٤٦ و ١٤١٥ برهن رماة السهام الانجليز، عندما ألحقوا خسائر فادحة جدا في فرسان ملك فرنسا، على المكانة الهامة التي سوف تأخذها المدفعية لاحقا في ساحة الشرف. والحروب الثورية ثم الإمبريالية من فالمي[١٢٢] إلى ايلو[١٢٣]، اعتمدت على مبدأ جديد يقول باستخدام أكبر للإمكانيات الإنسانية وتغذية ذلك بتجنيد متزايد للقوات. هذه الإستراتيجية بلغت

ذروتها أثناء المعارك القاتلة في الحرب العالمية الأولى. أما الحرب العالمية الثانية فقد دشنت عمليات القصف الكثيف لأهداف مدنية من لندن إلى درسدن وبلغت أوجها مع استخدام السلاح النووي في هيروشيما وناغازاكي. وبالنسبة لحرب الخليج عام ١٩٩١ فإنها قد شهدت بداية الحرب التكنولوجية مع عدد محدود جدا من الخسائر البشرية واستخدام أسلحة ذات دقة عالية يتم توجيهها نحو أهداف محددة بدقة بواسطة معدات الكترونية متطورة جدا.

إن منطقة ما بين النهرين كانت، على مر القرون، مسرحا لمعارك لا تعد ولا تحصى ومختبرا لفن الحرب. فكم من مرة تعرّضت هذه الأرض للتخريب! في عام ١٢٥٧ دمّر المغول بغداد وقتلوا أهلها. وأثناء الحرب العالمية الثانية خاضت القوات البريطانية معارك عنيفة قبل الاستيلاء على بغداد يوم ١١ مارس ١٩١٧. وفي سنوات العشرينات، وعلى الرغم من الانتداب البريطاني ثم نيل الاستقلال تحت قيادة الملك فيصل الأول، فإن الاعتداءات استمرت. وفي العراق جرّبت القوات الملكية البريطانية القنابل الأولى التي ألقيت من مناطيد موجهة وكانت بمثابة تمهيد لعمليات القصف الكثيف في الحرب العالمية الثانية. وكان قد تم طيلة حرب الخليج الأولى اختبار القنابل الخارقة للملاجئ الأرضية -البناكر- والقادرة على ثقب طبقة سميكة من الاسمنت قبل أن تنفجر.

وفي عام ٢٠٠٣، كما في عام ١٩٩١ أو عام ١٩٢٤ قدّمت الأزمة العراقية، وحسب رأي قيادة الأركان الأمريكية، فرصة اختبار مبدأ عسكري قائم على الجمع بين استخدام الأسلحة المتقدمة والعمليات الخاصة والمنظومات الالكترونية المعقدة. هذه العناصر وفرت للجيوش الأمريكية تفوقا أكيدا في أرض المعركة؛ وهي التي تفسر قصر الفترة الزمنية للمعارك التي لم تستمر سوى ما بين ٩ مارس و٩ أبريل. كذلك تفسر الخسائر المحدودة التي تكبدتها صفوف التحالف والتي بلغت حوالي ٢٠٠ قتيل. وكما أشار الرئيس بوش في الخطاب الذي ألقاه في الأول من شهر مايو على متن حاملة الطائرات "أبراهام لنكولن"، فإن ذلك التكتيك استهدف، وبفضل التفوق التكنولوجي، الحصول على الحد الأقصى من الفعالية مع تقليص "الخسائر الجانبية" بالنسبة للمدنيين.

لهذا لا يبدو في التكتيك الذي استخدمه الجنرال فرانكس بتحريض من وزير الدفاع دونالد رامسفيلد أية قطيعة حقيقية في قيادة العمليات العسكرية. وعناصر الاستمرار بالعلاقة مع حرب الخليج الأولى هي على قدر كبير من الأهمية. فعملية نشر أعداد كبيرة من الجنود تتناظر مع مبدأ كولن باول عام ١٩٩١ القائل بأن الحد من الخسائر البشرية يستدعي أن يشارك في المعركة أكبر عدد ممكن من القوات دون أن يمس ذلك قدرة الجيوش الأمريكية في

القيام بعمليتين كبيرتين بنفس الوقت. كما أن التكتيك الذي تم تبنّيه لم يكن منه سوى تعزيز مبدأ عمليات القصف المكثفة التي من شأنها أن تثير الهلع والإحباط لدى العدو. أخيرا إن استخدام أدوات التوجيه بالليزر ودور وسائل المراقبة الجوية لم يكونا غائبين عن مجموعة السلاح التي شاركت في حرب ١٩٩١.

كانت القطيعة في موضع آخر، إنها في عدم التكافؤ بالمواجهة. فقديما كان توازن القوى يشكل مفتاح الإستراتيجية. وكانت الحرب الباردة مع ما عرفته من سباق للتسلح النووي بمثابة تشويه لذلك البحث المضني عن التوازن. لكن منذئذ أصبح يتواجه في الصراعات القوي والضعيف، الأكثر تقدما والأكثر تخلفا. فالأعتدة المتطورة جدا للجيش الإسرائيلي تقابلها حجارة الانتفاضة. وفي يوم ١١ سبتمبر توصلت حفنة من الإرهابيين المزودين بمجرد مشارط على تحويل الطائرات المدنية إلى قنابل طائرة كي تضرب قلب أمريكا. وفي العراق سحقت أمريكا بكل ما تملكه من قوة نارية، بلدا أضعفته أشكال الحرمان بعد سنوات من فرض العقوبات عليه، ولم يعد جيشه سوى طيف جيش. إنها الصورة الأخرى لعدم التكافؤ إذ بعد أن تواجه دافيد مع غوليات ها هو غوليات يتواجه مع دافيد[١٢٤].

لكن مع تحقيق الانتصار بلغت حرب التكنولوجيات المتقدمة حدود مهمتها. وعدم التكافؤ ينعكس من جديد، إذ لم يعد الأمر منذئذ يتعلق

بـ"صـدمـة" وبـ"ذعـر" وإنمـا بالظروف الـصـعـبـة التي تعـيـشـهـا قـوات الاحتلال في بلاد أعيد السلام إليها بدرجة ما، لكنها ظلت معادية إلى هذا الحـد أو ذاك. إن مـقـاومـة مـبـعـثـرة وإنمـا مـصـمـمـة تسـتـهـدف باسـتـمـرار القوات الأمـريكية التـي فقـدت عـددا أكبر من عناصـرها في الأشهر القليلة التي أعقبت احتلال العـراق مما كانت قد فقـدته أثناء العمليـة العسكرية ذاتهـا. ولم يؤثر اعتقـال صدام حسين على المقاومة. والشك يتسـرب إلى المعلقين والمواطنين في أمريكا وغيرهـا، وربما على بعض جنود المارنز حول جدوى هـذا الانتشـار الكبيـر للقـوة؟ وهل تكفي القـوة من أجل حل المشكلة العراقيـة؟ وأية زلزلات في الأعـمـاق الهشـة لهذه المنطقـة شديدة التعقيد؟ إن الهـدوء الظاهر والنسبي يبدو خـادعا وزاخرا بالتهديدات مثل صـلابة تلك الأبنية التي زعزعتها هـزة أرضيـة حتى أسـاسـاتها العميقة.

وشكّل رفض القـوانين المنصـوص عنهـا في مـيـثـاق الأمم المتـحـدة القطيـعـة الكبـرى الثـانيـة. إن منـع اللجـوء إلى اسـتـخـدام القـوة لم يكن مـجـرد بلاغـة لفظيـة. لقـد واجـه أشكالا من الفشل ومن المقـاومـة. لكن بما أنه يقوم على أسـاس فلسفة سيـاسـيـة ويسـتـجيب لتطلعات الشـعـوب فقـد سـاهـم في تعـمـيم فكرة ضـرورة حل الخـلافـات بين الدول بطـريقـة سلميـة. وشـجّـع انتشـار هيـئـات التـعـاون مـتـعـددة الأطراف في مـخـتلف الميـادين مـثل التـجـارة والصـحـة وحـقـوق الإنسـان. ثم أدّى أخيـرا إلى

ضرورة تثبيت مبدأ شرعية التدخلات العسكرية. أي بتعبير آخر أنه لا يمكن لأية حكومة مسؤولة أن تقوم بعمل عسكري كبير دون موافقة مجتمع الأمم. هذه المبادئ تجذرت أثناء سنوات الحرب الباردة وتوازن الرعب. ولم تقلل نهاية القوة العظمى السوفييتية من أهميتها فالعالم لم يصبح أقل خطورة وإنما أصبح فقط أقل وضوحا من حيث إمكانية ترقب مسيرته. لذلك ينبغي أن يبقى منع اللجوء إلى القوة محور ارتكاز القانون الدولي المعاصر.

وربما كان ينبغي إدراك أخطار العالم الجديدة أن يدفع الولايات المتحدة إلى تعزيز روابطها مع البلدان الراسخة في المعسكر الديمقراطي والتي تشاركها قيمها، وإلى تشجيع المؤسسات التي لم تكن ضرورية في أي يوم أكثر مما هي الآن بالنسبة للنظام الدولي الجديد، لكنها اختارت طريقا مغايرا.

الحرية والهوية

كان نابليون من أوائل الذين فهموا أهمية الإعلام في زمن الحرب. وعندما لم يكن سوى جنرال شاب في جيش إيطاليا، كانت نشراته تمجّد انتصاراته لدى جنوده، ولكن أيضا، عبر الصدى الوليد للصحافة، لدى أوروبا كلّها. وظهر جليا أن دعم الرأي العام أساسي في العصر الديمقراطي الجديد، ذلك أن جميع القوى في الأمة

تشارك في الحرب الحديثة، في المقدمة وفي المؤخرة وتدعم كل منهما الأخرى. والحرب النفسية تستفيد من الدعم الحاسم لوسائل الإعلام الجماهيرية، أي الإذاعة ثم التلفزة.

في عام ٢٠٠٣، دارت الحرب تحت العدسات التلفازية المكبّرة. وبهذا تقع حرب الخليج الثانية فعليا في سياق الاستمرارية الدقيقة للحرب السابقة. فأثناء الحرب الأولى كشفت صور الصواريخ التي كانت تضيء سماء بغداد، بالنسبة للرأي العام الدولي، صنفا جديدا من الأحداث يراها أهل الأرض مباشرة خلال الزمن الحقيقي لوقوعها، كما كشفت عن صنف جديد من وسائل الإعلام، أي القنوات التلفازية الإخبارية التي تبث دون انقطاع. وكانت حرب "عاصفة الصحراء" قد أعطت إشارة الانطلاق لشهرة قناة (CNN) سي-ان-ان الدولية. وتبيّن أن تلك الأداة تشكل بالنسبة لأمريكا عاملا حاسما في النجاح، لكن ليس في أرض المعركة وإنما لدى الرأي العام. إنها ساحة جديدة يتقرر عليها أيضا مصير الحرب الحديثة.

شهدت حرب الخليج الثانية استخدام طرق لم تكن معروفة من اجل وضع وسائل الإعلام تحت امرة القيادة الأمريكية. لقد تم "تحميل" حوالي ستمائة صحفي مع الوحدات المقاتلة، وجرى تزويدهم بالخوذات وبالألبسة العسكرية الموحّدة من أجل تغطية العمليات

العسكرية من الداخل. مع ذلك وعلى الرغم من - أو بسبب - التقدم الهائل في تقنيات الاتصال، فإن تلك الحرب تركت لدى أغلبية مشاهدي التلفزة الانطباع بأن التحيز لم يكن غائبا عن وسائل الإعلام. ففي حين اتهمت وسائل الإعلام الأمريكية قناة الجزيرة القطرية بأنها تلعب لعبة صدام حسين عبر بث صور أسرى حرب أمريكيين، كانت وسائل الإعلام العربية تتهم قناتي سي-ان-ان وفوكس نيوز بالتلاعب. إن وسائل الإعلام الغربية أكدت واجب إخفاء وجوه سجناء الحرب الأمريكيين، احتراما لاتفاقيات جنيف، لكنها أظهرت السجناء العراقيين سافري الوجه. وعندما كان وزير الإعلام العراقي يعقد مؤتمرات صحفية تتسم بالهذيان، كانت القنوات التلفازية الغربية تقول بأن أشباهاً لصدام حسين هم الذين يظهرون هنا وهناك بينما كانت تعلن أنه "ربما" قد مات. إن الإعلام لدى هؤلاء كان بمثابة دعاية لدى الآخرين.

وتنامى الإحساس بالاستياء بسبب اللهجات التبشيرية التي كانت تستخدمها الإدارة الأمريكية من أجل تبرير طموحات سياستها الخارجية ودور أمريكا في العالم. إن مثل هذا الطموح يندرج في سياق تقاليد تعود إلى الأصول الأولى للمغامرة الأمريكية وإلى القناعة التي كانت لدى حجاج مايفلاور[١٢٥] حول ضرورة تكوين مجتمع من النخب عند شطئان أرض موعودة من أجل كتابة فصل جديد من

التاريخ الإنساني على الصفحات البكر للمساحات المترامية الأطراف. إن الشعلة التي رفعتها فرنسا عام ١٩٨٩ باسم الحرية وحقوق الإنسان وحق الشعوب بتقرير مصيرها، أو حتى باسم الحضارة - عندما يتعلق الأمر بتبرير المغامرات الاستعمارية -، قد انتقلت في القرن التاسع عشر إلى الولايات المتحدة مع تبني الطموح بنشر الديمقراطية كي تشمل العالم كله.

وللمفارقة كانت هذه الذهنية التبشيرية حتى اليوم وقفاً على "الليبراليين" الذين رأوا أنه ينبغي على الولايات المتحدة أن تستخدم قوتها من أجل دفع عجلة الحرية والديمقراطية والتبادل الحر إلى الأمام. وكانوا هم الذين يدعمون الأنظمة الديمقراطية ومحاربة الدكتاتوريات وتقديم المساعدات المالية للمناطق الأكثر فقرا من أجل المساهمة في تعزيز استقرارها. لكن خلف الاستمرارية الظاهرية، كانت هناك قطيعة، ذلك أن إدارة بوش قد ربطت بين هذه الأهداف بطريقة خاصة بها.

قطيعة أولا بسبب الوسائل المستخدمة من أجل تصدير الديمقراطية. إذ لم يعد الأمر يتعلق بعملية تطورية تدريجية تسمح بقيام بنى تمثيلية تدريجيا استجابة لما ينتظره المواطنون. كما لم يعد يتعلق بمسألة قناعة تتمفصل حول أدوات ضغط معتادة من وسائل

إعلام وبدائل ثقافية أو نخب فكرية، وإنما يتعلق بخيار مفروض بقوة السلاح. وكان قد تم استخدام جميع مصادر القوة العسكرية والاقتصادية والتقنية من أجل إسقاط النظام العراقي وإرساء قواعد المؤسسات الجديدة. لقد أنهت الولايات المتحدة نظام طاغية أثارت ابتزازاته الغضب والنبذ. مع ذلك، هل تكفي الإطاحة بدكتاتور من أجل إقامة السلام والديمقراطية؟ وهل يمكن لديمقراطية مفروضة بالقوة أن تثبت جذورها في العراق؟ إن الجميع يتمنون ذلك ويريدون المساهمة فيه. لكن، هل ينبغي التذكير؟ إن العراق عام ٢٠٠٣ ليس ألمانيا لعام ١٩٤٥. فالأساس الإيديولوجي والثقافي وهوية البلاد وحالة المجتمع وتجربة الديمقراطية ليس فيها ما هو مشترك. وعلاقة الشعب بالنظام المخلوع لا تقبل المقارنة، والأمر نفسه بالنسبة للمحيط الدولي. هذه الاختلافات الكبرى تتعارض مع اللجوء إلى مقارنات متسرعة. ويبدو الوضع أكثر مفارقة اليوم ولاسيما أنه في بداية حكم الرئيس بوش، لم يكن لدى إدارته أو مستشاريه خطاب متصلب في معرض الحديث عن "إعادة بناء الدول" ، المقولة العزيزة على قلب إدارة كلنتون. لكن ها هي إدارة بوش تجد نفسها مرغمة على أن تخلد لها بدورها.

وهناك قطيعة أيضا من حيث أن هذا الطموح المؤمن بأولوية البشر (البروميثي)[١٢٦] يترافق مع مفهوم جديد يقوم صراحة على اللامساواة

في العلاقات بين الدول. إن أمريكا تعترف بأنه لن يكون بمقدورها تنفيذ مهمتها بشكل جيد دون مساعدة الأمم الأخرى وكانت قد طلبت في العراق العون من قطعات أجنبية بهدف تحقيق الأمن في البلاد. لكن يبدو أنها تقع تحت إغراء فرض نفسها مركزاً للحكومة العالمية الجديدة والتي ستوكل لها بعض المهمات الثانوية مع احتفاظ أمريكا وحدها بقيادتها عندما يتعلق الأمر بمسائل ترى أنها هامة. بهذا المعنى لن يكون هناك جماعة دولية متساوية أمام قاعدة القانون الدولي، وإنما هناك مركز ينبغي أن ينتظم المحيط حوله.

هذه الصياغة الدولية الجديدة جرى تقديمها بطريقة ثنائية حدّية - مانوية - من قبل الإدارة الأمريكية وملهميها. وكانت صور انهيار البرجين في قلب مانهاتن ذات عنف خارق للعادة كما أثارت موجة من التضامن عبر العالم مع الشعب الأمريكي. كان الألم بليغا. بدا النضال ضد الإرهاب كمعركة بين الخير والشر. واكتسى الرعب، الذي لا سابق له، مظهرا شيطانيا صرفا استدعى التطهير. وكان تماهي الولايات المتحدة مع الخير سهلا ولاسيما أن أمريكا تعتقد أنها فريدة من نوعها. فهذه البلاد ترمز للبدء من حيث إنها عملية خلق إرادية ومتفردة ودون مرجعية تاريخية. وهي تعيش حالة من التقدم المستمر. كما تنمّي الأمة عن نفسها رؤية إيديولوجية سرمدية -لازمنية- تترافق غالبا مع الاعتقاد بنوع من العذرية الأخلاقية تسمح بالاستفادة من

التـأثيـر المترتب على حيـازة الموقع النمـوذجي عبـر العـالم. وتتـسم السياسة الخارجيـة للولايات المتحدة بنوع من النزعـة التبشيرية تقوم على القنـاعـة الثابتـة بأن البـلاد تحـمل مهمـة قدرية بادية للعيـان وأن هذا التفـرد يمنحـهـا بعض الحـقوق حيـال الشعوب الأخرى. كان ذلك قائما في إطار نزعة العزلة عن الآخرين التي اتسمت بها فترة الرئيس جيـمي كـارتر أو في إطار نـزعـة التـدخل الخـارجي الحـاليـة. ذلك أن أمريكا وحدها هي صـاحبة الأهمية في أن تتطابق حدودها مع محيط الأرض كلها مع ما يتضمن هذا من تغييب مدهش للعالم.

وفي قلب المشـروع الأمـريكي فـي العـراق يتم الجـمع بين قناعـة أخـلاقيـة والدفـاع عن مـصـالح مـوضـوعيـة؛ إن تدخّل الأخـلاقيـات في المجال الدولي، المعروف بأنه المجال المختار للسياسة الواقعية، لا بد أن يثير الدهشـة. لكن علينا أن نقبل بأن هذا يستجيب لحالة جديدة من الوعي العـالمي. ذلك أن حقوق الإنسـان والديمقـراطيـة ومعـاقبـة جـرائم الحـرب قـد دخلت أكثـر فـأكثـر في قلب النظام الدولي: هذه الكلمـات أصبحت تنتمي إلى القاموس الدبلوماسي. وبعد مقولة "واجب التدخل الإنسـاني" أصبح تشجيع القيم الديمقـراطيـة يشكل هدفا يلتقي حوله البـشـر أكثر فـأكثـر. لا شك بأن الأخـلاقيات لم تكن كقاعـدة عامـة هي الحـافز الرئيسي للعمل الدولي، لكنهـا تشكل عـامـلا هـاما ينبغي أخـذه بالحسبان وعنصـرا أساسيا من أجل بناء الشرعية.

بعد قول هذا، لا يمكن للأخلاق أن تحل محل القانون. فالقانون وحده يشكل مصدرا موضوعيا للشرعية. وفي الأزمة العراقية بدا أنه ثانوي نسبيا بالمقارنة مع الدفاع عن قيم الحرية والديمقراطية التي تعتقد أمريكا أنها تحملها. هذا الأمر يضع الدول الأوروبية التي تؤمن بالقيم التي تدافع عنها أمريكا أمام معضلة. إذ كيف يمكن القيام بخيار إستراتيجي يتمثل في رفض الحرب دون الظهور بنفس الوقت بمظهر من ينفي تلك القيم؟ وهل يمكن الدفاع عن مبادئ الحرية والديمقراطية من جهة، واحترام القانون الدولي من جهة أخرى؟ في مجال العلاقات الدولية ليس هناك طريق مرسوم وجاهز مسبقا. ينبغي الاضطلاع بالمسؤوليات وتحديد الاتجاه تبعا للمبادئ والمتطلبات. وقد رأينا أنه من مصلحة الجماعة الدولية المثابرة على الدفاع عن القيم ضمن إطار احترام قواعد القانون.

بالطبع يبقى الدفاع عن الديمقراطية في البلدان التي لا تزال تنتهكها واجبا ملزما. وبالطبع إننا ندعم فكرة إخراج الشرق الأوسط من الدائرة الجهنمية للعنف. لكن لدينا تحفظاتنا حول الطرق والإستراتيجيات المستخدمة من أجل تحقيق هذه الأهداف. كيف يمكن التفكير بأن استخدام القوة وحدها يمكن أن يجلب الثقة والاستقرار الضروريين من أجل إقامة نظام ديمقراطي؟ وكيف يمكن الاعتقاد للحظة واحدة بأن سبيل السلاح لن يوقظ شياطين الثأر والرد؟ وكيف

يمكن للمرء أن يتصور تصور أن استعراض التفوق التكنولوجي والعسكري لن يغذي الضغائن والإحساس بالحرمان ومشاعر الظلم التي تتغذى منها اليوم أشكال التطرف كلها؟

إن مواجهة أي شعب بالعنف تعني الحكم بإذلاله مع ما يترتب على هذا من نتائج غير مرئية ولا فكاك عنها. وتاريخ قارتنا أثبت ذلك بما يكفي. فالفتوحات النابوليونية أدّت لا محالة إلى انتفاض أوروبا القديمة ضد فرنسا واتفاق فرانكفورت كان يحمل في جوفه حربا ثأرية جعلها نظام التحالفات فيما بعد حربا عالمية. أما الأسلحة في العالم المتمدن فلا يمكن استخدامها إلا للدفاع عن النفس. والقوة التي يتم اللجوء إليها إلا حين تكون آخر وسيلة وبالتوافق مع القانون، إنما هي غير شرعية.

إن جعل العالم أكثر أمنا يتطلب تحديدا استراتيجية سياسية شاملة تطمح إلى التئام الجراح التي يريد الإرهاب الدولي أن يجعل منها بؤرا للإنتان؛ إستراتيجية تأخذ في حسابها رهانات الهوية والرهانات الدينية والإثنية والثقافية والتعطش للعدالة والحاجة للتضامن؛ إستراتيجية تتأسس على الحوار ومشاركة الجميع في القرارات التي تلزم كل طرف، أي تتأسس باختصار على المسؤولية الجماعية.

إذا كانت المهمة صعبة، فإنه ينبغي أولا الإشارة إلى أن التطور سيأتي من داخل المجتمعات. والتغيرات المنتظرة هي أكثر أهمية من

أن يمكن فرضها من الخارج دون أن تثير الرفض. ثم ينبغي أن تؤخذ المشاعر الوطنية للبلدان المعنية بالحسبان، فإذا كنا نتمنى تبني سياسة شاملة للشرق الأوسط وفي العالم الإسلامي فإنه علينا أولا أن نأخذ باعتبارنا خصوصة كل دولة. وهل يمكن تصور مقاربة المجتمعات الجزائرية والمصرية والأفغانية والإيرانية بنفس الطريقة؟ أخيرا علينا أن نأخذ باعتبارنا الأدوات الموجودة وسبل استخدامها. هذا وتستحق الجهود التي بذلها الاتحاد الأوروبي في إطار الحوار الأوروبي - المتوسطي أن تؤخذ بالحسبان لأنها شكّلت قاعدة صلبة يمكن البناء عليها.

وفي حين لا تزال مسائل الأمن والتنمية حارقة فإنه من الملحّ أن نتوصل جميعا إلى إيجاد سبيل حلها. ليس هناك حل مباشر، وليس هناك طريق مختصر نحو السلام والاستقرار. إن التاريخ قد علّمنا أن الحلول الأكثر فعالية والأكثر عدالة لنزاع ما قد تطلبت كلها وقتا وتنسيقا وحوارا.

سرابات ووقائع

ترى الإدارة الأمريكية أن طريق السلام في الشرق الأوسط يمر عبر بغداد. ومن شأن التدخل العسكري أن يبيّن تصميم واشنطن على تذليل صعوبات المنطقة. ومن شأنه أيضا أن يقدم للمتشككين البرهان

على قوة الولايات المتحدة، كما أنه يرمي بنفس الوقت إلى تطمين البلاد حول قوتها الذاتية. وبطريقة ما تم إغلاق فصل الشك من أجل الانتقال إلى فصل القناعات، إذ إن أمريكا قادرة على حمل الديمقراطية إلى بلد كان فريسة للدكتاتورية وعلى جلب السلام إلى منطقة تعيش حالة من الفوضى.

كان الأمر يتعلق برهان غير متوقع لاسيما وأن الأنظار ظلّت شاخصة نحو القدس. فالصراع الإسرائيلي-العربي يشكل، أكثر من العراق، تهديدا لاستقرار وأمن المنطقة والعالم. ألم تكن هناك حاجة ملحة حقيقية للتدخل؟ ثم ألم تكن ضرورة الفعل هناك تحظى باعتراف الجميع في هذه الحالة؟ لقد دعمت فرنسا دائما القول بأنه دون الوصول إلى تسوية عادلة، ودائمة وسلمية في الشرق الأوسط، سيكون من العبث محاولة تحقيق استقرار المنطقة. كانت الولايات المتحدة تتفق لفترة طويلة مع هذا التحليل. وغداة حرب الخليج الأولى التي أدّت إلى تكسير قوة العراق بواسطة الحظر الدولي، كان استئناف الحوار الإسرائيلي-الفلسطيني يشكل الأولوية المشتركة، لكن فجأة انعكس كل شيء: فبعد أفغانستان انتصب العراق هدفاً.

إن فرنسا وبلداناً أخرى أعضاء في الاتحاد الأوروبي، وخاصة المملكة المتحدة، تمتلك معرفة معمّقة لهذه المنطقة من العالم. فالتاريخ

منحها موقعا قريبا من الشعوب التي تقطنها. كذلك جعلت الجغرافيا الشرق الأوسط جارا لأوروبا. لدينا مصالح كبيرة في هذه المنطقة ولدينا اقتراحات تبغي صياغتها وتوصيات للدفاع عنها وتوجهات للإيحاء بها. إننا سنكون معا قادرين على أن ندفع، وبفعالية أكثر، نفس الفكرة للسلام ونجعلها راسخة في أرض الواقع. إنها مهمة تاريخية ينبغي أن لا يبقى أحد لا مباليا حيالها.

وغداة الأزمة العراقية، لم يكن أمامنا، أي الولايات المتحدة وفرنسا، والولايات المتحدة وأوروبا، خيار آخر سوى إعادة ربط خيوط مسيرة السلام. الشرط الأول لذلك هو فهم المنطقة ومعاينة مدى هشاشتها. إن دولا وشعوبا وقبائل وإثنيات رسمت في مساحات شاسعة حدودا مرئية وغير مرئية. لقد مزّقت الحروب الضمائر وفصلت السكان بعضهم عن بعض وفرّقت الأمم. أمّا جهود السلام فقد قرّبت البعض وباعدت بين آخرين. فالشرق الأوسط ليس متجانسا. والأمر الأول المطلوب هو أن لا يغيب عن الذهن تنوعه ورصد الشروخ التي تعتريه واحترام الهويات التي تشكلت على مرّ القرون. إن القناعة لا تبيح تجاهل الواقع التاريخي الذي ينبغي التعامل معه من أجل خدمة مصالح هذه المنطقة.

المطلب الضروري الثاني الذي ينبغي تحقيقه هو ضمان أمن الدول. فدوّامة العنف القاتلة للأمل في هذا الجزء من العالم يمكن تفسيرها

من خلال منافسات قديمة أو نزاعات حدودية أو نزاعات حول الشرعية لم تجد الحل أبدا. وهي تتغذى أيضا من الافتقار إلى منظومة للأمن الشامل. وللمفارقة اليوم أن إحدى مناطق التأزم التي تحمل أكبر قدر من المخاطر ليس فيها أية آلية للأمن المتفق عليه. لقد حان الوقت لإنهاء هذا الوضع الفريد وتحضير الخطط لإقامة هيكلية متناسقة وفعالة عبر البدء بالنضال بحزم وتصميم ضد تهديد الإرهاب واستئصال انتشار أسلحة الدمار الشامل.

وهناك مستلزم ثالث يفرض نفسه وهو وضع حد للنزاع الإسرائيلي-الفلسطيني. فإذا لم نفتح أبواب السلام على هذه البلدان فإن طموحاتنا بالنسبة للشرق الأوسط ستبقى عبثا لا طائل منه. إن الاستسلام للعنف وقبول استمرار عمليات القتل الدموية والرد عليها إلى ما لا نهاية، يعني أن يخيم على المنطقة كلها التهديد المستمر بانعدام الاستقرار. الأخطر من هذا هو أن الأحداث التي تجري في إسرائيل وفي الأراضي الفلسطينية تجد صداها في مجمل العالم العربي. وعبر استخدامها من قبل الفصائل المتطرفة من أجل استدامة مناخ من اللاأمن والحقد، فإنها تغذي بذلك الفكرة العبثية وغير المقبولة التي تقول بأنه محكوم على بعض الشعوب أن تعيش في أتون المجابهة والصراع المستمر.

الشؤم ليس قدرا. لكن لا تدعونا نقسر التاريخ. إن البلدان الغربية استهانت في أغلب الأحيان بواقع البشر وهوياتهم. وهناك أجيال من القادة بذلوا جهودهم "من أجل صنع السلام في الشرق الأوسط". فإذا أريد تجنب أخطاء الماضي من الأجدى التساؤل حول أسباب فسشلهم. وإذا كانت هناك قناعة بأن هذه المنطقة سوف تخرج من الوضع الشاق الذي وجدت نفسها قد غاصت فيه، وإذا كان هناك حرص بالفعل على توقف هذه الحروب التي لن يكون بمستطاع أحد الانتصار فيها، فلنأخذ في اعتبارنا أولا تعقيد الوضع. إن الشرق الأوسط يتجاوز كل التعريفات وإرادة اختزاله إلى كيان مجرّد يعني المخاطرة بنشوب حروب جديدة وخيبات أمل جديدة. وفي حيّز يتغذى بهذا القدر من الذاكرة، ويعاني الإحساس بالخزي من رؤية نفسه منبوذا على هامش البلدان الأكثر تقدما، يتوجب استخدام أسلحة القناعة والعدالة والجسارة والدقة.

إن العالم مقسوم منذ نهاية الحرب العالمية الثانية إلى مناطق كبرى يمكن إعطاؤها تعريفا لغويا أو سياسيا أو دينيا أو اقتصاديا. بالنسبة للشرق الأوسط ليس له حدود دقيقة. أمريكا اللاتينية موجودة تاريخيا وهي تتناظر مع مجموعة من المرجعيات الفكرية والروحية والدينية تعطيها كيانا ماديا وروحيا. وإذا تساءلنا حول قارتنا القديمة

أوروبا، فإنها منذ زمن طويل لم تعد "ذلك الرأس الناتئ من آسيا" الذي تحدث عنه بول فاليري[١٢٧]. فحجرا فوق حجر ومن فرط ما تم تجاوزه من أحقاد ومن ضغائن أزيلت وأشكال حداد استنفذت، جهّزت أوروبا نفسها ببنية قد يمكن الاعتراض على نموذجها، لكن لم يعد ممكنا نفي وجودها. أما بالنسبة لمنطقة جنوب آسيا فإنها تتقدم يوما بعد يوم نحو توحيدها.

الشرق الأوسط يشكل استثناء إذ أن تعريفه ينطوي على مغامرة، والجغرافية ليس منها سوى تعقيد المهمة فأية خريطة تهدد بقصر النظر أو طوله. فإما نجد الشرق الأوسط مقصورا على "الهلال الخصيب" وهذا يعني تبخر حلم. وإما نجده، حسب مفهوم أوسع، يغطي مجالا توليفيا جدا ويمتد من شمال إفريقيا إلى وادي النيل حتى الخرطوم وتركيا وإيران وجمهوريات آسيا الوسطى. فكيف إذن يمكن إدراك الشرق الأوسط، وأية معايير ينبغي تبنيها من أجل تحديد محيطه؟ هل الدين مثلا؟ إن السمة الكونية - يونيفرسال- للإسلام يمكن أن تشكل أساسا لوحدة جغرافية. لكن المؤتمر الإسلامي الذي كانت السعودية وراءه والذي كان بمثابة مختبر لتلك المصالحة بين البلدان الإسلامية قد أظهر محدوديته.

هل اللغة؟ إنها تساهم بشكل جوهري في مشاعر الهوية لدى شعوب المنطقة. ثم هذه هي أحدى المعطيات الكبرى خلال القرنين

المنصرمين. إن القومية العربية، التي يشكل فشلها السياسي، منذ حلم عبد الناصر، الجرح الأكثر عمقا والأكثر استدامة في الشرق الأوسط، دلّت على تبدل في تراتبية المجموعات فأولئك الذين كانوا يرون أنفسهم مسلمين يتحدثون اللغة العربية اختاروا تعريفهم كعرب مسلمين وخلقوا بذلك الظروف من أجل التقارب بين مجموعات دينية على قاعدة العروبة اللغوية، لكنهم أبعدوا العرب المسلمين عن إخوتهم في الإسلام الذين لا يتحدثون لغتهم كالإيرانيين والأتراك والأكراد. وأدت الحرب العالمية الأولى إلى إعادة صياغة المنطقة كبلاد ذات هوية اتنية- لغوية. فإذا كان الأتراك قد وجدوا في تلك الحرب فرصة تزودهم بدولة متجانسة لغويا فإن العرب حصلوا على استقلالهم في إطار من التجزئة السياسية. ولم تتوصل الجامعة العربية فيما بعد إلى إقامة كيان اقتصادي ولا حتى بنية سياسية. إن رؤية الشرق الأوسط اليوم كفيدرالية بين الشعوب العربية قد يكون بمثابة مغالطة زاخرة بالتهديدات؟ ذلك إن أكثر التمزقات حساسية في هذه المنطقة من العالم هي بالتحديد التي تتعارض فيها بلدان عربية ضد بلدان عربية.

العالم لا يمكن تقسيمه بجرة قلم. ولا شك بأنه ليس هناك اليوم تعريفات غير تلك القائمة على التجريبية الأكثر ابتعادا عن التعميمات العبثية والأكثر إدراكا لمستلزمات الواقع المعقد.

إن إشعاع الشرق الأوسط وتنوعه المستعصي على التحديد بأية مفاهيم يشكل جزءاً لا يتجزأ من تفرده. هذه المنطقة من العالم بما فيها من مشاهد متوسطية وصحاري وواحات خدمت كملاذ لعدد هائل من الأساطير والحكايات والتاريخ المعيش واقعيا أو في الأحلام، هي منطقة شاسعة، ومن يريد أن يساهم في السلام بين الشعوب المدماة عليه أولا أن يدرك مدى التنافسات والأحقاد المتشابكة. إذ لا يمكن شفاء العلل التي لم يتم تحديد طبيعتها وعمقها. والاعتقاد أن توقيع اتفاقية اعتراف متبادل بين الفلسطينيين والإسرائيليين سيكون كافيا وحده من أجل الوصول إلى السلام هو خطأ بسبب جهل أهمية عدة معطيات في الواقع.

في المقام الأول لن تتوصل إسرائيل إلى السلام إلا في اليوم الذي توقع فيه اتفاقا مع سوريا ولبنان وإيران والسعودية ومع عشرين بلدا لا تزال تعلن العداء لها. إن معاهدة مع الفلسطينيين وحدهم لن تكون كافية لتحقيق أمن إسرائيل، ينبغي أن يكون السلام شاملا. ومن الممكن الاعتقاد أن توقيع اتفاق مع سوريا سيتبعه سريعا التوقيع مع عدد من البلدان العربية والإسلامية.

وتوقيع معاهدة مع إسرائيل لن يكون كافيا أيضا لضمان السلام لفلسطين. ولن يعرف الفلسطينيون الهدوء إلا في اليوم الذي يتم فيه

قبول وجودهم الجماعي والاعتراف به من قبل إسرائيل أولا ثم من قبل مجموع الدول العربية. ينبغي أيضا أن تكتمل المصالحة بين فلسطين والأردن، إذ لا بد من أن يمر وقت من أجل أن تزول ذكريات إيلول الأسود ١٩٧٠ حيث تم قتل الآلاف من الفلسطينيين في عمّان من قبل الجيش الأردني عندما أرادوا السيطرة على المملكة الهاشمية. لا بد من مرور وقت طويل للمصالحة بين الفلسطينيين والسوريين، والفلسطينيين واللبنانيين. إن حل المشكلة الفلسطينية لا يعني إذن مجرد الحصول من إسرائيل - وحتى لو كان هذا بالطبع مقدمة لا يمكن تجنبها - على التخلي عن احتلال مذلّ بالنسبة للذي يعاني منه ومفسد بالنسبة للذي يقوم به. إن مسألة وجود شعب فلسطيني ترتبط مباشرة بالتوصل إلى اعتراف أفضل متبادل من قبل بلدان الشرق الأوسط. هذا يعني إجمالا توسيع الآفاق دون أن تغيب أبدا عن النظر عقدة المشكلة الموجودة بين القدس وتل أبيب. وأخيرا وحتى عندما يتم التوصل إلى ضمان حياة هادئة بالنسبة لهذين الشعبين، في إطار "الشرق الأوسط الجديد" الذي يحلم به أنصار السلام الإسرائيليون والفلسطينيون والاعتراف بحقوقهم المشروعة كاملة، فربما لن يكون السلام قد أصبح حقيقة نهائية.

فكيف ننسى في الواقع البعد الديني، بل التصوفي الذي أعطته بعض شعوب الشرق الأوسط للحروب التي تمزقها؟ مهمة السياسة

هي إعداد مصالحات لا يمكن تصورها بالنسبة للأديان. لكن أكبر عنف يمكن ممارسته ضد شعب هو تجاهل معتقداته. وكان الإمام علي صهر الرسول الكريم محمد قد قال: "الناس أعداء ما جهلوا".

الشرق الأوسط هو أرض المقدسات فليس هناك أرض مقدسة وإنما أراض مقدسة وكل منها مشحون بنفحة روحانية من قبل أولئك الذين تحركهم منذ قرون قوة إيمانهم. وكان رينان[١٢٨] قد صاغ الملاحظة التالية: إن الصحراء المتمردة على الحدود مثل المحيط كان قدرها هو أن تكون المكان الذي تلقى كونية الرسالة التوحيدية. وبالنسبة لديانات أهل الكتاب، كان لا بد من أن تقوم حول الإله الواحد، أمم مختارة ومدن مختارة وأمكنة لها، عموما، شأنها أكثر من الأماكن الأخرى. إن عدم إدراك الدبلوماسية لهذا دائما جعلها تضلّ أحيانا الطريق.

كان متوقعا أن يكون رد فعل بعض المسلمين عنيفا حيال وجود قوات أجنبية في السعودية، لأن هذه الأرض مقدسة بالنسبة للإسلام. فهل تم تقدير مدى أهمية هذا الأمر؟ ويكفي أن نفتح المصحف من أجل معرفة ماذا تمثل مكة للمسلم. فالسورة الثانية والعشرون تحمل عنوان "الحج" وهي تدل على ما يمثله مكان، مكان واحد على الأرض، بالنسبة لأكثر من مليار شخص والحيطة التي ينبغي اتخاذها عند

الحديث عنه والاقتراب منه والحيطة أكثر عندما يراد إرسال الجيش مما قد يدنس "المكان المقدس" هذا الذي كان الرسول قد حث على الحفاظ عليه نقيا.

وليس مجرد كلام القول بأن القدس مقدسة ثلاث مرات. فمن لا يعرف بأن جبل الزيتون كان بالنسبة للمسيح نفسه مكانا للتنسك الذي اعتراه أثناء ليلة "جيتسيماني"[١٢٩٠]؟ تلك الهضبة، حيث نام تلامذته بدلا من أن يقوموا بالحراسة، والواقعة على مسافة متساوية من المعبد المعظم حيث كانت تدوي صلوات داوود الخاشعة بهدوء وحمم غضب سليمان، وأيضا من قبة الصخرة البيضاء التي سرى منها النبي محمد إلى السماء، وموقع غولغوتا حيث جرى صلب المسيح. هنا توجد شحنة هائلة ومخيفة من الفكر القدري ومن الأهواء الجامحة ومن الجمرات التي تستمر مشتعلة والتي يمكن أن تؤدي إلى حرائق جديدة إذا لم يتم الانتباه لها.

إن فكرة المصير تتغذى من الأديان، ولكن أيضا من ذاكرة الشعوب. والشرق الأوسط وُلد من موت الإمبراطورية العثمانية. فهذه الشعوب التي تتشابه وتتنازع بزغت للوجود بالنسبة لبعضها أو استعادت وجودها السابق بالنسبة للأخرى عندما أصبحت غير خاضعة للحكم التركي. وقد ترتب على ذلك ثلاث نتائج.

تتشارك شعوب هذه المنطقة أولا بنفس الحذر المشوب بالذل والخوف حيال الإمبراطوريات. وترفض كل أشكال الهيمنة وهي سريعة التيقظ حيال انبعاثها من جديد. وكانت قد تحملت قانون الآخرين فترة أطول من أن تقبل دون تردد أن تحكمها إرادة أجنبية. لهذا السبب تثير "الإمبراطورية الأمريكية"، بعد قوى الانتداب، أصداء بهذه الحدّة. لهذا أيضا لن يحالف الدبلوماسية الأوروبية النجاح إذا لم تظهر غير باحثة عن الهيمنة أو إذا بدت إمبريالية أو بوقاً للإرادة الأمريكية. والشرق الأوسط، أكثر من أية مناطق أخرى، يرفض حتى مجرد ذكر فكرة الاستعمار.

المستعمرون في الذاكرة الجماعية لشعوب الشرق الأوسط هم الأوروبيون والأتراك معا. من هنا تأتي مشاعر الحذر حيال تركيا مترافقة مع نوع من التشبيه العفوي لهذه البلاد مع أوروبا. لقد كانت الإمبراطورية العثمانية قوة احتلال مثل المملكة المتحدة، ومثل فرنسا. واسطنبول تشكل، على غرار لندن، هدفا للمتطرفين الإسلاميين. إن الأتراك يمثلون الغربيين بالنسبة للشرقيين، والأوربيين بالنسبة للآسيويين: وكانت تركيا قد تخلت عن الحروف الأبجدية العربية كي تتبنى الأبجدية اللاتينية. إن الدولة الكمالية كانت علمانية بل وتبنّت أنقرة النموذج الغربي للديمقراطية.

لقد خضع الشرق الأوسط خلال قرون لإمبراطورية لم تكن عربية رغم أنها كانت مسلمة. واحتفظ من ذلك بالإحساس الدائم بإهانة تتطلب الثأر. وتتمثل إحدى قراءات الحروب في الشرق الأوسط، كما رأينا، في غياب الودّ لدى بعض الشعوب العربية حيال شعوب مسلمة أخرى غير عربية. هذا ما يفسر عزلة تركيا والعلاقات المشوشة دائما مع طهران والإسلام الشيعي، الذي يبدو نفسه شاذا - هرطقيا - بنظر السعودية والسنة العراقيين.

لكن البحث في مدى حتمية حروب الشرق الأوسط يفرض فهم الحركة الصهيونية والنضال الفلسطيني معا. الحركة الصهيونية تحدد نفسها، في الإطار الفكري لنهوض القوميات في القرن التاسع عشر، بتطلع اليهود إلى دولة على جزء من فلسطين التي كانت تحت ظل الانتداب. إذا كان هذا المطلب قد احتل مكانة هامة جدا في وعي اليهود وفي تاريخ الأفكار، فإن هذا يعود دون شك لأنه يوجد في نقطة التقاء شعورين موجودين في قلب كل البشر هما الوضوح والأمل، والتحليل والإرادة وزوال الوهم والوهم. الصهيونيون راهنوا على أن كل شيء ضاع وكل شيء ممكن. ومعركتهم تتأسس أولا على تجربتهم المؤلمة في أوروبا. إن خلق دولة يهودية بدا لهم بمثابة حلم من نوع خاص جدا كنوع من الطوباوية - يوتوبيا - الضرورية وكخرافة أملاها الحس الواقعي. وفي أوروبا في مطلع القرن العشرين - العصر

الذهبي - التي شغلتها بعمق قضية دريفوس[١٣٠]، أحسّوا بأنهم في وضع حرج، وحيث كتب يوسف برينر عام ١٩٠٤: "أعطونا مغارة، جحرا من أجل أن نلجأ إليه". والصهيونية هي اندفاعة مشبوبة بالأمل فإذا كانت الشعوب الأخرى لا تريد اليهود، فإن اليهود سوف يبنون بأنفسهم قدرهم وسيقيمون بلادهم التي سيدافعون عنها إذا خطرت للبعض فكرة مهاجمتهم. إن الصهيونية قد تكون بمثابة رد على معاداة السامية. ومنذ جحيم معسكرات الاعتقال تحتل إسرائيل مكانة في العقل اليهودي يمكن دون شك اختصارها بالقول إن اليهود يستطيعون العيش خارج إسرائيل لكنهم لن يستطيعوا العيش بلا إسرائيل.

لقد راهن اليهود بأن كل شيء ممكن. ونجاح حلمهم يشكل درسا حقيقيا في التفاؤل بالنسبة لأولئك الذين يعانون من الاضطهاد. ففي عالم يحكمه العنف كانوا أول ضحاياه استطاع عدد من المثقفين من أوروبا الوسطى، بالمراهنة أولا على قوة الأفكار وحدها، أن يجمعوا المعذبين الذين لم تكن توحّد بينهم اللغة ولا حتى التقاليد وأن يصنعوا من هؤلاء المشتتين شعبا موحدا، حول نفس العلم ونفس اللغة ونفس الثقافة.

من جهة أخرى، لم تقم أبدا دولة فلسطين. وبالتالي ينبغي عمل كل شيء لصياغتها. وربما أن هذا يفسر خشية بعض الفلسطينيين، لكن

روح النضال التي تحرك قسما كبيرا من ثقافتهم عليها أن تخلي ذات يوم المكان لقوانين الواقع. إن الشعب الفلسطيني مثل جميع شعوب الأرض له الحق ببلاده وبدولته. وقد حان الوقت كي ينال السيادة التي يأمل بها. هذا ضروري بل إنه واجب.

التهديدات

من أجل إعطاء الشرق الأوسط المكانة التي يستحقها، ومن أجل مواكبته في تطوره وتشجيع نموه واقتلاع جذور العنف والحقد، ينبغي أولا العمل على اجتثاث العوامل الرئيسية لزعزعة الاستقرار ابتداءً من الإرهاب. ولا شيء يمكنه أن يبرر إيديولوجية الموت التي تسخر الانتحار لخدمة القتل. وبمحاربة هذا التهديد، لا يتم وضع حضارة في مواجهة أخرى وإنما هي معركة تخوضها الحضارات كلها ضد البربرية. هذه القناعة لا ينبغي لها أن تمنع البحث عن أصول الإرهاب وآلياته. إن إجابة مباشرة هي ضرورية وبكل الوسائل العسكرية أو البوليسية أو الاستخباراتية، لكن للحصول على نتائج مستديمة ينبغي التصدي لجذور الإرهاب ومهاجمة الشرور التي تغذي الإيديولوجيات المتطرفة وتقوي سلطانها. أي نقص التعليم والثقافة والاقتلاع من الجذور والبؤس المستمر وغياب أي منظور للتقدم السياسي أو للتنمية.

ومع تفجيرات ١١ سبتمبر دخل العالم في عصر الإرهاب الجماعي الذي يضرب بطريقة عمياء واستعراضية في كل القارات بما في ذلك في البلدان التي تبدو الأقل هشاشة وإمكانية للتعرض له. وهو يستخدم التكنولوجيات الجديدة والوسائل البدائية معا مستغلا روح التضحية لدى منفذين أعماهم التزمت. إن محصلات الأعمال الإرهابية مرعبة ويمكنها أن تتضاعف إذا سلّطت علينا هذه الشبكات أسلحة الدمار الشامل الموضوعة تحت تصرفهم من قبل تجار المواد والتكنولوجيات الحساسة ومن قبل رجال علم انساقوا مع التيار المنحرف. أشكال العنف التي يلجأون إليها تصعب محاربتها إذ إن الأدوات التقليدية للقوة غير ذات فعالية تقريبا في مواجهة تمجيد روح التضحية. من هنا أيضا اكتسب الإرهاب بعدا استراتيجيا، لأنه يهددنا بنزاع غير متكافئ، نزاع الضعيف مع القوي والمحيط مع المركز. وبعد عالم كان قائما على التوازن بين الشرق والغرب وحيث كان للتوتر بينهما عواقبه المحلية المحدودة، دخلنا في عالم يمكن أن تترتب على اختلالات التوازن الإقليمي فيه نتائج عالمية. إن ثنائية قطبية جديدة ترتسم في الأفق حيث قد يتواجه المستفيدون من الحداثة مع ائتلاف جميع أولئك الذين تتركهم هذه الحداثة على الهامش.

إن شكل تنظيم هذا الإرهاب يجعل من الصعب إحباطه. فالنجاح في تفكيك مجموعة محلية، لا يؤدي إلى الإمساك بالخيوط التي

تسمح بالذهاب أبعد من ذلك. وإذا ساد الاعتقاد باستئصاله في مكان ما، نلاحظ أنه نبت في مكان آخر... الإرهاب الجديد متغير الشكل ويعرف كيف يتكيف باستمرار وبسرعة كبيرة على قاعدة الاستفادة من تصدعات عالم أصبح شاملا، ويستغل الإشكاليات المحلية. فنشاطاته تتجاوز الحدود كما أنه ينشر بواسطة قنوات سرية آثاره المخرّبة من مسرح عمليات إلى آخر. إنه يتواجد في المناطق الفقيرة حيث يؤجج بؤر الاضطراب، ويجعل الجراح دامية باستمرار مع البحث عن تجميع كل مشاعر الحقد من أجل تشكيل كتلة من الذين نبذتهم الحداثة. أما هدفه النهائي فهو إثارة صدام الثقافات وصدام الأديان. فمن هذا المنظور يعوّل على إثارة زوبعة من الاعتداءات ومن الردود عليها.

إن الإرهاب فريد في أساليبه لكنه ذو طبيعة متنوعة. ومع «القاعدة» نرى أنفسنا أمام إرهاب شامل يجد غايته في ذاته. وتلتصق أشكال أخرى من الإرهاب نفسها مع حركات التحرر الوطني أو الاحتجاج الاجتماعي وتلجأ إلى العنف الأعمى بسبب غياب أي منظور مفتوح مباشرة حيث تسعى لخلق الشروط لوجود مثل هذا المنظور. ثم إن الروابط، التي تتوضح كل يوم أكثر فأكثر، بين المجموعات الإرهابية والمطالب القومية تعطي للإرهاب بعداً سياسيا، وبالمقابل تزيد من جماهير الحركات القومية.

إن تقاربات تكتيكية تظهر بين أشكال الإرهاب المختلفة بحيث ما هو شامل -عالمي- يلتقي مع ما هو إقليمي، وهكذا يغدو الإرهاب أشبه بمرآة قاتمة للحداثة. وبهذا يحتوي على بعدين، البعد الأول كوني لأن شبكاته تجد امتدادات لها في مختلف القارات وتقيم روابط بين بلد وآخر وتستخدم وسائل الاتصالات الأكثر تقدما. والبعد الثاني محلي ضمن المقياس الذي تعتمد فيه خلايا الإرهاب على أفراد وتستغل الخصوصيات الجغرافية.

وهذه هي الحالة في العراق حيث أدى وجود قوات التحالف إلى لقاء آني في المصالح بين أولئك الذين يحنّون لصدام حسين والإسلاميين العراقيين والإرهابيين الدوليين الذين تسللوا عبر الحدود. إن أي تعميم في النظر للإرهاب ورفض رؤية الاختلافات في طبيعته الداخلية يمثل أفضل طريقة للتعجيل بهذا التقارب التكتيكي الذي ينبغي بالتحديد عدم إتاحة الفرصة له.

إن منظمة أسامة بن لادن ترتبط بالأجواء الإسلامية الراديكالية التي تشكل منذ التسعينات البوتقة الرئيسية للإرهاب الدولي. وكانت تلك المنظمة قد ولدت في أفغانستان وجذبت متطوعين قدموا من كل العالم العربي، بل الإسلامي. وكانت أفغانستان، المسرح الأول للجهاد في الحقبة الحديثة، إذ تحولت إلى ملاذ حقيقي للنزعة الإسلامية

المتطرفة خلال السنوات التي تلت انسحاب الاتحاد السوفييتي السابق. وكانت حكومة طالبان، المدعومة لفترة طويلة من باكستان لأسباب إستراتيجية وإثنية ودينية، تعيش حالة من التداخل الوثيق مع القاعدة التي كان يحق لها أن تنشر في أفغانستان القواعد ومعسكرات التدريب مع تقديم الدعم اللوجستي والمالي لعدد من المجموعات المحلية العاملة في الشرق الأوسط كما في شرق إفريقيا وفي القوقاز وآسيا الوسطى والجنوبية، فضلا عن المغرب وأوروبا.

بعد أن حُرمت القاعدة من ملاذها بسبب تدخل التحالف، قامت بإعادة بناء نفسها بصيغة شبكة خاصة متعددة القوميات من مجموعات محلية أهدافها متمايزة لكن إيديولوجيتها وطرق عملها متشابهة. ولا يوجد بين هذه المجموعات صلات مباشرة، لكنها تغرف كلها من نفس البيئة التي لا تقتصر على العالم العربي وإنما تتعداه إلى بلدان محيط العالم الإسلامي. أما بالنسبة لإيديولوجيتها فإنها قد نبتت في تربة الوهابية التي تقول بتفسير حرفي للقرآن، وترفض أي شكل من أشكال الحداثة وتريد استئصال كل مظاهرها وخاصة داخل المجتمعات الإسلامية التي جعلت منها حكوماتها "الفاسدة" مجتمعات "فاسقة". في الواقع، غدت البلدان الإسلامية هي الأهداف الرئيسية للقاعدة التي تفكر دون شك بدفع السكان إلى الوقوف ضد الأنظمة السياسية القائلة بإسلام معتدل ومتسامح.

لا مجال للتساهل مع أولئك الذين يضربون الأبرياء والذين يريدون تهديم تنظيمنا السياسي والاجتماعي بل وحتى مجمل القيم التي تقوم عليها الإنسانية. لكن علينا أن نكون عمليين -براغماتيين- أمام عدو لا يمكن الإمساك به، وأن نكون، نحن أيضا، أكثر مرونة وأكثر تكتما. وأن نتجنب الوقوع في أفخاخ الثنائية الحدّية المنصوبة لنا والتي تتم مقاربتها بطريقة أمنية مبالغ فيها. الإرهاب لا يمكن تبريره، لكنه يعرف مع ذلك كيف يتخفى وراء مظاهر الشرعية الوطنية وأن يرفع علم العدالة ويغتصب لنفسه قضية الهويات المهانة. لا ينبغي لردنا أن يغذي مثل هذا الانتحال. بل ينبغي أن يوجه إلى نزع الشرعية عن الإرهابيين. من هنا تأتي ضرورة إيجاد حل للمشاكل التي يستغلها الإرهاب، ومن هنا أيضا ينبغي التمسك في معركتنا بقواعد القانون وبالمبادئ التي تمت تعبئتنا باسمها. وهذا يعود تحديدا لكون نضالنا عادلا وعلينا أن نبرهن على ذلك عبر التصرف دائما في إطار الديمقراطية. هذا مطلب أخلاقي وشرط للفاعلية.

وعلى الدول، كي تأمل النجاح، أن تتعاون بشكل وثيق. لكن كيف يمكن أن نوفّر لهذا التعاون حظوظا في النجاح إذا لم يتم التصدي أيضا لجذر المشاكل التي يستغلها الإرهاب؟ وبسبب وجود معطيات موضوعية ملائمة له مثل الشعور بالظلم وبنكران الهوية، فإن مكافحة الإرهاب تمر حكما عبر تغيير المعطيات الاجتماعية والاقتصادية

والسياسية في البلدان التي تفرّخ هذا الإرهاب. وسوف تؤدي طريقة كهذه إلى زوال التعاطف الذي يحظى به الإرهابيون والأصداء التي يجدونها لدى شرائح السكان التي فقدت بوصلة التوجيه.

من أجل اختراق التحدي، علينا إذن أن نضع معا إستراتيجيات شاملة ومتدرجة. والبحث عن حلول للنزاعات الإقليمية، وخاصة النزاع الإسرائيلي-الفلسطيني، يشكل مدخلا لتهدئة مشاعر الظلم لدى عامة المواطنين.

علينا أن نشجع الدينامية الداخلية للإصلاح لدى دول الشرق الأوسط باتجاه الديمقراطية والقيم الكونية. هذا يفترض وجود برامج دعم ملائمة لمختلف الأوضاع المحلية باستخدام أوراقنا الرابحة النوعية في كل بلد. إن الديمقراطيات لا تستطيع التجذر دون طبقات وسطى مع توفر الحد الأدنى من المستوى الاجتماعي-التربوي فعلينا العمل من أجل التنمية الاقتصادية على أساس ذهنية المشاركة ومنظور التكامل الإقليمي. ثم إن دينامية التجمع الجارية في كل أرجاء العالم تقريبا ما عدا الشرق الأوسط هي عامل في الاستقرار وتخلق حيزا من المسؤولية تجاه تسوية النزاعات. بهذا المعنى علينا أن نتصرف من أجل تعزيز وحدة المغرب العربي ودفع مجلس تعاون الدول العربية في الخليج إلى الأمام وتشجيع إصلاح الجامعة العربية عبر إعادة نظر

كاملة بمؤسساتها. إن المنطقة مدعوة بعد حين إلى تشكيل إطار أمن جماعي غائب حاليا، والمطلوب إذن هو تمهيد السبيل أمامه.

وبغية معالجة قضية الإرهاب ينبغي بحث مسألة انتشار السلاح النووي، فهذان الخطران يهددان بالالتقاء معا. ذلك أن الإرهاب يبحث، حسب منطقه العدمي، عن استهداف الحد الأقصى الممكن من الضحايا ومن هنا يهتم بأسلحة الدمار الشامل. هذا وقد جرى الكشف عن محاولات أولى لاستخدام مواد بيولوجية لغايات إجرامية. وللأسف لم تكن الظروف مؤاتية أبدا أكثر من اليوم للقاء التهديدين. ثم إن تجارة المواد والتكنولوجيات الحساسة والحوامل النووية بل ورجال العلم في تزايد مستمر. والعولمة التي ألغت المسافات ومحت الحدود وربطت بين شبكات التواصل الالكتروني تساعد على انتقال الأشخاص والأعتدة والمعلومات مع ضمان التعتيم على التمويلات. لقد اجتمعت الشروط من أجل تطوير برامج سرية وأشكال تعاون تكنولوجية مشبوهة.

إذا كانت أسلحة الدمار الشامل بمتناول الإرهابيين، فإنها بالأولى بمتناول الدول. لكن ليس لدى جميع أولئك الذين يريدون حيازتها نوايا قتالية. فالبعض يحسون بهشاشة وضعهم لذلك يرغبون حماية أنفسهم عبر تحصين بلادهم. لكن هذا لا يعني بأن خيارهم ليس

خطيـرا. إن إدخـال مـثل هذه الأسلحـة إلى مناطق مـأزومـة يخلّ بالتوازنات مع ما يترتب على هذا من مخاطر المواجهات. هكذا يغدو النضال ضد انتشارها شرطا للسلام. وحالة كوريا الشمالية توضح ضرورة التدخل في الزمن المطلوب وامتلاك الوسائل المناسبة لذلك. فعندما ينجح بلد سيء النوايا بحيازة السلاح الذري، فإن الوقت يكون قد تأخر جدا. هنا أيضا ينبغي استبعاد القوة والرضوخ.

إن المثال القريب العهد الخاص بالبرنامج النووي الإيراني يبين جيدا ما يمكن للدبلوماسية أن تفعله عندما تستخدمها الجماعة الدولية بحزم وبموقف موحد. وأمام الشكوك التي أثارتها تقارير الوكالة الدولية للطاقة الذرية حول وجود برنامج سري ذي غاية عسكرية، برز التساؤل التالي: بعد ستة أشهر من التدخل في العراق، هل ينبغي تصور تكرار سيناريو من نفس الطبيعة؟ أم في حالة عدم التدخل إفساح المجال أمام خلق وضع شبيه بالوضع الذي نعرفه مع كوريا الشمالية؟

لقد اختار الاتحاد الأوروبي المراهنة على الحوار لكن دون ضعف. والأسباب التي تدفع في عالم اليوم نحو الاندماج في الجماعة الدولية هي أسباب قوية. إن إيران حساسة جدا لهذا الأمر، كما كان الأمر بالنسبة لليبيا شريطة عدم الدخول في منطق المواجهة. وكذلك

شريطة أن تفتح هذه العملية منظورات جديدة للجميع: لإيران كي تحظى بالاحترام في محيطها الإقليمي وأن تستمر في ولوج سبيل التنمية الاقتصادية وأن تمارس في المنطقة المسؤوليات التي وهبها لها تاريخها وعدد سكانها وثرواتها الطبيعية، وللشرق الأوسط الذي يحتاج للسلام وللاستقرار، ولأوروبا التي لا يمكنها أن تقبل المخاطر التي تشكلها إيران على أمنها إذا امتلكت السلاح النووي، وللجماعة الدولية الباحثة عن وسيلة لتسوية أزمات الانتشار النووي.

التحايل والعفو

يُصنع السلام مع الشعوب وليس ضدها. وتتم خدمة السلام بشكل أفضل من خلال التحايل والعفو لا من خلال ضربة صاعقة. الحل معروف للجميع ويكمن في وجود دولتين تتمتعان بالسيادة وتعيشان جنبا إلى جنب بأمان - أي دولة إسرائيل بالنسبة للشعب اليهودي ودولة فلسطينية بالنسبة للمواطنين الفلسطينيين العرب المسلمين والمسيحيين الذين يعيشون في فلسطين. مثل هذا الاتفاق يعتمد على إنجاز عملين أوليين. الأول هو إجراء تحليل واقعي لمطلب اللاجئين الفلسطينيين بالعودة إلى الأراضي الخاضعة لإسرائيل والثاني يتمثل في تفكيك إسرائيل لمستعمراتها باعتبارها تؤدي إلى تجزئة الأرض الفلسطينية. صنع السلام يعني إدراك وقياس ما لا يمكن للآخر أن

يقبله. السلام ليس مجرد مصالحات استعراضية ولا اندفاعات وهمية، وإنما حدود مضمونة وحقد مطرود من المعابد.

من جهة أخرى، لن تستطيع المجموعات القومية في هذه المنطقة أن تحافظ على بقائها في وضع يشهد حربا مستديمة. والتزود بالمياه يشكل مصدر قلق. إن المشروعين الكبيرين - مشروع قناة البحر الأحمر-البحر الميت ومشروع القناة الجوفية التي تربط بين تركيا وخليج العقبة - يفترضان تحقيق السلام كشرط مسبق. ومأساة الشرق الأوسط كلها تتلخص بالملاحظة التالية: إن حاجة ضرورية وحيوية مثل الماء تتعلق بمطلب ملحٍّ مثل المصالحة.

إن السلام لن يقوم دون أوروبا: هذه القارة التي ينظرون إليها أحيانا برفق ودي وأحيانا بحذر مشوب تريد أن تقوم بدور الوسيط بين شعوب قد تجهل كل شيء عنها ولا تنتظر الخلاص سوى من أمريكا القادرة وحدها أن تضمنه لها. لكن لأوروبا أكثر من كلمة تقولها فعليها مسؤولية تاريخية، وهي تستمد مكانتها المرموقة من مصدرين على الأقل.

أولا ارتبطت بلدان الشرق الأوسط بعمق بأوروبا وهي تحتفظ ببصمتها منقوشة في ذاكرتها. إن الاستعمار هو بالتأكيد خرق شعب لكرامة شعب آخر وتاريخ ظلم؛ لكنه أيضا ذكرى ماض مشترك منذ

المفاوضات التي جرت بين اتفاق سيفر ومعاهدة فرساي خلال صيف ١٩٢٠ وأدت إلى اقتسام حطام الإمبراطورية العثمانية. وواقع أن فلسطين كانت بريطانية ولبنان وسوريا كانا فرنسيين يترك آثارا عميقة لا تمحى في ضمير الشعوب.

تضاف على هذا المعطى فرصة يمكن للبلدان الغربية الآن اغتنامها، وهي أنها كانت إمبراطورية لكنها لم تعد كذلك. والولايات المتحدة تعمق أكثر فأكثر كل يوم الهوة بينها وبين بقية العالم فمن غير أوروبا يمكنه إعادة ربط العرى المقطوعة؟ فلنأخذ الأمور كما هي بتواضع. وكي تكون أوروبا جديرة بتحمل المسؤولية الملقاة على عاتقها سيكون عليها أن تولّف بين قدرة الحلم وتصور واقعية الواقع. إننا في الشرق الأوسط على الأرض التي يغدو فيها "عدم الاعتقاد بالمعجزات بمثابة البرهان على عدم الواقعية" حسب تعبير قاله حاييم وايزمان.

وما يصح على أوروبا يصح أيضا بالنسبة للولايات المتحدة فالسلام في الشرق الأوسط لن يتم بمنأى عنها. إن الجميع يعرفون أنها تقدم لإسرائيل مساعدة عسكرية واقتصادية قد لا تستطيع إسرائيل لولا ذلك القيام بأعباء الدفاع عن نفسها. وبلدان المنطقة المدركة لميزان القوى على قناعة بأنه لن يكون هناك حل للنزاعات المحلية دون دور أمريكي. وفي أغلب الأحيان، إن الموقف المتشكك أو حتى النقدي الذي

تتخذه الحكومات حيال أمريكا يخفي في الواقع رغبة خفية لديها للاعتراف بها كأطراف متميزة للتفاوض. هذا يعني القول بأن الولايات المتحدة لديها إمكانيات كبيرة للعمل ووسائل ضغط لا بد منها لأجل الدفع نحو تسوية، شريطة أن تستجيب بالطبع لمتطلبات الأمن لدى البعض والعدل لدى الآخرين.

لقد كانت إدارة كلنتون على صواب عندما اعتبرت أن المسألة الملحة تخص تسوية النزاع الإسرائيلي-الفلسطيني. آنذاك سمح الالتزام الأمريكي بتحقيق تقدم استدعى من الطرفين تقديم تنازلات، ربما كان القليلون من المراقبين يعتقدون بأنها ممكنة. هذه التنازلات جرى وضعها في منظور مفتوح وتم استقراؤها على ضوء الاتفاق الذي تضمنها لذلك لم تثر أية معارضة عامة لدى الشعوب المعنية بها والتي ربما كانت رفضتها خارج ذلك السياق. لقد مرّت سنوات على ذلك ولا يبدو أن معطيات المشكلة قد تبدّلت إلا من حيث ما تراكم عليها من آلام ومن حالات حداد إضافية. ودون تسوية للنزاع الإسرائيلي الفلسطيني لن يكون هناك استقرار في المنطقة وما حولها. فكيف يمكن خاصة تأمل تحقيق الأمن في العراق في حين يستطيع مثيرو الاضطرابات أن يصبوا الملح على الجرح القديم؟

كانت هناك خطط سلام أمريكية للشرق الأوسط منذ عهد نيكسون وحتى كلنتون ومرورا بكارتر وريغان. وكانت إمكانيات

دبلوماسية كبيرة بالتوافق مع منظورات اقتصادية وسياسية واعدة قد تم استخدامها من أجل تحقيق تلك الخطط. وكانت شخصيات موهوبة مثل كسنجر وشولتز وبيكر قد بذلت جهودها فيها ولم توفر وقتها وتعبها. وإذ لم تنجح هذه الجهود، فربما لأن القيام بتحليل عقلاني قائم على المصلحة التي تدركها الأطراف كلها ليس كافيا في الشرق الأوسط من أجل إقناع الشعوب بتلك الخطط. هذه الشعوب تريد بالتأكيد تغيرات ملموسة في حياتها اليومية لكنها تطمح قبل كل شيء إلى الاعتراف بها وأن تنال حقوقها. فإذا كانت الخطط المقترحة عليها لا تؤدي إلى ذلك فهي ستبقى رهن الانتظار. وحتى لو كان الاستحقاق المطلوب لا يقع في أفق حياة الجيل المعني بها. إن الزمن عندها ليس دائما هو الزمن عندنا ومفهومها للمصير هو مفهوم جماعي. أما أوروبا فإنها تمثل العنصر الملطّف والمصحح عبر إدراكها الأكثر قوة وعمقا لتعقيد الأمور وتنوعها وهشاشتها، وذلك بالاعتماد على تجربتها الخاصة.

هكذا إذن يمكن للولايات المتحدة وأوروبا أن تستغلا تكاملهما في الشرق الأوسط وأن تتضافر تجاربهما ورؤيتاهما من خلال العمل باسم القيم نفسها من أجل عالم أكثر أمنا وأكثر ازدهارا، والاتفاق في التشخيص حول طبيعة التهديدات وخطورتها، ومصلحة مواجهة التحديات المشتركة، والتعبئة جنبا إلى جنب في العديد من مسارح

العمليات. لكن بالاعتماد أيضا على التجربة التاريخية لكل طرف وعلى نمط العلاقات الذي أقامه مع شعوب الشرق الأوسط، بالاعتماد على هذا كله تجد ديمقراطيات شاطئي الأطلسي ما يسوّغ قيامها بشراكة وثيقة وتضامنية في هذه المنطقة.

وما يصح بالنسبة لأوروبا ينطبق على شركاء آخرين. إذ كيف يمكن إيجاد حلول لنزاعات الشرق الأوسط دون التماس مساعدة الدول التي يمنحها وضعها كفاءة خاصة ينبغي الاستفادة من إمكانياتها؟ إن روسيا في موقع يجعل منها قوة إقليمية. وتركيا وإيران اللتان تعيشان في وضع متداخل مع الشرق الأوسط العربي عبر الأقليات الكردية والأقليات الناطقة باللغة العربية، لهما حصتهما أيضا في الرهانات الكبرى ولهما أيضا حساسيتهما للبعد الديني للمشاكل. وكيف يمكن أيضا استبعاد بقية الجماعة الدولية بينما أن تحديات عامة شاملة، كالإرهاب وانتشار أسلحة الدمار الشامل، هي موضوع التساؤل؟

إن الجماعة الدولية عليها واجب الشروع بعمل حازم في الشرق الأوسط. الأداة موجودة وهي "خارطة الطريق" التي وافقت عليها الأطراف المتنازعة كلها والتي تحدد جدولا زمنيا ينتهي إلى التعايش بين دولتين. وهناك عدة وثائق، مثل المبادرة الإسرائيلية-الفلسطينية في جنيف، ساهمت في انقشاع الأفق ورسمت ملامح ما يمكن أن

يكون اتفاقا نهائيا لا يترك جانبا مشاكل العمق الخاصة بالحدود ووضع القدس وحق عودة اللاجئين. لكن ديناميّة المفاوضات لا تستطيع الانطلاق لأن الطرفين أسيران لمنطق الشروط المسبقة. فإسرائيل تربط كل شيء بوقف العنف والفلسطينيون يشترطون تبدلا في وضع الاحتلال العسكري الذي يعانون منه. هكذا جعل خصوم السلام من مسيرته رهينة لهم؛ فكل مرة يتم الشروع فيها بالمفاوضات تحدث عملية تشلّ كل شيء.

ينبغي على الأطراف الخروج من هذا الطريق المسدود حيث يتلاعب الإرهابيون بالجدول الزمني، والقيام بالخطوات الضرورية من أجل إعادة الثقة. وعلى الجماعة الدولية أن تواكبهم في هذا السبيل. ومهما تكن الصيغة التي يتم إقرارها فإن المهم هو أن تبدأ الحركة وأن يتبدد التزمت الذي كان وراء الفشل المتكرر وتستعاد الثقة في إمكانية التقدم. إن شعوب المنطقة التي تنوء تحت حمل جيل من الذكريات القاسية لن تستطيع أن تتغلب وحدها على حالة الكبت التي ولّدتها عقود من العنف. ومهمة الجماعة الدولية هي أن تبعث الأمل من خلال موقف موحّد، وعبر تقديم البراهين لها مثلا بأن سبلا أخرى موجودة.

علينا أن لا نقلل من أهمية هذه المهمة. وإذا تطلعنا صوب بوابة بغداد أو بوابة القدس، فإن المواعيد صعبة ومتطلبة ومؤلمة. أوروبا

بحاجة للولايات المتحدة كما أن أمريكا بحاجة لأوروبا من أجل التبصر بأمور العالم والفعل فيها. فلنتسلح بالشجاعة والجسارة والحكمة مع الحرص على الشرف والاحترام والاقتناع بأن ما يجري يخص مصيرنا بوصفنا بشراً متحضرين وكذلك مبادئ السلام في الشرق الأوسط والأخوة في إفريقيا. فلنحرص أن نكون في موعد العدالة والإرادة فهما في قلب مهمتنا كأوروبيين وكغربيين. إن الحقد المتنامي والأنانية يمكن أن يكونا قاتلين بالنسبة لنا جميعا.

الفصل السادس

الديمقراطية العالمية

الفصل السادس

الديمقراطية العالمية

وضعت الأزمة العراقية العالم الغربي أمام تحدي الخروج من عصر الدول الذي استهلته معاهدة ويستفالي[١٣١] وذلك من خلال إيجاد قيم جديدة قادرة على أن تلقى القبول العام ـ الكوني. إن الأمن والسلام لم يعد تحقيقهما ممكنا عبر الحسابات والإستراتيجيات وتوازنات القوة، وإنما من الداخل على أساس إرادة البشر وتطلعهم إلى الحرية. ومن أجل تقليص ساحة العنف ينبغي توسيع المجال المقدس للتسامح والاحترام. فمن سيقبل أن تتوافق الحرية في داخل الحدود مع اللامبالاة والحروب خارجها؟ ونظراً لعدم إمكانية فرض الديمقراطية بالقوة، نستطيع الالتزام بمسيرة جديدة وجسورة تربط مجموع الشعوب فيما بينها وتفتح آفاقا جديدة. إن الحاجة إلى ذلك ماسّة جداً في هذا الزمن الذي تتراكب فيه العصور والهويات الجريحة والقوميات المهيضة تبعاً لترنحات الدول وتداعي أحلام الإمبراطوريات. ومن أقصى الدنيا إلى أدناها ينبغي تحقيق ازدهار الإنسان في إطار الإخلاص لجذوره وأن يغتني من انتماءاته المتعددة ومن الصلات التي اختارها لنفسه.

ولأنّ المعبد قد تهدّم والروابط تفككت والثقة غدت أكثر هشاشة من أي يوم مضى، ينبغي استباق الكوابح والمخاوف والخروج من الأطر المقفلة التي نميل للانكفاء بداخلها،وذلك من أجل إشادة ركائز قادرة على أن تدعم نظاما ديمقراطيا دوليا. وكل يوم نلاحظ أن هذا الأمل يعبىء حوله قدرا متزايدا من الطاقات. ونشهد منذ عدة عقود، كما لو أن الواقع كان ينبت تحت اليوتوبيا، نشهد تأكيدا دؤوبا - رغم محاولة إعاقة لا تتوقف - لإرادة المجموعة الدولية كي تبرز وتنظّم نفسها. ولم يعد ممكنا النظر إلى العالم وكأنه مجرد دول ذات سيادة تتراصف بعضها إلى جانب بعض، وإنما عالمنا الجديد يشكل إنسانية واحدة يتحمل كل عنصر فاعل في الحياة الدولية مسؤوليته الخاصة حيالها.

هذا الوعي ليس حصرا على نخبة فكرية وسياسية. وإنما حملته الشعوب وحاكت معالمه جراح التاريخ والصورة التي تقدمها لنا وسائل الإعلام عن أنفسنا. منذ رحلات الطيران الأولى في الفضاء تأمل البشر صورة الأرض من الخارج. والحربان العالميتان فرضتا على البشرية فكرة المصير المشترك. وإدراك الواقع البيئوي - الإيكولوجي - يفرض حتما قبول التداخل على مستوى الكوكب الأرضي. هكذا بدأت تتحدد تدريجيا ملامح وعي عالمي، إنه وعي وجود كلي مسؤول، رغم الهشاشة التي أصابته بفعل تصدعات عديدة. إن التقدم على هذه المستويات يجد استجابته عبر قيام روابط جديدة بين البشر أو بين

المجموعات البشرية وتطوير مجالات مشتركة كونية على شاكلة "الانترنت"، تساعد على بروز رأي عام عالمي.

لكن لا يزال مطلوباً إعطاء التداخل الإنساني مسحة من الانسجام والمعنى . فالعالم يتطلع إلى قدر أكبر من التداول الجماعي ومن آليات العمل ومن الضمانات المشروعة. ومن الديمقراطية. وهذا كله يتطلب مؤسسات جديدة. فعلى الصعيد الدولي تستطيع الدول وحدها إسماع صوتها؛ بينما ينبغي من الآن فصاعدا أن يتمتع كل إنسان بما تنص عليه الحقوق الفردية. ثم إن بروز مواطنة عالمية سيؤدي إلى انتصار النظام على الفوضى وسوف يتعزز ما يوحد البشر ضد ما يعمل على تفرقتهم.

إعادة التأسيس

لم يعد المقصود هو وضع الإنسان في المركز فحسب، وإنما الاعتراف بمطالبه وتطلعاته. إن المطلب الإنساني يفرض نفسه إذ لم يعد خيارا ممكنا وخيارا تكرميا وطوباويا وإنما أصبح ضرورة. هذه القاعدة تتم ترجمتها قبل كل شيء بواجب الاحترام حيال روح العالم. لم يعد ممكنا تبسيط الكون، والنظر إليه كـ"نظام" متناغم بشكل رائع كما كان يحلم به القدماء وإنما ينبغي على العكس اختراع مبادئ للمعرفة والحوار والعمل للتعبير عن تنوعه اللامتناهي. وينبغي، دون

الاستخفاف بالتقدم الهائل الذي استند على الطريقة العقلانية والعلمية التي تقوم على تجزئة المعارف دون حدود، إعادة الاعتبار لأنماط أخرى من التفكير تسمح برؤية البشرية على ما هي عليه، أي بمثابة وجودٍ كلي واعٍ ومسؤول.

إن مطلب المسؤولية الجماعية وحده يسمح بتشييد النظام الدولي الجديد. وبما أن مصائرنا مترابطة فعلينا أن نصوغ مبدأ "المسؤولية من أجل الآخر" على شاكلة ذلك المبدأ الذي ذكره عام ١٩٧٩ الفيلسوف الألماني هانس جوناس بحيث يصبح الطموح هو أن يؤخذ بالحسبان معطى التقنية الجديد في مجال الأخلاق. مثل هذه الثورة ينبغي لها أن تحدث في اتجاه معاكس للنزعات الفردية لمجتمعنا فهي لا تخص بشر اليوم فحسب وإنما تخص أيضا أجيال المستقبل. إنها، وبتجاوزها المنطق التقليدي للعدالة التوزيعية - التي يترجمها مثل قديم من القانون الروماني يقول "لكل إنسان ماله" - تصبح عاجزة عن توفير التكافؤ والمعاملة بالمثل، على غرار مسؤولية الإنسان البالغ حيال الطفل الوليد. إن هذا المفهوم للمسؤولية وعلى عكس "مبدأ الأمل" الشهير الذي قال به أرنست بلوخ[١٣٢]، يرسي أساس "مبدأ الحيطة" مبررا بدوره أخلاقية الامتناع عن المشاركة والتقوقع الذاتي. هذه هي الإجابة الوحيدة الممكنة على قدرتنا، المتزايدة باستمرار، لتغيير العالم.

علينا جميعا، من المواطن إلى رجل الدولة ومن الدائرة الاقتصادية إلى ميدان البحث العلمي أن نقبل بتغيير الذهنيات على صعيد الأمم وعلى صعيد العالم. الرهان حاسم إذ أن مصير السلام وبقاء العالم رهن بقدرتنا على إدخال مطلب الآخر وأفق ما هو «كوني» في فكرنا وفي حياتنا اليومية أي في مفاهيمنا الأخلاقية. إن هذا التغير سيحتاج إلى زمن قبل أن يندمج بشكل دائم في العادات السياسية وفي العلاقات الدولية. لكن حان الوقت لطرح أسسه عبر المطلب المزدوج: مطلب الحرية والديمقراطية ومطلب العدالة والشرعية.

إن طموح الحرية يندرج في الخط المستقيم للتاريخ فغداة الحرب العالمية الثانية ظهر بوضوح أن الديمقراطيات القائمة لم يعد بمقدورها الاكتفاء باحترام هذه القيم داخل حدودها حصرا. وكانت الديمقراطية الليبرالية قد أصبحت في موضع التطلع الأول للدول التي قامت بعد حركة الخلاص من الاستعمار. لكن الحرب الباردة كبحت لفترةٍ الأملَ بتثبيت نظام عالمي جديد، ذلك أن منطق الانحياز كان يتعارض مع المبادئ العليا الأساسية لفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية. ومع ذلك تقدم النضال ضد الدكتاتوريات في أوروبا باسم تلك المبادئ مقوّضا شيئا فشيئا أسس الأنظمة التسلطية والقمعية. وبدا حصول سكان برلين الشرقية على حق الذهاب إلى النصف الآخر من المدينة بمثابة التمهيد والرمز لانتصار الحرية.

إن الجماعة الدولية، بعد أن تحررت من سيطرة الكتل، فتحت الآفاق لتطلعات كانت حبيسة لفترة طويلة. ثم إن انفجار مظاهر الفرح التي رافقت أحداث ١٩٨٩ رسّخت القناعة بأن الحرية وحقوق الإنسان والديمقراطية كانت دائما قيما مشتركة بين جميع البشر دون تمييز لعرق أو لمعتقد أولثقافة. كما تأكدت سمتها الكونية بوصفها أمراً مسلّماً به. ولم يعد كافيا مجرد الاكتفاء بتأييد المبدأ الديمقراطي، بل أصبح الأمر يتعلق بإيجاد بنية دائمة للعلاقات الدولية. ويفترض أن تصبح الشعارات اليوم هي الحركة والتطلب والطموح. لكن الطريق لا يزال طويلا؛ كما دلّ فشل المحاولات العديدة لتبني الديمقراطية في إفريقيا في بدايات عقد التسعينات، لكنها محاولات تحمل الأمل ذلك أن الأمر يتعلق بعمليةٍ تطلق أحيانا آلية تنازعية بين ما هو كوني وما هوخاص، وبين قيم الديمقراطية والخصوصيات القومية أو الاتنية أو الثقافية وبين احترام سيادة الدول والمعركة من أجل حقوق الإنسان.

إذا كانت الديمقراطية والحرية في مرتبة مرجعيتين كونيتين فإن الأشكال التي تتجسدان بهما ليست بمنجاة من خصوصيات كل بلد وكل ثقافة. ولا شيء أسوأ من اعتماد الفكرة القائلة بأن تشجيع الديمقراطية ليس سوى مجرد صيغة جديدة للإمبريالية الغربية. إن أحد الأهداف الأكثر أهمية خلال العقود القادمة يتمثل دون شك في إثبات السمة الكونية للقيم الديمقراطية: نعم الديمقراطية ممكنة في

إفريقيا، نعم يمكنها أن تترسخ في العالم الإسلامي، نعم إنها تتطلع إلى فتح سبل جديدة في آسيا. ثم إن تنوع الأنظمة الديمقراطية لا يتعارض مع السمة الكونية للقيم التي تتأسس عليها، إذ في أوروبا نفسها حيث تتقارب السياسات الثقافية كثيرا نجد أن أشكال الحكومات مختلفة. وتستطيع الديمقراطية، بل عليها، أن تأخذ باعتبارها خصوصيات كل مجتمع. مثلما هو حال مكانة الدين في البلدان الإسلامية أورسوخ نماذج الأجداد القدامى في بعض المجتمعات الإفريقية. ثم إن القيم الديمقراطية ستفقد أي حظ لإثبات فعاليتها إذا نفت هذا التنوع ولم تحترم السمات العميقة التي تطبع الثقافات السياسية بطابعها.

والديمقراطية لا تتأتى من صيغة مجردة وليست وصفة جامدة يمكن نقلها من بلد إلى آخر ومن مجتمع إلى آخر. الانتخابات الحرة الشفافة لا بد منها، لكنها ليست كافية. والصيغة البرلمانية ليست أحيانا سوى مجرد واجهة. كذلك قد تكون التعددية الحزبية أشبه بقوقعة فارغة عندما يتم استخدامها، كما ظهر في بعض البلدان، أداةً من أجل تعزيز نفوذ الفئات التي تقتسم السلطة. بالمقابل لا يمكن للقيم الديمقراطية أن تزدهر دون وجود ثقافة سياسية قائمة على الحرية، حرية الناخبين وحرية وسائل الإعلام وحرية الأحزاب. وتعلّم الممارسات الديمقراطية يتم على المدى الطويل إذ لا يمكن

للديمقراطية أن تتجذر إلا حسب الإيقاع الذي يفرضه تطور العادات والعقليات. إنها كانت موضع احتجاج في فرنسا حتى سنوات الثلاثينات الماضية رغم أنها كانت موجودة منذ عدة عقود، الأمر الذي برهن على أنه لا بد من مرور زمن طويل كي تتثبت ثقة شعب في مؤسساته. إن الشك الذي يعترينا، في منعطف القرن الذي نعيشه، يبيّن أنه لا شيء يمكن الحصول عليه مرّة واحدة وإلى الأبد.

المعركة من أجل الديمقراطية لا تجري فوق مساحات ملساء وانطلاقا من حسابات مجرّدة أو قواعد لا صلة لها بالواقع. إنها تندرج في حقيقة العالم القائم. ويبدو أنه في ظل العولمة والمحو التدريجي للحدود وتوحيد أنماط التفكير لم يعد احترام حدود بلد يمثل في النظام الدولي خطا أحمر لا يمكن تجاوزه. مثل هذا القول ينم عن تجاهل حقيقة أن سيادة بلد لا تقتصر على القيمة المقدسة لحدوده أو لاستقلال سلطاته وإنما تترسخ في تاريخ الشعوب وذاكرتها وعزتها. يمكن تحرير بلد من قامعيه ولكن لا يمكن دفع شعب للتخلّي عن روحه.

لهذا السبب تبقى السيادة هي المبدأ المؤسس للقانون الدولي، وتبقى مقرونة بعدم التدخل في الشؤون الداخلية لدولة أخرى. بالتأكيد هناك العديد بعد هنري دينان[١٣٢] ممن شجبوا تجاوزات بعض

الأنظمة ضد شعوبها بحجة السيادة. ويرى رونيه كاسان[١٣٤]، بأن هذا الاحترام المفرط للسيادة الوطنية يمنح "حقا ملكيا" حقيقيا بـ"القتل". لكن منذ حرب البلقان والمذبحة في رواندة، قبلت منظمة الأمم المتحدة فكرة "حق التدخل" عندما يكون المدنيون معرضين للخطر. لقد استرشدت جميع عمليات التدخل الإنسانية منذ كوسوفو بهذه القاعدة. لكن إذا كانت العمليات تجد تبريرها في مثل هذه الفرضيات المؤسسة لها، فإنها تغدو غير مقبولة حكما إذا كان الأمر يتعلق بفرض احترام الحريات الأساسية عنوة على دول تجهلها أو إقامة الديمقراطية بالقوة في مناطق لم تعرفها أبدا. هذا النموذج في التدخل يستدعي إلى الذهن الذكريات السيئة لمقولة "المهمة التحضيرية" التي حددها الغرب لنفسه كغطاء للاستعمار.

فكيف يمكن إدراج الديمقراطية على المدى الطويل؟ لا شيء يسمح بالقول إن الإطاحة بنظام استبدادي بفضل مساعدة خارجية ستؤدي إلى حالة من الاستقرار بنفس الوقت. وإذا لم تقدم الجماعة الدولية بمجملها دعمها فإن الشرعية الجديدة تكون باستمرار عرضة للتشكيك بها مع خطر أن يؤدي ذلك إلى بلورة البغضاء حيالها لدى السكان المعنيين وإلى تشجيع مشاريع أولئك الذين يجنون المكاسب من غياب النظام والبلبلة. بالإضافة إلى هذا لا بد أن يؤدي استخدام القوة إلى إثارة صدمات ارتدادية قادرة على زعزعة مناطق كاملة

وتحطيم مصداقية الديمقراطية فيها. ثم إن الحساسية حيال السيطرة والقسر قد تكون أحيانا من القوة بحيث تؤدي إلى إمكانية رفض المبادئ الديمقراطية.

إن الشرعية تعبّر عن نفسها من خلال الحوار النشيط والإرادي والحيوي. هذا الحوار وحده هو الذي يرفع من شأن القيم الديمقراطية واحترام الحريات وحقوق الإنسان. إنه يمثل السبيل الأفضل من أجل تشجيع تبنّي الديمقراطية في بلدان هي على هامش الجماعة الدولية. وينبغي أن تؤخذ بالحسبان التطورات الداخلية لهذه المجتمعات التي خرجت من هزات تاريخية عميقة. من هنا تأتي ضرورة تعدد المحاورين والاعتماد خاصة على ممثلي المجتمعات المدنية وعلى المنظمات غير الحكومية التي لديها غالبا معرفة معمقة بالبلدان التي عملت بها ، وكذلك على المنظمات الإقليمية التي تمثل عناصر أساسية لأن أكبر عدد من السكان يعترف بشرعيتها.

صحيح أن اختيار منهج الحوار يقتضي قبول التحدث إلى جميع البلدان وحتى إلى بعض الأنظمة التسلطية، لكن دون إظهار الضعف أو التساهل. هذا ولاسيما أنه تنبغي المحافظة على الإرادة المصممة وإيجاد توازن مستمر بين التفهم والحاجة، وبين الحس العملي - البراغماتي - واحترام المبادئ. إن استبعاد بعض البلدان من الجماعة

الدولية لن يعطيها الحجج من أجل التشدد فحسب، وإنما أيضا قد يدفعها إلى ممارسة السياسة الأسوأ، أي الابتزاز أو اليأس. وكل حالة لها بالطبع خصوصيتها أكان الأمر يتعلق بليبيا أم زمبابوي، بكوريا الشمالية أم بكوبا. ومهما يكن من أمر فإنه لا ينبغي للحزم حيال الحكومات أن يمارس بمعزل عن تخصيص انتباه أكبر لجميع للشعوب.

فلنثق بالديمقراطية ولا نقلل من قدرتها على الإقناع وتعبئة الناس في صفها وكفاءتها في إحياء الأمل حتى في أكثر الأوضاع مدعاة لليأس. إنها تقوم وتنتشر بواسطة إمكانية نفاذ المبادئ والقيم. فلنكن نموذجيين في علاقتنا بالشعوب التي لم يحالفها الحظ للتعرف على الحرية واحترام حقوق الإنسان. فلنعطها بداية إمكانية معرفة الديمقراطية على الصعيد الدولي. إن ممارسة ديمقراطية شاملة يمكنها، بالمقابل، أن تمارس ضغطا حاسما وأن تحفز التطور الداخلي في هذه الدولة أو تلك.

فلنعرف كيف نجعل هذه القيم تعيش في إطار متعدد الأطراف، هناك حيث تتجسد الجماعة الكونية وتعبر عن نفسها. إن هذا الطموح يشق اليوم طريقا أكثر أمانا وثباتا من إرادة تطوير الدول كل منها على حدة كي تضم الجماعة الدولية حصرا ديمقراطيات جاهزة. إن الدولة - الأمة والسيادة تظلاّن معطيين لا مناص منهما. العولمة

تولد دائما عناصر فاعلة جديدة، لكن دور الدولة يبقى مركزيا. لذلك ينبغي إذن تنظيم عولمة الدول. هكذا ستبدأ دائرة فاضلة بالارتسام تجمع بين التنمية والعدالة والسلام والديمقراطية. هذا هو رهان معركة صعبة وحذرة بنفس الوقت في إطار توتر مستمر بين الوحدة والتنوع، بين تأكيد ما هو كوني واحترام الخصوصيات.

وينبغي على القيم الديمقراطية كي تترسخ حقيقة أن تعتمد كل لحظة على مطلب العدالة المتجدد. وللجماعة الدولية مسؤولية حاسمة بهذا الصدد. فبمواجهة القلق وتفاقم الحقد عليها أن تمارس عدالة لا انتقاص فيها على قاعدة عدم التحيز والتصميم.إننا بحاجة إلى طريقة في تسيير الأزمات تكون كونية وعادلة بنفس الوقت. وينبغي على عمل الجماعة الدولية أن يعتمد على رؤية شاملة وعلى إجراءات منسجمة فيما بينها. وتنبغي معالجة جميع الأزمات على أساس نفس المبادئ، حيثما انفجرت في الشرق الأوسط أو إفريقيا أو آسيا. وبالطبع مع أخذ الخصوصيات الإقليمية لكل منها بعين الاعتبار.

إن مطلب العدالة يستدعي أيضا مكافحة الإفلات من القصاص في كل زمان ومكان. لم يعد ممكنا أن تنجو من العقاب جرائم بشعة تؤرق الضمير الكوني مثل حرب الإبادة في رواندة أو المذابح وأعمال

التعذيب التي قامت بها الدكتاتوريات الدموية في أمريكا اللاتينية أو التصفيات الاتنية في البلقان. إن الجماعة الدولية، مسلّحة بهذه القناعة، عرفت كيف تختلق أدوات لفرض احترام القانون على الصعيد الدولي عندما تكون العدالات الوطنية غير قادرة على القيام بهذه المهمة. كما قامت أيضا بإنشاء محاكم دولية لهذا الغرض مهمتها محاكمة المسؤولين عن الجرائم الجماعية في رواندة ويوغسلافيا السابقة. ثم إن محاكمات مجرمي الحرب تمثل بنفس الوقت فرصة لمعاقبة المسؤولين عن المذابح وأعمال الاغتصاب والتعذيب، وللإعلان عن مبدأ للحقيقة والعدالة يكون أساسا للمصالحة بين الشعوب فاستقرار أية أمة لا يمكن أن يقوم على الكذب والمواربة والحقد. كما يشكل تأسيس محكمة جنائية دولية ذات تطلع كوني مرحلة جديدة وأساسية في بناء نظام أكثر عدلا. ويعبر أيضا عن الرفض الجماعي للإفلات من القصاص ـ عبر تأكيد السمة المستمرة أو غير القابلة للسقوط بالتقادم بالنسبة لجميع الجرائم ـ وعن الاعتراف بكونية القيم التي تتأسس عليها الجماعة الدولية. إن الكونية والفعالية لم يعودا بمثابة حدّين لا يمكن التوفيق بينهما لتحالف مثالي وساذج كي يصبحا واقعا سياسيا وقانونيا ملموسا.

لقد حقق العالم، عبر هذه المحاكم، ما لم يكن سوى مجرد فكرة طوباوية ـ يوتوبيا ـ منذ عدة سنوات قليلة خلت. ومعاً وجدنا الأدوات

الكفيلة بوضع حد لعدم قصاص الجلّادين والمسؤولين عن جرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية. إن هؤلاء كلهم لم يعودوا بمأمن داخل حدودهم، بهذا المعنى ينص القانون الدولي على التدخل في الشؤون الوطنية للدول. لكن بما أن الأمر يتعلق بالقانون وبالجماعة الدولية كلها، فإن هذا التدخل لا ينفي مبادئ وجود نظام ديمقراطي عالمي، كما أنه لا يشكك بأسس سيادة الدول. أما المحكمة الجنائية الدولية فإنها سوف تسمح بوجود قانون دولي حقيقي، لكن توجد أيضا أدوات أخرى من أجل إدارة الأزمات والنزاعات. إن تعددية الأطراف اليوم تشكل الإطار المتميز لإيجاد مثل هذه الأدوات.

الوحـــدة

تمثل الأسئلة والمشاكل الجديدة التي تنبثق وتتتالى باستمرار برهانا للجماعة الدولية بشأن ضرورة توحيد صفوفها. وهناك عدد متعاظم من الرهانات - البيئوية والاقتصادية والثقافية والسياسية - التي لم تعد الدول قادرة وحدها على ضبطها. وأي بلد سيقبل بملء إرادته الحد من سيادته إذا كانت مكاسبه أكبر مما لو اختار المواجهة وحيدا. كذلك لن يفكر أي بلد اليوم بتقليل كمية غاز الفحم الصادرة عن مصانعه إذا لم يكن مثل هذا القرار، المأخوذ بمعزل عن الآخرين، يعيق النمو الخاص لهذا البلد. وبفرضه على نفسه استحقاقات لا يتحمّلها

منافسوه، إنما يدفع مواطنيه للقبول بتضحية من أجل منفعة الإنسانية كلها.

وفي مواجهة تأكيد الرهانات الشاملة، تخلت الدول عن بعض سيادتها كي تفسح المجال أمام تطور قوى فاعلة جديدة. هكذا رأينا بأنه تنامى على المسرح الدولي دور المنظمات غير الحكومية أو التجمعات المحلية التي انخرطت في تحالفات مرنة وتطورية تسمح بتداخل ما هو محلي وما هو شامل (عالمي). وعلى الدول أن تدرك اليوم بأن تعددية الأطراف هي وحدها التي تسمح بالاندماج في منطق العولمة والتأثير فيه. لكن ينبغي لهذا الإطار أن يتطور كي يأخذ بالحسبان التضامن الجديد الذي يربط بين الشعوب والأمم. لهذا يتوجب إذن اختراع سبل جديدة لإحياء نزعة تعددية الأطراف بهدف التوصل إلى معرفة دقيقة لمصدر الصعوبات التي واجهتها خلال تاريخها.

كانت منظمة الأمم المتحدة، أثناء فترة الحرب الباردة، هي المجال الوحيد للتواصل المباشر بين الكتلتين. وقد شهدت هذه المنظمة الدخول في حوارات صعبة وجافة وأحيانا عنيفة، كما برهنت أزمة الصواريخ الكوبية عام ١٩٦٢. ومن موقعها المتميز كشاهد على التحولات الكبرى خلال نصف القرن الأخير والحرب الباردة ونهاية

الاستعمار، عرفت كيف تمسك برهانات جديدة وتزود نفسها بوسائل أخذها على عاتقها، مثل تقديرها مدى تدهور البيئة منذ مطلع سنوات السبعينات وتفاديه. وقد أسست منظمة الأمم المتحدة خاصة لتبنّي الشفافية والحوار وأصبح لها باستمرار كلمتها في ورشة تسيير العالم. وغدا التنسيق اليوم ممارسة اعتيادية مألوفة. إن منظمة الأمم المتحدة هي ساحة سياسية - اغورا- عالمية تتمتع كل البلدان فيها، صغيرة وكبيرة، بحق التواجد والحديث والاستماع.

وعلى منظمة الأمم المتحدة، هذا المركز العصبي للعلاقات الدولية، أن تأخذ باعتبارها اليوم تبدلات لا سابق لها. ثم إن دينامية التجمع الإقليمي ترغم المنظمة على أن لا تكتفي بتمثيل الدول فحسب، وإنما تمثل أيضا التجمعات الكبيرة التي يتمتع بعضها بدرجة متقدمة من التكامل. وعلى غرار شعوب أوروبا التي تستكمل تجميع صفوفها فإن أمم أمريكا اللاتينية تقوم بتوطيد روابطها وتأكيد تكاملها. وفي كل هذه الحالات لا يتعلق الأمر بتوحيد الاقتصادات فحسب، وإنما إشادة مشاريع سياسية حيث تريد هذه التجمعات المساهمة في بناء عالم أكثر توحّدا وأكثر استقرارا، عالم لا يمكن أن يكون سوى متعدد الأقطاب.

لكن هناك تحديات جديدة تبرز دون انقطاع مثل النزعة القومية المتشددة والنزاعات بين الانتماءات العرقية (الإثنيات) التي تعيق عمل

منظومة الأمم المتحدة. إنها صعوبات ينبغي على الجماعة الدولية أن تأخذها بالحسبان، فكيف يمكن تبني موقف محدد بين قوى متنازعة في بلد ليس له سوى ممثل واحد في المنظمة؟ تحت ضغط هذه العوامل الجديدة، على منظمة الأمم المتحدة أيضا أن تأخذ باعتبارها قبول التحول الذي عرفه العنف الدولي. فالنزاعات العسكرية بعد ١٩٨٩، التي يساوي عددها إن لم يكن أكثر، ما كان يحدث من قبل ، لم يتم اعتبارها كلها بمثابة حروب لأنها لا تدخل في التصنيفات الكلاسيكية لـ"النزاع" الدولي أو المدني. لكن ما يعيشه سكان المناطق الممزقة في ليبيريا أو أنغولا أو السودان في إفريقيا أو سكان القوقاز أو الشرق الأوسط القابل للاشتعال في كل لحظة، يعبر بالقطع عن حالة حرب. وقد أظهرت نزاعات البلقان كم هو من الصعب أكثر فأكثر التمييز بين الحروب الأهلية الإقليمية والحروب الأهلية من النمط القديم والتي يمكن التعرف عليها بسهولة أكبر. إن الآليات الراهنة ليست قادرة حتى الآن على الإدراك الكامل لهذا الواقع الجديد. وقد تؤدي العولمة إلى التبعثر وتثير خللا في آليات العمل مما يبرر الضرورة الملحة لإيجاد إجابة متجددة متعددة الأطراف. إن النموذج الموروث من عام ١٩٤٥ ـ نهاية الحرب العالمية الثانية ـ لا يزال يحمل من بصمات مفهوم موازين القوى وحدها ما يجعله غير قادر على أن يستجيب لمتطلبات زمننا. إن الهيئات متعددة الأطراف ستكون

على مستوى الرهانات الجديدة إذا أعطت مكانة أكبر للقانون وأخذت باعتبارها جميع العناصر الدولية الفاعلة.

وقد توجب على منظمة الأمم المتحدة خلال السنوات الخمس عشرة الأخيرة، أن توسع من صلاحياتها كي تشمل النزاعات الداخلية والإرهاب وكذلك انتشار الأسلحة النووية. وفي كل مرة عرفت كيف تجد الأدوات الأفضل للرد على هذه النماذج الجديدة من العنف، إذ جعلت سياستها في العقوبات أكثر فعالية ووضعت نظاما لرقابة أسلحة الدمار الشامل. فلماذا إذن يعاب عليها جمودها في الوقت الذي قامت فيه بعمليات لحفظ السلام أنقذت آلاف البشر في كمبوديا وناميبيا وموزمبيق وتيمور الشرقية وسيراليون؟ صحيح أنها عرفت أشكالا من الفشل المؤلم حيال نزاعات كانت من الأكثر فتكا خلال العقود الأخيرة في الصومال وراوندة ويوغسلافيا السابقة. ومع ذلك، ففي هاتين المنطقتين الأخيرتين وفي مواجهة التمزقات الناجمة عن حروب بين الإخوة، أخذت الأمم المتحدة على عاتقها مسؤولية المناطق المتروكة، وقدمت المساعدة الإنسانية لسكان كانوا في حالة فوضى كاملة وسهّلت المصالحة عبر إنشاء محاكم دولية. لقد عرفت الأمم المتحدة كيف تتكيف في مواجهة المتطلبات الجديدة.

وعلى الرغم من كل الجهود المبذولة اصطدمت المنظمة الدولية في أغلب الأحوال بنقص الإمكانيات. إن التدخل في سياق الحرب يترافق

مع مشاكل التنسيق والتمفصل مع العمليات العسكرية. وفي مجال المساعدة على التنمية تعاني المؤسسات من قدر كبير من التشتت ونقص في الموارد مما يحدّ من قدراتها العملياتية. أخيرا إن منظمة الأمم المتحدة لا تتحرك على مستوى طموحاتها فيما يخص إرادتها لتشجيع حقوق الإنسان والدفاع عنها بطريقة أكثر فعالية. لكن هذه الصعوبات لا تصل إلى حد التشكيك بالمبادئ التأسيسية للمنظمة الدولية وبهيكليتها. إننا نريد تطبيق المبادئ الأربعة الكبرى لميثاقها في كل مكان من العالم، أي احترام حرية الأفراد والشعوب والتضامن بين الأغنياء والفقراء، بين أولئك الذين يملكون المعرفة والإعلام والآخرين، بين الأصحّاء والمرضى، وبين الأجيال ومسؤولية القادة حيال المواطنين، والشركات حيال العاملين، والأجيال الحاضرة حيال أجيال المستقبل. وأخيرا مشاركة جميع الحكومات، في البلدان الصغيرة كما في الكبيرة، ولكن أيضا البرلمانات والتجمعات المحلية والمجتمع المدني خاصة المنظمات غير الحكومية - والمؤسسات. هذه المبادئ الأربعة التي تمثل صميم عمل الأمم المتحدة عليها أن تؤدي إلى تجهيز العالم بمعايير مشتركة يتم قبولها واحترامها كونيا.

مطلوب من المنظمة الدولية أن تكون فاعلة. وأية إجابة يمكن تقديمها على الوشاة بها وعلى أولئك الذين يعتبرونها عاجزة وغير مفيدة بل ومعيقة أفضل من أمثلة الأزمات التي يتم حلها والمدنيون

الذين جرى إنقاذهم والمناطق التي تتم مساعدتها من أجل إعادة بناء نفسها؟ ينبغي أن تتلقى منظمة الأمم المتحدة أقصى حد ممكن من الإمكانيات من أجل المساهمة في الوقاية من التهديدات التي ترمي بثقلها على السلام والأمن الدوليين ومعالجة هذه التهديدات. أما مجلس الأمن فهو بحاجة للتوسيع كي يكون تمثيله أفضل وتتعزز قوته نظرا للتطور الذي عرفه العالم منذ عام ١٩٤٥. ويمكن لمجالات وأشكال تدخل الأمم المتحدة عامة ومجلس الأمن خاصة أن تتطور أكثر في سبيل نضال أفضل ضد الإرهاب وانتشار الأسلحة النووية والأزمات الإقليمية، ولا سيما من خلال تعميق التفكير حول استراتيجيات الخروج من الأزمات.

إن تعددية الأطراف وحدها ستسمح للعالم بسد الثغرات وإعادة لحمة القطع المتناثرة ومنع ظهور تصدعات جديدة. إنها تشكل مبدأ وطريقة للعمل لا بد منهما من أجل حل الأزمات لأنها تساعد على تحقيق الوحدة الضرورية أكثر من أي وقت مضى من أجل مواجهة التحديات الشاملة.

وفي كل مرة تحركت فيها المجموعة الدولية بموقف منسق توصلت إلى تحقيق غاياتها. فلنتأمل بعملية تفكيك المنشآت النووية وإزالة المخزونات الكيميائية والنووية للاتحاد السوفييتي السابق؛ ذلك أن

الدول، بإدراكها المشكلة التي تطرحها الترسانة السوفييتية، تبنت إستراتيجية موحدة من أجل الانتهاء من مثل هذه التهديدات. إن قيام الشراكة العالمية ضد انتشار أسلحة الدمار الشامل، التي بادرت بها مجموعة الدول الثماني المصنعة، قدمت نموذجا عن مدى تصميم الجماعة الدولية وفعاليتها عندما تتفق على هدف يراد تحقيقه. من جهة أخرى من يمكنه أن يدحض واقع كون مكافحة تجارة المخدرات عرضة للإخفاق إذا لم يتوافر تعاون وثيق بين جميع الدول؟ لا يمكن في الواقع عزل المشاكل الاقتصادية والاجتماعية لبلد ما - أفغانستان أو كولومبيا مثلا - عن المصالح السياسية المختلفة كما تدل الصلة الوثيقة بين أفراد العصابات ورجال السياسة وتجار المخدرات في أمريكا اللاتينية. إن درب المخدرات متعرج جدا، ولا يمكن لأي بلد وحده أن يراقبه.

إن إعطاء الأولوية للقانون لا يعني الإقرار بالضعف والعجز. إنه متطلب أخلاقي وسياسي وشرط العدالة والفعالية اللتين لا يمكن دونهما ضمان أي أمن دائم. وعلى العكس، إذا استمرت رؤية النظام الدولي على أنه ظالم، وإذا انتصرت القوة دائما على القانون، وإذا لم يتم أخذ رأي الشعوب بالحسبان، فإن عوامل الفوضى ستتعزز وستتابع لعبة القوة بلا فائدة، كذلك ستتطور عملية استغلال العداء الإيديولوجي حيال الديمقراطيات الغربية.

عالمنا

ليس أمامنا خيار. فأكبر خطأ يمكن أن نقترفه هو الانتظار والتردد وإرجاء الإصلاحات الكبرى في النظام الدولي والترقُّب الذي لا طائل منه لأن تستعيد الدول هوامش مناورتها. فهل ستعرف الإنسانية اقتناص الفرصة المتاحة أمامها أم أنها سوف تستمر بعناد في ولوج طريق مسدود؟ بإمكاننا اليوم أن نقرر المستقبل الذي نريد بناءه وعلى أية مبادئ وحسب أية قيم ومن أجل تحقيق أي هدف.

كان الفيلسوف الألماني هيغل قد تحدث في خاتمة كتابه "مبادئ فلسفة القانون" عن "التاريخ العالمي" وميّز بين أربعة عوالم تتعاقب كأربعة صور للعقل على مسار حريته وهي: العالم الشرقي والعالم اليوناني والعالم الروماني والعالم الجرماني كمحطة أخيرة ونهاية للتاريخ. إن عوالم هيغل تتعاقب في الزمن؛ والعوالم التي تسكن كوننا تتقارب في نفس الإطار الزمني بحيث أن التاريخ يستمر وكأنه عملية تأريخ لعلاقاتها ولمجابهاتها ولمقاومتها ولأشكال جذبها المتبادلة مع كل مواكب انحرافاتها.

وإذ ولّى زمن الاكتشافات الجغرافية منذ فترة طويلة، انفتح زمن الاضطرابات الكونية الكبرى. وبأقل من عقدين عرفت الجغرافية البشرية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية من التبدلات أكثر مما

عرفته خلال قرون عديدة. إن المستقبل لم يعد يتحدد اليوم في لندن أو برلين أو باريس أو نيويورك. ولم يعد الغرب هو المعلم الوحيد. كما أن البلدان الصاعدة حديثا ليست مجرد قوى اقتصادية تجد ما يلبي حاجتها في قبولها كأحد الكبار في السوق الدولية. إنها تريد أن يكون لها صوتها الخاص ووجهات نظرها المختلفة. ثم إن الدول التي تدخل اليوم إلى مسرح العالم لا تنوي إظهار أي ولاء حيال القوى التقليدية. وذلك على قاعدة إدراكها للسرعة التي تتطور بها موازين القوى. وبواسطة ثورة امتلاك مفاتيح القوة، انطلقت شعوب هذه المناطق الواقعة على حدود عالم بين عصرين في مجال متعدد الأقطاب، ولا سيما أنها كانت غالبا في منزلة الشهود الأكثر حذاقة لتلك الثورة. إن دوارة رياح جديدة ترتسم في الأفق وتحجب مفهومنا القديم.

ففي الشرق الأقصى، وفي طرف ذلك المجموع الأورو. آسيوي الشاسع، تشكل الصين موضوعا لمختلف الشائعات والتهويمات. فأي نموذج من القوة ستجسده في ذروة القرن الذي يبدأ؟ هل قوة كبيرة تقليدية تعتمد على وزنها الاقتصادي أو التكنولوجي أو العسكري؟ أم نموذج خاص، لا يزال يتكون ويغترف من ينابيع أخرى غير ينابيع العالم الغربي؟ ينبغي على الصين أن تتعامل في آسيا مع عملاق آخر هو الهند، البلد الثاني من حيث عدد السكان في العالم ، الذي يستند نموّه الاقتصادي الحيوي جدا على استقرار مالي هائل. ومثل الصين،

تريد الهند أن يتواكب هذا الازدهار الاقتصادي مع دور سياسي حقيقي دولي. إن شاغل الاستقلال يترسخ في تاريخ البلاد الذي تجسده شخصيات مثل المهاتما غاندي ونهرو. كما أظهرت الهند أنها تريد التحكم بمصيرها في قلب عولمة تتعاظم مشاركتها فيها. إن الهند ستجد مكانها في محيط أكثر استقرارا، وهي الواقعة عند نهاية قوس الأزمات الرئيسي الذي يخترق آسيا. وبالنسبة لها كما بالنسبة للدول الصاعدة الأخرى، لن يكون هناك أمن وازدهار دون تعاون إقليمي ودولي. إن جنوب إفريقيا والبرازيل تستعدان أيضا كي تكونا قطبين للنمو الاقتصادي والاستقرار. إنهما تنويان تأكيد هويتهما. وهناك أيضا العديد من البلدان الواقعة على مفترق الطرق بين التأكيد المتعالي والمنعزل لإرادة القوة لديها وبين الاندماج في محيط تسوده الطمأنينة. وبين هاتين الإمكانيتين، تتمثل مسؤوليتنا في إعطاء الأولوية لسبيل التعاون.

إن بروز قوى فاعلة جديدة على المسرح الدولي يحتوي، مثل الولادة، على مخاطر وتساؤلات عديدة مرتبطة بحالات اهتزاز اليقين السياسية المستجدة. فحسب أي إيقاع سوف تسير الصين نحو ليبرالية نظامها السياسي ونحو الاحترام الحقيقي لحقوق الإنسان؟ وهل تنوي الهند أن تشارك في التنظيم الإقليمي لجنوب آسيا أم ستسلك طريق الهيمنة؟ إن أفضل إجابة على هذين السؤالين هي في

العمل والمسؤولية الجماعيين. فليس هناك ما هو أسوأ من تفتيت المنظومة الدولية. ينبغي أن تكون هناك هيئة دولية قادرة على دفع شعوب العالم وبلدانه ومناطقه للعيش المشترك. هذا ولا سيما أن مخاطر التصادم تتردد أكثر فأكثر بين النُّوى - جمع نواة - المختلفة التي تشكل جغرافية العالم الجديدة. المطلوب هو تجميعها حول هيكلية عالمية حقيقية. وهناك مسؤولية خاصة تقع على عاتق القوى القديمة مثل أوروبا والولايات المتحدة التي عرفت نفس إرادة تأكيد الذات والإشعاع وعاشت نفس الإغراءات القومية وميول الهيمنة، وبالتالي تعرف جيدا انحرافاتها. فهل يمكننا أن نثق أيضا بنظام دولي قائم على توازن القوى؟ وهل نتصور قيام حرب جديدة لمائة سنة على الصعيد الكوني، وهل نريد أن تؤدي منافسات كتلك التي مزقت أوروبا إلى إغراق العالم في المواجهات والأزمات لقرون أيضا؟ وحده التوصل إلى ديمقراطية عالمية حقيقية، سيؤمن السلام والتضامن.

الفصل السابع

الحلم الأوروبي

الفصل السابع

الحـلم الأوروبـي

أوروبا هي حلمنا وطموحنا الجديد. إنه غريب مشهد أوروبا هذه التي تعاني من الريبة والشك بكل شيء وبنفسها أوّلاً. وبدلا من تأكيد صوتها المستقل تركت نفسها فريسة للانقسام مترصدة عودة النمو إلى أرجائها. فهل يمكن ضمن هذه الظروف التحدث عن طموح مشترك؟ إن الحلم الأوروبي يبدو للوهلة الأولى ضربا من الطوباوية- اليوتوبيا. فطيلة الأزمة العراقية بدت أوروبا وكأنها توليفة من الأمم، بل استيقظت فيها شياطين المجابهات الإعلامية عبر جمل صغيرة أو تصريحات أو آراء منشورة متخلية بذلك عن الرسالة التي كان العالم ينتظرها منها. إن أحداثا كثيرة قد تداخلت وخاصة توسيع الاتحاد الأوروبي، هذا التحدي الرائع لأوروبا كلها؛ وأزمة دبلوماسية لا سابق لها؛ وتزايد الخطر الإرهابي مع ما يبعثه من قلق. إن البحث عن دور (لكل جهة) كان له الأولوية على التفكير والتنسيق.

واليوم أمامنا فرصة فريدة من أجل العودة من جديد إلى طريق الوفاء والجسارة. وعلينا أن لا ننسى أن هذه المغامرة قد بدأت غداة

الحرب العالمية الثانية للوقاية من خطر وقوع مجابهات جديدة بين دول القارة. وليس محض صدفة أن يكون البناء الأوروبي قد بدأ بتقارب الصناعات الفرنسية والألمانية للفحم والحديد، هاتين المادتين الإستراتيجيتين في حالة وقوع نزاع. وليس مصادفة أيضا أن تكون ألمانيا وفرنسا قد تبنّتا قبل الآخرين خيار المصالحة. إن مشروع الآباء المؤسسين كله يرمي إلى تحويل خمائر المعارضة إلى قوى للسلام.

ولتحقيق ذلك جعلوا من احترام القانون لبنة أساسية في صميم مسيرتهم. فهذا وحده يمكن أن يضمن عمليات تحكيم عادلة. ووحده فقط يسمح بتجنب الانشقاقات ويقصي نهائيا العودة إلى الحروب التي خرّبت الأرض الأوروبية خلال قرون عديدة. إن دعامة أوروبا لا تكمن في جغرافيتها المعقدة التي هي مصدر الكثير من المنازعات، وإنما في خيارها الثوري بتبني قانون الحرية والمساواة والعدالة الذي يتجاوز السيادات الوطنية ولا يمكن لأحد التشكيك فيه. إن هذه القاعدة تصطدم غالبا بتردد الدول الأعضاء التي تريد المحافظة على مصالحها والتي لا يروقها التخلي عن جزء من سيادتها. لا يمكن إزالة قرون من التاريخ بجرّة قلم. لكن يرتسم شيئا فشيئا الطريق نحو هوية مشتركة تحترم الاختلافات.

كم هي كبيرة المسافة التي تم قطعها منذ الاختلاجات الأولى لما بعد الحرب حتى اليوم! علينا أن نعرف كيف نظل أوفياء لطموحنا

الأول، وأن نتحدى التاريخ وأحقاده وحسراته ونقلب صفحة جديدة من أجل البشر ودون الركون أبدا إلى ما تمّ تحقيقه. فهل ينبغي أخذ استراحة بعد توسيع الاتحاد وإقرار الدستور الأوروبي؟ إن الوقوف قد يعني خيانة جوهر أوروبا نفسه والتي لا يمكن النظر إليها كتجمع سياسي شل التجمعات السياسية الأخرى. لكن عليها اليوم أكثر من أي يوم مضى أن تستعيد حيويتها وإرادتها. إن رسالة أثينا وروما وباريس ووارسو وبرلين تذكّرنا بان الديمقراطية قد ترعرعت فوق أرضنا وينبغي أن نتقاسمها اليوم جميعا.

طريق متفرّدة

ما هي أوروبا؟ إن حدودها لا تزال موضع خلاف. فأي مكان بالنسبة لتركيا التي تقوم بجهود هامة من أجل التقارب من نموذجنا - موديلنا- المشترك ومن أجل القيام بالإصلاحات الضرورية؛ مما يستحق اعترافنا بذلك؟ وأي مكان لبلدان الغرب أو لروسيا التي تشكل الحدود الشرقية لـ"أوروبا من الأطلسي إلى الأورال" كما عرّفها الجنرال ديغول؟ وكيف يمكن الجمع بين دول ذات تقاليد تؤكد على المركزية مثل فرنسا وبلدان أخرى تتسم بنزوع قوي نحو الاستقلال الذاتي الإقليمي كإسبانيا أو أيضا كبلدان تقول بانتمائها إلى نموذج فيدرالي مثل ألمانيا؟

وكيف يمكن المقارنة في ميدان الحماية الاجتماعية بين أوروبا داخل القارة التي تبقى وفيّة كثيرا للنموذج البسماركي الذي تتحمل فيه الدولة مسؤولية التضامن وبين المملكة المتحدة حيث لا تقدم الدولة سوى جزءٍ يسيرٍ جدا من الحماية؟ وكيف يمكن تجاوز التعارض بين جنوب أوروبا ذات الانتماء الكاثوليكي وشمال أوروبا ذات التطلع الكالفيني[١٣٥].

إن أوروبا تتقدم، مع ذلك. فمن يستطيع أن ينفي ما تم إنجازه خلال نصف قرن؟ إن تقاسم السيادة النقدية لدول منطقة اليورو يشكل رمزا كبيرا لذلك كما أنه عامل قوة بنفس الوقت. ويساهم بناء أوروبا الاقتصادية شيئا فشيئا في تحويل بنى الدول الأعضاء نفسها ؛ وبهذا تعود ليبرالية الاقتصاد الفرنسي، بدرجة كبيرة، إلى المتطلب الأوروبي.

لكن الأنظار والطاقات تتلفت اليوم صوب أوروبا الذهنيات والهويات والمشاريع؛ أوروبا التي تشكل نقطة الانطلاق نحو أوروبا أخرى. مع ذلك، من الصعوبة بمكان توصيف ما يقرّب بين أمم القارة القديمة! هل الأمر يتعلق بمجرد تاريخ وإرث وثقافة وتراث فني أو أيضا بذاكرة أو جراح مشتركة؟ إن التفكير بأوروبا يدلّ على نفس الطريقة برؤية العالم وفهمه والمشاركة في نفس الهموم.

إن أوروبا لم تستيقظ سياسيا بشكل كامل على وعي واقعها؛ رغم تقاسمها نفس الجوهر. ولأوروبا روح يونانية مع أنها تجد في روما الآثار الأكثر بروزا في إرثها. إنها لا تميل نحو الفتح بجوهرها ويمكن لمغزاها أن يتلخص عبر مضمون الجملة الشهيرة لبروتاغوراس القائلة بأن "الإنسان هو مقياس كل شيء".

لا شيء يمكن أن يفسر أوروبا أفضل من تلك الكيمياء القديمة القابعة في بوتقة التاريخ. إن هذا الإرث، وبعيدا عن أن يكون مجرد تركة من الماضي، لا يزال يعيش فينا من خلال الصدامات والأهواء التي نضجت على مدى قرون. فهل بقيت أوروبا وفية لهويتها عبر الانكفاء داخل يقينياتها، وهي التي تبتغي إعادة تفحصها دون توقف؟ إن أوروبا تمور في حركة جدل متجدد باستمرار بين الوفاء لروح الينابيع الأولى وبين طرح التساؤلات.

لقد عرفت قارتنا الغزوات والمذابح والنزاعات بين الشعوب والحروب الأهلية وحروب الدين والتقسيم وإعادة تشكيل الحدود والعنف والانقسامات. واجتازت القرون وهي تخلط بين أشكال من عدم الفهم المتبادل والعداء والتحالف والحقد والقبول. ومنذ نصف قرن عرفت أيضا كيف تجد سبيل المصالحة، وبعيدا عن أي ميل للمجابهة بنت أوروبا بصبر وأناة شروط وحدتها؟ ورسّخت مجموعا

منسجما تتخلله مع ذلك بعض الثغرات العميقة. وبرجوعها المؤلم لتاريخها عرفت كيف ترسي أسس بناء سياسي جديد دون خشية الإفصاح عن قيمها المشتركة وعن المبادئ الأخلاقية التي تريد أن تلتف حولها.

إن المكانة الموكولة للدولة تشكل أول هذه القيم المشتركة. الأوروبيون يولون ثقة أكبر من السوق لضمان إعادة توزيع اجتماعي عادل وتقليص بعض أشكال اللامساواة. وهم يعتمدون أيضا على الدولة من أجل تأمين المهمات الأساسية الخاصة بالدفاع أو الشرطة أو الشؤون الخارجية أو العدالة. إن المكانة التي تم ادخارها لها تتعلق حكما بالذاكرة التاريخية لكل بلد؛ وهي هامة في حالة فرنسا التي حققت وحدتها شيئا فشيئا على حساب الإقطاعيات المختلفة؛ لكنها ضعيفة جدا في بلدان حققت وحدتها منذ فترة قريبة والتي ألفت الاستقلال الذاتي لمناطقها مثل إيطاليا أو ألمانيا. إنها تترجم مع ذلك نفس الميل للأمن والاستقرار ونفس التعلق بالتوازن بين مختلف مكونات المجتمع ونفس حس التحكيم من قبل سلطة سيادية وغير منحازة.

القيمة الثانية المميزة لأوروبا هي المرجعية النقدية لدور العقل. إنها مرجعية لأن قرن التنوير عرف كيف يبرز أهمية العقل في آلية حكم البشر وفي فهم صيرورة الشعوب؛ وهي نقدية لأن التجربة الأوروبية

تعتمد على وعي المخاطر المرتبطة بالاعتقاد الأعمى في مزايا التقنية والتقدم. العقل الأوروبي يسترشد بجدل ـ ديالكتيك ـ العقل. وما يتوصل إلى تأكيده عبر مسلكيته المنهجية يضعه مباشرة على محك الشك والتناقض. ويطرح تساؤلاته حول الحقيقة المؤقتة كي يكتشف فيها حقيقة أخرى أكثر صلابة. إن التقاليد الديالكتيكية للفلسفة الألمانية والعقل النقدي الإيطالي أو الفرنسي، وحتى النزعة التجريبية لدى المفكرين البريطانيين تصدر عن نفس الحركة المتأرجحة بين اليقين والشك والتي تستقريء النتيجة التي توصل لها العقل ثم قد تخضعها حالا للمساءلة من أجل الخروج بحقيقة أكثر ثباتا.

القيمة الثالثة بين القيم الأوروبية هي القدرة على دمج الاختلافات والتعارضات من أجل إذابتها في أساس مشترك. ولم يحقق أي نموذج - موديل - الغلبة على آخر فيما يتعلق بالفصل بين ما هو دنيوي وما هو ديني وبتنيظم الدولة وبمكانة المجتمع المدني في تسيير الحكومة وبالمنافسة بين العلم والإيمان. لكن المواجهة بين مختلف النماذج سمحت بالبروز التدريجي لقواعد مشتركة متكيفة مع الخصوصيات ومع ذاكرة كل شعب. هذه القيمة تمثل ورقة رابحة بالنسبة لقارتنا على المسرح الدولي، ففي عالم أصبح التبادل هو القاعدة فيه والتنوع هوحقيقة نصادفها كل يوم يغدو الانفتاح على الآخر عاملا مشجعا لفهم الحضارات الأخرى وتقبلها. هنا تكمن في آخر المطاف ثروتنا

الأساسية، في هذه الجاهزية المستمرة لتقبل المواريث الأخرى. إن أوروبا التي قال بها أصحاب النزعات الإنسانية في عصر النهضة أو فلاسفة التنوير أو الفلسفة اليونانية أو الرومانية أو المسيحية أو السلتية[١٣٦]، إنما تشكل توليفا جرت صياغته في حضن الألم والتمزق. توليف صلب لاسيما وأنه يتغذى باستمرار من مساهمات جديدة.

أوروبا في العالم

أثار سقوط جدار برلين موجة من الأمل لا سابق لها في قارتنا. فخلال عدة أشهر فقط نالت شعوب حريتها بعد أن كانت معزولة وراء الستار الحديدي. وغدت الحدود المحكمة الإغلاق سابقا إلى درجة عدم إمكانية النفاذ منها، بمثابة صلات وصل بين الشعوب. والتأم شمل عائلات كان محكوماً عليها بالانقسام. لقد سقطت الدكتاتوريات وترسخت الديمقراطية، وغدت وحدة القارة الأوروبية في متناول اليد بعد أن كانت متشظية لفترة طويلة. وعادت إلى الذاكرة الروابط التاريخية بين بلدان الغرب وبلدان الشرق، وبدا أن الصداقة بين الشعوب ستذلل جميع الصعوبات التي سيستجد الكثير منها من خلال التلاقي بين بلدان ديمقراطية متطورة وبلدان مجاورة لها ضعيفة اقتصاديا ومضغوطة سياسيا طيلة نصف قرن من الدكتاتورية الشيوعية.

إن حالة الحماسة التي أثارتها أوروبا الجديدة هذه لم تلق دائما نفس الصدى المنتظر في بلداننا المتعودة على السلام والازدهار، وعلى قاعدة هذا التعود حتى الملل على نصف قرن من الديمقراطية الأوروبية سوف يساء تقدير الأهمية البالغة لحدث المصالحة، بل لإحدى معجزات التاريخ التي كانت تغذي الأمل لدى أجيال كاملة من المعارضين الذين ناضلوا خلف الستار الحديدي. لكن الغبطة التي عرفتها الديمقراطيات الفتية لم تمر دون تخوف. لقد أدركت بسرعة أن اندماجها داخل الاتحاد الأوروبي سيحتاج إلى زمن طويل، وسيكون المسار مزروعا بالكد والعقبات. كما خشيت الدول الأعضاء من أن يكون للتباينات في مجال التنمية الاقتصادية آثار سيئة على النمو وفرص العمل. وقد لا يمثل الانفتاح على بلدان الكتلة السوفييتية السابقة أولوية بالنسبة للرأي العام المتردد والحذر أحيانا بل خيم نوع من القلق المتبادل لدى شعوب مدعوة، مع ذلك، لاقتسام نفس المصير. ثم زادت حدة عدم الفهم بسبب كيفية إدارة المفاوضات الخاصة بالانضمام للاتحاد مع متطلباته التقنية ومعاييره وتقارير تقييم الوضع. هكذا تم "السقوط" من حالة الحماسة السياسية للتوحيد الأوروبي إلى واقع القسوة التكنوقراطية لشروط التوسيع.

إن إجراءات الوقاية المتبادلة ستحتاج إلى زمن كي تتبدد، ففي الغرب، يثير الثمن الاقتصادي للتوسيع قلقاً ويخشى على فعالية أوروبا

التي تتسع وتتسع دون اتخاذ الإجراءات الضرورية كما ينبغي. إن قائمة البلدان المرشحة تسمح باستشفاف أوروبا تضم عددا أكبر من البلدان ولكن أيضا ذات هوية أكثر هشاشة، أي ما يمكن أن يؤدي إلى خسارة في الجوهر وفي العمق ما كان قد تم كسبه في الاتساع. وأنصار نزعة السيادة وجدوا في خطر التميّع حجّة إعلامية يمكنها أن تنعش خطابا أفرغه نجاح الاتحاد من الكثير من مصداقيته. لكنه بمثابة صدى لأشكال الخوف وإغراءات الانكفاء على الذات التي يعيشها عدد كبير من المواطنين.

في الشرق، ليست مخاوف البلدان الأعضاء الجدد أقل استشراءً؛ إذ هل ستستفيد من نفس المساعدات التي حظيت بها البلدان التي سبقتها؟ وهل سيتحمل اقتصادها صدمة الاندماج؟ وهل ستتمكن من الدفاع عن هويتها الوطنية الفتية في إطار المجموع الأوروبي الشاسع؟ ثم ماهي الحقيقة السياسية لهذا المجموع؟ وما هي الإجابات التي يمكن أن يقدمها على التحديات الكبرى للأمن في زماننا؟ وأية مصداقية يمكن إعطاؤها للجهود الرامية إلى بناء سياسة أوروبية للأمن وللدفاع المستقل ذاتيا؟ وأي موقع سيتم الاحتفاظ به لروسيا؟ أسئلة مشروعة كثيرة تتطلب أجوبة مترابطة الحجج وملموسة.

إن الطريقة التي تصرفت بها دول الكتلة الشيوعية السابقة حيال مسألة الانضمام إلى الحلف الأطلسي تبيّن مدى الأهمية التي تعلقها

على ضمان الأمن أمريكيا. لكن ينبغي الرجوع إلى ما هو أبعد من أجل فهم جذور هذا التعلق؛ إذ بالنسبة للكثير من بلدان أوروبا الشرقية تمثل الولايات المتحدة نموذجا على صعيد الاستقلال والتحرر السياسي. ثم إن مرجعية النظام الليبرالي والتاريخ الأمريكي حجبت الآثار التي خلفتها الثورة الفرنسية أو ترتبت على ربيع الشعوب، كما أن حركات الهجرة من أوروبا الشرقية نحو الولايات المتحدة الأمريكية ما بين سنوات ١٨٨٠ وحتى سنوات الثلاثينات الماضية ثبتت فكرة وجود أرض موعودة أخرى غير أوروبا. ثم جاءت التقسيمات الحدودية والتجارب السياسية لتفاقم من هذه الفكرة، إذ حتى مع عودة هذه البلدان إلى الأسرة الأوروبية فإن المنافسة حول مفهوم النموذج المثالي تظل قائمة وحيّة لديها.

مع ذلك لم تعد أوروبا بالنسبة لبلدان الشرق أملا ورؤيا طوباوية وإنما أصبحت أُسرتها السياسية. إن مستقبلها ومصيرها يتحددان أولا داخل هذه الحدود الجديدة. علينا جميعا أن نحافظ على طموح الوحدة الذي أنضجناه منذ فترة طويلة؛ ولا يمكن لهذا المشروع أن يتجاهل محيطنا المباشر ابتداء من جارنا الشرقي، روسيا التي يشكل الاتحاد الأوروبي اليوم شريكها التجاري الرئيسي. بالإضافة لهذه الرهانات الاقتصادية هناك واقع جغرافي يجعل من روسيا "الغريب القريب" من الاتحاد الأوروبي. فمصالحنا الأمنية تترابط أكثر فأكثر

فيما يتعلق بالإرهاب أو بالأزمات الإقليمية أو انتشار أسلحة الدمار الشامل. وموسكو لم تعد مجرد "مدينة الألف وثلاثة كنائس ومحطات القطار السبعة" التي كان يحلم بها ساندراس وإنما عاصمة مجاورة لها علاقة مباشرة مع الحياة في القارة الأوروبية.

إن القارة القديمة تلتفت كذلك صوب البحر الأبيض المتوسط وقد أشار صلاح ستيتيه - الشاعر اللبناني - بأن "أوروبا ستتم صياغتها أيضا من قبل الجنوب". لقد غرفت من هذا الجنوب جزءاً هاما من ثروتها على مر العصور. هذه المبادلات بين ضفتي "بحرنا" تستمر اليوم. فمصيراهما مرتبطان. وعلينا أن لا ننسى أن اسم أوروبا هو اسم أميرة شابة من مدينة صور في زمن الفينيقيين كان "زيوس" قد خطفها. ووفاؤنا اليوم لهذا الأصل الأسطوري يمر عبر إدراك الدور الخاص لأوروبا حيال بلدان جنوب البحر الأبيض المتوسط. إننا نريد أن نترجم في الواقع الأحلام التي كانت شعوبنا قد حملتها منذ قرون في قلبها. والقرب الجغرافي بين أوروبا والمتوسط يشكل واقعا جغرافيا بالنسبة لقسم من الدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي. بالنسبة لقسم فقط ولا يعني الاتحاد بمجموعه إلا عبر شبكة المراسلات والحكايات والأسفار والأساطير التي سقت ثقافتنا منذ قرون. هكذا يبدو القرب أولاً نتيجة لإرادة ثقافية وسياسية تعطي أوروبا بنفس الوقت عمقا تاريخيا استثنائيا وقدرة على الانطلاق نحو المستقبل.

على هذه الأرضية الملائمة رسّخ الاتحاد الأوروبي علاقات مستديمة بين بلدان ضفتي البحر الأبيض المتوسط. كان الخيار الأولي منسوخا عن خيار البناء الأوروبي أي الاهتمام بالاقتصاد. فمنذ سنوات الخمسينات حتى سنوات السبعينات زادت المجموعة الاقتصادية الأوروبية من اتفاقيات الشراكة الاقتصادية مع بلدان حوض المتوسط. هذه الاتفاقيات قد ينقصها أحيانا الطموح والاتساع لكنها تشكل نواة صلبة للمبادلات التي يؤمن انتظامها وتناسقها مصداقية بناء الاتحاد الأوروبي لدى الدول المجاورة للبحر المتوسط. ثم انطلاقا من التسعينات تغيّر في العمق مفهوم المجال المتوسطي في أوروبا. فالبلدان المجاورة التي تمّ النظر إليها طويلا على أنهامجالات ممكنة للمبادلات الاقتصادية ظهر فجأة أنها مصدر تهديد بالنسبة لأمن الاتحاد الأوروبي. إن الأزمة العراقية ومخاطر انتشار الأسلحة النووية في المنطقة واستمرار حدة التوتر، كلّها ساهمت في إعادة تقييم سريعة للرهانات، وأصبح الأمر الأساسي هو السيطرة على المحيط الإستراتيجي المتوسطي. فبعد سقوط جدار برلين ومع غياب أي نظام شامل للأمن كان ينبغي تقديم ضمانات للاستقرار والأمن في هذه المنطقة. هذا الطموح، الذي يتجاوز المشروع الأوروبي الأولي، يستجيب لحاجة قديمة موجودة في عموم حوض البحر المتوسط وتتمثل في زيادة المبادلات وتعزيز الروابط مما يخفف من المنافسات.

إن البحر المتوسط هو حصيلة تلك القوارب المحملة بالبضائع التي تقصد مرافئ الإسكندرية والبندقية وجنوة؛ والمتطلبات وأشكال الضغط العسكري والتهديدات التي تتعرض لها الجمهوريات المستقلة. إن الشراكة الأوروبية-المتوسطية التي انطلقت في بيان برشلونة ترسخ وحدة المصير بين ضفتي المتوسط.

فكيف يمكن لأوروبا، الثرية بالأيدي الممدودة، أن تتخلّى عن تطلعها العالمي؟ البعض يريدون اختزالها إلى مجرد سوق داخلي كبير واعتبارها غير قادرة على التحكم بمصيرها السياسي أو على ممارسة أي تأثير إستراتيجي في العالم. ذلك أنها لا تمتلك إمكانيات لعب دور رئيسي على المسرح الدولي، ولا تمتلك خاصة الإرادة. هذه النظرية ترى في ضعف الأداة العسكرية لأوروبا برهانا على تخليها عن القوة. وذلك نتيجة لتضافر عوامل تاريخية هامة تمثلت في جرح الحرب العالمية الأولى الدامي، ورضة مذابح الإبادة، وحركة نهاية الاستعمار بعد الحرب العالمية الثانية، والتبعية التي ظهرت أعراضها مع الحرب الباردة والدخول في الحقبة النووية. وبالتالي إن أوروبا، كمجموع مسالم يرفض استخدام القوة ومتطلبات الميزانية المترتبة على ذلك، قد تتعارض مع الولايات المتحدة المستعدة في كل مناسبة لتحمل مسؤولياتها كقوة كبرى.

هذه رؤية تجاوزها الزمن. وإنه لمن الدقيق القول بأن قارتنا قد عاشت خلال خمسين سنة تقريبا في كنف القناعة المريحة بضمان أمنها الذي كان يوفره الحلف الأطلسي والقواعد الأمريكية الموزعة فوق الأرض الأوروبية. وسوف يكون هناك من يذكّر بأن مبادرات الاستقلال - عن أمريكا - التي اتخذها الجنرال ديغول والمستشار الألماني ويلي برانت، قد تعرضت للنقد كثيرا وتم النظر إليها كدليل على نكران جميل الولايات المتحدة. لكن أوروبا تخلصت من أغلال الحرب الباردة. هذا الإدراك اجتاح القارة كلها خلال السنوات التي قذفت بنا إلى عصر جديد ، ما بين سقوط جدار برلين وبداية حرب البلقان».

إننا اليوم ندرك أكثر فأكثر ضرورة وجود أوروبا قوية على الصعيد العسكري والدبلوماسي. وأوروبا التي يطيب لها أن ترفل في ضعفها وعجزها، دون أن تمتنع مع ذلك عن إعطاء الدروس، لا تتناظر بكل بساطة مع الواقع. ثم إن الدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي ليست تلك المسالمة بعناد والمعادية بإصرار لزيادة ميزانيتها الدفاعية. بالتأكيد لا يشترك الجميع بالجهود التي ينبغي أن تشمل الدول الأعضاء الأخرى، لكنها دليل على وعي تدريجي لضرورة متابعتها ولفتح نقاش حقيقي حول زيادة النفقات العسكرية لبلدان الاتحاد.

ومن جهة أخرى، لا يكف هذا الاتحاد عن إظهار جاهزية أكثر للقيام بعمليات المحافظة على السلام أو لإعادة فرض النظام خارج حدوده. هكذا في عام ١٩٩٥، قامت البلدان الأوروبية، وفي مقدمتها فرنسا، بإقناع الولايات المتحدة المترددة في البداية للتدخل في البلقان بعد المذابح في برينيسكا. وفي إفريقيا أيضا، فضلا عن المشاركة الفرنسية في ساحل العاج أو المشاركة البريطانية في سيراليون، فإن الاتحاد الأوروبي يبدي استعداده لتولّي مسؤولياته؛ فالقيام بعملية "ارتيميس" في جمهورية الكونغو الديمقراطية، في اتوري، دليل التصميم على المشاركة في فرض النظام بالمناطق التي يمارس فيها العنف خاصة ضد السكان المدنيين.

كذلك تكشف أن النظرية التي تجعل من الولايات المتحدة قوة تحولت بشكل كامل نحو القوة هي نظرية كاريكاتورية. فخلال التاريخ القريب كان اللجوء إلى استخدام القوة موضوع نقاشات حامية ومكثفة داخل المجتمع الأمريكي. إن الانسحاب من فيتنام ومبدأ وزير الدفاع واينبرغ المطالب بدعم السكان قبل اتخاذ أي قرار بإرسال قوات إلى مسرح عمليات خارجي، والفشل الصومالي، والتردد في دعم تدخل عسكري في البوسنة إنما هي شواهد تكشف كلها تردد أمريكا في التورط بعمليات عسكرية واسعة. كلا، إن الولايات المتحدة ليست من بين تلك الدول التي تدعو دون توقف للجوء إلى القوة حسبما يريد

المحافظون الجدد الأمريكيون. كلاّ، أوروبا ليست ذلك "الموديل" المسالم المقابل الذي حلا للبعض أن يصفوه.

في مواجهة هذه الثنائية الحدّية -المانوية- التبسيطية والخاطئة ينبغي أن تتنصب حقيقة الوقائع. إن الرؤية الأوروبية للعالم ولموقع قارتنا فيه بحاجة إلى التغيير. لقد فهمت أوروبا بأنه ينبغي عليها أن تأخذ مصيرها بيدها كي تضمن أمنها وكي تكون على مستوى الآمال المعقودة عليها. مع ذلك علينا أن نقيس حجم الصعوبات التي تقف في طريق الوصول إلى أوروبا قوية.

العقبة الأولى هي عدم كفاية الميزانية العسكرية الأوروبية بمقدار ما هي نقص فعاليتها؛ ذلك أن النتائج التي تحصل عليها البلدان الأوروبية في ميدان الدفاع هي غير كافية بالقياس إلى المبالغ المرصودة. والاستثمار في هذا الميدان يتم توزيعه على عدد كبير من القوى، بينما يتركز الاستثمار في الولايات المتحدة على الجيوش التي تتحرك وحداتها حسب خطط منسّقة تماما. بالتالي ينبغي على البلدان الأوروبية أن تبحث أولا بأول عن تجميع قواتها وتقدير التهديدات جماعيا وتحديد الاحتياجات والإجابة عليها بواسطة برامج مشتركة.

هناك عقبة ثانية تأتي من آلية القرار المعقدة التي تحكم تنظيم السلطات داخل الاتحاد الأوروبي. وطالما لم يتم تبسيط هذه الآلية،

ولم يتم إدخال قدر أكبر من الوضوح في طرق عمل المؤسسات؛ فإن أوروبا لن تتوصل إلى فرض نفسها كقوة فاعلة تماما على المسرح الدولي.

العقبة الأخيرة، والأكثر أهمية دون شك، تكمن في عدم قدرة الاتحاد على تأكيد طموحه الإستراتيجي، رغم تبنيه منذ فترة وجيزة مبدأ مشتركا للمرة الأولى في تاريخه. فكيف يمكن للمرء أن لا يندهش من عدم تجهيز الدول الأوروبية نفسها بسبل زيادة تأثيرها في طرائق إدارة سياسات العالم، على الرغم مما تملكه من إمكانيات كبيرة وخاصة عسكرية، ومن سلطة اقتصادية كبيرة ومن قيم تستحق الدفاع عنها ومن إشعاع ثقافي أكيد؟ وكيف لا تتم رؤية نتائج توسيع أوروبا الموحدة الذي يقرّبنا أكثر فأكثر من مناطق الأزمات الأكثر حساسية في العالم؟ وسيؤدي انضمام تركيا إلى أن يكون لأوروبا حدود مشتركة مع سوريا والعراق وإيران. لقد تم تحقيق بعض أشكال التقدم الخجولة، لكن هناك الكثير من التردد الذي يعيق تطوير هذه الجهود الأولى والكثير من إجراءات الحماية والقلق والخلافات بين الدول مما يكبح بروز أوروبا واثقة من نفسها وقادرة على القيام بجميع مسؤولياتها.

مع ذلك علينا أن نستجيب لمواطنينا الذين ينتظرون من الاتحاد الأوروبي نتائج ملموسة على صعيد الأمن. ولقد قدّر الرأي العام

التقدم الذي تمّ إحرازه في ميدان الدفاع منذ القمة الفرنسية- البريطانية في سان مالو عام ١٩٩٨ وأثناء مختلف اجتماعات المجالس الأوروبية التي حددت مهمات الاتحاد وعلاقاته مع الحلف الأطلسي وأهدافه على صعيد قدرة التدخل في مسارح عمليات خارجية. واليوم، حيث تتكاثر المخاطر، ينبغي على الدول الأعضاء أن تكون قادرة على تقديم إجابات ملائمة وإيجاد ميادين جديدة للتعاون. علينا أن نعي بأننا ننتمي إلى مجال أمني واحد.

ولم يعد هناك مكان لإعادة الصلة مع أحلام الإمبراطورية والهيمنة التي ألحقت الخسارة بقارتنا. إنما ينبغي على أوروبا ممارسة مسؤوليتها التي أعدّها لها وزنها الجغرافي والاقتصادي والثقافي. كما عليها أن توظف لخدمة العالم، تطلعها كي تكون أحد الأقطاب الرئيسية للسلام والاستقرار الشاملين. فمن يمكنه أن يصدّق بأن السياسة الأوروبية للأمن والدفاع يمكن أن تتحدد عبر اتخاذ مواقف ضد دولة أو ضد منظمة؟ ثم إن التقدم الذي تم تحقيقه، بكل أشكاله في هذا الميدان بالتعاون مع الحلف الأطلسي؛ بحيث كانت متممة لطموحات إصلاح هذا الحلف. إن العالم بحاجة أكثر من أي وقت، لعدة أقطاب للاستقرار. وعلى الاتحاد الأوروبي واجب التطلع إلى أن يكون أحد هذه الأقطاب.

إن هذا يطرح مقدما مسألة العلاقات بين أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية. ونحن نعلم أننا لن تستطيع الرد على التهديدات المعاصرة دون شراكة فاعلة ومخلصة بين ضفتي المحيط الأطلسي. ونعلم أن التفاهم الجيد بين أوروبا والولايات المتحدة مرهون كثيرا بالاستقرار الدولي. ونعلم أيضا أن قيمنا وقناعاتنا قريبة إلى الحد الذي يمكن معه تجاوز أي سوء فهم.

وأي تحليل متبصّر ينبغي أن يعتمد أولا على دروس التاريخ. فلنعد إلى ذاكرتنا المشتركة كي نستوضح سبل المستقبل. إن كلمة واحدة يمكنها أن تلخص مدى تعقيد وقوة الروابط بين فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية؛ إنها كلمة الاستقلال. الاستقلال الذي قاتلت من أجله فرنسا إلى جانب القوات الأمريكية تحت قيادة الجنرال "لافاييت"[١٣٧]. الاستقلال الذي عبرت عنه وثيقة استقلال الولايات المتحدة الموقعة عام ١٧٧٦ في فيلادلفيا والتي استلهمت محتواها من فلاسفة التنوير. الاستقلال الذي مثلته الشجاعة البطولية التي أبدتها القوات الأمريكية في عمليات الإنزال التي قامت بها عام ١٩١٧ ثم في النورماندي عام ١٩٤٤ من أجل تحرير فرنسا من الاحتلال الألماني. هذه الكلمة تشهد على ديمومة وعمق صلاتنا. إن الأصدقاء منذ فترة طويلة يمكنهم أن يسمحوا لأنفسهم بالبقاء متعاضدين رغم ما يفصل بينهم، ومجتمعين مع التمايز.

لكن الاستقلال أنعش مع ذلك الكثير من أشكال سوء التفاهم. فبتاريخ ٤ يوليو ١٩٦٢ اقترح الرئيس الأمريكي كندي على أوروبا تحالفا أطلسيا معززا يقوم على أساس شراكة بين أوروبا والولايات المتحدة. وجد هذا الاقتراح صدى إيجابيا لدى شركائنا الأوروبيين، لكن الجنرال شارل ديغول رفضه تماشيا مع السياسة التي دافع عنها منذ عودته إلى السلطة عام ١٩٥٨. كان منطق رئيس الدولة الفرنسية يعتمد على اعتبارات بسيطة. أولها أن شراكة ملموسة بين الولايات المتحدة وأوروبا سوف تعمل لصالح أمريكا بسبب الخلل في توازن القوة المتعاظم بين الشريكتين؛ وثانيها أن تطور الوضع الإستراتيجي الدولي سيؤدي بالضرورة إلى استقطاب ثنائي أكثر قوة مما يدفع بالأوروبيين إلى التخلي عن هامش مناورتهم والانحياز آليا للمواقف الأمريكية؛ وفي نهاية المطاف، سيؤدي هذا الانحياز بفرنسا وبقية البلدان الأوروبية إلى أن تجد نفسها داخلة في نزاعات بعيدة وغريبة عن الدفاع عن مصالحها في الأمن.

عندما رفض الجنرال ديغول ذلك الاقتراح شرع بتطوير إمكانيات الاستقلال الفرنسي وخاصة في الميدان العسكري. وكانت إرادة تزويدنا بسلاح نووي مستقل ذاتيا هي النتيجة الأكثر بروزا لذلك التوجه في سياق ممهور بالتنامي السريع للترسانات التكتيكية والإستراتيجية. كانت تلك الحركة تعني بوضوح تصميم بلادنا على

الإجابة دون تأخير على التهديد بهجوم قد يستهدف مصالحها الحيوية. نظرت السلطات الأمريكية بطريقة سلبية جدا لذلك وهي التي كانت قد اقترحت من جانبها أن يضافر الأوروبيون والأمريكيون جهودهم في قوة موحّدة تكون قيادتها بالطبع الولايات المتحدة.

كانت أمم أوروبية أخرى قد أقامت روابط وثيقة جدا مع الولايات المتحدة وإنما على أساس علاقة حماية أكثر من علاقة القبول بذهنية الاستقلال. هنا أيضا صيغت الروابط على خلفية التاريخ وذاكرة الشعوب ومآسي القرن العشرين. ففي مثالي ألمانيا والمملكة المتحدة، أقام البلدان علاقة متميزة ومتفردة مع واشنطن. فألمانيا تتذكر دائما بأن الولايات المتحدة قد لعبت دورا حاسما في الإطاحة بالنظام النازي وإيجاد الشروط لديمقراطية جديدة وإعطاء ضمانات الأمن ضد الاتحاد السوفييتي طيلة فترة الحرب الباردة. إن الرابطة الأطلسية تبدّت في ألمانيا كمطلب للأمن وشهادة على الاعتراف الأخلاقي بالفضل. لكن هذا الواقع لم يتسم بالجمود بل شهد تيارات متناقضة. أحد أقدم هذه التيارات وأكثرها قوة هو تيار أنصار السلم الذي عارض أية مغامرة عسكرية منذ أزمة الصواريخ الأوروبية وحتى حركة الاحتجاج على القواعد العسكرية الأمريكية في ألمانيا.

هناك تيار آخر يخفف من النزعة المسالمة الألمانية ويمس طبيعة العلاقة بين واشنطن وبرلين. فللمرة الأولى في تاريخها القريب تؤكد

ألمانيا نفسها قوةً سياسية قادرة على أن تدافع عن مواقفها بطريقة مستقلة ذاتيا وأن تستخدم إمكانياتها العسكرية لاكتساب كامل المصداقية. إنها لم تعد ذلك البلد الممنوع من إعادة تسليحه والإبقاء عليه حيث هو داخل الحلف الأطلسي. بل، على العكس، تستعد لتأخذ دورها كاملا في إعداد وتنفيذ نظام دولي جديد. هكذا بدأ العملاق الاقتصادي يحطم شيئا فشيئا قيوده السياسية لتتبدّل بشكل طبيعي مكانته في أوروبا وعلاقاته مع الولايات المتحدة الأمريكية.

أما بالنسبة للمملكة المتحدة فقد وجدت نفسها مرتبطة مع الولايات المتحدة بتاريخ يعود لقرون ويمتد حتى أصول الأمة الأمريكية ذاتها. هذه الذاكرة المشتركة وحدها هي التي تسمح بفهم الملاحظة الشهيرة التي أبداها تشرشل لديغول قبل أيام فقط من عمليات الإنزال البحري في النورماندي وجاء فيها: "ليكن بعلمكم، في كل مرة سيكون علينا الاختيار فيها، بين أوروبا والأفق الواسع - أي أمريكا- فإننا سوف نختار الأفق الواسع". مع ذلك يبقى الواقع أكثر تعقيدا حيث تتعدد الميول. إنها لا تشكك بالعلاقة المتميزة بين لندن وواشنطن، لكنها تحوّر من صيغها وجوهرها لأن المملكة المتحدة مالت نحو أوروبا. لكنها حافظت على تحفظاتها وإجراءاتها الحمائية ولم تنخرط تماما فيها، كما يبين قرارها بأن تبقى حاليا خارج منطقة اليورو. مع هذا أصبحت عضوا أساسيا في الاتحاد الأوروبي. إن السلطات البريطانية

تجد نفسها اليوم أمام خيار حاسم؛ إذ أنها تعرف أنها لا تستطيع التشبث إلى ما لا نهاية في الوضع الراهن. إن أوروبا تتقدم وتتعزز كل يوم. ويجري اتخاذ قرارات جديدة والمبادرات تتكرر. والجميع يتمنون أن تلتزم المملكة المتحدة أكثر ببناء أوروبا الدفاعية وأوروبا النقدية وأوروبا السياسية كي يأخذ كل طرف مكانه.

إن التاريخ الذي يربط بين الولايات المتحدة وأوروبا هو تاريخ حميم ولقد عرف الأزمات والتوترات وأشكالا من عدم الفهم. لكنه يرتكز على أساس متين يتمثل في الدفاع عن الحرية واحترام الديمقراطية. هل ينبغي تعداد الظروف التاريخية التي قاربت بيننا؟ وهل ينبغي التذكير بالتبدل العميق الذي طرأ على الحلف الأطلسي والرامي إلى ديمومة هذا التحالف؟ إن مشروعنا للتحالف بين ضفتي الأطلسي يقوم على رؤية متوازنة للعلاقات بين الدول. ينبغي على أوروبا والولايات المتحدة التعاون كشركاء متكافئين. والخطاب الذي ألقاه الرئيس كندي في فيلادلفيا لا يزال يحتفظ بكل راهنيته. فأوروبا ليست بالنسبة للولايات المتحدة شريكا كالآخرين بل عليها أن تبقى حليفا متميزا صلبا ومتطلبا وقادرا على دعمها وكذلك على انتقادها.

نحن نعرف أنّ أوروبا ضعيفة ولا تمتلك قناعة أو مشروعا إستراتيجيا، وليست قوية عسكريا وليس لها وزن اقتصادي ولا تثير

سوى عدم الاهتمام لدى أبناء عمومتنا فيما وراء الأطلسي. فإذا كنا نريد شراكة ندّية فإنه ينبغي امتلاك سبل بنائها وإنجاحها. وهناك أيضا مطلب حيوي هو أن ننظر بجدية إلى التهديدات المعاصرة ودراستها معا وتحديد إجابات منسقة عليها وأن نردّ على تحديات الصحة العامة في زمننا ونعالج مشاكل التوازن والتنمية؛ هذه هي المهمات التي ينبغي على أوروبا أن تتكفل بها إذا أرادت أن تعطي للرابطة عبر الأطلسية الحيوية الضرورية. إننا لن نكون شركاء متكافئين إلا بقوة الطموح الأوروبي.

أما بالنسبة للولايات المتحدة فعليها متابعة الطريق المرسوم قبل خمسين سنة في علاقاتها مع أوروبا والقائم على أساس احترام ما تفرضه تعددية الأطراف والاستماع والحوار.

البوتقة الأوروبية

كرّس توسيع أوروبا في الأول من شهر مايو ٢٠٠٤ نهاية حقبة كانت قارتنا تبحث فيها عن نفسها. لقد انتهت حينئذ فترة بدأت بعد عام ١٩٤٥. ولا تزال هناك آثار حية لذلك الشرخ الغريب، الذي فرّق بين ليلة وضحاها، بين أسر وشعوب ومجتمعات كاملة. لكن أوروبا ظلت تنبض وتتنفس تحت وطأة الحرب الباردة. وعلينا أن لا ننسى أنه بفضل الجهود التي شرع بها جان مونيه وروبير شومان[١٣٨] استطاعت

قارتنا أن تجتاز تلك الفترة دون أن تفقد هويتها وتطلعها للوحدة. ولنتذكر شجاعة المعارضين التشيك والهنغاريين والبولنديين الذين بمقاومتهم، أحيوا الروح الأوروبية بأحسن ما فيها. هذه الأمثلة ماثلة أمامنا كي تساعدنا للتغلب على الشكوك والتردد بكل أشكاله.

أوروبا هي ثمرة مشتركة لليوتوبيا وللحس العملي-البراغماتي. وعند نهاية الحرب العالمية الثانية كان ينبغي إعادة تعمير القارة المدمرة. لكن كان لدى المهزومين والمنتصرين - ربما دون أن يعوا ذلك تماما - الحدس العميق بعدم توقيع معاهدة سلام. ذلك أن معاهدات السلام التي تم توقيعها بعد الحروب السابقة، ابتداء من الأقرب زمنيا أي معاهدات فرساي وسان جرمان وتريانون، كانت قد حملت دائما في أعماقها بذور الحروب التالية، نتيجة لأن رغبة الثأر هي التي كانت قد أملتها دون أدنى اعتبار للمهزومين. وبغياب أية معاهدة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية بقي المجال الأوروبي حرا ومستعدا لتجربة أخرى.

على هذه الصفحة الناصعة المكرسة للسلام، رسم الأوروبيون خطة جديدة ترى أن رص الصفوف بين الدول المنخرطة في عملية دائمة للتفاوض والتحكيم سيجعل من الحرب أمرا خارج التصور. لقد بحثت أوروبا عن يوتوبيا السلام الدائم عبر اختراع ثوابت وتبنيها؛ مع

تصويب الحركة أثناء السير دون أي مشروع كبير أو البحث عن مصير عظيم، هذا باستثناء الاتفاق على عدم تجديد رعب التاريخ.

لاشيء يثير الدهشة عندئذ في أن يكون الاقتصاد، باعتباره ميدان البراغماتية المختار، هو المجال المتميز لتجريب تلك الطريقة. إن التقدم الباهر للبناء الأوروبي منذ الثمانينات هو نتيجة لحافز مزدوج. فمن جهة هناك الشركات التي ترغب في إقامة سوق واسعة لها تعادل سوق الولايات المتحدة الأمريكية؛ ومن جهة ثانية هناك التكنوقراط الذين رأوا في أوروبا وسيلة لاستعادة جزء من السلطة الضائعة من قبل الدولة-الأمة ولفرضٍ فوقيٍ لإصلاحات صعبة لكن ضرورية على ديمقراطيات وطنية مكبوحة غالبا. ضمن هذه الظروف، بدا الاتحاد الأوروبي بالنسبة للبعض كمجرد تحالف ظرفي، لا مبدأ له ولا قوة اندفاع، ومآله بالتالي هو أن يقع تحت سيطرة الإدارة في بروكسل والشركات الكبرى التي تشكل مجموعات ضغط- لوبي- قوية. إن مثل هذا التحليل يطمس، ما هو أساسي، ذلك أن أوروبا ليست مجرد تحالف قوي محكوم بمصالح، وحتى لو أنه يوحي بذلك أحيانا.

إن أوروبا مشروع ثوري لكن الشك يعتريه اليوم. وهذا ما يثير قلق الكثير من الأوروبيين بل من رجال السياسة الذين هم أكثر اقتناعاً. فكم من الوقت ستصمد أوروبا التي فقدت الروح التي أنعشتها دائما؟

وإلى أين يمكن أن تنحرف قارة أضاعت وفاءها لقوة دفعها الأولية؟ إن همود حماس المواطنين الذين لم تعد الانتخابات الأوروبية تثير اهتمامهم يبيّن خيبة الآمال التي كانوا يعقدونها على أوروبا المتطلّعة نحو المستقبل. للخروج من هذا الأخدود ينبغي بكل وضوح توفر إرادة سياسية ذات قدرة كبيرة للتكيف مثل تلك التي برهنت أوروبا على امتلاكها في بداياتها. إنه رهان محفوف بالخطر في الواقع، ولاسيما أن التلاحم يشكل تحديا حقيقيا للحتمية الجيوسياسية بعد قرون من التصدعات والمعارضات. لكن أوروبا تجد قوة نهوضها من جديد في إرادتها وضع حد نهائي لمآسي الماضي. هذه الإرادة عليها أن تدفعها اليوم في دروب جديدة تستصلحها من أجل الشعوب الأخرى، وتساهم بذلك في اختراع سبل العالم الجديد.

إن إرادة الجماعة، بتوفيقها بين التنوع والوحدة، تلتقي مع المعنى العميق للبناء الأوروبي؛ أي القدرة على فتح حوار بين الهوية والكونية وتوحيد دول ذات سيادة في مجموع يتجاوزها، وعلى رؤية الاختلافات لكي تجعل منها خميرة للوحدة. هذا الرهان هو أيضا رهان العالم بحثا عن السلام في محيط من الانقسامات التي يمكن أن تؤدي إلى الحرب. وتأمين التنمية والازدهار الاقتصادي، وإعطاء السياسة من جديد هوامش للمناورة هناك حيث فقدت الدول -الأمم الديمقراطية جزءاً من سلطاتها بسبب تضاؤل أهمية الحدود وتدويل الاقتصادات

والمجتمعات. إن الاتحاد يشكل، بالنسبة لأوروبا، الأفق الجديد واحترام الاختلافات هو الأساس والقانون ، هو الاسمنت والحوار، هو المحرك. إن الأوروبيين بمتابعتهم حلم غروتيوس[١٣٩] أو كانط، وبوفائهم لإرثهم ذي النزعة الإنسانية إنما يقترحون على العالم نموذجا يبشر بالخير والأمل.

هذا التطلع موجود في صلب المشروع الأوروبي. وكان جان مونيه قد أكد قوله. "إن قيام أوروبا فيدرالية لا بد منه للأمن والسلام في العالم. وطالما أن أوروبا ستبقى مجزأة فإنها ستبقى ضعيفة ومصدرا مستمرا للنزاعات". لقد ارتفعت تدريجيا إلى مصاف مسؤولياتها. وهي تحمل فكرة حكومة عالمية في ميادين الاقتصاد أو البيئة بنفس الوقت الذي تحمل فيه فكرة الأمن الجماعي والتعاون بين الدول. إن أوروبا، وبأفضل الصيغ ملاءمة، تخوض المعركة كي تصبح في الطليعة.

إن أوروبا بحاجة مستمرة لتجاوز نفسها ولكي تجد في مثال أعلى القوة التي تخرجها من تعقيد مهمتها. إنها بحاجة لمنظور ولرؤية. وعبر وعي دورها العالمي وللنموذج الذي تمثله في أفق إقامة نظام دولي جديد ستعرف كيف تجد هذا النموذج وذاك الدور. ثم إن رفع تحدي التوسيع الأوروبي يقدم اليوم إمكانية إحياء الإيمان بأوروبا

والحماس لها. والدستور الأوروبي الجديد الذي كان تصميم فاليري جيسكار ديستان وراء إعداده يزيد الأمل بوجود "نزعة وطنية دستورية" كما تصورها الفيلسوف الألماني جورجن هابرماس.

لكن أوروبا، وأبعد من كونها نموذجا، تقدم وعيا للعالم... وهو ليس، كما يصفه البعض أحيانا، مجرد وعي يرضي الذات، مغرور ومتعجرف، وإنما بالأحرى هو وعي نقدي ينتابه الشك ويبحث دائما عن التجدد. إن أوروبا قد اكتشفت في تاريخها القريب سحر الاختلافات الخلاّقة وفضائل المواجهة بين الثقافات وحس الحوار. لكنها لم تنس أن تاريخها كان حافلا أيضا بالفتوحات وبأشكال الاضطهاد مما يترك في قلوبنا جرحا لا التئام له. لقد ورّثنا العالم إدراك الزمن ومعنى التاريخ ومفهوم التقدم؛ كما نفخنا فيه أيضا شيطان التباهي بالذات الذي خرّب الأرض؛ ذلك الشعور بالسيطرة وتلك الرغبة الشيطانية التي جعلت من الشعوب مجرد عبيد ودمرت الثقافات وكبحت الانفتاح على الآخر.

عقدة الذنب هذه تحملها أوروبا وحدها، إذ إن الإحساس بالخطأ يرشدها إلى الطرق التي ينبغي عليها أن تسلكها اليوم. ويفرض عليها متطلب الاحترام والتسامح والتواضع. وبما أن أوروبا قد اقترفت ما لا يمكن إصلاحه فإنها حريصة اليوم على اقتسام أفضل ميراثها مع

الآخرين. إنها تريد منحه للعالم بعيدا عن التنطح للسيطرة عليه أو لفرض أسلوبها في الانفتاح أو إيديولوجيتها أو دينها أو ثقافتها.

التحدي أمام أوروبا اليوم هو أن تكون وفية لقيمها، وأن تطبق على نفسها أكبر درجة ممكنة من الصرامة دون السماح بأية هوادة، تحت حجة أن الآخرين يمنحون لأنفسهم مثل هذه الحريات. وحسب الصيغة التي قال بها فاكلاف هافل عليها "أن تحمل بخشوع ودون تبجح صليب هذا العالم، على غرار ذلك الذي تؤمن به منذ ألفي عام والذي باسمه اقترفت أيضا الكثير من الشرور". بهذا الصدد ستكون أوروبا على مستوى تراثها ذي النزعة الإنسانية. وتستطيع أن تقدم للعالم أفضل ما لديها.

لكن التحدي هو أيضا تحدي الجسارة. فتسيير سوق كبير أو صياغة سياسات تبعا لهذا القطاع أو ذاك لا يمكن أن يشكّل أفقها الوحيد. وعلى أوروبا، كي تؤكد ذاتها، أن تحافظ على العقل الرائد الذي يجمع كل أولئك الذين يبحثون عنها من أجل المزيد من التقدم ومن أجل التجديد وخدمة مواطنينا بشكل أفضل في جميع ميادين الحياة اليومية حيث ينتظرونها، أي أوروبا الترفيه والجامعات والبحث؛ أوروبا الأمن والعدالة في مواجهة عمليات التهريب الكبرى والهجرة غير النظامية والإرهاب؛ أوروبا الاجتماعية والضرائبية وحقوق

الإنسـان والتعـاون. أوروبا التـي كـانت فـرنسـا وألمانيـا قـد دلّتـا على طريقها بثبـات وتصميم مع ديغول واديناور؛ وفـاليري جيسكار ديستان وهلموت كول؛ واليـوم جـاك شـيـراك وجيـرهـارد شـرودر. إن روح هذه العلاقة تزداد حيوية كل يوم. وإنني أتذكر ذلك العشاء بقصر الاليزيه في صيف عـام ٢٠٠٢. كان كل شيء يبدو متعطلا: التوسيع والسيـاسة الزراعيـة وترشيح تركيا ومشـروع المؤسسـات. لكن فـجـأة قـال الرئيس شيراك للمستشار شرودر: "جيرهارد، لقد تبنّت فرنسـا خيارها قبل فترة طويلة. إنه خيـار أوروبا، وهـذا الخيار صنعناه مـعـا. ولا يمكننا أن نكتفـي، كل منا، بالمفـاوضـات أو بـالوصـول إلى اتفـاق يتم الـوصـول إليـه انتزاعـا. فـالاتفـاق الجيد بالنسبة لبلدينا، هو الاتفـاق الـذي يقطع كل منا نصف الطريق باتجـاهـه من أجل خـدمـة أوروبا". لقـد عـادت هذه الكلمـات إلـى ذهنـي أثنـاء العنـاق الطويل بين الرجلين يوم الاحـتـفـال بالقـرب من مـدينـة "كون" الفـرنسية بمناسـبـة الذكرى الستين لإنزال القوات الأمـريكيـة في النورماندي. لقـد ترسّخ مصيـرنا المشتـرك في ذلك العناق.

المصير الفرنسي

أين فـرنسـا من هذا كله؟ ومـاذا عن شـعـاراتهـا في الحـرية والإخـاء والمساواة؟ ألم تغير مبادئنا مضمونها وشكلها - قلبها وجلدهـا- اللذين

غيّرا من طبيعتهما من جراء خيبات الأمل وأشكال الخوف والشبهات؟ إننا نتردد بين الانكفاء والاندفاع، وسط دوامة من القلق والأمل. وبلادنا ليست بمنأى عن التغيرات والتحولات، بل على عكس ذلك. إنها تعيش في عمق أعماقها الانتقال إلى عصر جديد. كما تعيش دوخة الحداثة. وهي التي كانت قد حيكت دائما من المؤثرات التي تقع عليها من الخارج والروابط التي تنشأ على حدودها والتدفقات البشرية التي تجتاحها.

إن فرنسا منفتحة وعلى مفترق عدة ثقافات؛ وهي تحس بعمق ارتجاجات العالم. وحيال التيارات الطليعية لثقافة أمريكا الشمالية أو هبّات الكبرياء والتضامن في أمريكا الجنوبية، جرى كل شيء وكأن المحيط الأطلسي ينكمش دون توقف كي يضعنا في مواجهة مباشرة مع الثورات الكبرى في العالم الجديد. ولم تبد بلدان الشرق أقرب لنا مما هي بعد توسيع أوروبا. وهذه الحواضر الكبيرة كبراغ وبودابست ووارسو التي تحمل سمات جمة من الثقافة الأوروبية بهرتنا بحماستها وحيويتها، كما قسرتنا على أن نعبئ طاقاتنا وإمكانياتنا. إن جزءاً من العالم كان محجوبا وراء الستار الحديدي ثم حجبته الحرب في البلقان، غدا جارا متميزا لأوروبا. إن كرواتيا ورومانيا وبلغاريا قد طالبت، مثل تركيا، بحقها في الانضمام إلى الأسرة الأوروبية، واكتشفنا، فيما هو أبعد، الأمم الكبرى المجهولة تقريبا والتي تمثلها

بيلوروسيا وأوكرانيا وجيورجيا وملدافيا. إن فرنسا حافظت على روابط تاريخية وثقافية عميقة مع هذه البلدان، وبنت معها هيكلية قارة أكثر استقرارا وأكثر عطاءً. أخيرا، يمكن نسج صداقة متينة مع روسيا على مستوى علاقاتنا السابقة وعلى أساس الجراح التي فرضها التاريخ علينا.

على جبهة الجنوب تشكل بلادنا ممرا نحو المغرب وجنوب القارة الكبير. إنها تستقبل، بفضل مواطنيها من أبناء الهجرة، ثقافة جديدة غنية وحية وتتفتح أمام موهبة وطاقة جيل جديد مبدع وطموح. كما تصلنا من إفريقيا أصداء لغتنا وتاريخنا وثقافتنا إلى جانب تلاحم بين هويات يدرج في طور الإعداد. إن أغلبية المهاجرين القادمين إلى فرنسا بحثا عن حياة أفضل هم من أبناء الجنوب الكبير. ومسألة الهجرة، وإن كانت تشكل رهانا اجتماعيا وثقافيا وإنسانيا معقدا، تدفعنا نحو إعادة التفكير بميثاق المواطنة عندنا وبأسس الهوية الجمهورية وبمشروعنا للمجتمع. وفيما هو أبعد من هذه التيارات والتدفقات التي تتعرض لها بلادنا عبر حدودها المباشرة، فإنها تهتز على إيقاع آسيا التي يمكن الإحساس بوجودها وبطاقتها وحيويتها في أحياء باريس، كما في المناطق الأخرى.

إنها بلاد مفتوحة، فرنسا هذه التي شاع الاعتقاد غالبا عنها بأنها تريد أن تعيش في معقل معزول، كملاذ أخير لفن الحياة الرغيدة،

وكقلعة شامخة وحصينة في حضن الماضي والحنين. لكنها أيضا بلاد قلقة حيال تقلبات العالم وفي مواجهة التهديدات الجديدة وأزمة الحداثة. إن فرنسا وفي إطار أوروبا التي يعاد تشكلها، تتردد في احتلال المكان الذي يعود لها. لكن أوروبا موجودة مع ذلك في صميم الهوية الفرنسية ومشروعها الجماعي. وبفضلها استطعنا أن نعيش الساعات الأكثر إشراقا في تاريخنا الحديث. فمن خلالها عقدت فرنسا الصلة من جديد مع قدرة الحلم والازدهار. وبفضل أوروبا تنشر فرنسا إشعاعها في بلدان متعطشة للثقافة وللنزعة الكونية. وبفضلها أيضا وسعت شركاتنا من أسواقها وزادت من استثماراتها وأشادت مجاميع صناعية كبرى تثبت كفاءتها يوما بعد يوم. وبواسطتها عمّقنا فهمنا للمجتمعات المجاورة.

إن المخاوف التي أحاطت بمستقبل أوروبا، التقت مع المخاوف الحديثة الأوضاع للإيقاع الجامح للعولمة. وإذا كانت بلادنا تستفيد كثيرا من الأوضاع الجديدة، فإنه يعتريها أيضا الإحساس المرير بأنها تضيع كل يوم بعض السيطرة على مصيرها لصالح الشركات متعددة الجنسيات والشبكات. ثم إن الجمعيات الفرنسية أخذت موقعا هاما داخل حركة مناوأة العولمة. لكن ما يشوشنا خاصة هو تقليص هوامش المناورة السياسية بسبب العولمة ومفهوم الزمن الجديد المتأتي منها. فكيف يمكن التكيف مع سيولة اللحظة الآنية الجديدة في بلاد يقوم

مفهوم الزمن فيها على الثخانة والكثافة؟ وكيف يمكن التأقلم مع النمطية الأحادية بينما قمنا دائما بتمجيد تراثنا في التنوع؟

إن توترات المجتمع الفرنسي تكشف مدى اتساع القضية وعمقها. فهذا المجتمع الذي عرف تصدعات عديدة عليه أن يكون متنبها حيال أية ضغينة أو حذر أو سوء فهم. الانعزال يترصد ونزعة الانتماء إلى طائفة أو مجموعة تظهر في بلاد تأسست على مفهوم مختلف للمواطنة. إنها مواطنة يتفوق فيها الانتماء المشترك إلى نفس الأمة على جميع التوصيفات الفردية، لكن دون نفيها. علينا أن لا ننسى درس روسو القائل بأن بلادنا مكونة من أفراد يقبلون أن يتشاركوا مع غيرهم بنصيب من إرثهم ومن ثقافتهم من أجل صياغة كيان متفرّد ووحيد. إن الفرد قوي في فرنسا إلى درجة قبوله بالتخلي عن جزء من قوته؛ ومتعقل لاسيما وأنه يضع عقله في خدمة الصالح العام والجمهورية. إن هذا المثال هو اليوم على محك الاختبار، وإرادتنا بالعيش المشترك موضع تساؤل. فكيف يمكن في هذه الظروف، ضمان ميثاقنا الوطني؟

هذه التساؤلات تترجم إحساسا بعدم الرضى وبفقدان الصبر لدى الفرنسيين. وهذا دون شك لأن فرنسا بلد يتمسك بالمبادئ. أو لأن تاريخا غنيا وفريدا ولّد لدينا القناعة بأنه ليس لنا مصير آخر سوى المجد أو السقوط. إن العقل المطلق ينعش ساعات المجد كما ينعش

ساعات أكثر قتامة يتم فيها نفي القيم وخيانة الأمانات. وفرنسا المسكونة بفكرة عظمتها تبدو وكأنها مشلولة بسبب الخوف من انحطاطها. ومن كل الأرجاء تتردد نفس اللازمة لأمة مضعضعة كنجم خافت يلقي أشعته الأخيرة على مسرح نهاية العالم.

لكن الإحساس بالانحطاط هو إدانة للجمود. فباعتزاز وشموخ يتم انتظار ساعة الكارثة. واليوم أيضا لا يقوم المتنبئون بذلك بأي جهد للشروع بالتغيير الضروري وبالتحول الذي لا بد منه كي تستطيع بلادنا المحافظة على مكانتها خلال العقود القادمة. ومن العبث البحث، خلف الشكوى والمناحات، عن فكرة جديدة أو عن أمل بالتغيير عندما يتم التنديد بما يشكل خصوصية بلد وعظمته أي وفائه لجذوره وإصراره على شق طريقة المتفرّد وعدائه لفرض، نماذج - موديلات- قادمة من الخارج.

مع ذلك في مثل هذا المطلب يكمن الطريق. فقد بين لنا التاريخ أن فرنسا نفسها ليست سوى اندفاعة وراء مثال أعلى. وعبر هذا الماضي الذي تبجله توصلت بلادنا إلى إدراك عميق لتفرّدها. إنها تجد نفسها في العمل تلبية لنداء واجبها الخاص في جوقة الأمم. وبالنسبة لبلادنا، هذا المرجل الذي تختمر بداخله الأهواء وتتفاعل الضغائن وتضطرم الانقسامات، يبقى العدو الأكبر هو السأم. ولفترة طويلة غرف التعطش للمطلق من ينابيع إغراء القوة. لقد واجهت بلادنا في

بحثها امتحانات الحرب ونهاية الاستعمار. ومثلها الأعلى الجديد منحها قدرة تجاوز هذه الذاكرة المزدوجة. الذاكرة الأولى التي تنفي وجود الآخر عبر إرادة تدميره والثانية تنفي وجوده أيضا عبر صياغته على صورتها. لكن بالاعتماد على هذه الدروس توصلنا إلى التشبث بتطلعنا كي نكون صوتا جديدا خاصا ومتفردا، صوتا مسموعا ومقبولا عبر العالم.

هذا الطموح يمر اليوم عبر الدفاع عن فكرة ما، إذ كيف يمكن خدمة أوروبا والعالم بنفس الوقت الذي يؤمل فيه توحيد المصير المشترك والاعتراف بهوية كل طرف؟ الرهان كبير إذ يتعلق بالجمع بين الوحدة والتنوع على صعيد قارتنا وبتجميع الطاقات والمواهب الفرنسية للنجاح في إعداد مشروع أوروبي واحد. لكن الأمر لا يتعلق بمستقبل أوروبا وحدها، إذ على بلادنا الانخراط في بناء ديمقراطية عالمية حقيقية بكل الإرادة والعطاء والتصميم الذي برهنت عليه في المواعيد الكبرى للتاريخ.

ومع تحديدنا لأنفسنا مثل هذا الأفق الجديد علينا أن لا ننسى واجب الإخلاص. الإخلاص لبحثنا عن مثل أعلى ولتطلعنا الكوني وأيضا لإرثنا. إذ ليس هناك اليوم ما هو أسوأ من التنكر للتطلعات التي أرشدت مسيرتنا طيلة قرون. إن فرنسا، وعلى إيقاع نقاش متقد، عرفت كيف تصالح قيماً تتعارض فيما بينها وتتنافى كما يبدو في

بلدان أخرى. ولقد توصلت التوليفة الفرنسية إلى تعايش الحرية والتضامن والإخاء دون أن يؤدي التمسك بأحد هذه الطموحات إلى التخلي عن الأخرى. إنه إرث ثقيل معقد ومتطلب، ولاسيما أن كل واحد منها مهدد بالتداعي. فالتضامن تشوه بمقدار ما تقدمت النزعة الفردية والأنانية. وانحرفت المساواة نحو نزعة القول بمساواة البشر التي بدلا من أن تدفع أولئك الأكثر حاجة إلى الأمام، نهلت من آليات عبثية وغير منتجة. أخيرا الحرية لا يمكن فرضها بمرسوم وإنما هي ممارسة يومية.

إننا، وباستعادتنا النفحة الأولى لهذه الطموحات الثلاثة، سيكون بمقدورنا الإجابة على مشاكل اليوم. نعم ينبغي استعادة الحميّة الأولى للحرية إذا كنا لا نريد خنق القوى الحية والمواهب في بلادنا؛ كلا إننا لا نريد التخلي عن التضامن الذي يؤسس لتوازن المجتمع الذي نتمنى أن نعيش بكنفه. نعم ينبغي قول هذا وتأكيده بقوة أكبر من أي يوم مضى؛ إذ إن أطفال الجمهورية لهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات. من أجل هذا علينا العودة إلى روح الحرية، إلى تلك السنوات من القرن الثامن عشر التي أسست فيها فرنسا حلم جميع الشعوب؛ والعودة إلى تضامن أكثر طوعية وأفضل مشاركة، تضامن يقوم به مجتمع بأكمله وليس الدولة فقط؛ وأخيرا العودة إلى المعنى العميق للمساواة.

إن بناء فرنسا على مستوى هذا الإرث وهذا الطموح؛ هذه هي مهمتنا التي ترغمنا على إعادة تجميع قوى البلاد التي، بتفرقها، تشدنا نحو الأسفل. وعلينا أن نتجنب المنطق الجدلي -الديالكتيك- التبسيطي وأيضا تجنب المعضلات المزيفة مثل أوروبا أو الأمة، الدولة أو الفرد، الحزم أو الحوار. تحدينا هو النجاح في التوفيق والتوليف. وأمام تحولات المجتمع الفرنسي الذي يستقبل يوميا ثقافات جديدة ويدمج فيه وافدين جدد، تتعزز القناعة بأن البعد الكوني الذي تتطلع إليه بلادنا ينبغي أن يترسخ في مسألة الاعتراف بوجود الغير، الآخر. هنا أيضا لا يتعلق الأمر بالاختيار بين الانتماء إلى طائفة أو مجموعة وبين التمثل؛ ذلك أنه ينبغي على أمتنا التوصل إلى سبر كيمياء هذه الحساسيات.

ومن أجل تعزيز إرادة العيش المشترك والشعور بالوحدة، حان الوقت لتأكيد أساس أمتنا؛ أي الميثاق الجمهوري مع مبادئ المساواة في الحظوظ والتسامح وسلطة الدولة والعلمانية. وبدلا من نزع صدقية هذه المبادئ باسم تطور سريع جدا للمجتمع علينا أن نعطيها إمكانيات أن تتجسد من جديد وأن تطلق التفكير السليم وتعزز التلاحم الوطني. ينبغي على كل طرف تحمل المسؤولية، الدولة في المقدمة، ولكن المواطن أيضا.

وبعد العولمة الأولى التي سيطرت فيها إسبانيا أثناء عصر النهضة، والعولمة الثانية التي أطلقتها الثورة الصناعية وسيطرت عليها البلدان الانجلوساكسونية، ألا يمكن المراهنة على عولمة ثالثة، عولمة الهويات والثقافات والرموز التي تمنح الطموح الفرنسي اندفاعا جديدا؟ ذلك أن القيم التي تنعش طموحنا هي أيضا القيم التي يتطلع لها المجتمع الدولي، أي كونية حقوق الإنسان والإيمان بالإخاء والتضامن والأمل بتجميع جميع الاختلافات في ذات الإنسانية؛ وضرورة تصحيح انحرافات السوق بواسطة آليات الضبط والتنظيم. واليوم أمام التحديات الأوروبية والعالمية الكبرى من سيفهم تراجع بلادنا، للمرة الأولى، أمام العقبات وتخليها عن طموحها؟ فإذا كانت تريد أن ترمي بكل ثقلها من أجل متابعة مغامرة القارة، فإن أمام فرنسا عقداً من الزمن كي تنجز تحوّلها وتنجح في إجراء الإصلاحات الضرورية التي بغيرها لن تغدو "الأمة العظيمة" المتضامنة والأخوية سوى جمع من الأنانيات متآكل بسبب نزعات الانتماء الضيقة، وبلد متروك لعزلة عامة على عكس تاريخه وقيمه وتعلقه الشديد بالعالم. ويذكّرنا الكاتب البولندي غومبرويتش بقوله: "أن يكون الإنسان فرنسيا يعني بالتحديد أخذه بالاعتبار أمرا آخر غير فرنسا".

الخاتمــــة

سقوط جدار برلين وبرجان تأكلهما النيران في مانهاتن وفوضى قاتلة في بغداد؛ كم هو غريب هذا الموكب من الفرح والرعب. في مثل هذه اللحظات الضاغطة انحبكت عقدة تاريخ الزمن الذي نعيش فيه. لقد كشفت المسألة العراقية عن اضطرابات عالمنا وتناقضاته وتعقيده. لكن، وكما في الفن المسرحي، برزت السمات وتوضحت بجلاء ساطع الصروح والمنعطفات... وكما في الحكاية (على لسان الحيوانات) بدت أفعال الجميع وحركاتهم تميل لأن تكون أكثر بساطة ونقاء كي تصبح، غالبا، مقروءة بسهولة أكبر. فخلف الدول وفيما هو أبعد من الأفراد تتعش المبادئ وتتجسد. هذا وقد كنت غالبا ميّالا لاستخلاص العبر من هذه الأحداث.

إن الحديث عن عالمنا قد يستدعي اللجوء إلى قصص كتاب الحيوان: الذئب، والحمل، والأرنب، والسلحفاة، والأسد، أو الفأر. إنها حكايات قد لا تكفي كلها لإظهار تعقيد هذا العالم. ذلك أن من يعتقد بغدٍ أفضل عليه أن لا يرى في عالم اليوم غالبا ومغلوبا. وفي نهاية المطاف هناك تشبيه مجازي فرض نفسه علي وهو التحالف بين سمك

القرش وطائر النورس، بما فيه من وضوح وغموض بنفس الوقت. هذا التوليف يستدعي للذهن بالتأكيد التعارض بين الماء والهواء، بين ظلام أعماق البحار وضوء السماء. لكنه تعارض مبهم غامض النتيجة لأن المعنيين يتحركان في محيطين مختلفين. سمك القرش وطائر النورس لا يتحاربان، ومبارزتهما لن تنتهي إلى انتصار أحدهما على الآخر. سمك القرش يجسد القدرة والقوة ورفض أن يكبح تعقيد العالم مسيرته. إنه يمخر البحر وينقض على فريسته. أما طائر النورس فهو ثمل بزرقة البحار، يحوم حيث يحمله الريح بجناحيه المتموجين مطلقا بين الحين والآخر ضحكته المجلجلة. إنه يراقب، يعتلي ويقترب، ونادرا ما يكون الخط المستقيم هو المسار الذي يسلكه. إنه يصغي للعالم.

مع ذلك ربطت بين هذين الكائنين، أعراس غريبة راودت ذهن الشاعر رونيه شار والرسام ماتيس. إن هذا الكتاب يتحاشى إذن اليقينيات الضيقة كي يتوجه نحو السؤال بكل ما يحمله هذا من مجازفة للبشر وللطبيعة في بحثهما عن مصالحة. واللازمة التي تبغي كتابتها ليست من صنع يد واحدة وإنما تعود لقوة الاعتقاد الراسخ. إنها لازمة تجد كل يد مكانها فيها، تستصلح وتبدع.

●●●

لقد تحررنا من الكثير من الأحكام المسبقة، لكننا لا نزال نعاني من الشلل بسبب القلق والخوف. إن الإنسان المعاصر، بعد أن نسي المعارك

التي خاضها على مرّ القرون، يبدو حائرا أمام هذا الحاضر القاتم والسرمدي، الساحر والباعث لليأس بنفس الوقت. أليس العالم اليوم راضيا بعجزه المزعوم؟ إن هذا يعفيه من التساؤل حول غايات وجوده، ولاسيما أنه يعتقد أن سؤالا كهذا ليس له إجابة ممكنة. تستمرئ الطبقة السياسية غالبا جدا لعبة تناوب الأدوار حيث تبدي الأغلبية أسفها من عجزها بينما تتسم المعارضة بنقص المخيلة. أما بالنسبة للأفراد فإنهم يقايضون، دون صعوبات كبيرة بالنسبة لعدد منهم، الحرية براحة اللامسؤولية.

علينا أن لا ننسى تجربة اليونان القديمة، حيث الإنسان هو الذي كتب تاريخه بالرغم من وطأة القدر. هذا الدرس تركناه غالبا يسقط على قارعة شطئان الزمن. لكن صوت الغريق لا يزال يأتينا عبر العصور؛ إنه يهمس لنا قوته التي لا تعوّض، عندما يكتنفنا الصمت ونتفحّص الصفحات التي كتبتها القرون في محاولة لتجاوز أزمة ما. إنه يذكرنا بضرورة قبول وضعنا كبشر لا يعرفون إلى أين يمضون، ولعله يشد من عزيمتنا بذلك، شريطة أن يصمت الخوف والحقد والغضب فينا. لكنه خاصة يدعونا، بودٍّ وحزم في آن، إلى أن نتحمّل، برفعة وكرامةٍ مسؤولية شرطنا الإنساني.

إذا كان الإنسان الإغريقي يعرف أن مصيره مكتوب، فإنه لا يجهل أنه عليه وحده أن يلعب الدور الموكول له كيفما اتفق. أما إنقاذ

"الأشياء التي يرجع وجودها للبشر" ومن بينها قبل كل شيء "الأعمال الكبرى لليونانيين والبرابرة"، فإنما هي مهمة التاريخ كما عبر عنها هيرودوت وتيو سيديد، أي بالنسبة للمؤرخ كما أيضا بالنسبة للشاعر. وإذا كانت استمرارية الأشياء التي نصنعها من أدوات منزلية وأسلحة وصروح تعود إلى ماديتها، فإن الأفعال الإنسانية - الكلمات والحركات والمعارك- فإنها لا تستطيع تجاوز وجودها العابر إلا بوسيلة تدوينها. وقد قال هيرودوت إنّ "التخليد" هو ما يستهدفه التاريخ فعلاً وكتابةً. إن تعاستنا ستكون كبيرة جدا ومرتبتنا دنيا جدا إذا لم يجد هذا المثال الأعلى اليوم صدىً فينا. إن الحرية ربما لا تكمن في الغاية النهائية، وإنما هي في العظمة التي سيتم بها الاضطلاع بهذه الغاية، والشهادة على هذه العظمة هي التي تستحق الاحتفاظ بها في الذاكرة.

إن استقالة الإرادة، كما تعلمنا مما لاقيناه في حياتنا، تترك مجتمعاتنا هدفا لمختلف أشكال التزمت المتلهفة لاحتلال المجال الشاغر بفعل تخلّي السياسي عن دوره، وهدفاً أيضا للقوى النابذة التي تعمل على تفكيك هذه المجتمعات. ولذلك من الملح اليوم أن يعيد الإنسان والمجتمع اكتشاف معنى الحرية. إنها دعوة للوعي والنهوض.

إن روسو صاغ هذا النداء بجملة أخّاذة عندما قال: "تستمر الإرادة بالكلام عندما تصمت الطبيعة". ونحن الغربيون بنينا مفهومنا

للإنسان على الفكرة القائلة بأن "خاصية الإنسان هي أن الإرادة تتكلم". من الصعب الظن أن هذا المفهوم قد غدا لاغيا، ومن الصعب أيضا قبول موت الإنسان الذي أعلنه البعض، بعد إعلانهم موت السماء.

●●●

يبدو أن العالم الذي تعصف به الأعاصير يأبى أي دليل أو يد تسيّره في حين أن المنقذ ينبثق من الأزمة نفسها. فكيف لا نحلم بالإسكندر أو قيصر أو شارلكان أو واشنطن أو بوليفار أو غاندي أو أيضا بنابليون، البطل ذي الوجوه المتعددة، فمرة بعد مرة هو جنرال منتصر وقنصل مسالم وإمبراطور مشرّع، وهو أيضا بنفس الوقت ابن الثورة ومروّضها؟ إنه "روح العالم على حصان"، كما حيّاه هيغل، إذ جسّد صورة رجل العبور من قرن إلى آخر ومن النظام القديم إلى فرنسا الحديثة. هذا كله يعود لانتصاراته ولوعيه الحاد بأهمية الرأي العام آنذاك الذي كانت تلهب حماسته النشرات الصادرة عن الجيش النابليوني العظيم، والرأي العام في كل الأزمنة الذي تهزه الأحاديث عن مآثر البطل وعن تجلياته التي لا تحصى. إن الأسطورة تصبح حقيقة للخلف على شاكلة اللوحة الشهيرة التي تحمل عنوان "نابليون على جسر أركول" للبارون "غرو" الذي "يتصرّف" بالحقيقة خدمة

للبطولة الظافرة لـ"العريف الصغير" - كما يطلق على نابليون - في بدايات ملحمته الرائعة. إن اللوحة تعكس ثبات الجنرال وإيمانه بمهمته وبمصيره. كما تجسد صورة الرجل العظيم الذي يدفع التاريخ إلى الأمام؛ أما جسر "أركول" فإنه يمثل نقطة العبور من الماضي إلى المستقبل.

هل حقبتنا لا تزال بحاجة إلى منقذين أو إلى رجال يملكون طاقة فوق طاقة البشر؟ أليست بحاجة أكبر إلى رؤى وطرق ونماذج تشكل عوناً لوعي كل منا؟ إنها تبحث عن رجال يساعدونها على العبور إلى شطئان عصر جديد؛ وإلى مستصلحين كي تستطيع قراءة الآثار الدفينة في عمق الأعماق واكتشاف علامات جديدة؛ وإلى مرشدين متنورين قادرين على فهم جوهر العالم وعلى كشف فجر جديد له. إنها خاصة بحاجة إلى إرادة الجميع. إن نفاذ البصيرة والشجاعة، الحيلة والعفو، ستكون الصفات المطلوبة للخلاص من الهاوية وشق الطريق نحو مصير آخر. إننا، ومن أجل الخروج من المواجهة التي ترتسم في الأفق، والنجاة من إشكالات الحداثة وإيجاد ميثاق للخلاص، إننا بحاجة إلى أسطورة جديدة ولخطاب خصب ولحركة تولد الفأل السعيد.

إن حلمنا الكوني ذا النزعة الإنسانية لن يكون مفهوما إلا إذا رفضنا فكرة وجود غرب لا يهمه سوى تلبية رغباته مع استعداده

الدائم لتعيين كباش فداء. وعلى رسالتنا حول حقوق الإنسان أن تكون دائما في خدمة جميع الشعوب، وأن تدعم السلام في مواجهة الأزمات والعدالة في مواجهة المظالم وأن تكون إلى جانب المخاطرة الحقيقية للإنسانية أي مخاطرة المشاركة في المصير. علينا اليوم واجب التعاطف مع الآخرين والوصول إلى نتيجة. وعلينا معانقة الواقع بكل تنوعه وتعقيده. هذه هي مهمتنا، مهمة كل واحد منا في هذه الأزمنة الثورية. وأعراس سمك القرش وطائر النورس ليست شيئا آخر سوى عملية ترسيم أولية للافتتان الضروري بالعالم من جديد.

عندما كنا أطفالا حلمنا كلنا بالعيش في أزمنة أخرى: زمن الاكتشافات الكبرى أو زمن الفرسان أو زمن الثورة. وفي كل عصر، كان لا بد من إيجاد قوة النهوض ضد الحتمية. لقد اختلجنا كلنا عند ذكر المعارك للدفاع عن قيمنا في الحرية والعدالة؛ والمعارك ضد جميع الفاشيات وضد جميع الشموليات "التوتاليتاريات"-. فهل هناك فترة أكثر إثارة للعواطف والانفعالات وأكثر اضطرابا من الفترة التي نعيش فيها؟ الفترة التي يمكن فيها للإنسان تصوُّر أن يعود سيداً لمصيره ويختار حياته من جديد، وحيث تصبو جميع شعوب العالم إلى الاعتقاد بهذه اليوتوبيا التي أصبحت حقيقة: حقيقة الإخاء.

الهوامـش

١ - المطيرة : بناء كبير مخصص لتربية الطيور.

٢ - رينيه شار (١٩٠٧-١٩٨٨) هو شاعر فرنسي كبير ساهم في الحركة السوريالية في ثلاثينات القرن العشرين مع أندريه بريتون وبول إيلوار وأراغون وآخرين. ثم انفصل عنها بعد أن اكتشف طريقه الخاص إلى الإبداع الشعري الواضح الغامض. من أهم دواوينه وكتبه : **وحدهم يظلون** ١٩٤٥، **هيجانات ومجاهيل** ١٩٤٨، **البحث عن القاعدة والقمة** ١٩٥٥، الخ...

٣ - والده هو السيد كزافييه دو فيلبان عضو مجلس الشيوخ وأحد ممثلي فرنسا في الخارج لسنوات عديدة. ومعلوم أن الوزير دومينيك دو فيلبان ولد في الرباط بالمغرب عام ١٩٥٣ حيث كان والده يمثل فرنسا هناك .

٤ - إشارة إلى أطروحة المفكر الأمريكي فرانسيس فوكوياما التي ظهرت بعد سقوط الشيوعية والاتحاد السوفييتي والتي قالت بأن التاريخ وصل إلى مصبه أو نهايته بعد انتصار الديمقراطية الليبرالية على الشيوعية وأن الليبرالية ستعم العالم.

٥ - إشارة إلى الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت الذي بنى كل منهجه على الشك والتفحص النقدي قبل التوصل إلى اليقين والحقيقة. بهذا المعنى فالشك إيجابي وليس سلبياً أو هداماً. إنه يدفع البحث إلى المراجعة والتصحيح.

٦ - ايراسم (١٤٦٩-١٥٣٦) هو أمير عصر النهضة الأوروبية. وقد ولد في مدينة روتردام بهولندا وعاش في معظم البلدان الأوروبية وجسد روح النهضة والنزعة الإنسانية في شخصه وكتاباته. وانتقد طبقة الكهنة المسيحيين ودعا إلى إيمان عقلاني أو تفسير جديد للمسيحية. وقال إن ما يعتبره عامة الناس جنوناً هو في الواقع ذروة العقل والحكمة.

٧ - سيباستيان براندت (١٤٥٨-١٥٢١) هو شاعر ألزاسي ولد في مدينة ستراسبورغ واشتهر بكتابه **قارب المجانين** الذي يحذر فيه البشر من ارتكاب الخطايا والذنوب لكيلا يغرق القارب بهم، وكان متشائماً بمستقبل البشرية وخائفاً عليها.

٨ - يقصد المؤلف بذلك أنه إذا ازدادت الأمور عن حدها انقلبت إلى ضدها. والتقدم العلمي لم يعد يعرف كيف يتوقف عند حد. والآن أصبحوا يفكرون في استنساخ الإنسان في المختبر ! ولم يعد هناك أي رادع أو وازع أخلاقي يمنع العلم من ارتكاب حماقاته. وبالتالي فما كان خيراً للبشرية في البداية انقلب إلى شر في النهاية. وماء المعرفة العذب أصبح مرّ المذاق...

٩ - القديس غي : هو أحد القديسين المسيحيين الذين عاشوا في القرن الخامس الميلادي. وكانوا يعتقدون بأنه يحمي من الأمراض العقلية وبخاصة من مرض يدعى رقصة القديس غي. وهو عبارة عن مرض نفسي يجعل الإنسان يرتعش ويرقص دون وعي كالمجنون.

١٠ - غوتنبرغ : (١٤٠٠-١٤٦٨) هو العالم الألماني الذي اكتشف المطبعة في بداية عصر النهضة وقدم أكبر خدمة للبشرية في ذلك الوقت.

١١ - لورنز لوتو (١٤٨٠-١٥٥٦) Lorenzo Lotto هو رسام إيطالي عاش في عصر النهضة واشتهر بلوحته عن البشارة أو ولادة المسيح.

١٢ - مونتيني (١٥٣٣-١٥٩٢) Montaigne هو أحد كبار الكتاب الفرنسيين في عصر النهضة واشتهر بكتابه "المقالات". وقد تأثر به ديكارت، وإليه ينسب فن المقالة.

١٣ - رابليه (١٤٨٣-١٥٥٣) كاتب فرنسي ساخر. كان حراً في تفكيره إلى درجة أنهم اتهموه بالإلحاد.

١٤ - ليوناردو دوفنشي (١٤٥٢-١٥١٩) الفنان الشهير.

١٥ - دورير (١٤٧١-١٥٢٨) Dürer : هو رسام ونحات الماني شهير ويعتبر من كبار فناني عصر النهضة. وهو الألماني الوحيد الذي يمكن أن يقارن بكبار الفنانين الإيطاليين مثل ليوناردو دوفنشي وسواه.

١٦ - بيك الميراندولي : (١٤٦٣-١٤٩٤) Pic De La Mirandole هو أحد كبار فلاسفة عصر النهضة الذين كانوا معجبين بقدرات الإنسان وإمكانياته ومتفائلين بمستقبله. ولذلك أسسوا النزعة الإنسانية في عصر النهضة (هيومانيزم Hu-manisme).

١٧ - كريستوف كولومبوس (١٤٥١-١٥٠٦) : هو أشهر من نار على علم لأنه اكتشف العالم الجديد أو أمريكا بين عامي ١٤٩٢-١٤٩٦.

١٨ - (١٤٥٤-١٥٠٦) : بحار إيطالي ومكتشف معروف.

١٩ - (١٤٦٩-١٥٢٤) : بحار برتغالي ومكتشف مشهور. وقد اكتشف الطريق المؤدي إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٧.

٢٠ - وهذا ما عبر عنه المعرّي قديماً عندما قال :

وتزعم أنك جرم صغير   وفيك انطوى العالم الأكبر

فالإنسان يلخص الكون كله في شخصه. وبالتالي فالشاعر العربي، سبق مفكري عصر النهضة الأوروبية إلى هذه الفكرة.

٢١ - فرانسيسكو بيزارو ١٤٧٥-١٥٤١ Pizzaro : هو الفاتح الأسباني لأمريكا وبخاصة لمنطقة البيرو. وبعد محاولات استطاع إخضاع أمبراطورية "الأنكا" للهنود الحمر.

٢٢ - كورتيس (١٤٨٥-١٥٤٧) Cortès هو الفاتح الإسباني لمنطقة المكسيك. وقد غدر بالإمبراطور الأزتيكي على الرغم من أنه اعترف بسلطة أسبانيا والإمبراطور المسيحي والفاتحين الجدد لبلاده.

٢٣ - لاس كاساس (١٤٧٠-١٥٦٦) Las Casas هو رجل دين مسيحي وكاتب إسباني. كان كاهناً في كوبا قبل أن يصبح مطران المكسيك عام ١٥٤٣. وقد دافع كثيراً عن الهنود الحمر وتحدث عن معاناتهم وآلامهم بشكل رائع، حفز ملوك أوروبا على إصدار قوانين لحمايتهم من عسف البيض الأوروبيين.

٢٤ - لوثر (١٤٨٣-١٥٤٦) Luther : هو المصلح الألماني الشهير الذي أسس المذهب البروتستانتي بعد أن خرج على روما والفاتيكان.

٢٥ - كالفن (١٥٠٩-١٥٦٤) Calvin هو المصلح الديني الفرنسي الذي أسس الفرع الثاني في البروتستانتية بعد لوثر.

٢٦ - فيليب الثاني (١٥٢٧-١٥٩٨) هو ملك إسبانيا الشهير بقوته واستبداده.

٢٧ -مجزرة سانت بارتيليمي Saint Barthélemy حصلت بتاريخ ٢٤ أغسطس عام ١٥٧٢ حيث قامت الأغلبية الكاثوليكية بقتل آلاف البروتستانت ليلاً في العاصمة. ثم استمرت المجزرة لعدة أيام في بعض المحافظات والمدن الفرنسية الأخرى. ولا تزال ذكراها راسخة في الوعي الجماعي الفرنسي حتى الآن.

٢٨ - أغـريبـا دوبينيي (١٥٥٢-١٦٣٠) Agrippa D'Aubigné هو كـاتب فـرنسي مشهور وشاعر أيضاً. وقد نجا من مجزرة سانت بارتيليمي بالمصادفة.

٢٩ - البـابا بولس الثالث (١٤١٧-١٤٧١) كان عـدواً للنهـضـويين وفـلاسـفـة النزعـة الإنسانية.

٣٠ - لويس الرابع عشر (١٦٣٨-١٧١٥) Louis XIV هو أشهر ملوك فرنسا وأكثرهم مجداً وجبروتاً. وقد حكم البلاد أكثر من نصف قرن، وعهده بالتالي من أطول العهود إن لم يكن أطولها. وهو الذي بنى قصر فيرساي الشهير بروعته وجماله.

٣١ - يشير هنا المؤلف إلى عنوان كتاب شهير للمؤرخ بول هازار، الذي أصدر كتابه عن «**أزمة الوعي الأوروبي**» عام ١٩٣٥، ثم طبع الكتاب عدة طبعات بعدئذ. وهذه الأزمة التي أصابت الوعي المسيحي في أوروبا عام ١٦٨٠ هي التي أدت إلى انهيار الفكر القديم وانتصار الحداثة والتنوير على اللاهوت المسيحي الراسخ الجذور.

٣٢ - فونتينيل (١٦٥٧-١٧٥٧) Fontenelle : هو فيلسوف وشاعر فرنسي كان يدعو إلى اتباع منهج العلم والعقل ومحاربة الخرافات والعقلية القديمة. ولذلك يعتبرونه أحد الذين مهدوا الطريق لفلسفة التنوير والتقدم.

٣٣ - اسحاق نيوتن (١٦٤٢-١٧٢٧) Isaac Newton : هو مؤسس العلم الحديث بعد غاليليو وديكارت وكيبلر. واكتشافه لقانون الجاذبية لم يكن أقلَّ أهمية من اكتشاف انشتاين عام ١٩٠٥ لقانون النسبية. وتأثيره على الفلسفة الحديثة، وبخاصة فلسفة كانط، كبير جداً.

٣٤ - مونتسكيو (١٦٨٩-١٧٥٥) Montesquieu : هو مؤلف كتاب **روح القوانين** وصاحب نظرية الفصل بين السلطات الثلاث : أي السلطة التنفيذية، فالسلطة التشريعية، فالسلطة القضائية. كان أحد فلاسفة التنوير والعقلانية في فرنسا.

٣٥ جان جاك روسو (١٧١٢-١٧٧٢) Rousseau : واحد من أشهر فلاسفة التنوير وصاحب كتاب العقد الاجتماعي الذي كان له تأثير كبير على الثورة الفرنسية. كان كاتباً عظيماً ذا نزعة إنسانية لا تضاهى.

٣٦ - فولتير (١٦٩٤-١٧٧٨) Voltaire : فيلسوف التنوير بامتياز والعدو اللدود للحركات الأصولية المسيحية. كان له تأثير كبير على عصره والعصور اللاحقة.

٢٧ – ديدرو (١٧١٣-١٧٨٤) Diderot : هو فيلسوف العلم والعقل في عصر التنوير. كان مادياً صرفاً على عكس فولتير وروسو اللذين بقيا مؤمنين بالله.

٢٨ – دالامبير (١٧١٧-١٧٦٣) D'Alembert : أحد فلاسفة التنوير وصديق ديدرو وشريكه في تأليف **الموسوعة**. كان من كبار علماء الرياضيات في عصره.

٣٩ – عنوان الكتاب بالفرنسية هو كالتالي : – Voltaire : Essai sur les moeurs

٤٠ – كلتا الثورتين متولدتان عن عصر التنوير. وقد انطلقت الثورة الأمريكية عام ١٧٧٦، وأما الثورة الفرنسية فاندلعت عام ١٧٨٩. ومبادئ الثورتين مشتركة ومتشابهة. وأهم الثمار الناتجة عنهما إعلان حقوق الإنسان والمواطن لأول مرة.

٤١- ميسولونغي Missolonghi هي مدينة إغريقية اشتهرت بمقاومتها للأتراك بين عامي ١٨٢١-١٨٢٦.

٤٢- ريزورجيمنتو Risorgimento كلمة إيطالية تعني النهضة أو الانبعاث. وهي تدل على الحركة الأدبية والسياسية التي انتشرت بين عامي ١٨١٥-١٨٧٠ وأدت إلى توحيد البلاد.

٤٣ – معركة سيدان Sedan : مدينة سيدان موجودة شمال فرنسا. وفيها حصلت المعركة الشهيرة بين الجيش البروسي (الألماني) والجيش الفرنسي حيث مُني هذا الأخير بهزيمة ساحقة وكان ذلك عام ١٨٧٠.

٤٤ – إشارة إلى قصة الضابط اليهودي ألفريد درايفوس الذي اتهم بالخيانة العظمى والتجسس لصالح الألمان من قبل قيادة الجيش الفرنسي. وبعد أن حكموا عليه بعقوبات شاقة اكتشفوا براءته. وقد انقسمت فرنسا إلى قسمين آنذاك : قسم معه، وقسم ضده. وكادت أن تحصل حرب أهلية بسببه. وكان ذلك في نهاية القرن التاسع عشر.

٤٥ – المدرسة الرمزية في الفن التشكيلي والأدب والشعر انتشرت في نهاية القرن التاسع وبداية العشرين. من أشهر ممثليها في فن الرسم فان غوغ وغوغان، وفي الشعر مالارميه.

٤٦ – معاهدة بريان-كيلوغ Briand-Kellogg هي المعاهدة التي وقعها السياسي الفرنسي أريستيد بريان مع السياسي الأمريكي فرانك كيلّوغ في عام ١٩٢٩ ونالا عليها جائزة نوبل للسلام.

٤٧ - هي مدينة فرنسية حصلت فيها معركة فيردان الشهيرة أثناء الحرب العالمية الأولى حيث انتصر الألمان في البداية، ولكن الفرنسيين تمكنوا من صدهم وإيقاع الهزيمة بهم في النهاية. وهي أكبر معركة في تاريخ فرنسا.

٤٨ - مونتوار Montoire مدينة فرنسية صغيرة واقعة على نهر اللوار. وهناك التقى هتلر الماريشال بيتان عام ١٩٤٠ حيث استسلمت فرنسا لألمانيا.

٤٩ - أبولون : Apollon هو إله الجمال والنور والفنون عند الإغريق. وهو نقيض ديونيسوس.

٥٠ - ديونيسوس Dionysos : هو إله الخضرة وبالأخص الكرمة والخمرة عند الإغريق. ويدعى أيضاً باخوس. وقد ارتبط اسمه بالفاجعة والسكر والجنون ، على عكس أبولون.

٥١ - بروميثيوس Prométhée : هو الاسم الذي يطلقه الإغريق على ذلك الشخص الأسطوري الذي سرق النار من السماء وقدمها للإنسان. وبحسب ما تقول الأسطورة فقد عاقبته الآلهة عقاباً شديداً على ذلك. وهذا هو جزاء كل المبدعين والرواد الذين ينتهكون القوانين.

٥٢ - ماكس فيبر Max Weber (١٨٦٤-١٩٢٠) : عالم اجتماع ألماني شهير، أحد الثلاثة الكبار الذين أسسوا علم الاجتماع، أي ماركس، دوركهايم، ماكس فيبر. وقد درس الحداثة جيداً وتنبأ بمصيرها.

٥٣ - أدورنو Adorno (١٩٠٣-١٩٦٩) : أحد مؤسسي المدرسة الفلسفية الشهيرة باسم مدرسة فرانكفورت وذلك بالإضافة إلى زميله هوركهايمر. وقد نقد انحرافات الحداثة نقداً لاذعاً لأنها أدت إلى الفاشية والنازية.

٥٤ - هوركهايمر Horkheimer (١٨٩٥-١٩٧٣) : مؤلف كتاب "**جدلية العقل**" بالاشتراك مع أدورنو ، ومؤسس النظرية النقدية في علم الاجتماع.

٥٥ - مارتن هيدغر Heidegger (١٨٨٩-١٩٧٦) : من أشهر فلاسفة القرن العشرين إن لم يكن أشهرهم. مؤسس الفلسفة الوجودية التي تأثر بها سارتر. وقد نقد غزو التكنولوجيا لعالم الطبيعة والبراءة بشدة. من أشهر كتبه : **الوجود والزمان، ومدخل إلى الميتافيزيقا**، الخ...

٥٦ - بول سيزان Césanne (١٨٣٩-١٩٠٦) : رسام فرنسي مشهور ينتمي إلى المدرسة الانطباعية في الفن، إي المدرسة التي تصور الطبيعة ومناظرها الخلابة. كان يرسم لوحاته الخالدة في الهواء الطلق. من أشهر لوحاته تلك التي صور فيها جبل سانت-فكتوار الواقع في فرنسا.

٥٧ - تشارلز ديكنز Charles Dickens (١٨١٢-١٨٧٠) : هو الروائي الإنجليزي الشهير الذي أضحك وأبكى جيلاً بأسره. عاش في العصر الفيكتوري، عصر الصناعة والتكنولوجيا وهيمنة انجلترا على العالم. عبقري المدرسة الواقعية في الرواية الإنجليزية.

٥٨ - ماري شلي (١٧٩٧-١٨٥١) Mary Shelley : زوجة الشاعر الرومنتي الإنجليزي الشهير بيرسي شلي. وقد كتبت روايتها الفلسفية المليئة بالرعب عام ١٨١٨.

٥٩ - دوستويفسكي Dostoïevski (١٨٢١-١٨٨١) : كتب رواية المزدوج أو المثيل أو الشبيه في شبابه الأول Le double. وقد لقيت فشلاً ذريعاً على الرغم من أنها رواية عبقرية استبقت فرويد والتحليل النفسي. وفيها يصور موقف بطل القصة عندما وقع على شخص آخر يشبهه تماماً وكأنه نسخة عنه !

٦٠ - هوثورن (١٨٠٤-١٨٦٤) Nathaniel Hawthorne : كاتب أمريكي شهير.

٦١ - غابور Denis Gabor (١٩٠٠-١٩٧٩) : هو دنيز غابور عالم الفزياء الإنجليزي الشهير الذي حصل على جائزة نوبل عام ١٩٧١.

٦٢ - البرت انشتاين Albert Einstein (١٨٧٩-١٩٥٥) : أشهر من نار على علم. صاحب نظرة النسبية الشهيرة. أسهم في صناعة القنبلة الذرية وندم على ذلك وناضل طوال حياته من أجل منع انتشار الأسلحة الذرية.

٦٣ - هيرمان بروش Hermann Broch (١٨٨٦-١٩٥١) : كاتب نمساوي. كان كل عمله مجرد تأملات حول تطور المجتمع الألماني ومعنى العمل الأدبي.

٦٤ - داروين Charles Darwin (١٨٠٩-١٨٨٢) : هو تشارلز داروين مؤسس نظرية التطور الشهيرة في علم الأحياء وصاحب نظرية الاصطفاء الطبيعي التي تقول بأن البقاء في الطبيعة للأقوى وما على الضعيف إلا الانقراض.

٦٥ - ليسنكو (١٨٩٨-١٩٧٦) : هو دجال كبير ساهم في التفريق بين العلم البورجوازي والعلم الماركسي على طريقة الشيوعيين الأغبياء. ظل العالِم الرسمي للنظام السوفياتي حتى عام ١٩٥٥.

٦٦ - ولكن ينبغي أن نضيف إليها محرقة جديدة ناتجة عنها مباشرة : هي محرقة الشعب الفلسطيني المستمرة منذ خمسين عاماً وما تزال.

٦٧ - آدم سميث (١٧٢٣-١٧٩٠) : عالم اقتصاد بريطاني شهير.

٦٨ - زيوس Zeus : الإله الأعلى لدى لإغريق. وهو الذي يجعل النظام والعدل يسودان على الأرض بحسب عقيدتهم.

٦٩ - رافائيل : (١٤٨٣-١٥٢٠) : رسام إيطالي شهير.

٧٠ - باسكال : (١٦٢٣-١٦٦٢) : فيلسوف فرنسي معاصر لديكارت ومضاد له.

٧١ - إشارة إلى كتاب ديكارت الشهير بعنوان : **التأملات الميتافيزيقية**.

٧٢ - الباروك : أسلوب أدبي وفني ولد في إيطاليا وسيطر على أوروبا في القرن السابع عشر وحتى الثامن عشر.

٧٣ مصطلح الحكايات الكبرى يعود إلى الفيلسوف جان فرانسوا ليوتار صاحب نظرية ما بعد الحداثة في فرنسا. وقد قال إن الحكايات الكبرى التي سيطرت على الغرب في عصر الحداثة منذ القرن الثامن عشر قد تعبت ووصلت إلى نهاياتها بعد أن استنفدت طاقتها. والمقصود بها هنا : الإيديولوجيا الليبرالية، والماركسية والقومية أساساً.

٧٤ - توماس مور : (١٤٧٨-١٥٣٥) : أحد فلاسفة النهضة في إنجلترا. وصاحب كتاب **اليوتوبيا**.

٧٥ - بلانك : ١٨٥٨-١٩٤٧) : فيزيائي ألماني شهير، حائز على جائزة نوبل.

٧٦ - الدادائية : حركة أدبية وفنية مهدت للسريالية.

٧٧ - روبيرت موزيل : (١٨٨٠-١٩٤٢) كاتب نمساوي كبير.

٧٨ - مكيافيلي : (١٤٦٩-١٥٢٧)، مفكر سياسي إيطالي معروف.

٧٩ - ماغريت : (١٨٩٨-١٩٦٧) هو رينيه ماغريت، رسام بلجيكي ينتمي إلى المدرسة السريالية.

٨٠ - فوكنر : (١٨٩٧-١٩٦٢)، كاتب رواية أمريكي شهير.

٨١ - مينوتور Minotaure : كائن خرافي نصفه على هيئة رجل ونصفه الآخر على هيئة ثور. وقد خبأته زوجته في قصر تحت الأرض يدعى المتاهة. وهو خطِر على الإنسان.

٨٢ - تيزي Thésée : هو البطل اليوناني الذي دلُّوه على كيفية الخروج من المتاهة فذهب إلى مينوتور وقتله وخلَّص البشرية من شره. ولكن أين هو البطل الذي سينقذنا من متاهة العولمة وشرورها؟ من سيدلنا على الطريق الصحيح؟...

٨٣ الاريك Alaric : هو الاريك الأول، ملك الجرمان ما بين (٣٩٦-٤١٠). وقد استباح إيطاليا ونهب روما.

٨٤ - كلمة السأم أو الكآبة السوداء spleen من أشهر المصطلحات الشعرية لدى شارل بودلير.

٨٥ - رامبو (١٨٥٤-١٨٩١) : شاعر الحداثة الفرنسية وصاحب ديواني : **فصل في الجحيم**، **والإشراقات**. كان يكره أوروبا ويحب الشرق.

٨٦ - هرقل : بطل روماني شهير

٨٧ - تيودور روزفلت : (١٨٥٨-١٩١٩) : هو الرئيس السادس والعشرون للولايات المتحدة الأمريكية بين (١٩٠١-١٩٠٩).

٨٨ - فرانكلين روزفلت (١٨٨٢-١٩٤٥) : هو الرئيس الثاني والثلاثون للولايات المتحدة الأمريكية بين (١٩٣٣-١٩٤٥)

٨٩ - توسيديد Thucydides (٤٦٠ ق.م. - ٤٦٠ق.م.) : يعتبر أعظم مؤرخي اليونان على الإطلاق.

٩٠ - توماس مان : (١٨٧٥-١٩٥٥) : كاتب ألماني شهير، كان معارضاً للنازية.

٩١ - ليوبولد سيدار سنغور : (١٩٠٦-٢٠٠١) : رئيس السنغال الأسبق وشاعر كبير بالفرنسية.

٩٢ - سيزير : (١٩١٣- ؟) : أحد شعراء الجزر الفرنسية.

٩٣ - فوكوياما : صاحب الأطروحة الشهيرة عن نهاية التاريخ.

٩٤ - صموئيل هنتنغتون : صاحب نظرية صراع الحضارات وبخاصة بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، وكذلك بين الحضارة الصينية الكونفوشيوسية والحضارة الغربية. وقد سبق كتابه حصول ضربة ١١ سبتمبر.

٩٥ - توينبي : (١٨٨٩-١٩٧٥) : مؤرخ بريطاني شهير. صاحب كتاب ضخم بعنوان : **دراسة التاريخ**. كان يعتقد بأن الأقلية المبدعة هي التي تصنع الحضارات، وأن الحضارة تموت عندما تخف الطاقة الإبداعية الخلاقة.

٩٦ - قصر الحمراء : هو قصر الحمراء الشهير في غرناطة، محاط بالحدائق الغناء، وقد بناه بنو الأحمر. وهو من روائع الحضارة العربية-الإسلامية في الأندلس.

٩٧ - بورخيس Borges (١٨٩٩-١٩٨٦) : كاتب أرجنتيني شهير.

٩٨ - روميلوس : هو المؤسس الأسطوري لروما عام ٧٥٣ قبل الميلاد.

٩٩ - هادريان : هو إمبراطور روماني (١١٧-١٣٨) بعد الميلاد.

١٠٠ - أوفيد : هو الشاعر الروماني الشهير (٤٣ قبل الميلاد - ١٨ بعد الميلاد).

١٠١ - أوغست : إمبراطور روماني كبير (٦٧ قبل الميلاد - ١٤ بعد الميلاد)

١٠٢ - كانغ هي (١٦٥٤-١٧٢٢) Kang-Hi : إمبراطور الصين طيلة ستين سنة.

١٠٣ - البوكسريون : هم أعضاء جمعية سرية حاولت عام ١٩٠٠ طرد الأجانب من الصين وإجبار المتنصّرين الصينيين بتأثير البعثات التبشيرية الأوروبية على العودة إلى تراثهم الوطني الكونفوشيوسي.

١٠٤ - أرنولد شبنغلر (١٨٨٠-١٩٣٦) : هو فيلسوف ومؤرخ ألماني. صاحب كتاب "**أفول الغرب**" وكان يقارن الحضارات بالكائنات الحية.

١٠٥ - شيومبيتر : عالم اقتصاد نمساوي (١٨٨٣-١٩٥٠).

١٠٦ - هوبز (١٥٨٨-١٦٧٩) Hobbes : كان يقول إن الإنسان ذئب بالنسبة لأخيه الإنسان.

١٠٧ - كانط (١٧٢٤-١٨٠٤) Kant : أعظم فلاسفة القرون الحديثة. خطط للسلام الدائم بين الأمم.

١٠٨ - ريشيليو : (١٥٨٥ - ١٦٤٢) Richelieu . كن وزيراً للملك لويس الثالث عشر وأحد كبار رجال السياسة الفرنسيين في القرن السابع عشر . كما أنه اشتهر بتأسيسه للأكاديمية الفرنسية .

١٠٩ - ترافلغار : منطقة في جنوب إسبانيا

١١٠ - شوازول : (١٧١٩-١٧٨٥) : أحد وزراء لويس الخامس عشر الكبار.

١١١ - النسر ، هو لقب نابليون عند الفرنسيين.

١١٢ - معركة لودي Lodi : هي مدينة في إيطاليا. وفيها انتصر نابليون على النمساويين عام ١٧٩٦.

١١٣ - فولني : (١٧٥٧-١٨٢٠) Volney: مستشرق وفيلسوف فرنسي. صاحب كتاب : **رحلة إلى مصر وسوريا** (١٧٨٧).

١١٤ - بوسويه Bossuet (١٦٢٧-١٧٠٤) : كان خطيباً مصقعاً وواعظاً كبيراً. ولكنه كان متعصباً للمذهب الكاثوليكي ضد المذهب البروتستانتي داخل المسيحية. وكان يخشى أن تؤدي فلسفة ديكارت إلى القضاء على الدين.

١١٥ - حافظ الشيرازي : هو شاعر فارسي كبير (١٣٢٠-١٣٨٩). كان شاعراً غنائياً عفيفاً في وصفه لمشاهد الحب. جمعت أشعاره في ديوان حافظ.

١١٦ - الجامي : هو نور الدين عبد الرحمن الجامي. (١٤١٤-١٤٩٢). من الشعراء البارزين في العرفان في إيران.

١١٧ - فيكتور سيغالين (١٨٧٨-١٩١٩) : كاتب فرنسي

١١٨ - منديلستام Mandelstam (١٨٩١-١٩٣٨) : شاعر روسي كبير.

١١٩ - كيرواك Jack Kerouac (١٩٢٢-١٩٦٩) : روائي أمريكي من أصل فرنسي، مجد التشرد والتصوف والتيه.

١٢٠ - أرستيد بريان Arstide Briand (١٨٦٢ - ١٩٣٢) ، رجل سياسة فرنسي سابق تولى رئاسة الوزارة .

١٢١ أسماء لمواقع خاضت فرنسا فيها معارك كبيرة

١٢٢ شهدت الانتصار العسكري الأول بعد الثورة الفرنسية

١٢٣ المعركة التي انتصر فيها الجيش الإمبراطوري الفرنسي

١٢٤ غوليات ودافيد رمزان للقوة والضعف في التراث التوراتي

١٢٥ مايفلاور Mayflower هو اسم السفينة التي نقلت أول المسيحيين إلى أمريكا

١٢٦ نسبة إلى بروميثيوس الذي يرمز إلى الحضارة البشرية الأولى

١٢٧ بول فاليري، Paul Valéry شاعر فرنسي (١٨٧١-١٩٤٥)

١٢٨ ارنست رينان Ernest Renan فيلسوف فرنسي (١٨٢٣-١٨٩٢)

١٢٩ هضبة بالقرب من القدس

١٣٠ الفريد دريفوس Alfred Dreyfus: ضابط فرنسي يهودي تم اتهامه بالتعامل مع العدو ثم برئت ساحته وأعيد اعتباره

١٣١ معاهدة ويستفالي: Westphalie هي التي وضعت عام ١٦٤٨ نهاية لحرب الثلاثين سنة في إوروبا

١٣٢ ارنست بلوخ: Ernest Bloch فيلسوف ألماني (١٨٨٠-١٩٧٧)

١٣٣ هنري دينان Henri Dunant فيلسوف سويسري (١٨٢٨-١٩١٠)

١٣٤ رونيه كاسان René Cassin رجل قانون فرنسي (١٨٨٧-١٩٧٨)

١٣٥ الكالفيني، من جان كالفن Jean Calvin مصلح ورجل دين وكاتب فرنسي (١٥٠٩-١٥٦٤)

١٣٦ السلتيون Les Celtes هم شعب من الشعوب التي سكنت فرنسا قديما

١٣٧ لافاييت Lafayette جنرال فرنسي ساهم في حرب استقلال أمريكا

١٣٨ جان مونيه Jean Monnet وروبير شومان Robert Schuman من الآباء المؤسسين لمسيرة التوحيد الأوروبي

١٣٩ غروتيوس Grotius رجل قانون ودبلوماسي هولندي (١٥٨٣-١٦٤٥)

رقم الايداع بدار الكتب القطرية
٢٩٨/ ٢٠٠٥م
الرقم الدولي (ردمك) : ٥ـ٥٦ـ٥٨ـ٩٩٩٢١

مطابع الدوحة الحديثة المحدودة
ص.ب: ١٤٥ ـ الدوحة ـ قطر ـ تليفون: ٤٨٠٣٤٠١